

موت أرني ميوكروث

رواية



تأليف : كارلوس فوينتس
ترجمة : أحمد حسان

المشروع القومي للترجمة

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

المشروع القومى للترجمة

كارلوس فوينتس

موت أرتيميو كروث

رواية

ترجمة

أحمد حسان

هذه ترجمة كاملة عن الإسبانية لرواية:

LA MUERTE DE ARTEMIO CRUZ
تأليف: CARLOS FUENTES

نشر:

FONDO DE CULTURA ECONÓMICA
OCTAVA reimpresión, 1978.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٥٥٩

تقديم

كارلوس فوينتس واحدٌ من أهم الأقطاب البارزين والمحركين النشطين لموجة التجديد السردى الأمريكى اللاتينى فى الستينات التى أطلق عليها اسم "الرواج" boom، والتى كان من بين فرسانها جارثيا ماركث، وبارجاس يوسا، وخوليو كورتاثار، وخوسيه دونوسو، وكثيرون غيرهم.

وهو من أغزر كتاب هذه الكوكبة إنتاجاً رغم أنه أقلهم حظاً من الترجمة إلى العربية. وقد أصبح عدد كبير من كتبه علامات بارزة فى مسيرة هذه الكتابة الجديدة.

كتب نحواً من عشرين رواية وعدداً من المجموعات القصصية أدرجها فى سجل أعطاه عنوان "عمر الزمن"، فى طموح ملحمى لإعادة الخلق الشعرية لمختلف مراحل الزمن المكسيكى واللاتينى. من بين رواياته "الإقليم الأشد شفافية" و"موت أرتيميو كروث" و"منطقة مقدسة" و"تغيير الجلد" و"أرضنا" و"الجرينجو العجوز" و"كريستوبال نوناتو" علاوة على رائعته القصيرة "أورا". ومن مجموعاته القصصية "الأيام المقنعة" و"نشيد العميان" و"شجرة البرتقال".

كتب النقد الأدبى وساهم فى التطوير للكتابة الجديدة، كما كتب الدراما وسيناريوهات عدد من الأفلام التجريبية بالإضافة إلى نشاطه الصحفى الضخم فى المكسيك والولايات المتحدة وأوروبا. نال العديد من الجوائز توجتها جائزة ثريانتس - نوبل الآداب المكتوبة بالإسبانية - عام ١٩٨٧.

ولد فوينتس عام ١٩٢٨، نفس عام ميلاد جارثيا ماركث. كان والده ديبلوماسياً. ولذا قضى شطراً من طفولته فى الأرجنتين

وتشيلي، وتعلم الإنجليزية في إحدى مدارس واشنطن، ودرس القانون في سانتياجو دي تشيلي وفي جنيف حيث نال درجة الدكتوراه. أكسبته فترات إقامته الطويلة خارج بلاده وجولاته التالية في عواصم العالم إتساع أفق نادر ومعرفة واسعة باللغات الأوروبية الحديثة وإنشغالاً يقارب الهوس بتاريخ المكسيك والقارة اللاتينية. أما ولعه بالسينما فبارز بحيث يجبر النقاد على البحث عن منابع المؤثرات التي تركت طابعها عليه ليس فقط لدى الكتاب السابقين عليه (بلزاك، كافكا، فوكتر، بورخس، أستورياس، رولفو، كارينتييه... بين عديدين غيرهم) بل كذلك لدى فناني السينما الكبار من أمثال بونيول وأورسون ويلز. وأعماله لا تقتصر الاستفادة من السينما بل هي سينمائية في بنيتها على نحو عميق كما يظهر بوضوح في الرواية الحالية.

وبمثابة تقديم للرواية الحالية التي حققت لمؤلفها شهرة عالمية فور صدورها، سأحاول إلقاء الضوء على الإطار الفكري الذي نتجت عنه الرواية وذلك بالتركيز على إيراد مقتطفات على لسان فوينتس ذاته.

يرى فوينتس أن كل ثقافة وأدب القارة اللاتينية قد مرّ بثلاث مراحل. هذه الحلقات الثلاث، هذه الدوائر الثلاث، المتماصة أحياناً، هي اليوتوبيا، والملحمة، والأسطورة. فقد تم اكتشاف القارة والتفكير فيها على أنها يوتوبيا. لكن هذه اليوتوبيا سرعان ما تم نفيها ودمّرتها الممارسة العملية للاكتشاف والاستعمار. وجه كورتيس ضربة قاصمة لتوماس مور وجعلت الضرورة التاريخية لليوتوبيا تندرج في الملحمة.

"وقد عشنا تحت علامة الملحمة طوال حياتنا تقريباً، كانت رواياتنا ملحمة وقتنا ملحمة. لكن في اللحظة التي تنضب فيها هذه الطاقة الملحمة، يبدو أنه لا يتبقى لنا سوى إمكانية أسطورية".

والمحمة تعنى أن يكون للقارة تاريخ مقدس، أى أن تحيا خارج التاريخ. بينما تتيح الأسطورة إمكانية إعادة التقاط ذلك الماضى، "الخروج من ذلك الماضى، الذى هو تاريخ خالص، تاريخ ليس ملكاً لأحد، كى ندخل فى الديالكتيك. الخروج من كتابة التاريخ (...). للدخول فى الديالكتيك، الذى هو صنع التاريخ وصنعه بالأساطير التى تمنحنا خيوط (...). كل ذلك الماضى الطوباوى والملحمى من أجل تحويله إلى شئ آخر. فمن طريق الأسطورة نعيد تفعيل الماضى".

طوال ذلك الماضى، كان الكاتب الأمريكى اللاتينى يعمل إنطلاقاً من امتياز مجموعة نخبة تقدمية قرأت، منذ زمن حروب الاستقلال، مونتسكيو وروسو، وأرادت نقل العالم المتحضر الذى تمثله الدساتير الفرنسية والأمريكية والبريطانية إلى القارة الهمجية. وحين تم فرض تراكم العالم الرأسمالى الأمريكى الشمالى فوق البنيات الإقطاعية وشبه الإقطاعية للقارة، فقد الكاتب موقعه ضمن النخبة وسقط فى غمرة البورجوازية الصغيرة. تحول إلى موضوع، لكل تناقضات، وكل استلابات، وكذلك كل أحداث ذلك المجتمع الاستهلاكى المتراكم فوق عالم القرن السادس عشر. تحول الكاتب من واعظ إلى كاتب حقيقى يشارك فى الخطيئة والذنب وينغمس فى وضع مشترك مع البشر الآخرين.

"وأعتقد أن الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة قد وُلدت، إلى حد كبير، من هذا الوضع الجديد للكاتب فى أمريكا اللاتينية ومن وعى جديد، بمعاصرتة، إذا عدنا دوماً إلى هذه الفكرة لأوكتابيو باث، وإلى وعى بأن الواقع ليس هو تلك الشائبة البسيطة، المانوية، التى

يقدمها لنا ثيرو أليجريا، وخورخي إيكاثا، ورومولو جاييجوس، بل إنه واقع ملتق إلى ما لا نهاية يوجد فيه مصير تراجيدى معين، لأننا ننتبه إلى أن العادلين والظالمين مذبذبون، ومن هنا ينشأ التوتر التراجيدى".
 "أعتقد، كذلك، أن المشكلة اليوم، هذه المشكلة التى تضى ثراء على الرواية الراهنة فى أمريكا اللاتينية، هى أننا نحيا فى بلدان مازال علينا فيها أن نقول كل شيء، لكن مازال يجب فيها إكتشاف كيف يقال هذا الكل شيء".
 المشهد هو نفسه؛ وما تغير هو القدرة التخيلية التى تضيؤه.

المشهد هو نفسه، لكنه، بعد كل هذا التاريخ الشديد الاضطراب، يثير الخوف "من كل القاع الكامن للبلد، من ذلك القاع التعبيري، العنيف، والباروكى الذى هو، أكرر، رابطتنا الحقيقية مع عالم أصبح عنيفاً، وتعبيرياً، وباروكياً وتناظراته حالياً هى البوب آرت والكامب؛ هم جونترجاس ونورمان ميلر، وأندى وار هول وسوزان سونتاج، وجوان بايز وبوب ديلان".

الواقع، خصوصاً الواقع الحضرى، فى المكسيك ينطوى، فى رأى فوينتس، على البوب، والكامب، والبيت Beat. ويتذكر أن بريتون سمي المكسيك باسم الأرض المختارة للسورالية، و"إذا كان مؤكداً أن السورالية هى دوماً هذا التوتر بين الرغبة والشئ المرغوب، فإن التوتر فى المكسيك أقوى بكثير، لأن الفجوة بين الرغبة وموضوعها ضخمة. إنها هاوية حقيقية: وكل إلتقاء للرغبة بالواقع فى المكسيك عليه أن يكون فوق - واقعى بالضرورة".

كما أن فى الواقع المكسيكى وجودية قبل التسمية. فالمكسيك هو بلد اللحظة الراهنة. فالغد غير محتمل تماماً، وخطر.

و"ثمة عالم كامل من الإدراكات المتجاوزة - للحواس مضى آرتو وميشوه وهكسلى بغية إكتشافها فى المكسيك".

وإضاءة هذا الواقع لا يمكن أن تكون بالتسجيل النصى الممل، ولا بالوصف الفوتوغرافى، ولا بالرسالة المنقولة بالصراخ.

فمع نهاية الملحمة ماتت الثنائيات التبسيطية السهلة: الحضارة ضد الهمجية؛ الإنسان فى مواجهة الطبيعة؛ الطيب فى مواجهة الشرير؛ الغنى فى مواجهة الفقير... إلخ. وأصبح الواقع ملتبساً وظئياً. لم يعد ما هو موجودٌ خارج الوعى، بل كذلك إنطباعه فى الوعى واللاوعى. أصبح وقائعاً منعكسة فى مرآة خيالات وأحلام وكوابيس وشكوك وهلاوس الكاتب. وأصبح الأمر المهم فى الروايات الجديدة هو ذلك الجوهر التخيلى. ذلك الخيال الخاص بالأدب. مما دفع النقاد للحديث عن "واقعية سحرية" بعد أن كان أليخو كاربنتييه قد تحدث عن "واقع عجائبي". والتسميتان كلتاهما لا تحيلان إلى عالم فوق - واقعى، مثل الصور السورالية، ولا إلى عالم خارج الواقع، مثل عالم الأدب الفانتازى، بل تشيران إلى البحث عن ما هو عجائبي فى الواقع اليومى وفى وعى الكاتب به.

ويرى الكاتب والناقد ماريو بنيديتى أن روايات فوينتس نموذجية فى أكثر من جانب لأنها قدّمت رواية اجتماعية بأفضل المعانى الأدبية للكلمة. "فقبل أن توجد بوصفها نقداً اجتماعياً، بوصفها نزعاً لأقنعة النفاق، توجد هذه الروايات بوصفها أدباً. وكلها ذات بنية قصصية وصلبة. ومثلما لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائى المعاصر (فى ذهنى چويس، وفوكرتر، ودوس باسوس)، ليس ثمة ذرة من القوضى

لا تعتمد على تنظيم ملليمترى".

يقول فوينتس: "فجأة" ننتبه إلى أن اللغة هي أحد العوامل الموضوعية للواقع وإلى أن الكاتب الذى يتحكم فى اللغة يصبح هو الإجابة الوحيدة الممكنة على النزاع اللفظى للسلطة. إنها الإمكانية الوحيدة لإعطاء الواقع معنى آخر، بإفترض أن الواقع فى أيامنا هو كلمة".

"إذ نشهد صراعاً محتتماً بين لغتين: لغة السلطة الكاذبة ولغة الفنان الأصيلة".

"والاستخدام الحقيقى للغة يُخضعنا لنزعة ثورية يومية، دائمة، تتمثل (...) فى وضع كل شيء موضع التساؤل، حالة بحالة ولحظة بلحظة؛ وهذه هي الطريقة الوحيدة للمشاركة فى التاريخ".

فَاللغة "إمّا أن تكون حرة أو لا تكون؛ والحرية بالنسبة لى هي الإبقاء على هامش الهرطقة، الإبقاء على الحد الأدنى من الانشقاق حتى لا تتفلق تماماً أبدأ أبواب الطموحات العينية للبشر العيينين". بالنسبة لى هناك حقيقة جوهرية: فى كل الروايات الجديدة لأمريكا اللاتينية ثمة، بداهة، بحث لغوى. ثمة رجوع إلى منابع اللغة. وإذا لم تكن هناك إرادة لغوية فى رواية من أمريكا اللاتينية، فهذه الرواية بالنسبة لى غير موجودة".

وعند جارشيا ماركث، وعند بارجاس يوسا، وعند دونوسو، وعند بيتشتى لينبيرو، هناك، بداهة، إرادة للعثور على لغة هي، فى نهاية المطاف، إجابة الكاتب على متطلبات فنه وكذلك على متطلبات مجتمعه. وأعتقد أن إمكانية المعاصرة تكمن هنا.

هذه الإجابة المزدوجة على متطلبات الفن ومتطلبات المجتمع تتضمن مركباً، نوعاً من الأخلاق اللعبية أو من تسييس اللعب مهماً بشكل استثنائى.

"... وبعبارة سوزان سونتاج، هناك توترٌ نمطى فى الثقافة والفن المعاصرين بين القطب الأخلاقى المُستمد من العبرانية، ومن الأنجيل، ومن ماركس وما شابه ذلك، وبين القطب اللبى لذى الجنسية المثلية، ولعناصر التزيين، ولرؤية الأشياء بوصفها ليست ما هى عليه، لنزع طبيعتها: أى إرادة الأسلوب. وعند بونيويل هناك مركبٌ عبقرى من اللعب ومن الجديدة، يكون المرء فيه جاداً وهو طائش، وطائشاً وهو جاد. جدلٌ أصيل من أجل قول أشياء تضىء واقعنا بطريقة رائعة"... "الرقعة فى العنف والبحث بإعتباره تحققاً للتعارضات المتناظرة، شذوذ البراءة". وهذا المركب ينطبق تماماً على الأعمال الروائية لفوينتس ذاته.

ضمن هذا الإطار يمكننا فهم طموح رواية "موت أرتيميو كروث" التى يصفها فوينتس بأنها "حوار مرايا" بين جوانب شخصية كروث المحتضر. إذ يقول فى حديث لإيمانويل كارياتو: "ثمة عنصر ثالث، هو الوعى الباطن، وهو نوعٌ من فيرجيل يقوده عبر الدوائر الاثنى عشرة لجحيمه، وهو الوجه الآخر لمرآته، النصف الآخر من أرتيميو كروث: هو الـ أنت الذى يتحدث بصيغة المستقبل. إنه الوعى الباطن الذى يتشبَّث بمستقبل لن يبلغ الـ أنا - العجوز المحتضر - درجة معرفته. والـ أنا العجوز هو الحاضر، بينما ينقذ الـ هو ماضى أرتيميو كروث. الأمر يتعلق بحوار مرايا بين الضمائر الثلاثة، بين الأزمنة الثلاثة التى تُشكِّل حياة هذه الشخصية الفظة والمستلبة. فى إحتضاره، يحاول أرتيميو، من خلال الذاكرة، إعادة الإستيلاء على أيامه الإثنى عشر الحاسمة، الأيام التى هى، فى الحقيقة، إثنى عشر خياراً"، ويضيف:

"فى الزمن الحاضر للرواية، فإن أرتيميو هو رجلٌ بلا حرية: فقد إستفدها بقوة إختياره. وعلى القارئ أن يحدّد إن كان هذا الاختيار حسناً أم سيئاً".

ويعلق بنيديتى قائلاً أن فوينتس يدير حوار المايا هذا ببراعةٍ تشير الإعجاب. فقليلةٌ هى الروايات التى قرأها وتتمتع ببناءٍ على هذه الدرجة من الصرامة والمخاطرة. "إن كروث مزيجٌ غريبٌ من الواقعية والفاكتازيا، من الذاكرة والاختلاق. وربما كانت واقعية فى درجة صوتية أعلى، كافية لإكتساب دافع غنائى، صوتٌ مثير للمشاعر أحياناً. وقرب نهاية الرواية، يُعدّد الوعى الباطن كل الأشياء التى كان يمكن أن يكونها أرتيميو كروث، لو كان بساطة قد إختار، فى كل خيار، طرقاً مختلفةً عن تلك التى إنتهجها فى الواقع. وكريشيدو التعداد مؤثّرٌ حقاً؛ والنتيجة الحتمية هى أن يراجع كلُّ قارئٍ قائمته الخاصة والمتواضعة وأن يصل، ربما، إلى نتيجة أنه هو أيضاً، بقوة إختياره، قد استنفد حريته.. (...) إنها رواية لا يعادلها فى إصرارها إلا قلةٌ من الروايات، وتصلُّ إلى حيث تريد الوصول؛ وهذا لا شك فيه".

بالطبع، يمكن الحديث طويلاً عن الرواية التى كُتبت عنها الكثير منذ ظهورها عام ١٩٦٢، لكن الصعوبة البارزة فيها بالنسبة للقارئ تظل هى بنيتها غير المألوفة، وترتيب أجزائها ومغزى هذا الترتيب. ولتفسير هذا الجانب الذى يمكن أن يريك القارئ أرفق فيما يلى جزءاً من مقال ممتاز للناقد نلسون أوسوريو يفسر فيه هذا الجانب من بنية الرواية.

جزء من مقال: أحد جوانب البنية هي "موت أرتميو كروث"

II

على المستوى الشكلي الخالص، وللهولة الأولى، ليست موت أرتميو كروث مقسمة على الطريقة التقليدية، إلى فصول، أو أجزاء أو حلقات. ولا تظهر إلا كسيفساء من ٢٨ شذرة متفاوتة الطول. ورغم ذلك، فإن قراءة أولى تكشف لنا أن البنية الشكلية والداخلية لهذه الشذرات تتيح ترتيبها في ١٢ جزءاً يضم كل واحد منها ثلاث شذرات، يُضاف إليها شذرتان أخيرتان، على سبيل المقطع الختامي أو الخاتمة. وتشكل هذه الأجزاء الإثني عشر فصلاً حقيقية ذات تنظيم شكلي متواز، يتكون كل واحد منها من ثلاثة مواضع تميز بالتحديد الثلاثي لـ الزمن (مضارع، ومستقبل، وماضي)، والفاعل (أنا، وأنت، وهو)، وحامل المنظور (الوعي، والوعي الباطن، والذاكرة). والشذرات التي تحتل المرتبة الأولى في كل واحد من هذه الأجزاء، والتي تُستهل جميعها بالضمير الشخصي أنا، تتقل حاضري وعي أرتميو كروث في إحضاره. وتمتزج فيها أصوات الحاضرين لديه، وأفكاره الخاصة، وتداعيات معينة متواترة، تعكس، عن طريق إزاحة سياقية متزايدة، تحلل هذا الوعي أمام تقدم الموت. والثانية، التي يتصدرها الضمير الشخصي أنت، تكشف صوتاً لا زمنياً يقوم، عن طريق التقاطه لبعض عناصر الوعي، برسم تخطيط في المستقبل، لإمكانية إنتقاء، إمكانية اختيار، مستمدة من لحظات محورية معينة وفاصلة في وجود الشخصية. وأخيراً، فإن الشذرات التي تأتي في المرتبة الثالثة، والتي

يتصدّرُها الضميرُ الشخصي هو، تستتقذ من الماضي، عن طريق
الذاكرة، ١٢ حلقة من حياة أرتميو كروث، ١٢ لحظة مثلك احتمالات
إختيار أخرى شكّلت عند حلها الكينونة النهائية لتلك الشخصية التي
تحتضّر الآن. وهذه الشذرات، التي تكون ثلثي الرواية، تحدّد التاريخ
الدقيق لليوم، والشهر، والسنة التي جرت فيها الأحداث التي ترويها.
وأخيراً، في المقطعين الختامين (٣٧ و ٣٨)، فإن أنا الوعي
والحاضر هما بالكاد شهقة حياة أخيرة تتحلّل في حلم المخدّر والموت،
وبعدها يتمكّن الوعي الباطن بشكل ضبابي من تسجيل اللحظة
الأخيرة للتحلل النهائي. ولا توجد هنا شذرة الماضي التي كانت ستكمل
التوازي من وجهة النظر الشكلية، لأن هذا التوازي يقيمه على نحو ما
العملُ برمته، ذلك اليوم الأخير لأرتميو كروث، الذي يغلّق الدوّرة
الكلية للميلاد والموت، الآن حيث "حياته ومصيره هما نفس الشيء".
(ص ٢٠٩).

ويمكّننا أن نرى بوضوح أكبر كل هذا النسق في شكل تخطيطي
بالغ البساطة:

أنا أنت هو

			١
			٢
			٣
ل	س	ل	٤
ف	س	ل	٥
ي	ق	ل	٦
	ب	ل	٧
	ز	ل	٨
		ر	٩
		هـ	١٠
			١١
			١٢
			*

ذاتك

وعى باطن

وعى

هذه اللوحة وما قلناه سلفاً يبين لنا أن الرواية في شكلها الأكثر خارجية تتمتع بتماسك بنية وظيفية وواعية. إن عمل هذا المؤلف - كما يشير بنيديتي - له "بنية قصدية وصلبة. ومثلما لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائي المعاصر (في ذهنى چويس، وفوكنر، ودوس باسوس)، ليس ثمة ذرة من الفوضى لا تعتمد على تنظيم ملليمترى" (٦) في كل لحظة من لحظات إحتضار أرتميو كروث، نجد أن كلمة، أو إحالة جرى تخطيطها بالكاد مرّات عديدة، أو تداعياً لا واعياً، يحفز أداء الوعي الباطن الذى يُخلّق بتلك الذكرى إلى بُعد متسام، ثم تستنقذه الذاكرة وترويه إنطلاقاً من الماضى. وهذه الحلقات الثلاث عشرة للماضى هى إثنى عشر يوماً و١٢ خياراً حدّد إستخدامها البعد الراهن والعينى لأرتميو كروث المحتضر الذى يواجه ذلك الماضى غير القابل للإستعادة إنطلاقاً من وجوده النهائى، من الـ "فى - ذاته" كما كان يمكن أن يقول سارتر، الواقف على عتبة الموت. لهذا كله، فإن الوعي الباطن، كما يشير المؤلف ذاته، هو "من قبيل فيرجيل الذى يقوده عبر الدوائر الإثنى عشرة لجحيمه" (٧). "فى الحاضر - يضيف فوينتس ذاته - فإن أرتميو كروث هو رجلٌ بلا حرية: فقد إستفدها بفعل إختياره".

كل واحدٍ من التتابعات الثلاثة التى أشرنا إليها هنا له إيقاعه السردى الخاص وصياغته اللغوية الخاصة، بما يتناسب وظيفياً مع مستوى الواقع الذى يسعى إلى إدراكه والتعبير عنه من المنظور الذى يتبناه. وكل موضع يكتسب على هذا النحو صياغة لفظية مختلفة، مناسبة لتشكيل المادة السردية التى تتفتح أمام القارىء.

لذا لا يمكن إلا أن تبدو غريبة ملاحظات بعض النقاد الذين يتحدثون عن لغة فوضوية ومشوشة، مشيرين بوجه خاص إلى الشذرات التى تناظر المنظورين الأول والثانى. وعلى النقيض، فإننا إذا

إنطلقنا من الشكل التنظيمي الكليّ ومن وظيفة كل شذرة داخله، نجد أن هذه اللغة مهما بدت غريبة إذا أخذناها بشكل منعزل، تتبدى داخل السياق مناسبةً ووظيفيةً تماماً. ليس ثمة، إذن مثل تلك "التقنية المتنوعة إلى درجة التعقيد المتشوّج"، كما يقول الناقد التشيليّ ألونى، ولا يمكن كذلك التأكيد على أن "الأشياء تحدث كما لو أن فيروساً قد تسلّل إلى الكيان العضوى للروائي وأحدث فيه نوبات لها شكل صرع من أشد الأنواع جذباً وكأنها محسوبة كى تثير الفزع، وتوحى للقراء بفكرة أن المؤلف قد أصابه الجنون" (٨). والشئ الوحيد الذى يمكن استخلاصه من تأكيدات من هذا القبيل هو نزاعٌ بين لغةٍ وظيفيةٍ وبين ناقدٍ يعلّق على أعمالٍ لا يقرؤها (٩). وفى دروبٍ مماثلةٍ يمضى أيضاً الناقد مانويل يدرو جونثالث، الذى يُضيف علاوةً على ذلك أن هذا كله ليس سوى "نتاج هجين... تهجين أو تطعيم تجتمع فيه نماذج جويس، ولورى، وفوكسر وتضفى عليه أصالة (١٠)".

III

رغم أننا توقفنا عند بعض الملاحظات الشديدة العمومية حول التنظيم الشكلى للسرد فى العمل، فإننا لا نعتزم، فى هذه المناسبة، عمل تحليل كامل له. ولا يهمنا إلا التوقف عند جانب واحد، يظهر عادةً إما عرضةً لتتركّز سىء وإما يتم تجنبه.

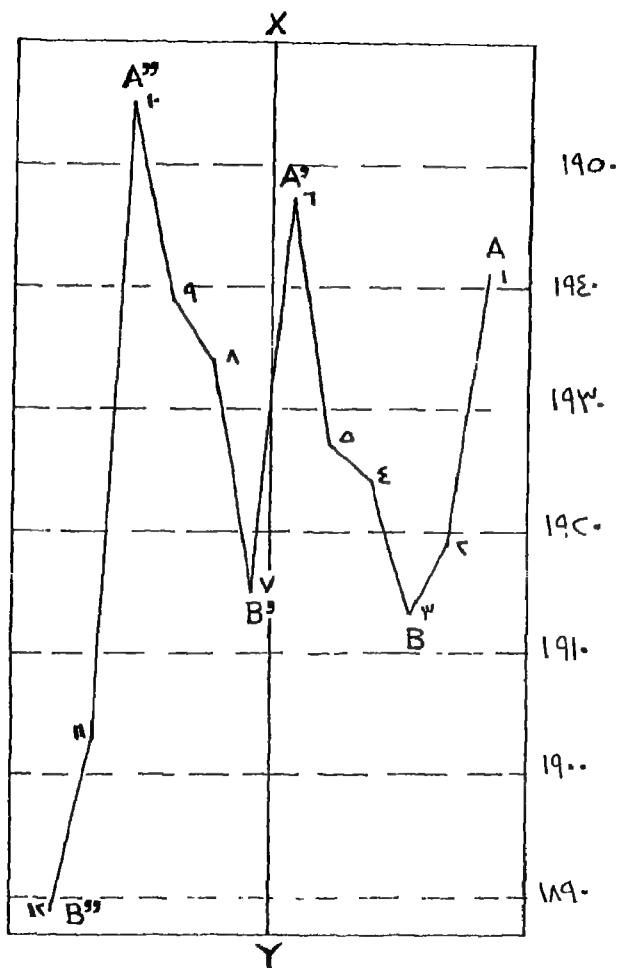
ويتعلق الأمر بالتوزيع الزمنى للإثنتى عشرة حلقة التى تشكل ماضى آرتميو كروث. وهذه الشذرات الإثنتى عشرة تمثل، كما قلنا، ثلثى الرواية (١١). وهى تتطور فى مساحة تواريخ تشمل منذ مولد الشخصية (٩ أبريل عام ١٨٨٩) وحتى إحتفال سان سيلفستري فى كويواكان (٢١ ديسمبر عام ١٩٥٥)، بعد ذلك بستة وستين عاماً. ورغم

ذلك، فإن العرض الزمني لهذه اللحظات فى الرواية لا يحكمه التتابع الزمني للأحداث:

- (١) ٩ يوليو عام ١٩٤١
- (٢) ٢٠ مايو عام ١٩١٩
- (٣) ٤ ديسمبر عام ١٩١٢
- (٤) ٣ يونيو عام ١٩٢٤
- (٥) ٢٣ نوفمبر عام ١٩٢٧
- (٦) ١١ سبتمبر عام ١٩٤٧
- (٧) ٢٢ أكتوبر عام ١٩١٥
- (٨) ١٢ أغسطس عام ١٩٣٤
- (٩) ٣ فبراير عام ١٩٣٩
- (١٠) ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٥
- (١١) ١٨ يناير عام ١٩٠٣
- (١٢) ٩ أبريل عام ١٨٨٩

للهولة الأولى، لن يبدو أن لهذا التوزيع أى منطق سوى ذلك المنبعث من التداعيات التى يُقيّمها الوعى الباطن، مرتبطةً باللحظة الراهنة للشخصية. هذا، على الأقل، هو رأى ماريو بنيديتى (١٢). أما مانويل يدرو جونثالث فإن "تصفحاً بسيطاً لهذا المخطط يكشف عن إصطناع وزيف المونتاج" (١٣). وهذا الرأى لا يدهشنا، لكن حتى بالنسبة لشخص مثل ثيودوميل جويك، الذى يتخذ موقفاً أكثر موضوعيةً بكثير، فإن هذا التوزيع يبدو له كذلك تعسفياً: "هذا السرد بالذات (المكتوب بضمير الفائى المضرد)، خاضع لتوزيع تعسفى ومضطرب" (١٤). وفى واحد من الأعمال الأكثر نفاذاً التى نعرفها على المستوى التفسيرى لهذا العمل، فإن الناقد التشيلى رينيه خارا، رغم أنه يضع مخططاً كاملاً بدرجة كبيرة لبنية الدوافع، لا يتوقف عند

مشكلة الدلالة المحتملة للتوزيع الزمني للحلقات.
إلا أننا نعتقد بإمكان إقتراح منظور يتيح فهم هذا التوزيع
باعتباره ذا دلالة وجزءاً متكاملًا ووظيفياً من البنية الكلية، متكاملًا
معها على نحو أعمق من مجرد الخضوع البسيط لدوافع تداعيات
الوعي الباطن.
ولتسهيل هذه البؤرة يمكننا أن نرتب، في رسم بياني، الإحداثيات
التي تمثلها الفصول التي ميّزناها والحلقات موضع البحث. وهذا ما
يتضح في اللوحة رقم ٢.



فى شكل بيانى كهذا، ينظم فى نسق الحلقات الإشتى عشرة،
 يمكننا أن نميز ثلاثة قطاعات. أولها (A, A', A'') يشير إلى اللحظات
 الأعلى فى المنزلة الاجتماعية لأرتيميو كروث؛ وثانيها (B, B', B'')،
 يشير إلى اللحظات الأشد حرجاً فى حياته؛ وأخيراً، منطقة وسطية
 (٢, ٤, ٥, ٨, ٩, ١١). وهذه القطاعات تناظر الشرائح التى تقيمها
 الشخصية ذاتها فى الحاضر فى علاقتها بالكبرياء: "إلى أسفل، من
 خرجت؛ أو إلى أعلى، حيث أنا: هنالك فقط، أقول لكما، يوجد كبرياء،
 وليس فى المنتصف، ليس فى الحسد، والرتابة، والطواير. (ص ١٢٠.
 التشديد لنا).

لكن اللحظات الأعلى إجتماعياً لأرتيميو كروث هى، فى الوقت
 نفسه، الأدنى على المقياس الأخلاقى: ففى أولها يبيع نفسه حرفياً
 بإعتباره رجلاً - واجهة. للأمريكيين الشماليين، المهتمين ببعض
 إمتيازات استغلال الكبريت؛ وفى الثانية، فإنه هو، بنقوده، من يشتري
 امرأة (ليليا)، لفترة إجازة أولاً، ثم - عند اكتشافه بغتة الإندفاع العنيف
 للشيخوخة - طوال الحياة؛ وفى الثالثة يظهر فى ضيعته فى كويواكان
 وهو يحتفل بعيد سان سيلفستري بجانب تلك المرأة ومحاطاً بأشخاص
 يقدمون الضراعة لنقوده وسلطته. كل شئ زائف ومصطنع، بدءاً من
 أسنانه وحتى الكلمات الطقسية التى يوجهها إليه المجتمع الراقى،
 بينما يطلقون عليه من وراء ظهره لقب "مومياء كويواكان". موكب
 أقنعة حقيقى، طقس هائل وعبثى ينظمه هو نفسه ويتلقاه كتكريم
 لوضعه الإجتماعى، وسلطته، ونقوده (١٦).

وإذا فحصنا هذه اللحظات لرأينا أنها تتميز بالغياب شبه الكامل
 للتردد من جانب أرتيميو كروث فى إختيار طريقه. ورغم ذلك، علينا
 ألاّ نخدع به. فرغم وعيه بأنه يختار الشر - وربما بسبب ذلك الوعى
 ذاته - فإنه يضى كبرياءً معيناً لا يخلو من الكلية على أفعاله. ويشعر

المرء بالميل إلى ربط موقفه بكلمات شخصية أخرى في إحدى روايات الثورة المكسيكية، وهى شخصية الوزير إجناتيو أجيرى، فى رواية ظل الرعيم، والذي عند تلقيه شيكاً من شركة أمريكية شمالية، يقاطع الوسيط الذى يحاول تمويه الطابع الحقيقى لهذه المكافأة: "بالنسبة لقياساتك المنطقية، فإنها لا يمكن أن تقنعنى؛ إنها تصلح للأشخاص لىنى العريكة والخائرى الهمة، وأنا، رغم أنى عديم الحياء، لا أحط من قدر نفسى إلى هذا الحد. أنا عديم الحياء، لكننى عديم الحياء أتميز بالشجاعة والإرادة" (١٧).

والحلقات المقابلة فى المقياس الاجتماعى، بالمقابل، هى تلك التى يجد نفسه فيها أقرب إلى أصالته، هى اللحظات التى تكون حياته ذاتها فيها فى خطر ويتم تبادلها رمزياً بحيوات أخرى، هى تلك التى ستحيط به فى فراش موته كأشباح. وفى أولها تظهر علاقته بريخيئا، حبه الأشد عمقاً وتقرباً، التى إغاثتها القوات الفيدرالية فى نفس اللحظات التى كان هو فيها يهرب من معركة ويترك جندياً جريحاً ينزف حتى ينقذ حياته هو. وفى الثانية يتم إعدام جونثالو برنال والهندي من قبيلة الياكى الذى سهل له قبلها بقليل محاولة هرب فاشلة، بينما يؤجل هو إعدامه عن طريق حيلة، مما يتيح له النجاة بوصول القوات الصديقة. وفى الثالثة يظهر مولد أرتميو. وفى نفس ذلك اليوم يتم طرد إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، أمه، من الضيعة حين ينهال عليها بالضرب أتاناسيو منشاك، والد أرتميو (ص ص ٢٨٦ و ٣٠٦)، الذى تغتاله فى نفس تلك الليلة قوات الحكومة (ص ٢٩٩).

هذه اللحظات الثلاث تعرض لنا شخصاً هو أرتميو كروث يحيا لأن آخرين قد ماتوا من أجله: "أنا نجوت. يا ريخيئا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخيئا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندي بلا إسم؟ جونثالو.

جونثالو برنال. هندی ياكى. ياكى بائس. نجوت. وأنتم مِتْم" (١٨). "نعم، أنا حى (...). لأننى تركت آخرين يموتون من أجلى. يمكننى أن أحدثك عن ماتوا لأننى غسلتُ يدى وهزرتُ كتفى" (ص ١١٤).
واللحظات الوسيطة هى، كما قلنا، تلك التى تحمل فى اللوحة أرقام ٢، ٤، ٥، ٨، ٩، ١١.

واللحظتان اللتان تناظران رقمى ٢ و ١١ تعان على أطراف هذا القطاع وتتحولان إلى لحظتين حاسمتين فى الحياة العامة للشخصية، لأنهما لحظتان إستهلاليتان فى مرحلتين من مراحل وجوده. فى الحلقة رقم ١١، يحيا، ومازال طفلاً، مع الخلاسى لونيرو فى ضيعة كوكويا، ابن سيفاح للإبن البكر المقتول، أتاناسيو منشاك، آخر ذرية عائلة فى حالة تدهور كامل. ومن هناك يجب أن يهرب ويبدأ حياته الحقيقية: "ستكون أنت ذلك الطفل الذى يخرج إلى الأرض، ليلاقى الأرض، يخرج من أصله، ليلاقى مصيره، اليوم حيث يساوى الموت بين الأصل والمصير ويفرس بين الإثنين، رغم كل شىء، نصل الحرية". (ص ٢٧٩). وفى الحلقة رقم ٢، بعد ذلك بستة عشر عاماً، يصل إلى منزل دون جمالييل برنال، فى پويلا، متخذاً الخطوة التى ستصل به إلى إمتلاك ضيعة هذا الأخير. باللحظة الأولى تستهل الحياة فى النضال والثورة، وباللحظة الثانية، الحياة فى الغنى والسلطة. ومن وجهة النظر الزمنية، تقع بين اللحظتين أعوام حياة الجندي لـ "الثورة" المكسيكية. وتتسع القيمة الرمزية لهاتين اللحظتين، فضلاً عن ذلك، عن طريق سلسلة من الظروف الأخرى. فضيعة كوكويا أسسها إيرينيو منشاك، جدُّ أرتميو، بعد أن "انضمَّ إلى حياة ومصير الجنرال أنطونيو لويث دى سانتا آنا وحصل بإرادته على الأراضى الخصبة بجوار النهر، وهى أراضٍ سوداء وشاسعة، ملاصقة للجبل

والبحر" (ص ٢٩٠). أما ضيعة دون جمالييل برنال، الذى يتزوج أرتميو بابنته كاتالينا، فقد تم الحصول عليها "هنالك حين عرض خوارث فى المزاد ممتلكات الإكليروس، وكان بمقدور أى تاجر لديه بعض المدخرات إمتلاك قطعة أرض شاسعة". وبينما يدمر حكم بورفيريو ويحطّم حياة وأمالك آل منشاكّا، تنمو فى ظله ضيعة برنال. وحين يتواجه الجيلان، يتم تحليل اللحظة على النحو التالى، من منظور العجوز دون جمالييل: "أرتميو كروث، هكذا يُدعى، إذن، العالم الجديد المتبعث من الحرب الأهلية؛ هكذا يُدعى من وصلوا ليحلوا محله. بلد تيس - قال العجوز لنفسه (...) بلدٌ تيس عليه فى كل جيل أن يُدمّر المالكين القدامى ويُحلّ محلهم سادة جددًا، جشعين وطموحين مثل سابقهم". (ص ٥٠).

وبوضعا توزيع الحلقات فى رسم ينانى يمكن لنا أن نبين فى صورة بصرية الطابع المحورى داخل البنية الكلية لهاتين اللحظتين، اللتين تظهران موضوعتين فى نقطتى تناظر يكاد يكون تماثلًا. والحلقات الأربع الأخرى الوسيطة التى يشكلها هذا القطاع هى بعض اللحظات ذات الأهمية الكبرى فى الخيارات التى تواجهها الشخصية؛ وتحدد، من جهة، صعوده الإجتماعى، ومن جهة أخرى، تحلله الأخلاقى المتزايد، المتسم بـ "سوء النية" الذى يحكم قراراته. والحلقة رقم ٤ بالغة الإيحاء. ففى نفس الوقت الذى يُظهر فيه قوته وقدرته على الانتصار فى الحياة العامة وعلى فرض نفسه على أعدائه فإنه يُظهر أيضاً، فى نعمة مضادة، جنبه الأخلاقى من مواجهة مخلصة مع كاتالينا ومع ذاته.

والحلقة الأخرى (رقم ٥) تضعه فى مواجهة قرار فى المجال السياسى. كان قد أصبح نائباً وعليه أن يختار بين البقاء فى معسكر، ومع، الزعيم الذى كان يتبعه حينذاك وبين الانتقال إلى الجماعة التى

تبدو أنها منتصرة: "تبادلا الأنخاب وقال البيدين أن هذا العالم ينقسم إلى ناكحين وحمقى وأن الوقت حان للإختيار. وقال أيضاً أنها ستكون خسارة أن لا يعرف النائب - هو - كيف يختار فى الوقت المناسب، (...) بينما من السهل جداً تغيير المرء لموقعه كأنه لا يرغب فى ذلك ليصبح فى الجانب الصحيح" (ص ١٢٩). ويقرر أرتميو كروث، مع بعض رفاق سلاحه القدامى، الذين هم الآن الجنرال خيمينث والمقدم جابيلان^(١٩) أن يصيروا "ناكحين" وليس "حمقى".

والحلقة التالية من هذه السلسلة تُبَيِّن لنا علاقته بـ لاورا، وهى امرأة كانت قادرة على منحه نفسها ومنحه كل ما لم يجده فى زوجته وفى علاقاته الغرامية الأخرى (باستثناء رخيها)، مقيمة على هذا النحو رابطة كان يمكن أن تفتح له أفقاً جديداً ومختلفاً. لابد له أن يختار بين ذلك الحب وبين المواضع التى يُقَيِّده بها وضعه الاجتماعى، والمظاهر. ومن جديد ينتصر خوفه وضعفه، وتبتعد عنه لاورا إلى الأبد.

والحلقة التى يموت فيها لورنثو، ابنه، فى إسبانيا وهو يدافع عن القضية الجمهورية (رقم ٩) مُتَضَمِّنٌ أيضاً بإعتباره جزءاً من ماضى أرتميو كروث. وتحمل علامة خاصة، لأنها موضوعة فى نهاية سُلَم من الاختيارات "بنية سيئة" أخذت تحدّد صعوده الاجتماعى وهبوطه الأخلاقى، ومباشرة - فى اللوحة وفى العمل - قبل اللحظة التى تبين تمجيده الاجتماعى: الحفلة التكرية لعيد سان سيلشستري فى كويواكان. وهى تمثل نوعاً من التأصيل بالنيابة لأرتميو. فهو الذى يحمل لورنثو إلى ضيعة كوكويا، مكان خروجه إلى العالم، ومن هناك يرحل الإبن ليقاتل فى إسبانيا، دفاعاً عن الجمهورية، حيث يموت. وهو يحمله إلى ذلك الموضع لأنه: "توَدُّ فقط أن تشرح له أنه فى السنوات المنصرمة، منذ أربعين سنة، إنكسر شئٌ هنا، كى يبدأ شئٌ

أو كى لا يبدأ أبداً شىء، أكثر جدّة." (ص ٢٢٧). ولذا فإنه لدى تذكّره لهذه الميثة يمكنه أن يقول فى الحاضر: "آى، شكراً، على أنك علمتني ما كان يمكن أن تكونه حياتي، / آى، شكراً لأنك عشتَ ذلك اليوم بدلاً مني" (ص ٢٤٤). وهذه الشخصية الرمزية للإمكانية الشاملة التى كان يمكن أن تكونها حياة أرتميو كروث، والتى نفتها الخيارات التى يحققها، تشيّف بإصرار: "رغبة لم أعبر عنها أبداً، هى التى أجبرتني على أن أقوده - آى، لا أدري، لا أنتبه -، نعم، على أن أجبره على العثور على طرف الخيط الذى قطعته أنا، على مواصلة حياتي، على إكمال مصيري الآخر، الجزء الثانى الذى لم أستطع أنا إكماله". (ص ٢٤٢).

والتماهى مع لورنثو لا يتحقق فحسب على المستوى الرمزي المعروف هنا، بل يتم التعبير عنه أيضاً من خلال العملية اللغوية. ففى كل تلك الحلقات نجد أن الضمير الشخصى للمفرد الغائب الذى يتصدرها يحدّد هوية أرتميو كروث. والحلقة التى يتم فيها حكي موت لورنثو تبدأ بنفس الطريقة: "هو من كان فوق السقيفة، وبين يديه بندقية، وتذكّر حين كان الإثنان يخرجان للصيد إلى البحيرة... إلخ". (ص ٢٢٨). والتشويش مُتعمّد ويقصد إلى أن يبعث فى ذهن القارئ طوال كل المقاطع الأولى صورة أرتميو كروث. وهذا نفسه هو ما يتيح بعدها التلميح إلى التوازي بين إثنين من أزواج الشخصيات: أرتميو - ريخينا، ولورنثو - دولورس: "لن تجبره على فعل ما لم تفعله أنت، على إنقاذ حياتك الضائعة: لن نسمح، هذه المرة، بأن تموت أنت فى دربٍ صخري وتجو هي". (ص ٢٤٤. التشديد لنا).

إن توزيع الحلقات، وفق تحليلنا، يتيح لنا أن نقيم بينها سلسلة من الإرتباطات الدلالية التى تثري بعمق معنى العمل وتوضّع وجود نسقٍ واعٍ يحكم توزيعها. ويتضح على هذا النحو أن هذا التوزيع ليس عشوائياً ولا مختلطاً، كما يمكن الظن لأول وهلة، بل إنه، كما يمكن أن

نستنتج من اللوحة ومن تحليلها، عضويّ، ووظيفيّ، ودالّ.
ومن الضروري أن نضيف أن تنظيم الحلقات في رسم بياني لا يسمح لنا فحسب برؤية بصرية لهذه السلسلة من الإرتباطات التي تتم إقامتها وتتضمن إلى أي حد يكون توزيع هذه الحلقات في العمل هو ما يتيح التسلسلات الدلالية التي ذكرناها، بل إنه يتيح أيضاً رؤية أن هذه الحلقات يتبدّى فيها نوعٌ من السيمترية الشكلية التي ليس من العدل أن نعزوها إلى مجرد الصدفة. وإذا رسمنا محوراً رأسياً يمر بمركز اللوحة (Y-X) لأمكننا أن ننتبه بوضوح أكبر لهذه السيمترية التي تنظّم التوزيعات الزمنية، حيث يقطع هذا المحور الخط ٦ - ٧ إلى جزئين ويُقيم نسقين متوازيين: نسق السلسلتين ٣ - ٤ - ٥ - ٦ و ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ ونسق السلسلتين ١ - ٢ - ٣ و ١٠ - ١١ - ١٢.

ويزوّدنا هذا كله ببرهان إضافي يدعم تأكيد بنيديتي المذكور آنفاً: لدى كارلوس فوينتس "مثلاً لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائي المعاصر (...) ليست ثمة ذرة من الفوضى لا تعتمد على تنظيم مليمترى".

جزء من مقال:

Un aspecto de la estructura de

"La muerte de Artemio Cruz".

por Nelson Osorio.

المراجع

- 1 - **Carlos Fuentes**: "Situación del escritor en América Latina" (entrevista de **Emir Rodríguez Monegal**). Mundo Nuevo, número 1, París, julio 1966.
- 2 - **Mario Benedetti**: Carlos Fuentes: del signo barroco al espejismo.
وقد إعتمدت عليهما بشكل رئيسي.
- 3 - **Nelson Osorio**: Un aspecto de la estructura de "La muerte de Artemio Cruz"
وأوردت جزءاً منه.
- 4 - **René Jara C.**: El mito y la nueva novela hispanoamericana. A propósito de "La muerte de Artemio Cruz".
- 5 - **Juan Loveluck**: Intención y forma en "La muerte de Artemio Cruz"
- 6 - **Carlos Fuentes**: Muerte y resurrección de la novela.

موت اُرتيميو كروث

إن تَبْصُرَ الموتِ هو تبصُرٌ للحرية.
موتاني، المقالات

أيها البشر الذين إلى الدنيا تخرجون
في مهدٍ من ثلج
ثم قبراً تدخلون،
إنظروا كيف تُؤدّون...
كالديرون، مسرح العالم الكبير

أنا وحدي، أعرف ما كان باستطاعتي أن أفعله...
لكنني بالنسبة للآخرين، لست أكثر من مجرد "ريما".
ستدال، الأحمر والأسود

... عنّي وعنه وعنّا نحن الثلاثة،
دائماً ثلاثة!...
جورجوسيتا، موت بلا نهاية

لا تساوي الحياة شيئاً : الحياة لا تساوي شيئاً.
أغنية شعبية مكسيكية

إلى
س. رايت ميللز^٢،
الصوت الحقيقي لأمريكا الشمالية،
الصديق والرفيق في نضال أمريكا اللاتينية.

^٢ عالم اجتماع أمريكي من اليسار الجديد. ساهم في حركات الشباب وفي الاحتجاج ضد حرب فيتنام وضد سياسة الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية. له كتاب بعنوان: "الماركسيون" تحدث فيه عن كاسترو وجيفارا - م.

أنا أستيقظ... يُوقظني ملمس ذلك الشيء البارد على عضوي. لم أكن أعرف أن من الممكن أحياناً أن يتبول المرء لا إرادياً. أظلم مُغمض العينين. أقرب الأصوات إلى لا أسمعها. هل سيمكنني سماعها لو فتحت عيني؟... لكن جفني ثقيلاً: قطعنا رصاص، قطع نجاس فوق اللسان ومطارق في الأذنين، وشيء... شيء كأنه فضة صدئة في النفس. كل هذا معدني. معدن مرة أخرى. أتبول دون أن أدري. وربما - أتذكر بفزع أنني كنت في غيبوبة - أكلت دون أن أدري خلال تلك الساعات. لأن النهار كان قد إنبلج بالكاد حين مدت يدي وألقيت التليفون - على غير إرادتي أيضاً - على الأرض وبقيت ممدداً على بطني على الفراش، وذراعي مُعلقتان: ودبيب في شرايين معصمي. الآن أستيقظ، لكنني لا أريد أن أفتح عيني. ورغم أنني لا أريد، فإن شيئاً يلعب بإصرار قرب وجهي. شيء يتوالد خلف جفني المغمضين في دفق من الأضواء السوداء والدوائر الزرقاء. أقلص عضلات وجهي، أفتح عيني اليمنى وأراها منعكسة في القشور الزجاجية لحقيبة يد نسائية. أنا هذا. أنا هذا. أنا هذا العجوز ذو التقاطيع الممزقة في المربعات الزجاجية غير المتساوية. أنا هذه العين. أنا هذه العين. أنا هذه العين التي تُجعدّها جذورُ حنق متراكم، قديم، منسي، وحاضر دوماً. أنا هذه العين الجاحظة والخُضراء بين الجفنين. الجفنان. الجفنان الزيتيان. أنا هذه الأنف. هذه الأنف. هذه الأنف. المهشمة. ذات المنخارين الواسعين. أنا هاتان الوجنتان. الوجنتان. حيث تثبت اللحية الشيباء. تثبت. التقطية. التقطية. التقطية. أنا هذه التقطية التي لا علاقة لها بالشيخوخة أو الألم. التقطية. بالأنياب التي سوّدها التبغ. التبغ. التبغ. تنفسي هوف هاهوف هاهوف ها يضرب قطع الزجاج وتسحب يد الحقيبة من على الطاولة الصغيرة. - أنظر، يا دكتور: إنه يتظاهر...

- سنينور كروث...

- حتى فى ساعة الموت يجب أن يخدعنا!

لا أريد أن أتكلّم. فمى ملئء بدراهم قديمة، بذلك الطعم. لكننى أفتح عينى قليلاً ومن بين رموشى أميّزُ المرأتين، والطبيب الذى يفوح برائحة المطهّرات: من يديه اللتين تتضحان عرقاً، واللّتين تتحسّسان الآن صدرى من تحت القميص، تتصاعد لفحة من الكحول الفاعم. أحاول سحب تلك اليد.

- صبراً، يا سنينور كروث، صبراً...

لا، لا لن أفتح شفتىّ: أو ذلك الخط المجعّد، دون شفّتين، فى إنعكاس الزجاج. سأبقى ذراعى مُمدّتين فوق الملاءات. الأغطية تكسونى حتى البطن. المعدة... أم... والساقان تظللان منفرجتين، وذلك الشيء البارد بين فخذى. والصدر يبقى خاملاً، بنفس الديبب الأصم الذى أحسّه... الذى... كنت أحسّه حين أقضى وقتاً طويلاً فى دار للسينما. دورة دموية سيئة، هذا هو الأمر. لا أكثر. لا أكثر. ليس شيئاً خطيراً. ليس شيئاً أكثر خطورة. يجب التفكير فى الجسد. التفكير فى الجسد يُنهك. جسد المرء. الجسد المتّحد. يتعب. لا يفكر فى نفسه، بل يوجد. أفكر، أشهد. أنا، جسد. يبقى. يمضى... يمضى... يتحلّل فى هذا الهروب للأعصاب والقشور، للخلايا وكرات الدم المتناثرة. جسدى، الذى يضع فيه هذا الطبيب أصابعه. خوف. أحسّ بالخوف من التفكير فى جسدى أنا. والوجه؟ سحبت تيريسا الحقيبة التى كانت تعكسه. أحاول تذكره فى إنعكاسه؛ كان وجهاً ممزقاً فى قطع زجاج غير متماثلة، العين قريبة جداً من الأذن وبعيدة جداً عن أختها، والتقطعية مُوزّعة على ثلاث مرايا دوّارة. يسيل العرق على جبهتى. أغلق عينى مرة أخرى وأطلب، أطلب أن يُعادَ إلى وجهى وجسدى. أطلب، لكننى أحس تلك اليد التى تُرّيت على وأودّ لو تخلّصتُ من

لملمسها، لكننى لا أجد القوة.

- هل تشعر بتحسن؟

لا أراها. لا أرى كاتالينا. أرى ما هو أبعد. تيريسا جالسة على الكرسي. بين يديها صحيفة مفتوحة. صحيفتى. إنها تيريسا، لكن وجهها مختبئ خلف الصفحات المفتوحة.

- إفتحوا النافذة.

- لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتُعَدُّ الأمور.

- دعيه. يا ماما. ألا ترين أنه يتظاهر؟

آه. أشمُّ ذلك البخور. آه. الهمهمات عند الباب. يصلُّ برائحة البخور تلك وبذيول رداءه السوداء، تسبقه المنضحة، ليودِّعنى بكل حماسة إنذار. ها، وقعوا فى الفخ.

- ألم يصل ياديبا؟

- بلى. إنه بالخارج.

- فليدخل.

- لكن...

- فليدخل ياديبا أولاً.

آه، ياديبا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟ لو عرفت ما يجب أن تفعله، لكنك أحضرته إلى هنا كما كنت تحمله كل مساء إلى منزلى فى كويواكان. لوددت اليوم، أكثر من أى وقت مضى، أن تعطينى الإنطباع بأن كل شيء يظل على حاله. لا تقسّد الطقوس، يا ياديبا. آه نعم، إنك تقترب. وهما لا تريدان.

- إقتربى يا بُنيتى، حتى يتعرف عليك. قولى له إسمك.

- أنا... أنا جلوريا...

* وعاء لرش الماء المقدس فى الطقوس الكنسية - م.

فقط لو أتبيّن وجهها على نحو أفضل. فقط لو أتبيّن تقطيبتها على نحو أفضل. لابد أنها تشم رائحة القشور الميّتة هذه؛ لابد أنها تنظر إلى هذا الصدر الغائر، إلى هذه الذقن الرمادية المشعّة، وهذا الرشح الأنفى الذى لا سبيل إلى إيقافه، وهذه...
بيعدونها عنى.

الطبيب يجس نبضى.

- يجب أن أستشير زملائى.

تمسح كاتالينا يدي بيدها. يا لها من تربيّة بلا جدوى. لا أراها جيداً، لكنى أحاول تثبيت نظرتى فى نظرتها. ألتقطها. أمسك يدها المثلّجة.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبّر النهر على صهوة الجياد.

- ماذا تقول؟ لا تتكلم. لا تجهّد نفسك. لا أفهمك.

- وددت لو أعود إلى هناك، يا كاتالينا. يا للعبث.

نعم: القس يركع بجوارى، يُتمتم بكلماته. يُدير ياديه جهاز التسجيل. أستمع إلى صوتى، إلى كلماتى. آه تُخرج بصرخة. آه، صرخة. آه، لقد نجوت. طبيببان يظهران عند الباب. لقد نجوت. ريخينا، أتألم، أتألم، يا ريخينا، انتبه إلى أننى أتألم. ريخينا. أيها الجندى. ضمّونى؛ إننى أتألم. غرسوا خنجراً طويلاً وبارداً فى معدتى، هناك شخص، هناك آخر غرس قطعة صلب فى أحشائى: أشم ذلك البخور وأحس بالتعب. أتركهم يفعلون. أتركهم يُنهضوننى بتثاقل، وأنا أئن. لا أدّين بحياتى لكم. لا أستطيع، لا أستطيع، فلم أختر، الألم يطوى خصرى، ألمس قدمى المثلّجتين، لا أريد تلك الأظافر الزرقاء، أظافرى الجديدة الزرقاء، آآآآه - آآآآى، لقد نجوت: ماذا فعلت بالأمس؟ لو فكرت فيما فعلت بالأمس فلن أعود أفكر فيما يجرى. هذا تفكير واضح. واضح جداً. فكر فى الأمس. لست بهذا الجنون؛ لا

تتعذب إلى هذا الحد؛ إستطعت أن تفكر فى ذلك. الأمس الأمس
 الأمس. بالأمس طار أرتميو كروث من هرموسيو إلى مكسيكو. نعم.
 بالأمس أرتميو كروث... قبل أن يمرض، بالأمس أرتميو كروث... لا،
 لم يمرض. بالأمس كان أرتميو كروث فى مكتبه وأحس بأنه مريض
 جداً. بالأمس لا. هذا الصباح. أرتميو كروث. لا ليس مريضاً. ليس
 أرتميو كروث لا. بل آخر. فى مرآة موضوعة أمام فراش المريض.
 الآخر. أرتميو كروث. توأمه. أرتميو كروث مريض. الآخر. أرتميو
 كروث مريض: لا يحيا: لا، يحيا. أرتميو كروث عاش. عاش لبضعة
 أعوام... لم يتألم أعواماً: أعواماً لا. عاش لبضعة أيام. توأمه.
 أرتميو كروث. بديله. بالأمس أرتميو كروث، الذى لم يعش سوى
 بضعة أيام قبل أن يموت بالأمس أرتميو كروث... الذى هو أنا...
 والذى هو الآخر... بالأمس.

أنت، بالأمس، فعلت ما تفعله كل يوم. لا تدري هل يستحق الأمر
 عناء تذكره. وددت فقط، مستلقياً هناك، فى عتمة مخدعك، لو تتذكر
 ما سوف يحدث: لا تريد أن تتبأ بما حدث فعلاً. فى عتمتك، ترى
 عينك إلى الأمام؛ لا تعرفان كيف تحدثان الماضى. نعم؛ بالأمس
 ستطير من هرموسيو، أمس التاسع من أبريل عام ١٩٥٩، على الرحلة
 العادية لشركة الطيران المكسيكية التى ستغادر عاصمة ولاية سونورا،

حيث ستكون الحرارة جهنمية، فى الساعة ٥٥ : ٩ صباحاً وستصل إلى مكسيكو، العاصمة، فى الساعة ٣٠ : ١٦ تماماً. من مقعد الطائرة ذات الأربعة محركات، سترى مدينةً مستويةً ورمادية، حزاماً من الطين النىء والأسقف الصفيح. ستقدم لك المضيقة قطعة لبان ملفوفة بالسيلوفان - ستتذكر ذلك بالذات، لأنها ستكون (لابد أن تكون، لا تفكر فى كل شيء بصيغة المستقبل منذ الآن) فتاة فائقة الجمال وسوف تنظر أنت إلى ذلك دائماً بعين الرضى، رغم أن سنك يحكم عليك بأن تتخيّل الأشياء أكثر مما تفعلها (إنك تسيء استخدام الكلمات: بالطبع، لن تشعر أبداً أنك محكومٌ عليك بذلك، رغم أنك لا تستطيع سوى تخيُّله): الإعلان المضىء - No Smoking, Fasten Seat Belts - سيظهر فى اللحظة التى تهوى فيها الطائرة فجأةً، عند دخولها وادى مكسيكو، وكأنها فقدت القدرة على البقاء فى الهواء الخفيف وستميل على الفور ناحية اليمين فتتساقط لفافات، وشُنت، وحقائب يد وتتصاعد صرخة جماعية، تتخالها شهقة خافتة وستبدأ السنة اللهب فى الطقطقة حتى يتعطل المحرك الرابع، على الجناح الأيمن، ويظل الجميع يصرخون بينما ستظل أنت وحدك هادئاً، ساكناً، تمضغ قطعة لبانك وتراقب ساقى المضيقة التى ستهرع عبر الممر مهدئة الركاب. سيعمل النظام الداخلى الذى يقاومُ به المحركُ الحريق وستهيئ الطائرة دون صعوبة، لكن أحداً لن يكون قد إنتبه إلى أنك أنت وحدك، العجوز ذا الأعوام الإحدى والسبعين، قد بقيت رابط الجأش. ستشعر أنك فخورٌ بنفسك، دون أن تبدي ذلك. ستفكر فى أنك قد فعلت الكثير من الأشياء الجبانة بحيث تصبح الشجاعة سهلة عليك. ستبتسم وتقول لنفسك أن لا، لا، ليس ذلك تناقضاً: إنه الحقيقة، وربما كانت حتى حقيقةً عامة. ستكون قد قطعت الرحلة إلى سونورا بالسيارة - فولفو موديل ١٩٥٩، برقم ٧١٢ العاصمة - لأن

بعض شخصيات الحكومة ستكون قد فكرت فى أن تصبح ثقيلة الظل جداً وسيكون عليك أن تقطع كل ذلك الطريق بهدف التأكد من ولاء تلك السلسلة من الموظفين الذين إشتريتهم - إشتريتهم، نعم، لن تخدع نفسك بكلمات عيد ميلادك: سأقنعهم، سأستميلهم: لا، بل ستشتريهم - حتى يفرضوا جبايات - كلمة قبيحة أخرى - على ناقلى الأسماك بين سونورا، وسينالوا وبين العاصمة: ستمنح أنت عشرة بالمائة للمفتشين وسيصل السمك إلى المدينة وقد إرتفع سعره بسبب تلك السلسلة من الوسطاء وستتال أنت ربحاً يفوق القيمة الأصلية للمنتج عشرين مرة. ستجتهد فى تذكر ذلك وستحقق رغبتك، رغم أن ذلك كله يبدو لك مادةً لخبر مثير فى صحيفتك وتعتقد أنك، فى الحقيقة، تُضيّع الوقت فى تذكره. لكنك ستصبر، وستمضى قدماً. ستصبر. تؤدّ لو تتذكر أشياء أخرى، لكنك قبل كل شيء، تؤدّ نسيان الحالة التى أنت فيها. ستغفر لنفسك. لا تجد نفسك. ستجد نفسك. سيُحضرونك مغشياً عليك إلى منزلك: ستهاوى فى مكتبك؛ سيأتى الطبيب ويقول أنه يجب الإنتظار بضع ساعات قبل أن يستطيع التشخيص. سيأتى أطباء آخرون. ولن يعرفوا شيئاً، لن يفهموا شيئاً. سيتفوهون بكلمات صعبة. وستودّ أن تتخيل نفسك. مثل قرية فارغة ومجّعة. سترتجف ذقنك، ستصبح رائحة فمك كريهة، ستصبح رائحة إبطيك كريهة، سيتعطن كل ما بين ساقيك. ستكون ملقى هنالك، دون إستحمام، دون حلاقة: ستكون مستودعاً للعرق والأعصاب المرهقة والوظائف الفسيولوجية اللاإرادية. لكنك ستصبر على تذكر ما سيحدث بالأمس. ستتقل من المطار إلى مكتبك وستعبر مدينة مشبعةً بغازات الخردل، لأن الشرطة ستكون قد فرغت لئوها من تفريق تلك المظاهرة فى ميدان الكاباييتو Caballito ستناقش مع رئيس تحرير صحيفتك عناوين الصفحة الأولى، والإفتتاحيات، والرسوم الكاريكاتورية وستشعر بالرضى.

ستستقبل شريكك الأمريكي الشمالى، وستجعله يرى مخاطر حركات التطهير النقابى المزعومة تلك. بعدها سيدخل إلى المكتب مدير أعمالك، باديا، وسيخبرك بأن الهنود قد بدأوا فى الهياج وستبعث أنت، من خلال باديا، إلى مفوض الشرطة المحلى لتبلغه بأن يطوِّقهم، لأنك تدفع له من أجل ذلك فى نهاية المطاف. ستعمل كثيراً صباح أمس. سيأتى لرؤيتك ممثل ذلك المحسن الأمريكى اللاتينى وستجع فى جعلهم يزيدون الدعم لصحيفتك. ستستدعى محررة باب المجتمع وستأمرها بأن تضع فى عمودها تشهيراً بذلك المدعو كوووتو الذى يشن عليك الحرب فى أعمال سونورا. ستفعل أشياء كثيرة! وبعدها ستجلس مع باديا لتحصى ممتلكاتك. سيُسَلِّك ذلك كثيراً. سيكون حائطاً كاملاً فى مكتبك مكسواً بتلك اللوحة التى تبين مدى إتساع الأعمال التى تديرها والعلاقات بينها: الصحيفة، الإستثمارات فى العقارات - فى مكسيكو، وبويلا، وجوادالاجارا، ومونتيرى، وكولياكان، وهرموسيو، وجوايماس، وأكابولكو، - منابع الكبريت فى خالتيبان، مناجم هيدالجو، إمتيازات الأخشاب فى تاراهومارا، المشاركة فى سلسلة الفنادق، شركة المواسير، تجارة الأسماك، شركات التمويل التى تموِّل شركات التمويل، شبكة عمليات البورصة، مكاتب التمثيل القانونية للشركات الأمريكية الشمالية، إدارة قرض السكك الحديدية، مناصب المستشار فى مؤسسات إدارة الأموال، الأسهم فى الشركات الأجنبية - الأصباغ، الصلب، المنظفات - وبند لا يظهر فى اللوحة: خمسة عشر مليوناً من الدولارات مودعة فى بنوك زيوريخ، ولندن، ونيويورك. ستشعل سيجارة رغم تحذيرات الطبيب، وتعيد على مسماع باديا الخطوات التى كوَّنت تلك الثروة. قروض قصيرة الأجل بفائدة مرتفعة لفلاحى ولاية بويلا، عند إنتهاء الثورة: إمتلاك أراض قريبة من مدينة بويلا، متوقعاً نمو المدينة؛ إمتلاك أراضٍ للتقسيم فى مدينة مكسيكو، بفضل تدخل ودى

لرئيس فى ذلك الحين؛ إمتلاك الصحيفة اليومية للعاصمة؛ شراء أسهم فى صناعة التعدين وإقامة شركات مكسيكية - أمريكية شمالية مشتركة قمت فيها بدور الرجل - الواجهة تمشياً مع القانون؛ الرجل موضع الثقة بالنسبة للمستثمرين الأمريكيين الشماليين؛ القيام بدور الوسيط بين شيكاغو، ونيويورك وبين حكومة المكسيك؛ التلاعب فى بورصة الأوراق المالية لتضخيم قيمتها، وخفضها، لتبيع، وتشتري وفق هواك ومصلحتك؛ البلهنية والرسوخ الحاسمان مع قدوم الرئيس أليمان؛ إمتلاك أراضٍ مشاعية منتزعة من الفلاحين لطرح تقسيمات أراضٍ جديدة فى المدن الداخلية، إمتيازات إستغلال الأخشاب. نعم - ستتهد وتطلب من باديا ثقاباً -، عشرون عاماً من الثقة، من السلام الاجتماعى، من تعاون الطبقات؛ عشرون عاماً من التقدم، بعد ديماجوجيا لاثارو كارديناس، عشرون عاماً من حماية مصالح الشركات، من القادة الخانعين، من الإضرابات المكسورة. عندئذ سترفع يديك إلى بطنك وستصطدم رأسك ذات الشعر الأشيب المجعد، والوجه الزيتونى، صدمةً مدوية بزجاج الطاولة، ومرة أخرى سترى، الآن عن قرب شديد، ذلك الإنعكاس لتوأمك المريض، بينما تهرب كل الأصوات من رأسك، ضاحكة، ويطوّقك عرق كل هؤلاء الناس، يخنقك لحم كل هؤلاء الناس، ويجعلك تفقد الوعى. سيندمج التوأم المنعكس فى الآخر، الذى هو أنت، فى العجوز ذى الإحدى وسبعين سنة الذى سيتمدد، غائباً عن الوعى، بين الكرسى الدوّار وطاولة الكتابة الحديدية الضخمة: ستكون هنا ولن تدرى أى بيانات ستظهر فى سيرة حياتك وأيها سيتم إخراسها، وإخفاؤها. لن تدرى. إنها بيانات عادية ولن تكون الأول ولا الوحيد الذى لديه ملف خدمة كهذا. لا بد أن ذلك سيروك. ستكون قد تذكرت ذلك. ولكنك ستتذكر أشياء أخرى، أياماً أخرى، سيكون عليك أن تتذكرها. إنها أيام مهمما

تكن بعيدة، أو قريبة، مدفوعة نحو النسيان، أو مطبوعة في الذاكرة - لقاء ورفض، حبّ عابر، حرية، حق، إخفاق، رغبة - كانت وستكون شيئاً أكثر من أية أسماء قد تسميها بها: أيامٌ سيتعقبك فيها قدرك بتشمّم كلب صيد، ويعثر عليك، ويجعلك تدفع الثمن، ويجسّدك في كلمات وأفعال، في مادة مُركبة، داكنة، كثيفة، منسوجة إلى الأبد مع الأخرى، غير المحسوسة، مادةٌ روحك التي إمتصتها المادة: حب السفرجل الطازج، طموح الأظافر التي تنمو، سأم الصلعة المتزايدة، سوداوية الشمس والصحراء، رخاوة الأطباق القذرة، شرود الأنهار الإستوائية، خوف السيوف والبارود، ضياع الملائات المنشورة في الهواء، فتوة الخيول السوداء، شيخوخة الشاطئ المهجور، إلتقاء المظروف وطلايع البريد الأجنبي، نضور البخور، مرض النيكوتين، ألم التربة الحمراء، رقة الفناء عند الأصل، روح كل الأشياء، مادة كل النفوس: نصلٌ ذاكرتك، الذي يفصل النصفين: لحام الحياة، الذي يعيد توحيدهما، يذيبهما، يتعقبهما، يعثر عليهما: للثمرة نصفان: اليوم سيعاودان التوحد: ستتذكر النصف الذي خلفته وراءك: سيعثر عليك القدر: ستتئاب: لا يجب أن تتذكّر: ستتئاب: الأشياء ومشاعرها إنعلت، تساقطت مُمزقة على طول الطريق: هناك، إلى وراء، كان ثمة حديقة: لو استطعت العودة إليها، لو استطعت العثور عليها مرة أخرى في النهاية: ستتئاب: لم تغيّر مكانك: ستتئاب: إنك فوق أرض الحديقة، لكن الأغصان الشاحبة تَضُنّ بالثمار، المجري المترب يضنّ بالمياه: ستتئاب: ستصير الأيام متمايضة، متماثلة، نائية، راهنة: إنها سرعان ما ستسى الضرورة، والإلحاح، والدهشة: ستتئاب: ستفتح عينيك وتراهما هناك، بجوارك، بتلك الضراعة الزائفة: ستتئاب: باسميهما: كاتالينا، تيريسا: لن تكونا قد فرغتا من إخفاء ذلك الشعور بالخديعة والانتهاك، بالاستنكار المنزعج، الذي يجب أن يتحوّل الآن،

بالضرورة، إلى تظاهر بالقلق، والإعزاز، والألم: قناع الضراعة سيكون أول علامة على ذلك التحوّل الذي يفرضه عليهما مرضك، وحالتك، واللياقة، ونظرة الغرباء، والعادة الموروثة: ستتأب: ستغض عينيك: أنت، أرتيميو كروث، هو: ستفكر في أيامك وعيناك مُغمضتان:

(١٩٤١: ٦ يوليو)

هو من مرّ في السيارة متجهاً إلى المكتب. كان السائق يقودها بينما يقرأ هو الصحيفة، لكنه في تلك اللحظة رفع عينيه، بالصدفة، ورأهما تدخلان المتجر. نظر إليهما وزرّ عينيه وعندئذٍ انطلقت السيارة وواصل هو قراءة الأخبار الواردة من سيدى برّانى والعلمين، ناظراً إلى صور روميل ومونتجومرى: كان السائق يتصبّب عرقاً في حرارة القيظ، ولا يستطيع تشغيل الراديو ليتسلّى وفكر هو في أنه أحسن صنعاً بارتباطه بمنتجى البن الكولومبيين حين بدأت الحرب في أفريقيا ودخلتا هما إلى المتجر ورجتُهما العاملة أن تتفضّلاً بالجلوس حتى تُخطّر صاحبة المحل (لأنها كانت تعرف من هما المرأتان، الأم والإبنة، وكانت صاحبة المحل قد أمرت بأن يُخطروها دائماً حين تجيئان): سارت العاملة في صمتٍ فوق السجاجيد حتى الغرفة الخلفية حيث كانت صاحبة المحل تُوَقّع دعواتٍ متكئةً على المائدة ذات الجلد الأخضر؛ تركت العيونات المتدلية من سلسلة فضية تسقط حين

دخلت العاملة وأخبرتها بأن السيدة وإبنتها قد حضرتا وتهددت صاحبة المحل وقالت: "آه نعم، آه نعم، آه نعم، لقد إقترب الموعد" وشكرتها لإخطارها وسوّت شعرها البنفسجى وزمّت شفتيها وأطفاّت السيجارة بطعم النعناع وفى صالة المحل كانت المرأتان قد جلستا ولم تتكلما مطلقاً مطلقاً حتى رأتا صاحبة المحل تظهر وحينئذ تظاهرت الأم، التى كانت لديها هذه الفكرة عن اللياقة، بأنها تواصل حديثاً لم تبدأه قطّ وقالت بصوت عالٍ: "... لكن هذا الموديل يبدو أجمل بكثير. لا أدري ماذا تظنين، لكنّ لو كنت أنا لأخترت هذا الموديل؛ حقاً إنه أنيق جداً، جميل جداً جداً". وافقت الفتاة، فقد كانت معتادة على تلك المحادثات التى لا توجهها الأم إليها بل إلى المرأة التى دخلت الآن، وصافحت الابنة لكنها لم تصافح الأم، بل حيّتها بابتسامة واسعة ورأسها البنفسجية مائلة. بدأت الابنة فى التزحزح نحو يمين الأريكة، حتى يتسع المكان لصاحبة المحل، لكن الأم أوقفته بنظرة وبإصبع يُلَوِّح قريباً من صدرها؛ كفت الابنة عن التحرك ونظرت بتعاطف إلى المرأة ذات الشعر المصبوغ التى ظلت واقفة وسألتهما إن كانتا قد قرّرتا أى موديل ستختاران. قالت الأم لا، لا، لم تحزما أمرهما بعد ولذا تودّان رؤية كل الموديلات مرة أخرى، فعلى ذلك أيضاً سيعتمد كل ما عداها، تعنى، تفاصيل من قبيل لون الأزهار، وفساتين الوصيفات، وكل تلك الأشياء.

- يؤلمنى كثيراً أن أثقل بك كل هذا العمل؛ كان بوذى...
- من فضلك، يا سيدتى. يسعدنا إرضائك.
- نعم. نوذ أن نكون متأكدتين.
- بالطبع.
- لا نريد أن نخطيء وي بعدها، فى آخر لحظة...
- معك حق. الأفضل أن تختارا بهدوء وليس، فيما بعد...

- نعم. نودّ أن نكون متأكّدين.

- سأقول للفتيات أن يجهّزن أنفسهن.

بقيتا وحدهما ومدّت الابنة ساقها؛ نظرت إليها الأم منزعجةً وحركت كلّ أصابعها في وقت واحد، لأنها رأت أريطة جورب الفتاة كما أشارت إليها أن تضع قليلاً من اللعاب على جورب الساق اليسرى؛ بحثت الفتاة ووجدت الموضع الذي كان الحرير فيه قد تمزّق وبللت سبّابتها باللعاب ومسحت بها الموضع. وأوضحت للأم على الفور "أنا نعسانة بعض الشيء". إبتسمت السيدة وربّتت على يدها وظلت الإثنان جالسين على المقعدين ذوى التطريز الوردى، دون كلام، حتى قال الابنة أنها جائعة وردّت الأم أنهما ستذهبان فيما بعد لتناول الإفطار عند سانبورنز Sanborn's رغم أنها سترافقها فقط لأن وزنها قد زاد أكثر مما يجب مؤخراً.

- لا داعي لأن تقلقي أنت.

- حقاً.

- إن قوامك شبابيّ جداً. لكن فيما بعد، خذى بالك من نفسك. في أسرتي كنا جميعنا نتمتع بقوام رشيق في شبابنا وبعد سن الأربعين فقدنا رشاقتنا.

- أنت على أفضل ما يرام.

- لم تعودى تتذكرين، هذا هو الأمر، لم تعودى تتذكرين. وفوق

ذلك...

- اليوم استيقظت جائعة. وأفطرت جيداً جداً.

- لا تقلقي الآن. فيما بعد، نعم، خذى بالك من نفسك.

- هل تزيد الولادة الوزن كثيراً؟

- لا، ليست هذه هي المشكلة؛ هذه حقاً ليست هي المشكلة.

فعبثرة أيام من الرجيم تعيدك مثلما كنت. المشكلة بعد سن الأربعين.

فى الداخل، كانت صاحبة المحل تُعدُّ العارضتين، وهى منحنية، والدبابيس فى فمها، تُلَوِّح بيديها بعصبية وتؤنّب الفتاتين على سيقانهما البالغة القصر؛ كيف تتألق جيداً نساءً بهذه السيقان البالغة القصر؟ قالت إنهما بحاجة إلى ممارسة التدريبات، تنس، أو فروسية، كل ما يفيد فى تحسين النوع وقالتا هما أنهما تلاحظان أنها بالغة الإنزعاج فردت صاحبة المحل أن نعم، أن هاتين المرأتين تزعجانها كثيراً. قالت أن السيدة تعودت ألا تصافح أحداً أبداً؛ أن الإبنة أطف، لكنها شاردة الذهن نوعاً ما، وكأنها موجودة فقط؛ أنها فى النهاية، لا تعرفهما جيداً ولا تستطيع أن تحكم وكما يقول الأمريكيون the cos-tumer is always right وأنهما يجب أن تخرجا إلى الصالون مبتسمتين، وهما تقولان تشيز، تشى - يييز وتشيبى - يييز. أنها مضطرة للعمل، رغم أنها لم تولد لتعمل، وأنها معتادة على نسوة هذا الزمن الثريات هؤلاء. ولحسن الحظ، يمكنها أيام الأحاد أن تلتقى بأصدقائها القدامى، الذين تربّيت معهم، وأن تشعر بأنها إنسانة مرة واحدة فى الأسبوع على الأقل. قالت للفتاتين أنهن يلعبون البريدج، ووصفت حين رأتهما جاهزتين. خسارة أن سيقانهما قصيرة. غرست بعناية الدبابيس التى تبقت فى فمها فى الوسادة المخملية الصغيرة.

- هل سيأتى إلى ال shower*.

- من؟ خطيبك أم أبوك؟

- هو، بابا.

- وما أدرانى أنا!

رأى القبة البرتقالية والأعمدة البيضاء، الممتلئة، لقصر الفنون الجميلة تمرّ لكنه نظر إلى أعلى، حيث كانت أسلاك الكهرباء تتجمع،

* shower: (فى اللهجة الأمريكية) حفل لتقديم الهدايا لعروس على وشك الزواج. م.

وتتفرق، وتجرى - ليست هى، بل هو ورأسه متكئةً على صوف المقعد الرمادى - متوازيةً أو تقتهى إلى مُحَوَّلَات الضغط العالى: البوابة الداكنة، الإيطالية، لمبنى البريد والحليات المنحوتة على شكل أوراق الشجر، والضروع المثلثة** وقرون الوفرة** المسكوبة لبنك المكسيك: ربت على الشريط الحريرى لقبعة الجوخ البنية وبأخمص قدمه أدار حزام المقعد المتحرك للسيارة الليموزين، فى مواجهته: مربعات القيشانى الزرقاء لمحل سانبورنز والأحجار المشغولة والمسودة لدير سان فرنسيسكو. توقفت السيارة عند ناصية شارع الملكة إيسابل الكاثوليكية وفتح له السائق بابها وخلع القلنسوة وبالمقابل، إرتدى هو قبعة الجوخ، ممشطاً بأصابعه فوديه اللذين ظلاً خارج القبعة وأحاط به ذلك الحشد من باعة اليانصيب وماسحى الأحذية والنسوة المتلفعات والأطفال الذين يبلل المخاط شفتهم العليا حتى عبر الأبواب الدوارة وسوى رباط عنقه أمام زجاج الرواق ووراءه، فى الزجاج الآخر، المؤدى إلى شارع ماديرو، أصلح رجلٌ مماثل له، لكنه بعيد، عقدة رباط عنقه كذلك، بنفس الأصابع التى يصبغها النيكوتين، وبنفس البدلة ذات الخطوط المتقاطعة، لكنها لا لون، محاطاً بالمتسولين وترك يده تسقط فى نفس الوقت الذى فعل فيه هو ذلك، ثم أدار له ظهره وسار حتى منتصف الشارع، بينما بحث هو عن المصعد، مرتبكاً للحظة.

مرة أخرى أتعستها الأيدى الممدودة فضغطت على ذراع إينتها لتدخلها بسرعة فى هذا الدفء غير الواقعى، دفء الصوبة الزجاجية، فى رائحة الصابون والكولونيا والورق الناعم المطبوع حديثاً. توقفت برهة لتتفقد أدوات التجميل المرتبة خلف الزجاج ونظرت إلى نفسها، وهى تضيق عينيهما لترى جيداً أدوات الماكياج المعروضة فوق قطعة

** أنواع من الحليات المعمارية - م.

- جوان کراوفورد Joan Crawford - قالت الابنة - جوان کراوفورد .

- لا، لا، لا تُتطَق هَکذا. هَکذا لا. کرو - فور - Cro. کرو - فور! هم بنطقونه هَکذا.

- کراؤ۔ فور Crau - for.

- لا، لا. کرو، کرو، کرو. Cro. "الألف" و"الواو" معاً تتطابقان مثل "الواو". أظنهم ينطقونه هكذا.

- لم يعجبني الفيلم كثيراً.

- لا، ليس لطيفاً جداً. لكنها تظهر جميلة جداً.

.. مللتُ جداً.

- لكنك ألححت كثيراً في الذهاب...

قالوا لى أنه فيلم لطيف جداً، لكن لا.

- إنا نتسلو.

- کرو - فورد -

- نعم، أعتقد أنهم ينطقونه هكذا، كرو - فور. أظن أنهم لا

ينطقون "الدال".

- كرو - فور.

- أظن ذلك، إلا إذا كنت مخطئة.

نشرت الفتاة العسل على الكعكة وقطعتها إلى قطع صغيرة حين تأكدت أن كل مسامها إمتلأت بالعسل. أخذت تبتسم لأنها كلما ملأت فمها بهذا الدقيق المحمص المشبّع بالعسل. لم تكن الأم تنتظر إليها. كان ثمة يدٌ تداعب أخرى، تریّت بالإبهام أطراف الأصابع كأنها تودّ أن تنزع أظفارها؛ نظرت إلى اليدين القريبتين منها، دون رغبة في النظر إلى الوجهين: كيف كانت إحدى اليدين تعود لتتناول الأخرى وتشرع في إستكشافها، بببطء، دون أن تقلت أي واحد من مسام الجلد الآخر. لا، لم يكن في الأصابع أي خواتم؛ لابد أنها خطيبان أو ما أشبه. حاولت أن تحوّل نظرتها وتنبّتها في بركة العسل التي تغمر صحن إبنتها، لكنها كانت تعود رغماً عنها إلى يدي العاشقين على المائدة المجاورة وأفلحت في تجنب وجهيهما، لكنها لم تقلت اليدين المربّتين. لعبت الإبنة بلسانها في لثتها، ملتقطّة فتافيت الدقيق والبنديق المتناثرة ثم نظفت شفّتها ولطّخت الفوطة بالأحمر، لكنها قبل معاودة صبغ شفّتها فتشّت بلسانها عن بقايا الكعكة وطلبت من أمها قطعة من شطيرة الزبيب. قالت أنها لا تريد قهوة لأنها تجعلها عصبية جداً، رغم أنها تحب القهوة، لكن ليس الآن، لأنها عصبية بما يكفي. ربت السيدة على يدها وقالت لها أنهما يجب أن تغادرا المكان فمازال أمامهما أن تنجزا أشياء كثيرة. دفعت الحساب وتركت البقشيش ونهضتا كلتاها. شرح الأمريكي الشمالي أن الماء المغلى يتم حقنه في مناجم الخام؛ يُذيّبها الماء ويندفع الكبريت إلى السطح بفعل الهواء المضغوط. عاود شرح الطريقة وقال الأمريكي الشمالي الآخر أنهم راضون تماماً عن أعمال التقيب وقطع الهواء بيده عدة مرات، ملوحاً بها قريباً جداً

من وجهه المشدود والمحمرّ ومكرراً: " - دوموس، كويّس. بيريتاس، وجش. دوموس، كويّس. بيريتاس، وجش. دوموس، كويّس... " أخذ هو ينقر بأصابعه فوق زجاج الطاولة ويهز رأسه موافقاً، وقد تعود أنهم حين يتكلمون بالإسبانية، يعتقدون أنه لا يفهم، ليس لأنهم يتحدثون إسبانية سيئة، بل لأنه لا يفهم جيداً أى شيء. "بيريتاس وجش". فرد الخبير الفنّي خريطة المنطقة على الطاولة فأزاح هو مرفقيه بينما يبسطان لوحة الرسم. شرح الثانى أن المنطقة من الثراء بحيث يمكن إستغلالها إلى الحدّ الأقصى حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، إلى الحد الأقصى، حتى إستنفاد الإحتياطيات؛ إلى الحد الأقصى. كرر ذلك سبع مرات وسحب قبضته التى كان قد تركها تسقط، فى بداية موعظته، فوق تلك البقعة الخضراء المنقطة بمثلثات تشير إلى مكشفات الجيولوجى. غمز الأمريكى الشمالى بعينه وقال أن غابات الصنوبر والماهوجنى بالغة الضخامة بدورها وأنه هو، الشريك المكسيكى، يفوز بمائة فى المائة من أرباحها؛ وفى هذا الأمر لا يتدخلون هم، الشركاء الأمريكيون الشماليون، رغم أنهم ينصحونه بأن يعيد تشجير الغابات باستمرار؛ فقد شاهدوا تلك الغابات مُدمّرة فى كل مكان: ألا تدركون أن هذه الأشجار تعنى نقوداً؟ لكن هذا من شأنه هو، فالمناجم موجودة بالغابات أو بدونها. إبتسم هو ونهض واقفاً. شبك إبهاميه بين الحزام وقماش البنطلون وأرجح السيجار المطفأ بين شفّتيه حتى نهض أحد الأمريكيين الشماليين وبين يديه عود ثقاب مشتعل. قرّبه من السيجار وأدار هو السيجار بين شفّتيه حتى لمع طرفه مشتعلاً. طلب منهما مليونين من الدولارات نقداً فساءلاه لماذا: لقد أدخلوه عن طيب خاطر شريكاً فى رأس المال بمبلغ ٢٠٠ ألف دولار، لكن أحداً لن يستطيع أن يقبض سنتيماً واحداً حتى يبدأ الاستثمار فى الإنتاج: مسح الجيولوجى عويناته بقطعة شامواه صغيرة

كانت فى جيب قميصه وبدأ الآخر يذرع المكان من المنضدة إلى النافذة ومن النافذة إلى المنضدة، حتى كرّر لهما هو أن تلك هى شروطه: فليس الأمر متعلقاً حتى بمقدّم، أو بقرض، أو بشيء من هذا القبيل: إنه المبلغ الذى يدينون له به مقابل محاولة الحصول على حق الإمتياز؛ وريما، بدون هذا المبلغ المقدم، لن يكون هناك حق إمتياز: أما هم فسوف يستعيدون مع الزمن الهدية التى سيقدمونها له الآن؛ لكن بدونها، بدون الرجل - الواجهة، بدون الـ Front - man - ورجاهما أن يغفرا له أفضاله - لن يستطيعا الحصول على حق الإمتياز واستغلال المناجم. دقّ الجرس ونادى سكرتيره وقرأ السكرتير بسرعة قائمة من الأرقام الدقيقة فقال الأمريكان أو. كى. عدة مرات، أو. كى، أو. كى، أو. كى، وابتسم هو وقدم لهما كأسين من الويسكى وقال لهما أن بإمكانهما إستغلال الكبريت حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، لكنهما لن يستغلانه هو ولا دقيقة واحدة من القرن العشرين وتبادلوا الأنخاب وضحك الآخران وهما يغمغان. s. o. b * مرة واحدة.

سارت الإشتان وذراعاهما مشتبكتان. سارتا على مهل ورأساهما خفيضتان وهما تتوقفان أمام كل واجهة وتقولان ما أجمله، ما أغلام، هناك واحدة أفضل إلى الأمام، إنظري إلى هذا، ما أجمله، حتى تعبنا فدلقتا إلى مقهى ويحتتا عن موضع جيد بعيد عن المدخل حيث يُطلّ باعة اليانصيب ويثور الغبار الجاف الكثيف، ويبعد كذلك عن المياول وطلبنا زجاجتى كندا دراي بطعم البرتقال. وضعت الأم البودرة على وجهها ونظرت إلى عينيها العنبريتين فى مرآة علية البودرة، نظرت إلى البروز الذى يصنعه الكيسان الجلديان اللذان بدءا يحيطان بهما وسارعت بإغلاق الغطاء. راقبت الإشتان فقايع مُرطبّ الصودا

* s. o. b. ابن القحبة . م.

والأينلين وانتظرتا أن يتسرّب الغاز لتشريانه في رشفات صغيرة. خلعت الفتاة الحذاء، خلست، وريت على أصابع قدمها المحشورة وتذكرت السيدة، وهي جالسة أمام مشروب البرتقال، الغرفتين المنفصلتين في المنزل، منفصلتين لكنهما متجاورتان، والأصوات التي تفلح كلّ صباح وكل مساء في إختراق الباب المغلق: النحنة العارضة، سقوط الحذاء فوق الأرضية، إصطدام سلسلة المفاتيح برف المدفأة، مفصلات صوان الملابس التي تُصِرُّ، وأحياناً حتى إيقاع التنفس أثناء النوم. أحست بيرودة في ظهرها. كانت قد إقتربت هذا الصباح ذاته، سائرة على أطراف أصابعها، من الباب المغلق وأحست بيرودة في ظهرها. أدهشها التفكير في أن كل تلك الأصوات الخافتة والمعتادة هي أصوات سرّية. عادت إلى فراشها ولقت نفسها بالأغطية وثبتت بصرها في السقف، حيث تناثرت مروحة من الأضواء المستديرة، الهاربة: إلتعاعات ظل أشجار القسطل. شربت بقايا شاى مُتَلَج ونامت حتى جاءت الفتاة لتوقظها، لتذكرها أن أمامهما يومٌ ملئٌ بالمشاغل. والآن فقط، والكوب البارد بين أصابعها، تذكرت تلك السويغات الباكرا من النهار.

مال في كرسيه الدوار حتى صرّ الزنبرك وسأل السكرتير: "هل ثمة مصرف يريد المخاطرة؟ هل كان ثمة مكسيكى يثق في؟". تناول القلم الرصاص الأصفر وأشار به إلى وجه السكرتير: فليكن ثمة دليل على ذلك؛ فليكن ياديبا شاهداً؛ لم يُرد أحد المخاطرة ولم يكن هو ليترك تلك الثروة تتعفن في غابات الجنوب؛ إذا كان الجرينجو* هم الوحيدون المستعدون لمنح النقود من أجل عمليات التقيب فماذا كان

* gringos (هنا بالجمع): تطلق في أمريكا اللاتينية على الأمريكيين الشماليين وتحمل معنى الإحتقار أو الكراهية - م.

بإمكانه أن يفعل؟ أشار السكرتير إلى الساعة فزفر هو وقال حسناً.
دعاه إلى الغداء. يمكنهما أن يأكلا سوياً. هل تعرف مكاناً جديداً؟
أجاب السكرتير بنعم، مكان مُحَبَّب جديد وظريف جداً؛ فطائر جبن
شهية جداً، بدقيق القمح، والجبن، ولحم القنفذ؛ وهو على الناصية.
يمكنهما الذهاب سوياً. أحسن بالتعب؛ لم يكن يريد العودة إلى المكتب
ذلك المساء. يجب أن يحتفلا، على نحو ما. كيف لا. وعلاوةً على ذلك،
فإنهما لم يأكلا معاً أبداً. هبطا فُي صمت وسارا باتجاه طريق
الخامس من مايو.

- أنت صغير السن جداً. ما عمرك؟

- سبعة وعشرون عاماً.

- متى تخرّجت؟

- منذ ثلاث سنوات. لكن...

- لكن ماذا؟

- النظرية مختلفة تماماً عن الممارسة.

- وهذا يضحكك؟ ماذا علّموك؟

- الكثير من الماركسية. حتى أنني قدمت أطروحتي في موضوع

فائض القيمة.

- لا بد أنها مذهب جيد، يا ياديا.

- لكن الممارسة مختلفة جداً.

- وهل أنت ماركسي؟

- حسناً، كان كل أصدقائي ماركسيين. لا بد أنه أمر مرتبط

بالسن.

- أين هو المطعم؟

- أمامنا مباشرة، على الناصية.

- لا أحب المشى.

- إنه قريب جداً.

تقاسمتا اللفافات وسارتا بإتجاه الفنون الجميلة، حيث كان السائق فى إنتظارهما: واصلتا السير ورأساهما خفيضتان، موجهتان إلى الواجهات مثل هوائيات وفجأة أمسكت الأم بذراع الابنة وهى ترتجف وأسقطت لفافة، فأمامهما، بجوارهما، كان كلبان يزمجران بحلق بارد، يتباعدان، يزمجران، وبعضان رقبتى بعضهما حتى تدميان، جريا إلى الأسفلت، وعاودا الإلتحام ببعضعضات مسنونة وزمجرات: كلبان ضالان، أجريان، مُزیدان، ذكر وأنثى. إلتقطت الفتاة اللفافة وقادت أمها إلى مكان الإنتظار. إتخذتا مكانيهما فى السيارة وسأل السائق هل تعودان إلى لاس لوماس فأجابت الابنة بنعم، قائلة أن بعض الكلاب قد أفزعتهما. قالت السيدة أن ذلك لا شىء، وأنه قد إنقضى: كان امرأ مباحثاً وقريباً جداً منها، لكن بإمكانهما العودة إلى وسط البلد ذلك المساء، فمازالت تتقصصهما مشتروات كثيرة، من محال كثيرة. قالت الفتاة أن هناك متسعاً من الوقت؛ فمازال أمامهما أكثر من شهر. نعم، قالت الأم، لكن الزمن يطير، وأبوك لا يشغل نفسه بالعُرس، ويترك لنا كل العمل. إضافة إلى ذلك، يجب أن تتعلمى الحفاظ على مركزك؛ لا يجب أن تصافحى الجميع. إضافة إلى ذلك، أريد أن يمر العرس بسلام، لأننى أعتقد أنه سيفيد أبوك فى الإنتباه إلى أنه قد أصبح رجلاً ناضجاً. أتمنى أن يفيد. إنه لا ينتبه إلى أنه قد بلغ الثانية والخمسين. أتمنى أن تتجبنى أطفالاً بسرعة. على أية حال، سيفيد أبوك أن يكون إلى جانبى فى الزواج المدنى والدينى، أن يتلقى التهانى ويرى أن الكل يعاملونه كرجل محترم وناضج. ربما أثر فيه كل ذلك، ربما.

أنا أحسّ بهذه اليد التي تُرِيَّت على وأود التخلّص من ملمسها، لكنني خائر القوى. يا لها من تربيئة لا جدوى. يا كاتالينا. يا للعبث. ماذا ستقولين لي؟ أتظنين أنك وجدتِ أخيراً الكلمات التي لم تجرؤي أبداً على التفوّه بها؟ اليوم؟ يا للعبث. أمسكي لسانك. لا تسمحى له بترف التفسير. كوني مخلصاً لما تظاهرت به دوماً؛ كوني مخلصاً حتى النهاية. إنظري: تعلّمي من إبتك. تيريسا. إبتنا. يا للصعوبة. يا له من إسم بلا جدوى. إبتنا. إنها لا تتظاهر. ليس لديها ما تقوله. إنظري إليها. جالسةً ويداها مضمومتان بالرداء الأسود، تنتظر. لا تتظاهر. قبلها، بعيداً عن مسامعي، ستكون قد قالت لك: "أتمنى أن ينتهى كل شيء بسرعة. لأنه قادر على التظاهر بأنه مريض، حتى يميتنا نحن". لا بد أنها قالت لك شيئاً من هذا القبيل. سمعت شيئاً كهذا حين أفقت هذا الصباح من ذلك النوم الطويل الهانئ. أتذكر على نحو غامض المنوم، مهدىء الليلة الماضية. ولا بد أنك أجبتها: "يا إلهي، عسى ألا يتعذب أكثر مما يحتمل": لا بد أنك أردت إضفاء معنى مختلف على كلمات إبتك. ولا تدرين أى معنى تُضيفين على الكلمات التي أغغمها: - إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبُر النهر على صهوة الجياد. آه، باديبا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟ لو عرفت ما يجب أن تفعله، لكنت أحضرته إلى هنا كما كنت تحمله كلّ مساءً إلى منزلي في كويواكان. لوددت اليوم، أكثر من أى وقت مضى، أن تعطّينى

الإنطباع بأن كل شيء يظل على حاله. لا تفسد الطقوس، يا پاديا. آه نعم، إنك تقترب. وهما لا تريدان.

- لا، يا أستاذ، لا يمكننا أن نسمح بذلك.

- إنها عادة منذ سنواتٍ طويلة، يا سيدتي.

- ألا ترى وجهه؟

- دعيني أجرب. كل شيء جاهز. يكفى توصيل جهاز التسجيل.

- على مسئوليتك؟

- دون أرتيميو... دون أرتيميو... أحضرت لك ما سَجَلْنَاهُ هذا

الصباح...

أومىء بالموافقة. أحاول الابتسام. مثل كل يوم. موضع ثقة، پاديا

هذا. بالطبع يستحق ثقتي. بالطبع يستحق جزءاً طيباً من ميراثي

والإدارة الدائمة لكل ممتلكاتي. من سواه. إنه يعرف كل شيء. آه، يا

پاديا، هل تواصل جمع كل تسجيلات محادثاتي في المكتب؟ آه، يا

پاديا، إنك تعرف كل شيء. يجب أن أكافئك جيداً. أورتك سمعتي.

تيريسا جالسة، بالصحيفة المفتوحة التي تخفي وجهها.

وأحسُّ به يصل، برائحة البخور تلك وبذيول رداءه السوداء

والمنضخة تسبقه ليودعني بحماسة إنذار؛ ها، وقعوا في الفخ؛

وتيريسا تلك تتباكي هناك والآن تُخرج علبة البودرة من الحقيبة

وتصلحُ هيئة أنفها لتعاود النههة من جديد. أتخيلُني في اللحظة

الأخيرة، لو سقط التايوت في تلك الحفرة بينما جمعُ من النسوة

يُنهِنهن ويصلحن هيئة أنوفهن فوق قبري. حسناً: أحسُّ أنني أفضل.

وكنت سأحسُّ بأنني في خير حال لو أن هذه الرائحة، رائحتي، لا

تتصاعد من طيات الملاءات، لو لم أنتبه لتلك البقع الكبيرة المضحكة

التي لطختها بها... هل أتتفسُّ أنا بهذا الشخير التشنجي؟ هل هكذا

سألتقي هذا الهلام الأسود وأواجه طقسه الديني؟ آآآ. يجب

أن أنظم شخصى... أضمت قبضتى، آآخ، وعضلات وجهى وأجد إلى جوارى ذلك الوجه من الدقيق الذى يأتى للتأكد من الصيغة التى ستظهر غداً، أو بعد غد - ولن تظهر أبداً؟ أبداً - فى كل الصحف، "مع كل بركات الكنيسة الأم المقدسة..." ويُقرب وجهه الحليق من خدّى المشتعلين بالمشيب. يرسم علامة الصليب. يتمم بصلاة "أنا الخاطيء" ولا يمكننى إلا الإشاحة بوجهى وإطلاق الأنين بينما أملأ رأسى بتلك التخيّلات التى أود أن أقدحها فى وجهه: الليلة التى منح فيها ذلك النجار الفقير والقذر نفسه ترف إمتطاء العذراء الوجلة التى كانت قد صدقت حكايات وخداع عائلتها وكانت تبقى الحمامات البيضاء بين فخديها معتقدة أنها بذلك ستلد، الحمامات المخبوءة بين الساقين، فى الحديقة، تحت التتورة، والآن إمتطاه النجار تملؤه رغبة مبررة، لأنها لابد كانت مليحة جداً، مليحة جداً، وامتطاها بينما تتصاعد التهنيئات المهانة لتيريسا التى لا تطاق، تلك المرأة الشاحبة التى تتمنى، هائنة، تمردي النهائى، لأنه الدافع لمهانتها النهائية. يبدو لى غير معقول أن أراها هناك، جالستين، دون أن تحتداً، دون أن تكيلا الإتهامات. كم سيدوم هذا؟ لا أحس أنتى الآن فى حالة بالغة السوء. ربما أتعافى. يا لها من صدمة! أليس ذلك مؤكداً سأحاول أن أبداً بحالة طيبة، لأرى هل ستتتهزان الفرصة وتتسيان إيماءات الإعزاز المفتصبة تلك وتفرغان صدريكما لآخر مرة من الحجج والشتائم التى تسد حلقكما، وعيونكما، وتلك الإنسانية دون طعم التى إنقلبتما إليها. دورة دموية سيئة، هذا هو الأمر، لا شىء أكثر خطورة. أوف. يضجرنى أن أراها هناك. يجب أن يوجد شىء أشد إثارة للإهتمام فى تناول عينين شبه مغمضتين تريان الأشياء لآخر مرة. آه. أحضرونى إلى هذا المنزل وليس إلى الآخر. يا سلام. يا له من تكتم. سيكون علىّ أو أوبّخ باديا لآخر مرة. باديا يعرف أيهما هو

منزلى الحقيقى. هنالك كان يمكنى أن أستمتع برؤية تلك الأشياء
التي أحبها كثيراً. كنت سأفتح عيني لأنظر إلى سقف ذى دعامات
عتيقة ودافئة؛ وتكون فى متناول يدي العباءة الذهبية التي تزين رأس
الفراش، وشمعدانات المنضدة الليلية، ومخمل مساند الظهر،
وكريستال بوهيميا الذى صنعت منه أكوابى. سيكون سيرافين بقربى
يدخن، وأشم الدخان. وستكون هى أنيقة، كما أمرت. باللغة الأنافة،
دون دموع، ودون ثياب سوداء. هنالك، لن أشعر أننى عجوز ومُنْهَك.
سيكون كل شيء معداً ليذكّرني بأننى رجل حى، رجلٌ يحب، تماماً
تماماً تماماً مثلما كان الأمر من قبل. لماذا تجلسان هنا، أيتها
العجوزتان القبيحتان المهملتان الزائفتان لتذكّراننى بأننى لست نفس
الرجل الذى كنته من قبل. كل شيء معدّ. هنالك فى منزلى كل شيء
معدّ. يعرفون ما يجب أن يفعلوه فى هذه الحالات. ويمنعوننى من
التذكر. يقولون لى أننى أوجد، الآن، ولم أكن أبداً. لا أحد يحاول
توضيح أى شيء قبل أن يكون الوقت قد فات. أوف. كيف سأتسلّى
هنا؟ نعم، إننى أرى أنهم قد أعدّوا كل شيء ليبدو أننى أتى إلى هذا
المخدع كل ليلة وأنام هنا. أرى الصوان شبه المفتوح وأرى المنظر
الجانبى لبعض السترات التي لم أستخدمها أبداً، وبعض ربطات العنق
دون كرمشات، وبعض الأحذية الجديدة. أرى طاولة كتابة كوّموا فوقها
كتباً لم يقرأها أحد، وأوراقاً لم يوقعها أحد. وهذا الأثاث الأنيق
المبتذل: متى نزعوا عنه الأغطية المليئة بالتراب؟ أه... ثمّة نافذة. ثمّة
عالم بالخارج. ثمّة هذه الريح العالية، ريح الهضبة، التي تحرك
أشجاراً سوداء ونحيلة. يجب أن أتففس...

- إفتحوا النافذة...

- لا، لا. قد تصاب بالبرد وتُعقد الأمور.

- تيريسا، أبوك لا يسمعك...

- إنه يتظاهر. يغمض عينيه ويتظاهر.

- إسكتى.

- إسكتى.

ستسكتان. ستبتعدان عن مقدمة الفراش. أبقى عينى مغمضتين. أتذكر أنتى خرجت لتناول الغداء مع باديبا، ذلك الأصيل. تذكرت هذا فعلاً. لقد تغلّبتُ عليهم فى لعبتهم ذاتها. كل هذا كرية الرائحة، لكنه فاتر. جسدى يولد برودة فاترة. يولد حرارة فى الملاءات. تغلّبتُ على كثيرين. تغلّبتُ على الجميع. نعم، دمي يتدفق جيداً فى شرايينى؛ سأتمالك نفسى قريباً. نعم، يتدفق فاتراً. لكنه مازال يبعث حرارة. إننى أغفر لكم. فلم تجرحونى. حسناً، تكلموا، قولوا. لا يهمنى. أغفر لكم. يا للبرودة الفاترة. قريباً سأكون بخير. آه.

أنت ستشعر بالرضا لأنك فرضت إحترامك عليهم؛ إعتزف: فرضت إحترامك حتى يعترفوا بأنك نديهم: ما أقل المرات التى بلغت فيها مثل هذه السعادة، لأنك منذ بدأت تصبح ما أنت عليه، منذ تعلمت أن تُقدّر ملمس الأقمشة الفاخرة، مذاق الخمور الفاخرة، رائحة أنواع اللوسيون الفاخرة، كل ما أصبح فى السنوات الأخيرة متعتك الوحيدة والفريدة، منذ ذلك الحين غرست نظرتك هناك إلى أعلى، إلى الشمال، ومنذ ذلك الحين عشت بحنين الخطأ الجغرافى الذى لم

يسمح لك بأن تكون جزءاً منهم فى كل شىء: إنك تُعجبُ بكفاءتهم،
بوسائل الراحة لديهم، بعاداتهم الصحية، بسلطتهم، بإرادتهم وتتظر
حولك وتبدو لك أموراً لا تطاق عدم كفاءة، ويؤس، وقذارة، ورخاوة،
وعُرى هذا البلد البائس الذى لا يملك شيئاً؛ وأكثر ما يؤلك هو معرفة
أنك مهما حاولت، لا يمكنك أن تكون مثلهم، لا يمكن أن تكون سوى
نسخة بالكربون، صورة تقريبية، ففى نهاية المطاف، قل لى: هل كانت
رؤيتك للأشياء، فى أسوأ لحظاتك أو فى أفضلها، بالغة التبسيطية مثل
رؤيتهم؟ أبداً. لم تستطع أبداً التفكير فى الأمور على أنها أبيض
وأسود، صالح وطالح، إله وشيطان: اعترف أنك دوماً، حتى عندما بدا
الأمر على عكس ذلك، قد وجدت فى الأسود جرثومة، إنعكاس ضده:
وقسوتك ذاتها، حين كنت قاسياً، ألم تكن مصطبغة برقة معينة؟ تعرف
أن كل ما هو حدي يتضمن ضده: القسوة تتضمن الرقة، والجبن
الشجاعة، والحياة الموت: على نحو ما - لا شعورياً تقريباً، لكونك من
أنت، ومن أين أنت وما عشته - تُعرف هذا ولذا لن يمكنك أبداً أن
تشبههم، هم الذين لا يعرفونه. هل يضايقك هذا؟ نعم، ليس مريحاً، بل
مزعجاً، ومن المريح أكثر بكثير أن تقول: هذا هو الخير وهذا هو الشر.
الشر. لن تستطيع تحديده أبداً. ربما، لأننا منبوذون أكثر، لا نود أن
تضيق هذه المنطقة الوسيطة، الملتبسة، بين الضوء والظلمة: هذه
المنطقة حيث يمكننا أن نجد الغفران. حيث يمكنك أنت أن تجده. منذا
الذى لن يكون قادراً، فى لحظة واحدة من لحظات حياته - مثلك - على
تجسيد الخير والشر فى نفس الوقت، على أن يُسلم قياده فى نفس
الوقت لخيطين غامضين، بلونين مختلفين، ينطلقان من نفس اللقافة
حتى يصعد الخيط الأبيض ويهبط الأسود ثم، رغم كل شىء، يُعاود
الإثتان الالتقاء بين أصابعك ذاتها؟ لن تود التفكير فى هذا كله.
ستحتقر الأنا لتذكيرك بذلك. ستود أن تكون مثلهم والآن، وأنت عجوز،

تكاد تحقق ذلك. لكنك تكاد. تكاد فقط. فأنت نفسك ستمنع النسيان. ستكون شجاعتك توأم جبنك، ستكون كراهيتك قد وُلدت من حبك، وستكون حياتك كلها قد إحتوت ووعدت بموتك: لن تكون قد عشت خيراً ولا شريراً، كريماً ولا أنانياً، شريفاً ولا خائناً. ستتركُ للآخرين أن يؤكدوا مزاياك وعيوبك؛ لكنك أنت نفسك، كيف سيمكنك إنكار أن كل ما تؤكده سينتفى، أن كل ما تتفيه سيتأكد؟ ولن يدري أحد، ربما باستثناءك أنت. أن وجودك سيكون منسوجاً من كل الخيوط، مثل حياة كل البشر. أنك لن تنقصك، ولن تفيض عن حاجتك، فرصة واحدة لتجعل من حياتك ما تريدها أن تكون. وإذا كنت ستصير شيئاً، وليس آخر، فذلك لأنك، رغم كل شيء، سيكون عليك أن تختار. ولن تنفى خياراتك بقية حياتك الممكنة، كل ما ستخلقه وراءك في كل مرة تختار: بل ستجعلها هزيلةً، ستجعلها هزيلةً لدرجة أن إختيارك ومصيرك اليوم سيصيران شيئاً واحداً: لن يعود للميدالية وجهان: ستكون رغبته متطابقة مع مصيرك. ستموت؟ لن تكون المرة الأولى. ستكون قد عشت حيوات كثيرة مية، لحظات كثيرة هي مجرد إيماءات. حين تلصق كاتالينا أذنها بالباب الذي يفصل بينكما وتسمع حركاتك؛ حين تتحرك أنت، على الجانب الآخر من الباب، دون أن تدري أن هناك من يتصنّت عليك، دون أن تدري أن حياة شخص متوقفة على أصوات وسكون حياتك خلف الباب، منذا سيحيا في هذا الإنفصال؟ حين يعرف كلاكما أن كلمة واحدة تكفى ورغم ذلك تصمتان، منذا سيحيا في هذا الصمت؟ لا، هذا ما لا تود تذكره. تود تذكر شيء آخر: ذلك الاسم، ذلك الوجه الذى سيمحوه مرور الزمن. لكنك ستعرف أنك لو تذكرت ذلك لوجدت خلاصك، لوجدت خلاصك بسهولة مفرطة. ستذكر أولاً ما يمثل عقوبتك، وحين تجد خلاصك فيه، ستعرف أن ذلك الشيء الآخر، الذى ستظنه خلاصك، سيكون هو عقوبتك الحقيقية: أن تذكر

ما تريد. ستتذكر كاتالينا الشابة، حين عرفتھا، وستقارنها بامرأة اليوم المغرورة. ستتذكر وستتذكر لماذا. ستجسّد ما ظنته ھى، والجميع حينئذ. ولن تدرى. سيتوجب عليك أن تجسده. لن تصفى أبداً للكلمات الآخرين. سيكون عليك أن تحياھا. ستغمض عينيك: ستغمضھما. لن تشمّ ذلك البخور. لن تنصت إلى ذلك النحيب. ستتذكر أشياء أخرى، نهارات أخرى. إنها نهارات ستصل ليلاً إلى ليل عينيك المغمضتين ولن تستطيع التعرف علیھا إلا بالصوت: وليس مطلقاً بالنظر. سيتوجب عليك أن تقدّر الليل حق قدره وتقبله دون أن تراه، أن تؤمن به دون أن تتعرف علیھ، وكأنه إله كل نهاراتك: الليل. الآن ستفكر أن إغماض عينيك سيكفى لحلوله، ستبتسم، رغم الألم الذى يعاود التسلسل، وتحاول مدّ ساقيك قليلاً. سيلمس شخص يدك، لكك لن تجيب على هذه - ما ھى، تربيته، إھتمام، معاناة، حساب؟ - لأنك ستكون قد خلقت الليل بعينيك المغمضتين ومن أعماق محيط الحبر ذاك ستبحر نحوك سفينة حجرية عبثاً ستحاول شمس الظھيرة، الحارة المثاثبة، أن تضفى علیھا البهجة: جدران سميكة ومسوّدة، مُشيدة لتحمى الكنيسة الأم من هجمات الهنود، وكذلك لتوحّد بين الفتح الدينى والفتح العسكرى. ستتقدم صوب عينيك المغمضتين، بالضجيج المتصاعد للنایات والطبول، إنها القوات الجلفة، الإسبانية، للملكة إيسابل وسوف تعبر أنت تحت الشمس الساحة الفسيحة وفى وسطھا الصليب الحجرى وفى الزوايا المحارب المفتوحة، إمتداد عقيدة أهل البلاد، المسرحية، فى الهواء الطلق. وأعلى الكنيسة المقامة فى عمق الساحة، ستتستقر قباب الحجر البركانى فوق سيوف المدجنين* المنسيّة، علامة على دمٍ

* mudéjares: تشير إلى المسلمين الذين بقوا فى قشتالة بعد إعادة الفتح المسيحى وإلى فنونهم (من القرن ١٢ - ١٦) الفنية بالتأثيرات الإسلامية - م.

جديد مُتراكب على دم الغزاه. ستتقدمُ حتى أول بوابة من الطراز الباروكي، الذي مازال قشالياً، لكنه صار ثرياً بالأعمدة المحلاة بنقوش الكروم الباذخة والعقود المحدثّة: بوابة الفتح، الصارمة والمرحة، بإحدى قدميها في العالم القديم، الميت، والقدم الأخرى في العالم الجديد الذي لم يبدأ هنا، بل على الجانب الآخر من البحر أيضاً: فالعالم الجديد جاء معهم، بجبهة من الأسوار المتقشفة لحماية القلب الحسي، المرج، الجشع. ستتقدمُ وتتفدُّ إلى صحن السفينة، التي سيكون سطحها الخارجي القشّالي قد هزمه الإمتلاء، الجنائزى والضاحك، لهذه السماء الهندية ذات القديسين، والملائكة، والآلهة الهندية. صحنٌ واحد، هائل، سيمتد صوب المذبح، الذي تزئنه نقوشٌ متكاثفة، وفرةٌ متجهمةٌ لوجوه مُقنّعة، صلاةٌ كثيفةٌ واحتفالية، متعجّلةٌ دوماً، لهذه الحرية، الوحيدة الممنوحة، حرية تزيين معبد وملئه بالخوف الهادي، بالخضوع المنحوت، بالرعب من الفراغ، من الأزمنة الميّتة، لمن كانوا يُطيلون التباطؤ المتعمّد للعمل الحر، اللحظات الإستثنائية للاستقلال الذاتي، في اللون وفي الشكل، بعيداً عن ذلك العالم الخارجي ذي السياط، والقيود الحديدية، والجُدري. ستسير، لفتح عالمك الجديد عبر الصحن الذي ليس فيه مساحة خالية: رؤوس ملائكة، أغصانُ كروم متاثرة، أزهارٌ متعددة الألوان، فاكهة مستديرة، حمراء، مشتبكة في أحبولة ذهبية، قديسون بيض منحوتون داخل الجدران، قديسون بنظرات مندهشة، قديسو سماءٍ اخترعها الهندي على صورته وهيئته: ملائكة وقديسون لهم وجه الشمس والقمر، بأيدي تحمي الحصاد، لهم سبابة كلاب صيد، عيونهم قاسية، غير ضرورية، غريبة عنهم، عيون المعبود، شبيهة شَبهاً صارماً بدورات الكواكب. الوجوه الصخرية خلف الأقنعة الوردية، السمحة، الساذجة، لكنها خامدة، ميتة، أقتعة: إخلق الليل، إملأ بالريح الشراع الأسود، أغمض عينيك يا أرتميو كروث...

(١٩١٩: ٢٠ مايو)

هو من قصص حكاية لحظات جوثالو برنال الأخيرة في سجن بيرالس وفتح له ذلك أبواب هذا البيت.

- كان بالغ النقاء على الدوام - قال دون جمالييل برنال الأب -؛
ظن على الدوام أن الفعل يُلَوَّثُ ويجبرنا على خيانة أنفسنا، حين لا يقوده فكرٌ واضح. أعتقد أنه انفصل عن المنزل لهذا السبب. حسناً، أعتقد ذلك جزئياً، لأن تلك العاصفة اجتاحتنا جميعاً، بما في ذلك نحن الذين لم نتحرك من مكاننا. لا، ما أودّ توضيحه هو أن الواجب بالنسبة لإبني كان يتمثل في أن يقترب لكي يشرح، لكي يُقدِّم أفكاراً متماسكة، نعم، لكي يحول، فيما أعتقد، دون إنهاء هذه القضية في إختيار الفعل، مثل كل القضايا. لا أدري، كان تفكيره بالغ التعقيد. كان يعط بالتسامح. يسعدني أن أعرف أنه مات بشجاعة. ويسعدني أن أراك هنا.

لم يكن قد أتى هكذا مباشرة لزيارة العجوز. فقبلها، تردّد على أماكن معينة في بوييلا، وتحدث مع أشخاص معينين، وتحقّق مما كان ضرورياً التحقق منه. ولذا، كان يستمع الآن دون أن تختلج في وجهه عضلة واحدة إلى حجج العجوز الباهتة بينما يستند هذا الأخير جمجمته البيضاء إلى ظهر المقعد الجلدي اللامع، وجانب وجهه يغمره

الضوء المصفر الذى يكشف حبات الغبار الكثيف لهذه المكتبة المغلقة،
التي تتطلب رفوفها العالية أن يتحرك سلّم صغير على عجلات، راسماً
خطوطاً على الأرضية المدهونة باللون الأصفر المحمر، للوصول إلى
الأسفار السميكة الضخمة المجلدة، وهى مؤلفات فرنسية وإنجليزية
فى الجغرافيا، والفنون الجميلة، والعلوم الطبيعية، تستلزم قراءتها،
عادةً، إستخدام العدسة التي كان دون جمالييل يحتفظ بها، ساكنةً،
بين يديه العجوزتين الحريريتين، دون أن ينتبه إلى أن الضوء الباهت
يخترق الزجاج ويتركز، حارقاً، فى إحدى طيّات البنطلون المخطط،
المكوى بعناية: لكنه هو لاحظ ذلك. فصل بينهما صمت غير مريح.

- إعذرني؛ هل أقدم لك شيئاً؟ الأفضل أن تبقى للعشاء معنا.

فتح يديه علامةً على الدعوة والسرور فسقطت العدسة فى حجر
هذا الرجل النحيل، ذى الجلد المكرمش فوق العظام المتصلبة،
وخصلات الشيب الأصفر اللامعة فوق جمجمته، وفكيه، وشفتيه.

- لا تخيفنى الأزمنة التي تنقضى - كان قد قال قبلها، بصوت
مُحدّد ومؤدب دائماً، مُنغم داخل تلك النبرات، رتيب خارجها -: فيم
يمكن أن يفيد تعليمي - وأوماً بالعدسة نحو الأرفف المحملة بالكتب -
إذا لم يسمح لى بإدراك حتمية التغيرات؟ الأشياء تُبدّل مظهرها، شئنا
أم أبينا؛ فلماذا نصرّ على ألا نراها، على التتهدى على الماضى؟ بينما
الأقل إنهاكاً أن نقبل ما هو غير متوقع؟ أم أننا لا يجب أن نسميه
هكذا؟ أنت، يا سيدى... عفواً، إننى أنسى رتبتك... نعم، العقيد،
العقيد... أقول، إننى أجهل أصولك، ومهنتك... أقدرُك لأنك شاركت
إبنى ساعاته الأخيرة... حسناً: أنت يا من مارست الفعل، هل استطعت
أن تتوقع كل شئ؟ أنا لم أمارس الفعل ولم أستطع أنا الآخر. ربما
كانت إيجابيتنا وسلبيتنا سواءً بسواء تتماثلان فى هذا، فى أنهما
كليهما شديدا العمى والعجز. رغم أنه لا بد من وجود فرقٍ ما... ألا

تظن؟ فى النهاية...

لم تنب عن بصره عينا العجوز العنبريتان، المصممتان تصميماً مفرطاً على خلق جو من المودة، الوثائقثان ثقة مفرطة خلف قناع العذوبة الأبوية. ربما كأنت طبيعية حركات اليدين المتسيدة تلك، وتلك النبالة المؤكدة لجانب الوجه وللذقن الملتحية، وذلك الميل المنتبه للرأس. لكنه فكر، رغم ذلك، فى أن الطبيعية يمكن التظاهر بها هى الأخرى؛ فأحياناً، يتصنعُ القناعُ على نحو مفرط الجودة ملامح وجه لا يوجد خارجه ولا تحته. وكان قناع دون جماليل يشبه بشدة وجهه الحقيقى، بحيث يُقلقُ التفكير فى الخط الفاصل، فى الظل غير المحسوس الذى يمكن أن يفصل بينهما: فكر فى ذلك وفكر أيضاً فى أنه ذات يوم سيمكنه أن يقول ذلك للعجوز دون موارد.

رنت كل ساعات المنزل فى وقت واحد فنهض العجوز ليُشعل مصباح الأستيلين الموضوع فوق منضدة الكتابة ذات الحاجز المنزلق. ببسط، رفع الحاجز وقلب فى بعض الأوراق. تناول إحداها بين يديه واستدار نصف دورة نحو مقعد الزائر الحديث الوصول. إبتسم، قطب جبينه وعاد الإبتسام وهو يضع تلك الورقة فوق الأخباريات. رفع، بظرف، سبابته إلى أذنه: كان كلبٌ ينبج ويخمش بأقدامه الجانب الآخر من الباب.

إنتهز هو فرصة إدارة العجوز ظهره له ليُفرغ تساؤله الخفى. ولا حتى ملمح واحد من ملامح السنيور برنال كان يكسر النبالة المتاعمة للمجموع؛ منظوراً إليه من الخلف، كان يمشى بأناقة واعتدال: كان الشعر الأبيض، المشعث قليلاً، يتوج العجوز الذى يتجه نحو الباب. كان مقلقاً - شعر هو بالقلق حين فكر فى الأمر مرة أخرى؛ - بالفا حد الكمال بدرجة مفرطة. ربما لم تكن لباافته سوى الرفيقة الطبيعية لسذاجته. ضايقه هذا الخاطر: كان العجوز يمشى بخطوات بطيئة

نحو الباب، والكلب ينبج: قد يكون الصراع بالغ السهولة، لا طعم له.
لكن ماذا لو كانت المودة، بالمقابل، تخفى دهاء العجوز؟

حين توقف التاراجح المنتصب للسُترة وربّت اليد البيضاء على مقبض الباب النحاسي، نظر إليه دون جمالييل من فوق كتفه، بعينه الغبريتين، وربّت على ذقنه بيده الأخرى. بدا أن النظرة تدرك أفكار الرجل المجهول وحاكت الإبتسامة، المزمومة قليلاً، إبتسامة قارئٍ للطالع على وشك إكتشاف الحظ، غير المتوقع. وإذا كان الرجل المجهول قد إستطاع أن يفهم ويقبل فى إيماءة العجوز دعوةً إلى التواطؤ الصامت، فإن حركة دون جمالييل كانت من الأنافة، من الخفة، بحيث لم تُتَح للمتواطئ أن يرُدّ النظرة ويُبرم الإتفاق الضمنى.

كان الليل قد حلّ وضوء المصباح الخافت يُبرز بالكاد كُعوب الكتب المذهّبة وأحزمة النقوش الفضية فى ورق الحائط الذى يكسو جدران المكتبة. وعندما فُتِح الباب، تذكر هو سلسلة القاعات المتتابعة كالأعماء بدءاً من البهو الرئيسى للمنزل الريفى العتيق حتى المكتبة، والتي تتفتح، واحدة إثر أخرى، على الفناء المزخرف بالمينا والقيشاني. قفز كلب الحراسة الضخم مبتهجاً ولحق يد سيّده. وخلف الكلب، ظهرت الفتاة مرتدية رداءً أبيض، بياضاً يتنافر مع الضوء الليلي الذى يتباطأ خلفها.

توقفت لحظةً عند العتبة، بينما قفز الكلب نحو الرجل المجهول وتشمّم قدميه ويديه. جذبه السنيور برنال، ضاحكاً، من طوقه الجلدى الأحمر وغمغم بإعتذار. لم يفهمه هو. وواقفاً، مُزّرباً سترته بالحركات الدقيقة للحياة العسكرية، ومُمسّداً لها وكأنه مازال يرتدى السترة العسكرية، ظلّ بلا حراكٍ أمام جمال تلك الشابة التى لم تتخطِ إطارَ الباب.

- إينتى كاتالينا.

لم تتحرك. الشعر الناعم الكستنائي الذى ينسدل على الرقبة الطويلة، الدافئة - من بعيد أمكنه أن يرى إلتماع مؤخر العنق - والعينان الصلبتان والسائلتان فى آن واحد، بنظرة مرتجفة، فقاعة مزدوجة من الزجاج: صفراوان مثل عيني الأب، لكنهما أكثر صراحة، وأقل تعوداً على التصنع بطبيعية، تتكرران فى الشائيات الأخرى لذلك الجسد المشوق والممتلىء، فى الشفتين النديتين شبه المنفرجتين، فى الشدين الناهدين والمشدودين: عينان، وشفتان، ونهدان صلبان وناعمان، فى إتساق يتراوح بين الوحشة والحنق. أبقت يديها مشبكتين أمام فخذهما وخصرها النحيل، وحين مشت، تطاير الشريط الأبيض للفستان المزركر من الخلف، الواسع حول الإليتين المتماسكتين، والضيق قرب الكاحل النحيل. تقدمت صوبه كتلة من اللحم بلون الذهب الباهت، كشفت فى الجبهة وفى الخدين عن الإلتماع الداكن المعتد بنفسه للجسد كله، ومدت له يداً بحث هو فى ملمسها، دون أن يجد، عن الندوة، عن العاطفة التى تتم عنها.

- كان مع أخيك خلال ساعاته الأخيرة؛ حدثك عنه.

- كنت محظوظاً، يا سيدى.

- حدثنى عنكم، وطلب منى أن أتى لرؤيتكم. تصرف كرجل

شجاع، حتى النهاية.

- لم يكن شجاعاً. كان يحب هذا كله... بإفراط.

لمست صدرها وفى الحال أبعدت يدها لتتظاهر بأنها ترسم قوساً

فى الهواء.

- مثالى، نعم، مثالى جداً - غمغم العجوز وتهجد - السيد

سيتعشى معنا.

أمسكت الفتاة بذراع والدها وتبعهما هو، والكلب إلى جواره، عبر
الغرف الضيقة والرطبة، المكتظة بأواني الخزف والكراسى، بالساعات

والقترينات، بالأثاث العتيق واللوحات الدينية القليلة القيمة الكبيرة الأبعاد: وكانت الأرجل المذهبة للكراسى والمناضد تستقر على نفس الأرضية من الخشب المدهون، دون أبسطة، وظلت المصابيح مطفأة. فى غرفة الطعام فقط كانت نجفة ضخمة من الزجاج المنحوت تضىء قطع الأثاث الثقيل من خشب الماهوجنى ولوحة الطبيعة الصامتة الممزقة حيث تلمع أوانى الفخار وفواكه خط الاستواء الملتهبة. بالفضوة، طرد دون جمالييل الناموس الذى يطير حول إناء الفاكهة الواقعى، الأقل إمتلاءً من ذلك المرسوم. وبإيماء، دعاه إلى الجلوس.

فى مواجهتها، إستطاع أخيراً أن يثبّت بصره فى عيني الفتاة الساكتين. هل تعرف الدافع لزيارته؟ هل كانت تخمّن فى عيني الرجل ذلك الشعور بالنصر، الطافح نتيجة الوجود الجسدى للمرأة؟ هل كانت تتيّن البسمة الخفيفة للحظ والثقة؟ هل كانت تشعر بالتوكيد التملكى الذى لا يكاد يخفيه؟ لم تكن عيناها تجيبانه إلاّ بهذه الرسالة الغريبة للقدرية الخشنة، وكأنها تبين أنها على إستعداد لقبول كل شىء، ورغم ذلك، على تحويل إستكانتها إلى فرصة لانتصارها الخاص على الرجل الذى شرع بتلك الطريقة الصامتة والمبتسمة فى جعلها ملكه.

أدهشتها صلابة إستسلامها، قوة ضعفها. رفعت بصرها لتُلاحظ، دون حياء، الملامح القوية للرجل المجهول. لم تستطع تجنب الإلتقاء بالعينين الخضراوين. ليس وسيماً، ولا جميلاً. لكن جلد الوجه الزيتونىّ ذاك، الذى يكسو جسده بنفس القوة المشدودة، المنجنية، للشفتين الغليظتين وأعصاب الجبهة النافرة، كان يعبّد بلمس مُستَحَبٍّ رغم أنه مجهول. وتحت المائدة، مدّ هو قدمه حتى لامست طرف الحذاء النسائى. أرخت الفتاة جفניה ونظرت خلسة إلى أبيها؛ سحب هو قدمه. كان المضيف البالغ حدّ الكمال يبتسم بأريحيته الدائمة؛ ويُحرّك كأساً بين أصابعه.

كسر الصمت دخول الخادمة الهندية العجوز بكسرولة الأرز ولفت دون جمالييل الإنتباه إلى أن موسم الجفاف قد إنتهى متأخراً بعض الشيء هذا العام؛ ولحسن الحظ فإن كتل السحاب قد أخذت تتكاثف حول الجبال وسوف تكون المحاصيل جيدة؛ ليس مثل العام الماضى، لكن جيدة. ومن الغريب - قال - أن يحتفظ هذا المنزل العتيق بالرطوبة دائماً، تلك الرطوبة التى تبقي الأركان الظليلة وتمنح الحياة للسرخس والنباتات الملونة فى الفناء. ربما كان ذلك رمزاً مناسباً لعائلة نمت وإزدهرت بفضل ثمار الأرض؛ تضرب بجذورها فى وادى بوييلا - أكل الأرز، إلتهقطه فى المعلقة بدقة - منذ أوائل القرن التاسع عشر وهى أقوى، نعم، من كل التقلبات العبيثية لبلدٍ عاجزٍ عن الهدوء، محبٍ للإضطراب.

- أحياناً، يبدو لى أن الإفتقار إلى الدم والموت يبعث فىنا اليأس. كما لو أننا لا نشعر أننا أحياء إلا إذا أحاطنا الدمار والإعدامات - واصل العجوز بصوته الودى.. لكننا نحن سنستمر، سنستمر دوماً، لأننا قد تعلمنا كيف نبقي على قيد الحياة، دوماً...

تناول كأس الضيف وملأها بنبيذ داكن.

- لكن لابد من دفع ثمن للبقاء على قيد الحياة - قال الضيف

بجفاف.

- يمكن دائماً التفاوض على أنسب ثمن...

وحين ملأ دون جمالييل كأس إبنته، ربت على يدها.. كل شيء يتوقف على التهذيب الذى يتم به ذلك. فلا ضرورة لإزعاج أحد، لجرح الحساسيات... يجب أن يظل الشرف سليماً لا يُمس.

عاود هو البحث عن قدم الفتاة. وهذه المرة، لم تسحب هى قدمها إبتعاداً عن ملامسته. رفعت كأسها ونظرت إلى الرجل المجهول دون أن تنفرج شفتاها.

- يجب أن نعرف كيف نميِّز بين الأشياء - غمغم العجوز وهو يجفّف شفّتيه بالمنشفة - . الأعمال التجارية، مثلاً، شيء، والدين شيء آخر.

- أترك بهذه التقوى، تتلقى البركة المقدسة كل يوم مع إبتكك الصغيرة؟ حسناً إذن، إن كل ما تراه هنا، كل ما تملك تمت سرّفته من الكهنة، هنالك حين عرض خوارث* فى المزد ممتلكات الإكليروس وكان بمقدور أى تاجر لديه بعض المدخرات إمتلاك قطعة أرض شاسعة...

قضى ستة أيام فى پوييلا قبل أن يتوجه إلى منزل دون جماليل برنال. سرّج الرئيس كارائنا القوات وعندها تذكّر هو محادثته مع جونثالو برنال فى بيرالس وسار على الطريق إلى پوييلا: مسألة غريزة خالصة، لكنها أيضاً مسألة يقين من أن معرفة هذا - معرفة إسم عائلة، عنوان، مدينة - تعنى معرفة الكثير فى العالم المحطّم والمختلط الذى خلّفته الثورة. وبعثت فيه التسلية مفارقة كونه هو من يعود إلى پوييلا، وليس برنال الذى أعدم. كان ذلك، على نحو ما، حفلاً تكرياً، إحلالاً، دعاية يمكن لعبها بأقصى جدية؛ لكنه كان أيضاً شهادة ميلاد، شهادة على القدرة على البقاء على قيد الحياة وتدعيم المصير الشخصى بمصائر الآخرين. وحين دخل إلى پوييلا، حين تبين منذ طريق تشولولا نباتات الفطر الحمراء والصفراء ورؤوسها متناثرة فوق

* بنيتو خوارث: سياسى ليبرالى مكسيكى من أصل هندى (١٨٠٦-١٨٧٢) تولى رئاسة عام ١٨٥٨. إنتهت سياسة مناهضة للإكليروس وأوقف الدين الخارجية مما دفع نابوليون الثالث إلى التدخل. وحين أصبح مكسميليان إمبراطوراً على المكسيك (فى ١٨٦٤)، شن خوارث حرب عصابات، قبض على مكسميليان وأعدمه وتولى الرئاسة حتى وفاته - روبر الصغير.

الوادي، شعر بأنه يدخل وهو مزدوج، بحياة جونثالو برنال مضافةً إلى حياته، بمصير الميَّت مجموعاً مع مصيره: كأن برنال، عند موته، فوَّض إليه إمكانات حياته غير المتحققة ليضيفها إلى حياته هو. فكَّر أن ميَّتات الآخرين ربما كانت هي التي تطيل حياتنا نحن، فكر. لكنه لم يأت إلى بوببلا ليفكر.

- هذا العام لم يستطع حتى شراء البذور. فقد تراكمت عليه الديون، بالإضافة إلى ما جرى العام الماضي حين أخذ الفلاحون في التمرد عليه ومضوا ليبذروا الأراضي المتروكة. وجادلوه بأنه إذا لم يمنحهم الأراضي التي لا تُزرع، فلن يُعاودوا البذر في الأراضي المزروعة. ورفض هو بدافع الكبرياء الخالص وبقى دون حصاد. فيما مضى، كانت الشرطة الريفية ستعيد المتمردين إلى النظام، لكن الآن... تغيَّرت الأمور.

- وليس هذا فقط. فالمدينون نقضوا التزامهم؛ ولا يريدون الآن أن يدفعوا له أكثر من ذلك. يقولون أنه بالفوائد التي تقاضاها يكون قد إستوفى نقوده وأكثر. أترى، يا سيدي المقدم؟ الجميع يملؤهم الإيمان بأن الأمور ستتغير الآن.

- آه، لكن العجوز ماضٍ في عناده، ولا يتركهم يلوون ذراعه. يفضل الموت على الاستسلام، كل واحدٍ وشأنه.

خسر في آخر رميةٍ للنرد وهزَّ كتفيه. أشار إلى صاحب الحانة ليقدم المزيد من الكؤوس فشكر له الجميع هذه البادرة.

- من المدين لهذا الدون جمالييل؟

- حسناً... سأقول أنا، من ليس مديناً له؟

- هل له صديقٌ مُقرَّب جداً، شخص يُسرُّ له بدخيلته؟

- وكيف لا، إنه الأب بايث، هنا عند الناصية.

- ألم ينبذ الإكليروس؟

- هو هو هو... الأب يمنح دون جمالييل الخلاص الأبدى، مقابل أن يمنح دون جمالييل للأب الخلاص على الأرض.
 - أعتت الشمس أبصارهم حين خرجوا إلى الشارع.
 - ماشاء الله على أولاد الناس، شئ بالعقل!
 - من هذه المرأة؟
 - ومن يمكن أن تكون، يا سيدى المقدم... إنها ابنة المذكور:
 سار، ناظراً إلى طرف حذائه، خلال الشوارع العتيقة، المخططة
 مثل رقعة شطرنج. وحين كف عن سماع وقع قدميه على أحجار
 الرصف وأخذت قدماء تثيران غباراً جافاً ورمادياً، صوّب بصره إلى
 الجدران اللوزية اللون للمعيد - الحصن العتيق، عِبر الساحة الواسعة
 ودخل إلى صحن الكنيسة الساكن، الطويل والمذهب. ومن جديد، رن
 وقع قدميه. تقدم صوب المذبح.
 مكوراً، ومكسواً بجلد ميت، لم يكن جسد الأب يلمع إلا في عيني
 من الفحم، في عمق الوجنتين المنتفختين. منذ أن رأى الغرب يتقدم
 عبر صحن الكنيسة أخذ يتجسس عليه، مُختبئاً خلف فرجة مرتفعة،
 كانت موضعاً لإنشاد الراهبات اللائي هرين من المكسيك خلال
 الجمهورية الليبرالية، وتبين القس في حركات الغريب الروح العسكرية
 غير الواعية للرجل المتعوّد على حالة الإستنفار، على القيادة، وعلى
 الهجوم. لم يكن الأمر راجعاً إلى مجرد التشوّه الطفيف لساقى
 الفارس: بل كان قوة عصبية معينة للقبضة المتشكلة خلال الملمس
 اليومى للمسدس وأعنة الخيل: وحتى حين يمشى ذلك الرجل، مثلما
 يفعل الآن، بقبضة مضمومة؛ فذلك يكفى لكى يتبين فيه بايث قوة
 مقلقة. عالياً فى الموضع الخفى للراهبات، فكّر أن رجلاً كهذا لم يأت
 لأداء طقوس الورع. رفع عباة وهبط، ببطء، السلم الحلزونى المؤدى
 إلى الدير القديم المهجور. هبط وهو يبطأ بحرص: تنورته مُشَمّرة،

وكتفاه مرفوعان حتى أذنيه، وجسده أسود ووجهه أبيض ليس فيه دم، وعيناه نفاذتان. كانت درجات السلم بحاجة إلى إصلاح عاجل: فقد إنزلت قدم سلكه سنة ١٠، وكانت العاقبة جنازية. لكن ريميخيو بايث، الشبيه بخفاش منتفخ، بدا أنه يخترق بعينه كل ظلمات بئر السلم الأسود، الرطب والدائري. وأجبرته الظلمة، والخطر على إيقاظ كل حواسه والتفكير: رجلٌ عسكري في كنيسته، بزى مدنى، ودون صحبة ولا حراسة؟ كان الحدث من الجدة بحيث لا يمكن أن يمر دون أن يثير الإنتباه. لقد تنبأ بالأمر جيداً. ستتقضى المعارك، والعنف، وتدنيس المقدسات - فكر في عصبة الجنود التي، منذ عامين بالكاد، نهبت كل أردية الكهنة وكل الأشياء المقدسة - وستعود الكنيسة الأبدية، المقامة لتبقى إلى أبد الأبد، للتفاهم مع سلطات المدينة الأرضية. رجلٌ عسكري في ثياب مدنية... دون حراسة...

هبط وهو يلمس بإحدى يديه الجدار المنبجج، حيث تتساقط قطرات خيط داكم. تذكر القس أن موسم الأمطار سرعان ما سيبدأ. وقد أخذ هو على عاتقه، بكل سلطاته، التنبيه إلى ذلك من فوق المنبر وفي كل إعراف من إعرافاته: إنها خطيئة، خطيئة كبرى ضد الروح القدس أن نمتنع عن تلقى عطايا السماء؛ لا يمكن لأحد أن ينتهك تصاريف العناية الإلهية، وقد نظمت العناية الإلهية الأمور كما هي وهكذا يجب قبولها جميعاً؛ يجب على الجميع أن يخرجوا لفلاحة الأراضي، وجمع المحاصيل، وتسليم ثمار الأرض إلى مالكيها الشرعي، فهو مالك مسيحي يدفع إلتزامات إمتيازهم مسلماً العشور، في مواعدها، للكنيسة الأم المقدسة. فالرب يعاقب التمرد ودائماً ما ينهزم الشيطان على يد رؤساء الملائكة - رفائيل، وجبريل، وميخائيل، وجمائيل... جمائيل.

- والعدالة، يا أبتاه؟

- العدالة النهائية يتم توزيعها هناك فى الأعلى، يا بنى. لا تبحث عنها فى وادى الدموع هذا .

الكلمات - غمغم الأب حين إستراح، أخيراً، على الأرض الصلبة ونقض الغبار عن عبايته -: الكلمات، مِسْبَحَاتِ المقاطع اللعينة التى تشعل دماء وآمال من يجب أن يقنعوا بالعبور سريعاً بهذه الحياة القصيرة وبالتمتع، مقابل إختيارهم المميت، فى الحياة الأبدية. عبر الرواق وسار فى فرجة من البواكى. العدالة! من أجل من، ولأى مدى زمنى؟ بينما يمكن للحياة أن تكون مقبولة للجميع، إذا أدرك الجميع حتمية مصيرهم ولم يمضوا يتملقون، ويتراجعون عن ديونهم، ويطمحون...

- نعم، أظن؛ نعم، أظن... - كرّر الأب بصوت خفيض وفتح الباب المشغول لغرفة المقدّسات.

- عملٌ رائع، أليس كذلك؟ - قال عند إقترابه من الرجل الطويل الواقف أمام المذبح -. أطلع الآباء الرهبانُ الفنانين الهنود على تصاوير ولوحات محفورة، فأخذ هؤلاء يحوّلون أذواقهم إلى أشكال مسيحية... يقولون أن هناك معبوداً مختبئاً خلف كل مذبح. ولو كان الأمر كذلك، فإنه معبود خيّر، لم يعد يطلب دماً مثل الآلهة الوثنية... - حضرتك پايت؟

- ريميخيو پايت - قالت الإبتسامة المزمومة - وحضرتك: لواء، مقدّم، رائد...؟

- أرتيميو كروث فقط. - آه.

حين إفترق العقيد والقس أمام بوابة الكنيسة، عقداً پايت كفيه فوق معدته ونظر إلى الزائر الذى يبتعد. كان الصباح الأزرق الرائق يُحدّد ويُقربُ خطوط البراكين: ثنائى المرأة النائمة وحارسها

المستوحّد - زَرَّ عينيه: لم يكن يتحمل ذلك الضوء الشفاف: لاحظ
بإمّتان تقدّم السحب السوداء التي سرعان ما سترطّب الوادى
وتطفئ الشمس، كل مساء، بإعصارها الرمادى الدقيق التوقيت.

أدار ظهره إلى الوادى وعاد إلى ظلمة الدير. فرك يديه. لم يكن
ليهمه صلف ولا شتائم ذلك الأزعر. لو كانت تلك هى الطريقة لإنقاذ
الموقف والسماح لدون جمالييل بأن يقضى سنوات عمره الأخيرة
مَحْمِيّاً من كل خطر، فلن يكون ريميخيو پايت، كاهن الرب، هو من
سيفسد كل شئ بإستعراض للمهانة وبغيرة صليبي. على العكس: فهو
الآن يلحق شفّتيه مفكراً فى حكمة مسكّته. ولو أراد هذا الرجل أن
يُنقذ كبرياءه، فإن الأب پايت سيستمع إليه اليوم وغداً ورأسه منكّسة،
تهتز أحياناً بالموافقة، وكأنه يقبل بألم الذنوب التي ينسبها ذلك الجلف
القوى للكنيسة. تناول القُبعة السوداء المعلقة، ووضعها بإهمال فوق
رأسه ذات الخصلات الكستنائية ووجّه خطواته نحو منزل دون
جمالييل برنال.

- يمكنه أن يفعل ذلك، ولم لا - أكد العجوز ذلك المساء، بعد أن
تحدث مع القس -. لكننى أتساءل، أى حيلة سيستخدمها للدخول إلى
هنا؟ لقد قال للأب أنه سيأتى لرؤيتى اليوم بالذات. لا... لا أفهم
جيداً، كاتالينا.

رفعت هى رأسها. وأراحت يدها فوق نسيج الصوف الذى كانت
ترسم فوقه، بعناية، منظر أزهار. قبلها بثلاث سنوات، أبلغوهما بالنبأ:
مات جونثالو. ومن حينها، أخذ الأب والإبنة يتقاربان حتى حوّل هذا
المرور البطيء للأصائل، وهما جالسان فوق كراسى الفناء الخيزرانية،
إلى شئ أكثر من مجرد عزاء: إلى عادةٍ يجب، بحسب الأب، أن تمتد
حتى موته. ولم يكن يهتم كثيراً أن تتمزق سلطة وثروة الأمس؛ فربما
كانت تلك هى الجزية التى يجب دفعها للزمن وللشيخوخة. وضع دون

جماليل نفسه داخل صراع سلبي. فلن يخرج لإخضاع الفلاحين، لكنه لن يقبل أبداً غزوهم غير المشروع. لن يطالب المدينين بدفع القروض والفوائد، لكن لن يعود باستطاعتهم الحصول على درهم واحد، أبداً.

إنتظر أن يعودوا ذات يوم راكعين، حين تجبرهم الحاجة إلى التخلي عن الكبرياء. لكنه سيظل راسخاً في كبريائه. والآن... يصل هذا الغريب ويعدُّ بمنح قروض للفلاحين، بفائدة أقل كثيراً من فائدة دون جماليل ويتجرأ، فوق ذلك، بإقتراح أن تنتقل حقوق العجوز مالك الأرض إلى يديه مجاناً، مع الوعد بأن يُسدّد له ربع ما يستطيع إستعادته. إما هذا أو لا شيء.

- أنا أتصوّر الأمر؛ لن تنتهي طلباته عند هذا الحد.

- الأرض؟

- نعم، هناك مخططاً ما لإنتزاع الأرض مني، لا تشكّي في ذلك. مثل كل الأمسيات، مرّت على الأقفاص الملوّنة في الفناء، وأخذت تغطيها بأغطية من القماش بعد أن تراقب الحركات العصبية للطيور المغرّدة وطيور أبي الحناء التي تنقر البرغل وتسقسق، للمرة الأخيرة، قبل أن تختفي الشمس.

لم يكن العجوز يتوقع عقبة بهذا الحجم. آخر رجل رأى جوناثالو، رفيق زنزانته، حامل آخر كلمات الحب للأب، والأخت، والزوجة، والإبن.

- قال لي أنه فكّر في لويسا وفي الطفل قبل أن يموت.

- بابا. إتفقنا على أن لا...

- لم أقل له شيئاً. لا يعرف أنها تزوّجت من جديد وأن حفيدي يحمل إسماً آخر.

- منذ ثلاث سنوات وأنت لا تتحدث عن ذلك. فلماذا الآن؟

- معك حق. لقد غمرنا له، أليس كذلك؟ فكرت أننا يجب أن نغفر

له لأنه إنتقل إلى صف العدو. فكرتُ أننا يجب أن نحاول فهمه...
 - إعتقدتُ أننا أنت وأنا كنا نفقر له فى صمت، كل مساء، هنا.
 - نعم، نعم، هذا هو الأمر. إنك تفهمينى دون حاجة للكلمات. يا
 له من أمر مريح! أنت تفهمينى...

ولذا، فعندما وصل هذا الضيف المرهوب، المنتظر - لأن أحداً كان
 يجب أن يصل، ذات يوم، ويقول: "لقد رأيته. لقد عرفته. وقد
 تذكركم" - ووضع فى وجهيهما عقبتيه الكأداء، دون حتى أن يذكر
 المشكلات الحقيقية للتمرد الفلاحى والتوقف عن الدفع، فإن دون
 جمالييل، بعد أن أدخله إلى المكتبة، إعتذر وسار مسرعاً - هذا العجوز
 البطيء الذى يماهى بين التمثل والأناقة - نحو مخدع كاتالينا.
 - أصلحى من شأنك. إنزعى عنك هذا الثوب الأسود؛ وإرتدى
 شيئاً يجعلك تبدين مشرقة. وتعالى إلى المكتبة حين تدق الساعة
 السابعة.

لم يقل أكثر من ذلك. وسوف تطيئه: سيكون هذا هو برهان كل
 الأصائل السوداوية. ستفهم. بقيت هذه الورقة لإنقاذ الأمور: كان
 يكفى لدون جمالييل أن يشعر بحضور هذا الرجل وأن يخمن إرادته
 كى يفهم - أو يقول لنفسه - أن أى تلكؤ سيكون إنتحاراً، وأن من
 الصعب معارضته وأن التضحية المطلوبة ستكون ضئيلة، وليست، على
 نحو معين، مُتفَرِّجاً جداً. كان الأب يايث قد حذّره: رجل طويل، مملوء
 بالقوة، له عينان خضروان مغناطيسيتان ولهجة قاطعة. أرتيميو كروث.
 أرتيميو كروث. هكذا يُدعى، إذن، العالمُ الجديد المنبعث من
 الحرب الأهلية؛ هكذا يُدعى من وصلوا ليحلّوا محله. بلدٌ تعيس - قال
 العجوز لنفسه بينما يسير، متمهلاً مرةً أخرى، نحو المكتبة ونحو ذلك
 الحضور غير المرغوب لكنه مُذهل -: بلدٌ تعيس عليه فى كل جيل أن
 يُدمّر المالكين القدامى ويُحلّ محلهم سادةً جدداً، جشعين وطموحين

مثل سابقهم. كان العجوز يتخيل نفسه بإعتباره الناتج النهائي لحضارة كريولية* بشكل فريد: حضارة المستبدّين المستيرين. وكان يتهج حين يفكر في نفسه بوصفه أباً، قاسياً أحياناً، لكنه فى النهاية عائلاً ومالكٌ دوماً لتقاليد الذوق السليم، واللياقة، والثقافة.

لهذا أدخله إلى المكتبة. فهناك كان أكثر بدهاءً ذلك الطابع الموقر - شبه المقدس - لكل ما كانه ومثله دون جمالييل. لكن الضيف لم يتأثر. لم يغب عن حدة ذهن العجوز، بينما يُسند رأسه إلى المسند الجلدى ويكاد يغمض عينيه ليرى خصمه على نحو أفضل، أن هذا الرجل يحمل خبرةً جديدة، شكّلها المطارق، ومعتادةٌ على المراهنة بكل شئ لأنها لا تملك شيئاً. لم يذكر حتى الأسباب الحقيقية لزيارته. وقبل دون جمالييل فكرة أن الأمر أفضل على هذا النحو: ربما كان الرجل الحديث الوصول يدرك الأشياء بنفس الرهافة التى يدركها هو بها، رغم أن دوافعه أشد قوة: الطموح - إبتسم العجوز حين تذكر تلك العاطفة، التى ليست بالنسبة له سوى كلمة -: الدافع الملح لتقاضى الحقوق المكتسبة بالتضحية، والنضال، والجراح: تلك الندبة التى أحدثها سيفٌ فى جبهته. ولم يكن دون جمالييل يفكر فى ذلك وحده: ففى الشفاء الصامتة وفى النظرة البليغة للآخر كان مسطوراً ما عرف العجوز، الذى يلعب بالعدسة، كيف يقرأه.

لم يُحرّك الغريب إصبعاً حين إقترب دون جمالييل من منضدة الكتابة وأخرج تلك الورقة: قائمة مدينه. هذا أفضل. عبر هذا الطريق، سيتفاهمان بشكل أفضل؛ فربما لن يكون ضرورياً ذكر تلك الأمور المحرجة وربما سيتم حلّ كل شئ بطرق أكثر أناقة. لقد تعلم

⁴ ciolla: الكريول: كانت تطلق على الأمريكيين اللاتين ذوى الآباء الإسبان ثم أصبحت تعنى كل ما هو محلى وخاص ببلاد العالم الجديد.

العسكري الشاب بسرعة أسلوب السلطة، كرّر دون جمالييل ذلك لنفسه، وسهل هذا الشعور بالميراث الإجراءات المُرّة التي كان الواقع يُجبره عليها .

- ألم تر كيف كان ينظر إلي؟ - صرخت الفتاة حين ألقى الضيف تحية المساء .. ألم تتبّه لرغبته... لحيوانية هاتين العينين؟
- نعم، نعم - هدأ العجوز ابنته بيديه .. هذا طبيعي. فأنت جميلة جداً، أتعرفين؟، لكنك لم تخرجي من هذا المنزل إلا قليلاً. هذا طبيعي.

- ولن أخرج أبداً

أشعل دون جمالييل ببطء السيجار الذي كان يصبغ بالأصفر شاريه الكثيف ومنبت اللحية عند الذقن - ظننت أنك ستفهمين.
هزّ ببطء كرسي الخيزران ونظر إلى قبة السماء. كانت إحدى آخر الليالي الجافة، بسماء بلغ من صفائها أنك، إذا زررت عينك، لاستطعت إدراك لون النجوم الحقيقي. أخفت الفتاة خديها المشتعلين بين كفيها .

- ماذا قال لك الأب؟ إنه زنديق! إنه رجل بلا ربّ، وبلا إحترام... وأنت تصدق الحكاية التي اخترعها؟

- إهدئي، إهدئي. فالثروات لا تُخلق دائماً في ظل الآلهية.

- هل تصدق تلك الحكاية؟ لماذا مات جونتالو وليس هذا السيد؟
إذا كان الإثنان محكوماً عليهما في نفس الزنزانة، فلماذا لم يموتا هما الإثنان؟ أنا أعرف، أنا أعرف: ليس صحيحاً ما جاء يحكيه لنا؛ لقد اخترع هذه الحكاية لكي يُلحق بك المهانة وليجعلني...

كفّ دون جمالييل عن الإهتزاز. بدأت الأمور تجد حلاً بطريقة طيبة جداً، هادئة جداً والآن، من جدس المرأة، انبعثت تلك الحجج التي كان العجوز قد تخيلها، وقلّبتها، وطرحها جانباً

باعتبارها غير مُجدية.

- لديك خيال ذات العشرين عاماً.. - نهض وأطفأ السيجار.. - لكن لو شئت الصراحة، فسوف أكون صريحاً. هذا الرجل يمكنه أن ينقذنا. وأى إعتبار آخر سيكون زائداً عن الحاجة...
تهتدّ ومدّ ذراعيه ليلمس يديّ إبنته.

- فكرى فى آخر سنوات أبيك. هل تظنين أننى لا أستحق قليلاً من...؟

- نعم، يا بابا، لا أعترض...

- وفكرى فى نفسك.

خفضت رأسها.. - نعم، أدرك ذلك. كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث منذ أن ترك جونتالو البيت. لو كان حياً...
- لكنه ليس حياً.

- لم يفكر فىّ. من يدرى فيم فكّر.

خلف دائرة الضوء المنبعث من المصباح الزيتى الذى كان دون جمالييل يرفعه عالياً، وعلى طول الردهات العتيقة الباردة، أجبرت الفتاة نفسها على إستعادة ذلك الحشد من الصور القديمة والمختلطة: تذكّرت الوجوه المشدودة والمغمورة بالعرق لأصدقاء دراسة جونتالو، والمناقشات الطويلة فى غرفة آخر الردهة؛ تذكّرت النظرة الوضّاءة، العنيدة، المتلهّفة، لأخيها، ذلك الجسد العصبى الذى كان يبدو، أحياناً، كأنه موجودٌ خارج الواقع، الذى كان يحب وسائل الراحة، والعشاءات الدسمة، والنبيذ، والكتب والذى كان، فى نوبات سخط دورية، يجحد ذلك الميل الحسّى والإمتثالى. تذكّرت برودة لويسا، زوجة أخيها؛ والمشادات العنيفة التى كانت تتطفئ عندما تدخل الطفلة إلى القاعة؛ ذلك العويل المختق بالضحك لإمرأة جونتالو حين عرفت خبر موته؛ وخروجها الصامت، ذات فجرٍ، وهى تعتقد أن الجميع نائمون بينما

الصبيبة تُطلُّ من خلف زجاج القاعة: واليد القوية لذلك الرجل ذى القبعة المستديرة السوداء والعصا وهى تأخذ بيد لويسا وتساعدنا على الصعود، مع الطفل، إلى العربة السوداء المحمَّلة بصناديق الأرملة. لم يعد بمقدورها الإنتقام لتلك الميتة - قَبْلَ دون جمالييل جبهتها وفتح باب المخدع - إلا بمعانقة هذا الرجل، معانقته لكن مع إنكار الرقة التى يؤدُّ هو أن يجدها لديها. بقتله وهو على قيد الحياة، بتقطير المرارة حتى تُسمِّمه. نظرت إلى المرأة، باحثةً عبثاً عن التقاطيع الجديدة التى لا بد أن التفسير قد طبعها فى وجهها. وهكذا أيضاً سينتقمان هى وأبوها من هجران جونثالو، من مثاليته الحمقاء: بتسليم الفتاة ذات العشرين ربيعاً - لماذا تطفر دموع الشفقة من عينها حين تفكر فى نفسها، فى شبابها؟ - إلى الرجل الذى رافق جونثالو خلال تلك الساعات الأخيرة التى لا تستطيع هى تذكرها وقد رفضت الشفقة على نفسها، ووجهتها نحو الأخ الميت، دون شهقة سخط واحدة، دون تقلص واحد فى وجهها: إذا لم يشرح لها أحد الحقيقة، فسوف تتمسك بما تعتقد أنه الحقيقة. خلعت جوربها الأسود. وعند إحتكاك يديها بساقيها، أغمضت عينيها: أصبح من الواجب عليها ألا تسمح بعد الآن بذكرى القدم الخشنة والقوية التى ظلت تبصت عن قدمها خلال العشاء وأغرقت صدرها بشعور مجهول، لا يُروى. ربما لم يكن جسدها من عمل الرب - إنحنت، ضغطت أصابعها المتشابكة على حاجبيها - بل من عمل أجساد أخرى، لكن روحها من عمل الرب. لن تسمح بأن يسير هذا الجسد فى طريق لذيق، عفوى، مُتحرِّق إلى الهدهدات، بينما تملى عليها روحها طريقاً آخر. رفعت الملاء وانزلت داخل الفراش وعيناها مغمضتان. مدَّت يدها لتطفىء المصباح. وضعت الوسادة فوق وجهها. لا يجب أن تفكر فى هذا. لا، لا، لا يجب أن تفكر. لم يعد ثمة ما يجب قوله. قول الاسم الآخر، حكى الأمر

لأبيها . لا . لا . ليس من الضروري أن تحطُّ من شأن أبيها . فى الشهر القادم، فى أسرع وقت: فليتمتع ذلك الرجل بفوائد النقود، وبالأراضى، وبجسد كاتالينا برنال... ماذا يهم... رامون... لا، هذا الإسم لا، ليس بعد . نامت .

- أنت نفسك قلت ذلك، يا دون جمالييل - قال الضيف حين عاد، صباح اليوم التالى - . لا يمكن وقف مسار الأشياء . فلنسلم تلك الأراضى للفلاحين، فهى فى نهاية الأمر أراضى موسمية ولن تغلِّ لهم إلا أقلَّ القليل . ولنقسمها إلى قطع صغيرة حتى لا يستطيعوا أن ييذروا إلا زراعات قليلة الشأن . وسترى أنهم حين يضطرون إلى شكرنا على ذلك، سيتركون النساء تتولين أمر الأراضى السيئة ويعودون للعمل فى أراضينا الخصبة . تأمل ذلك فقط: إذ يمكنك حتى أن تصبح بمثابة بطل من أبطال الإصلاح الزراعى، دون أن يكلفك ذلك شيئاً .

راقبه العجوز، مُتَسَلِّياً، بابتسامةٍ يخفيها شعر اللحية الكثيف:
- هل تحدثتَ معها؟
- تحدثتُ ...

لم تستطع السيطرة على مشاعرها . إرتجفت ذقنها حين قرَّب يده وحاول أن يرفع وجهها ذى العينين المغمضتين . لمس لأول مرة هذا الجلد الأملس، الذائب فى قشدة، الشبيه بالفاكهة . ورافقتهما الرائحة النفاذة لنباتات الفناء، الأعشاب المُختلقة من الرطوبة، رائحة التربة المتعفنة . لقد أحبها . عرف، حين لمسها، أنه قد أحبها . كان يجب أن يجعلها تفهم أن حبه حقيقى، رغم أن المظاهر تنفيه . باستطاعته أن يحبها كما أحب ذات مرة، المرة الأولى: عرف أنه يمتلك تلك الرقة المُجرَّبة . عاد ليلمس خدى الفتاة الساخنتين: ولم تكفِ صلابتها، حين أحسَّت بتلك اليد الغريبة فوق جلدِها، للسيطرة على الدموع الحبيسة التى أفلتت من بين جفניה .

- لن تشتكى؛ لن تجدى سبباً للشكوى - غمغم الرجل، مقرباً وجهه من الشفتين اللتين راغتا من الملامسة .. فأنا أعرف كيف أحبك...
- يجب أن نشكر لك... أنك تعطف علينا - جاوبت هى بأخفت صوت لديها ..

فتح هو يده ليربت على شعر كاتالينا .. أنت تفهمين، أليس كذلك؟ سوف تعيشين إلى جانبى؛ عليك نسيان أشياء كثيرة... أعدك أن أحترم أشياءك... وعليك أن تعدينى بالأّ تعودى أبداً...
رفعت نظرتها وأرهقت عينيها بكراهية لم تشعر بها قط من قبل.
جفّ اللعاب فى حلقها. من هذا الوحش؟ من هذا الرجل الذى يعرف كل شىء، ويأخذ كل شىء، ويحطّم كل شىء؟
- أسكت... قالت الفتاة وتخلصت من تربيتته.

- لقد تحدثت معه. إنه فتى ضعيف. لم يكن يحبك حقاً. فقد استسلم للرعب فى الحال.
نظمت الفتاة بيدها أجزاء وجهها التى لمسها .. نعم، ليس قوياً مثلك... ليس حيواناً مثلك...

أرادت أن تصرخ حين أمسكها من ذراعها، وإبتسم وضم قبضته:
- هذا الرامونثيتو⁴ سيفادر بوييلا. لن تريه مرة أخرى أبداً...
أفلتها. خَطَّت نحو أقفاص القنّاء الملوّنة: نحو شدو الطيور ذاك. وبينما يتأملها دون أن يتحرك، أخذت تفتح الأقفاص الملوّنة، واحداً واحداً. أطل أبو الحنّاء وشرع فى الطيران. لكن طائراً مفرداً إمتنع، لتعوده على الماء وعلى اليرغل. وضعتة هى فوق خنصرها، وقبّلت جناحه ودفعته إلى الطيران. أغمضت عينيها حين طار آخر الطيور وتركت هذا الرجل يأخذها، ويسير بها إلى المكتبة

⁴ تصنيف رامون - م.

حيث كان دون جمايليل ينتظر، من جديدٍ دون تعجُّلٍ.

أنا أحسُّ بيدين تجذباني من إبطي وترفعاني لأستريح أفضل على الوسائد الناعمة ويكون الكتان المنعشُ بلسماً لجسدي الملهب والبارد؛ أحسُّ بهذا لكنني حين أفتح عيني أرى في مواجهتي تلك الصحيفة المفتوحة التي تخفى وجه من يقرأها: أفكر في أن الحياة المكسيكية* موجودة، وستكون موجودة كل يوم، ستصدر كل يوم ولن توقفها قوة على ظهر الأرض. تفلتها تيريسا - فهي التي تقرأ الصحيفة - بإنزعاج.

- هل جرى لك شيء؟ هل تحسّ بأن حالتك سيئة؟

على أن أهدئها بيدي فتتناول الصحيفة من جديد. لا؛ أحس بأنني راض، مُحركٌ لخدعة ضخمة. ربما. ربما كانت ضربة معلّم أن أترك وصيةً خاصة لتشرها الصحيفة، أقص منها حقيقة مشروعي الشريف للحرية والإعلامية... لا، لو أخذت في الاستثارة، لعادتنني الطعنة في أحشائي. أحاول مدّ يدي صوب تيريسا، طالباً منها التخفيف عني، لكن إبنتي عاودت الاستغراق في قراءة الصحيفة. قبلها رأيتُ النهار ينطفئ خلف النوافذ واستمعت إلى الحفيف الضارع للستائر. والآن، في غيبش المخدع ذي السقف من الخشب

¹ Vida Mexicana : الصحيفة التي يملكها - م.

المضغوط، والـ closets^٤ من خشب السنديان، لا يمكننى أن أُميّز جيداً المجموعة الأبعد عني. المخدع بالغ الإتساع، لكنها موجودة هناك. لابد أنها جالسة متصلة، والمندبل المنقوش بين يديها ووجهها دون مساحيق وربما لا تسمعني حين أغمغم:

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.
لا يسمعني إلا ذلك الغريب الذي لم أره أبداً، بخديّ الحليقين وحاجبيه الأسودين، ويطلب منى التوبة بينما أفكر أنا في التجار والعذراء ويعرض على مفاتيح السماء.

- ماذا يمكن أن تقول أنت... في غيبوبة كهذه...؟
فاجأته. لكن تيريسا لابد أن تفسد كل شيء بصرخاتها: - دعه، أيها الأب، دعه! ألا ترى أننا لا يمكننا عمل شيء! إذا كانت مشيئته أن يحكم على نفسه بالعذاب، ويموت كما عاش، بارداً وساخراً من كل شيء...؟

يُبعمها الكاهن بذراعه ويُقرب شفثيه من أذني: يكاد يُقبّلني...
ليس لهما أن تسمعانا.
وأتمكن أنا من الأنين: - إذن لتكن شجاعاً وتطرد كلتا هاتين الشمطاوين.

ينهض على قدميه بين صيحات إستكثار المراتين ويجرهما من ذراعيهما ويقترب بإديا، لكنهما لا تريدان.
- لا، يا أستاذ، لا يمكننا أن نسمح بذلك.
- إنها عادة منذ سنوات طويلة، يا سيدتي.
- علي مسئوليتك؟
- دون أرتيميو... أحضرت لك ما سَجَلناه هذا الصباح...

❖ مراحض أو غرفة صغيرة يخلو فيها المرء إلى نفسه - إنجليزية في النص - م.

أومئى بالموافقة. أحاول الابتسام. مثل كل يوم. رجلٌ جدير بالثقة،
بادييا هذا.

- فيشة الكهرياء بجوار المكتب.
- شكراً.

نعم، كيف لا، إنه صوتى، صوتى بالأمس - بالأمس، هذا الصباح؟
لن أُميّز الفرق - وأنا أسأل بونس، مدير تحرير صحيفتى - آه، الشريط
يُصدرُ صريفاً حاداً، إضبطه جيداً، يا بادييا، استمعت إلى صوتى
بالمقlob: يُصدرُ صريفاً كأنه ببغاء -: ها أنذا:

" - كيف ترى الأمر، يا بونس؟

" - سىء، لكن سهل الحل، حتى الآن.

" - الآن نعم، إدفع الصحيفة إلى الأمام، دون عبارات مُخفّفة.
إضربهم بقوة. لا تتأخر شيئاً.

" - أمرك. يا أرتيميو.

" - على الأقل فإن الجمهور قد تم إعداده جيداً.

" - على مدى سنوات طويلة ونحن نكرر.

" - أريد أن أرى كل المقالات الافتتاحية والصفحة الأولى...

إبحث عنى فى منزلى، فى أى ساعة كانت.

" - إنك تعرف، فكل شىء يمضى فى نفس الخط. يتم كشف

التقاب عن المؤامرة الحمراء. تسللٌ عجيب غريب عن المبادئ الجوهرية
للثورة المكسيكية...

" - الثورة المكسيكية المباركة!

" - ... زعماء يحركهم عملاء أجنب. تامبرونى يضرب بعنف

ويندفع بالانكو بعمود يُماهى فيه الزعيم بالمسيخ الدجال والرسوم
الكاركاتورية مشتعلة... كيف حالك؟

" - آى، ليس على ما يرام. توعك. سينتهى. كم نتمنى لو كنا كما كنا من قبل! هه؟

" - نعم، كم نتمنى...

" - قل لمستر كروكرى أن يدخل."

أسعل فى الشريط المغناطيسى. أستمع إلى مفصلات ذلك الباب وهو يفتح وينغلق. أحس أن لا شيء يتحرك فى أحشائي، لا شيء، لا شيء، ولا تخرج الغازات، مهما دفعتها... لكننى أراهما. دخلتا. يفتح الباب الماهوجنى وينغلق ولا تصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السمكة. لقد أغلقوا النوافذ.

- افتحوا النافذة.

- لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتعقد الأمور...

- افتحوا...

" - Are you worried, Mr. Cruz?"

" - تماماً. إجلس وسأشرح لك. هل تتناول شيئاً؟ قرب منك حاملة المشروبات. فأنا لا أحس أنتى على ما يرام."

أستمع إلى حركة المجلات الصغيرة، واصطدام الزجاجات فيما بينها.

" - You look O. K."

أستمع إلى سقوط الثلج داخل الكوب، وإلى ضغط ماء الصودا المندفع من السيفون.

" - إنظر: سأشرح لك اللعبة، إذا لم يكونوا قد فهموا. أبلغ المكتب المركزى أنه إذا انتصرت حركة التطهير النقابى المزعومة هذه. فيإمكاننا أن نقطع ذيلنا*...

¹ La coleta. كناية عامية عن العصور الذكري - م.

" - ذيلنا؟

" - نعم، نكح أنفسنا، بالمكسيك..."

- أقطعوا هذا! - تصرخ تيريسا، وتقرب من جهاز التسجيل - ما

قَلَّةُ الحياءِ هذه...؟

أتمكن من تحريك يدي، ورسم إيماءةٍ على وجهي. تضيق مني
بضع كلماتٍ من التسجيل.

" - ... ما يطالب به زعماء عمال السكك الحديد هؤلاء؟

يتمخط شخص، بعصبية. أين؟

" - إشرح ذلك للشركات، حتى لا يصدّقوا بسذاجة أن الأمر

يتعلّق بحركة ديموقراطية، أتفهمني، للتخلص من القادة الفاسدين. لا.

" - I'm all ears, Mr. Cruz.

نعم، لابد أن الجرينجو هو من يتمخط. آه - آخ - آخ.

- لا، لا. قد تصاب بالبرد وتعتقد الأمور.

- إفتحوا.

أنا ولست أنا وحدي، بل رجال آخرون، يمكننا أن نبحث في
النسيم عن عطر أرض أخرى، عن الشذى الذي ينتزعه الهواء من
ظهيرات أخرى: أشم، أشم: بعيداً عني، بعيداً عن هذا العرق البارد،
بعيداً عن هذه الغازات الملتهية: أجبرتهما على فتح النافذة: يمكنني أن
أتنفس ما يروقتني، أن أتسلّى بانتقاء الروائح التي تجلبها الريح: سواء
كانت غابات خريفية، أو أوراق محترقة، آه أشجار برقوق ناضجة، أو
أو فاكهة مدارية متعفنة، ملاحات قاسية، أو ثمار أناناس مفتوحة
بضربة سكين، أو أوراق تيغ منشورة في الظل، أو دخان قاطرات، أو
موجات بحر مفتوح، أو أشجار صنوبر يكسوها الجليد، آه معدن
وماشية، كم من الطعوم تحمل وتجلب تلك الحركة الأبدية: لا، لا، لن
تتركاني أعيش: تجلسان من جديد، تنهضان وتسيران ثم تعاودان

الجلوس سوياً، كأنهما ظلٌّ واحد، كأنهما لا تستطيعان التفكير أو
التصرف منفصلتين، تجلسان من جديد، فى نفس الوقت، وظهرهما
للتنافذة، لئتمنعا عنى تيار الهواء، لتخفنانى، لتجبرانى على إغماض
عينى وتذكّر أشياء طالما لا تدعانى أرى الأشياء، ألمس الأشياء، أشمُّ
الأشياء: ثنائى لعين، كم ستستغرقان فى إحضار قسيس، فى تعجُّل
موتى، فى انتزاع إعترافات منى؟ إنه يظل هناك، راكعاً، ووجهه
مغسول. أحاول أن أدير ظهري له. فيمنعنى ألم جنبى. آآآآى. لا بد أنه
إنتهى الآن. سأنال المغفرة. أريد النوم. ها هى الطعنة تأتى. ها هى
تأتى. آآآى - آى. والنساء. لا، ليستا هاتين. النساء. اللائى تعشقن.
كيف؟ نعم. لا. لا أدرى. لقد نسيتُ الوجه. بحق الرب، نسيت ذلك
الوجه. لا. لا يجب أن أنساه. أين هو. آه، كان جميلاً جداً ذلك الوجه،
كيف يمكن أن أنساه. آآآآه - آى. لقد أحبيتك، فكيف يمكن أن أنساكِ.
كنت ملكى، فكيف يمكن أن أنساكِ. كيف كنت، من فضلك، كيف كنت؟
يمكننى أن أؤمن بك، أناام معك، كيف كنت؟ كيف يمكن أن
أستحضركِ؟ ماذا؟ لماذا؟ الحقنة مرة أخرى؟ إيه؟ لماذا؟ لا لا، لا، شئ
آخر، بسرعة، أتذكر شيئاً آخر؛ هذا يؤلم؛ آآآآه - آى؛ هذا يؤلم؛ هذا
ينام... هذا...

أنت ستغض عينيك، واعياً بأن جفنيك ليسا مُعتمين، بأنك

على رغم أنك تغمضهما فإن الضوء ينفذ حتى شبكيتك: ضوء الشمس الذى سيُحجب، مؤطراً بالنافذة المفتوحة، على إرتفاع عينيك المغمضتين: العينان المغمضتان اللتان تحذفان تفاصيل الرؤية، تغييران البريق واللون لكنهما لا تحذفان الرؤية ذاتها، ذات ضوء ذاك الدرهم النحاسى الذى سينسكب صوب المغيّب، ستغمض عينيك وتعتقد أنك ترى أكثر: لن ترى إلا ما يودُ مخك أن تراه: أكثر مما يقدمه العالم: ستغمض عينيك ولن يعود العالم الخارجى يتنافس مع رؤيتك التخيلية. ستغمض جفنيك وسيخلق ضوء الشمس الساكن، الثابت، المتكرر ذاك خلف جفنيك عالماً آخر متحركاً: ضوء متحرك، ضوء يمكن أن يُرهق، أن يُرعب، أن يُريك، أن يُبهج، أن يُحزن: خلف جفنيك المغمضين، ستعرف أن كثافة ضوء ينفذ حتى أعماق تلك اللوحة المختصرة وغير المكتملة سيمكته أن يثير فيك مشاعر غريبة على إرادتك، وعلى حالتك. ورغم ذلك، سيمكنك أن تغمض عينيك، وتخترع عمى مؤقتاً. ولن يمكنك أن تسدّ سمعك، وتظاهر بصمم مُتخيل: أن تكف عن لمس شيء، ولو كان الهواء، بأصابعك، أن تتخيل إنعداماً مطلقاً للحس؛ أن توقف السيل المتصل للعابك عبر اللسان والفم، أن تتجاوز مذاقك أنت ذاك؛ أن تمن التفسّ المحشرج الذى سيواصل ملء الحياة فى رئتيك، ودمك، أن تختار موتاً جزئياً. إنك دوماً سترى، دوماً ستلمس، دوماً ستذوق، دوماً ستشم، دوماً ستسمع: ستكون قد صرخت وهم يخترقون جلدك بتلك الإبرة المليئة بسائل مهدى، ستصرخ قبل أن تحسّ بأى ألم. الإنذار بالألم سيسافر إلى مخك قبل أن يحسّ جلدك بالألم ذاته: سيسافر ليحذرك من الألم الذى ستحسّه، ليجعلك متأهباً حتى تنبّه، حتى تحسّ بالألم بعدة أكثر، لأن الإنتباه يُضعف، يُحيلنا إلى ضحايا حين ننتبه إلى أننا نحن وحدنا سننتبه للقوى التى لن تستشيرنا، لن تنتبه لنا؛

والآن: فإن أجهزة الألم، الأبطأ، ستهزم أجهزة الوقاية الإنعكاسية، وستحسُّ بأنك مُنقسم، رجلٌ سيستقبل ورجل سيفعل، رجل يحسُّ ورجل يُحرِّك، رجلٌ مُكوِّن من أجهزةٍ ستحسُّ، وستنقل الإحساس إلى ملايين الألياف الدقيقة التى ستمتد حتى لحائك الحسى، حتى ذلك السطح فى النصف الأعلى من المخ الذى، طوال واحدٍ وسبعين عاماً، سيتقبل، ويُراكم، ويستهلك، ويُعرى، ويُعيدُ ألوان العالم، وملامس اللحم، وطعوم الحياة، وروائح الأرض، وأصوات الهواء: مُعيداً إياها إلى المحرِّك الأمامى، إلى الأعصاب، والعضلات، والغدد التى ستُغيِّر جسدك ذاته وذلك الجزء من العالم الخارجى الذى سيكون من نصيبك.

لكن فيما يشبه النوم، فإن الألياف العصبية التى ستقود المثير الضوئى لن تتصل بمنطقة الرؤية: ستنتصتُ إلى اللون، مثلما ستذوق الملامس، ستلمس الأصوات، سترى الروائح، ستشم الطعوم: ستمدُّ ذراعيك كى لا تسقط فى آبار الهوى، كى تستعيد نظامَ حياتك كلها، نظام المؤثر الذى يتم إستقباله، ونقله إلى العصب، وإسقاطه على المنطقة الصحيحة من المخ، لِيُعَادَ إلى العصب وقد تحوَّل إلى تأثير ومرة أخرى إلى مؤثر: ستفرد ذراعيك وسترى خلف عينيك المغمضتين ألوان ذهنك وستحسُّ فى النهاية، دون أن ترى، بمصدر الملمس الذى تُصنِّعُ إليه: إنها الملاءات، حفيف الملاءات بين أصابعك المكرمشة: ستفتح يديك وستحسُّ بعرق راحتك وربما ستتذكر أنك ولدت دون خطوط للحياة أو للحظ، للحياة أو للحب: ولدت، ستولد وراحتك ملساء، لكن سيكفى أن تولد حتى يمتلئ هذا السطح الفارغ، خلال ساعات قليلة، بالعلامات، بالخطوط، بالإنذارات: وستموت وخطوط راحتك كثيفة، مستهلكة، لكن سيكفى أن تموت حتى يكون كل أثرٍ للمصير قد إختفى، بعد ساعات قليلة، من يدك.

الهيولى: ليس لها جمع

نظام، نظام: ستمسك الملاءات وستكرّر فى صمت، داخلك،
الإحساسات التى يضعها مخك فى مكانها، ويوضحها: ستحدّد ذهنياً،
بجهد، المواضع التى تنبّه إلى العطش والجوع، إلى العرق والرجفة، إلى
التوازن والسقوط: ستحدّدّها فى المخ الأدنى، الكادح، الخادم الذى
ينجز المهام الفورية ويُحرّر الآخر، الأرقى، للتفكير، للتخيل، للرجبة:
إنبأ للصنعة، للضرورة أو للصدفة، لن يكون العالم بسيطاً: لن تستطيع
معرفة فى سلبية، تاركاً الأشياء تحدث لك: سيتوجب عليك أن تفكر
حتى لا يهزمك تداعى الأخطار، أن تتخيّل حتى لا ينفيك التبوُّ
الخالص، أن ترغب حتى لا يلتهمك نسيج ما ليس مؤكداً: ستتجو:
ستعرّف على نفسك:

ستعرّف على الآخرين وستتركهم - ستتركها - يتعرفون عليك:
وستعرف أنك ستقف ضد كل فرد، لأن كل فرد سيكون عقبة أخرى
فى سبيل بلوغ أهداف رغبتك؛
سترغب: كم ستودّ أن تكون رغبتك والشئ المرغوب شيئاً واحداً؛
كم ستعلم بالتحقق الفورى، بالتماهى دون انفصال بين الرغبة والشئ
المرغوب:

ستتمدّد وعيناك مغمضتان، لكنك لن تكف عن الرؤية، لن تكف
عن الرغبة: ستتذكر، لأنك بذلك ستجعل الشئ المرغوب ملكاً لك:
إلى الورا، إلى الورا، فى الحنين، ستتمكن من جعل كل ما ترغب ملكاً
لك: ليس إلى الأمام، بل إلى الورا:
الذاكرة هى الرغبة المتحققة:

إبق على قيد الحياة مع الذاكرة، قبل أن يفوت الأوان،
قبل أن يمنحك الهيولى من التذكر.

(١٩١٣: ٤ ديسمبر)

هو من أحسن بتجوييف ركبة المرأة، الرطب، بجوار خصره. كانت تعرق دائماً على هذا النحو الخفيف والمنعش: حين فصل ذراعه عن خصر ريخينا، هنالك أيضاً أحسن برطوبة الزجاج السائل. مدّ يده ليرتّب على الظهر كله، بتمهل، وظن أنه غرق في النوم: كان يمكنه أن يظل هكذا طوال ساعات، دون شيء يفعله سوى الترييت على ظهر ريخينا. حين أغمض عينيه، إنتبه إلى لا نهائية التوله بهذا الجسد الفتى الذى يحتضن جسده: فكر أن الحياة برمّتها لن تكون كافية لإرتياده واكتشافه، لاستكشاف تلك الجغرافيا الناعمة، المتماوجة، ذات الفتوات السوداء، الوردية. كان جسد ريخينا ينتظر وتمطّى هو، دون صوت ودون رؤية، فوق الفراش، لامساً القضبان الحديدية بأطراف يديه وقدميه: تمدّد نحو طرفى السرير. كانا يعيشان داخل هذا الزجاج الأسود: فالفجر كان لا يزال بعيداً. كانت الناموسية خفيفة وتعزلهما عن كل ما هو خارج الجسدين. فتح عينيه. إقترب خدّ الفتاة من خدّه؛ إحتكت اللحية الشعثاء بجلد ريخينا كأن الظلام لم يكن كافياً. فقد كانت عينا ريخينا الواسعتان تلمعان، شبه مغمضتين، مثل ندية سوداء وبراقة. تنفّس بعمق. إشتبكت يدا ريخينا حول رقبة الرجل، وعاودت الوجنتان الإقتراب. إنصهرت حرارة الأفخاذ فى لهب واحد. تنفّس هو: مخدّع من البلوزات والتورتات المنشأة، وثمار

السفرجل المقطوعة فوق المنضدة من خشب الجوز، ولهيب البارافين
المطفاً. وعلى مسافة أقرب، العبقُّ البحري للمرأة المنداة الطرية.
أصدرت الأظافر صوتَ خربشةِ قِطْ بين الملاءات؛ وعادوت الساقان
الارتفاع، بخفة، لتطوّقا خصر الرجل. بحثت الشفتان عن العنق.
وارتجفت قمّتا الثديين بهرح حين قرّبت شفّتيه، ضاحكاً، مُزجياً الشعر
الطويل المشعث. لو تكلمتُ ريخينا: أحسنّ بالنفّس القريب وكمّم
الشفّتين بيده. بلا لسان وبلا عينين: الجسد الأخرس فقط، مستسلماً
لمتعبته. فهمت هي. والتّصقت أكثر بجسد الرجل. هبطت يدها إلى
عضو الرجل وهبطت يده إلى التّلة الصلبة وشبه الجرداء لهذه الطفلة:
تذكّرها عارية، واقفة، فتيةً وصلبة في سكونها، لكنها متماوجةً وناعمة
حين تمشي: لتغتسل سراً، لترخي الستائر، لتذكي الجمر. عاودا النوم،
وكلّ منهما يتملّكه مركز الآخر. الأيدي فقط، يدٌ واحدة، هي التي
تحركت في الحلم الباسم.

" - سأتبعك.

" - وأين ستعيشين؟

" - سأتسلّل إلى كل قرية قبل أن تستولوا عليها. وهناك

سأنتظرك.

" - ستتخلّين عن كل شيء؟

" - سأحمل بضعة أردية. وستعطيني أنت ما أشتري به فاكهة

وطعاماً وسأنتظرك. وحين تدخل القرية، سأكون هناك. يكفيني رداء

واحد."

تلك الجونلة التي تسترخي الآن فوق كرسي الغرفة المستأجرة.

حين يصحو، يروق له أن يلمسها وأن يلمس كذلك الأشياء الأخرى:

الأمشاط، والحذاء الأسود، والقرط الصغير المتروك فوق المنضدة. كان

بوذه، في تلك اللحظات، أن يُقدّم لها شيئاً أكثر من أيام الإنفصال

واللقاءات الصعبة هذه. ففى مناسبات أخرى كان أمرٌ غير متوقع، أو ضرورة مطاردة العدو، أو هزيمة ما تجعلهم يتقهقرون إلى الشمال، تفصل بينهما طوال عدة أسابيع. لكنها، مثل طائر نورس، بدا أنها تتبين، فوق التقلبات الألف للنضال وللحظ، حركة المدّ الثورى: وإذا لم تظهر فى القرية التى إتفقا عليها، فإنها ستظهر فى أخرى آجلاً أو عاجلاً. ستمضى من قرية إلى قرية، سائلةً عن الكتيبة، ومُنصتةً إلى إجابات العجائز والنساء اللاتى بقين فى منازلهن:

" - مرّوا من هنا منذ خمسة عشر يوماً.

" - يُقال أنه لم يبق منهم أحدٌ حياً.

" - من يدري. قد يعودون. فقد تركوا بعض المدافع منسيّة.

" - حاذرى من الفيدراليين، فهم يمشون مطلقين الرصاص على

كل من يساعد المتمردين."

ويتقابلان من جديد فى النهاية، مثلما الآن. تكون هى قد أعدت الغرفة، بفاكهة و طعام، وتكون الجونلة ملقاةً فوق كرسى. ستنتظره هكذا، مستعدةً كأنها لا تريد أن تُضيّع دقيقةً واحدة فى الأشياء غير الضرورية. لكن لا شئ غير ضرورى. رؤيتها تمشى، وتعدُّ الفراش، وتتك شعرها. تجريدها من آخر ثيابها وتقبيل جسدها كله، بينما تظل هى واقفةً وبركع هو، ماراً بشفتيه على جسدها كله، مُتذوقاً الجلد والزغب، رطوبة القوقع: ملتقطاً فى فمه إرتجافات الطفلة المنتصبة التى سينتهى بها الأمر إلى إمساك رأس الرجل بين يديها لتجبره على أن يرتاح، على أن يدع شفثيه فى موضع واحد. وتسترسل على قدميها، مُحكمةً قبضتها على رأس الرجل، بشهقة مُختلجة، حتى يحس بها نظيفةً ويحملها إلى الفراش بين ذراعيه.

" - أرتيميو، هل سأراك ثانيةً؟

" - لا تقولى هذا أبداً. ضعى فى إعتبارك أننا نعرف بعضنا مرةً فى العمر."

لم تعاود السؤال أبداً. خجلت من إنها سألته مرة، من كونها فكرت أن حبهما يمكن أن تكون له نهاية أو يُقاسَ كما يُقاسُ زمنُ الأشياء الأخرى. لم تجد مبرراً يجعلها تتذكر أين، أو لماذا، عرفت هذا الشاب ذا الأربع والعشرين عاماً. لم يكن ضرورياً حمل عبء شئ غير الحب واللقاءات خلال أيام الراحة القليلة، حين تستولى القوات على معقل وتتوقف لتستعيد عافيتها، وتؤكد وجودها فى أرض مُتزعجة من الدكتاتورية، وتتزود بالعتاد، وتخطط للهجوم التالى. هكذا قرر الإثنان، دون أن يقولوا هذا مطلقاً. لن يفكرا أبداً فى خطر الحرب ولا فى وقت الفراق. وإذا لم يظهر أحدهما فى الموعد التالى، فسوف يواصل كل واحد طريقه دون أن يقول شيئاً: هو صوب الجنوب، حتى العاصمة؛ وهى فى طريق العودة إلى الشمال، إلى شواطئ سينالوا حيث عرفتة وانسأقت للحب.

" - ريخينا... ريخينا..."

" - هل تتذكر تلك الصخرة التى تنغمس فى البحر مثل زورق حجرى؟ لا بد أنها مازالت هناك.

" - هناك عرفتك. هل كنت تذهبين كثيراً إلى ذلك المكان؟

" - كل مساء. هناك تتشكّل بركة بين الصخور ويمكن للمرء أن ينظر إلى نفسه فى المياه البيضاء. هناك كنت أنظر إلى نفسى وذات يوم ظهر وجهك بجوار وجهى. فى الليل، تنعكس النجوم فى البحر. وفى النهار، تبدو الشمس وهى تلتهب.

" - لم أدر ماذا أفعل ذلك المساء. كنا نقاتل وفجأة توقّف القتال، فقد إستسلم الزعران وكان المرء قد تعودَ على حياةٍ أخرى. عندئذ بدأت أتذكر الأشياء الأخرى وصادفتك جالسةً فوق تلك الصخرة.

وقدماك مُبْتَلَتَانِ.

" - أنا أيضاً أردت ذلك. ظهرت إلى جوارى، بجانبى، منعكساً فى نفس البحر. ألم تتبّه إلى أننى أردت ذلك أنا أيضاً؟"

تأخّر الفجر فى القدوم، لكن غلالةً رمادية كشفت نوم الجسدين، اللذين توحّد بينهما الأيدى. إستيقظ هو أولاً وتطلّع إلى نوم ريخينا. بدا أنه أرق خيوط نسيج عنكبوت القرون: بدا أنه توأم الموت: النوم. الساقان مضمومتان، والذراع الحر فوق صدر الرجل، والفم رطب. كان يروق لهما ممارسة الحب فى الفجر: وكانا يعيشانه كعيد للإحتفال باليوم الجديد. كان الضوء الكامد يُظهر بالكاد المنظر الجانبى لريخينا. خلال ساعة، سينصتان إلى ضوضاء القرية. أما الآن، فليس سوى تنفس الشابة السمراء التى تنام تملؤها السكينة، والتى هى الجزء الحى من العالم الذى يستريح. شئ واحد فقط يمكن أن يكون له الحق فى إيقاظها، سعادة فقط هى التى يمكن أن يكون لها الحق فى قطع هذه السعادة للجسد المملوء بالسكينة فى نومه، المرسوم على الملاءة، ملتقاً فى نفسه بنعومة قمر مُكتس بالجِداد. هل له الحق؟ قفز خيال الشاب فوق فعل الحب: تأملها نائمة كأنها تستريح من فعل الحب الجديد الذى سيوقظها خلال ثوان قصيرة. متى تكون السعادة أكبر؟ ربّت نهد ريخينا. تخيل ما سيكون إتحاداً جديداً، الإتحاد ذاته؛ البهجة المتعبة للتذكر ثم الرغبة الكاملة من جديد، يُضاعفها الحب، فعل حب جديد: السعادة. قبل أذن ريخينا ورأى عن قُرب إبتسامتها الأولى: قُرب وجهه حتى لا تغلق منه أول إيماءة للبهجة. أحسّ بيدها تعاود مداعبته. أزهرت الرغبة من الداخل، مبدورة بنقاط حُبلى: عادت ساقا ريخينا تبحثان عن خصر أرتيميو: اليد المليئة تعرف كلّ شئ: أفلت الإنتصاب من الأصابع واستيقظ معها: تباعد الفخذان مرتجفين، ممثلين، ووجد اللحم المنتصب اللحم المفتوح ودخل يُهدده،

يُطَوِّقُه النَبْضُ المتشوّق، وتُتَوَجَّه خَصِيَّتَانِ فتيتان، مُنْضَغِطَاً فى هذا الكون من اللحم الطرى والعاشق: إختزلا إلى لقاء العالم، إلى بذرة العقل، إلى الصوتين اللذين يُسمَّيان فى صمت، اللذين يُعمَّدان فى الداخل كل الأشياء: فى الداخل، حين يُفكر هو فى كلِّ شىء ما عدا هذا، يُفكر، يُعدِّد الأشياء، لا يفكر فى شىء، حتى لا ينتهى هذا: يحاول ملء رأسه ببحار ورمال، برياح وثمار، بدور وحيوانات، بأسماء وبذور، حتى لا ينتهى هذا: فى الداخل، حين يرفع وجهه وعيناه مغمضتان ويتمدّد عنقه بكل قوة العروق المنتفخة، حين تضيق رخيئنا وتستسلم وتجبب بزفريات مختقة، مُقْطَبَةٌ جبينها وشفثاتها باسمتان أن نعم، أن نعم، أنها تُحبُّ ذلك، أن نعم، أن لا يتركها، أن يستمر، أن نعم، أن لا ينتهى، أن نعم، حتى الإنتباه إلى أن كل شىء قد حَدَثَ فى نفس الوقت، دون أن يتمكن أحدٌ من تأمل الآخر لأن الإثنين كانا نفس الشىء ويقولان نفس الكلمات:

" - أنا الآن سعيدة.

" - أنا الآن سعيد.

" - أحبك، يا رخيئنا.

" - أعشقتك، يا رَجُلِي.

" - هل أجعلك سعيدة؟

" - لا تنته أبداً؛ كم تدوم؛ كم تملؤنى"

بينما دوى فى الشوارع صوت دلو من الماء فوق التراب وممر البيط البرى وهو يبطبط بجانب النهر وأعلن صفير تلك الأشياء التى لا يستطيع وقفها أحدٌ: جرجرت الأحذية العسكرية خريشة المهاميز، وعاودت الحوافر الدوى وسرت روائح الزيت والدهن بين الأبواب والبيوت. مدّ هو يده ويبحث عن السجائر فى جيب القميص. وإقتريت هى من النافذة وفتحتها. بقيت هناك، وهى تتنفس، وذراعها

مفتوحتان، على أطراف أصابعها. إقتربت دائرة الجبال الداكنة مع الشمس صوب عيون الحبيبين. تصاعدت رائحة مخبز القرية، وعلى مسافة أبعد، مذاق نبات الآس المشتبك بأعشاب السفوح العظيمة. ولم ير هو إلا الجسد العارى، ذا الذراعين المفتوحتين اللتين أرادتا، الآن، الإمساك بظهر النهار وجذبه معها إلى الفراش.

- هل تريد إفطارك؟

- الوقت مبكر. دعيني أنهي سيجارتي أولاً.

إستندت رأس ريخينا على كتف الشاب. ربتت اليد الطويلة المعروقة على مؤخرتها. إبتسم الإثنان.

- حين كنت طفلة، كانت الحياة جميلة. كانت هناك لحظات كثيرة جميلة. الإجازات، أوقات الراحة، أيام الصيف، الألعاب. لا أدري لماذا حين كبرت بدأت أنتظر أشياء. لم أفعل وأنا طفلة. لهذا بدأت أذهب إلى ذلك الشاطئ. قلت لنفسى أن الإنتظار أفضل. لم أدري لماذا تغيرت إلى هذا الحد خلال ذلك الصيف وكففت عن كونى طفلة.

- مازلت حتى الآن، أتعرفين؟

- معك؟ مع كل ما نفعله؟

ضحك وقبلها فضمت ركبتهما، فى وضع طائر مطوى الجناحين، يتخذ عُنْشَه فى صدر الرجل. تعلقت بعنق الرجل، بين الضحكات والتهنئات المصطنعة:

- وأنت؟

- أنا لا أتذكر. قابلتك وأحبك كثيراً.

- قل لى. لماذا عرفت، فور أن رأيتك، أننى لن يعود يهمنى شيء أبداً؟ أتعرف: قلت لنفسى أن على أن أحزم أمرى فى تلك اللحظة ذاتها. أنك إذا تجاهلتى، سأكون قد فقدت حياتى كلها. ألم يحدث لك ذلك؟

- نعم، حدث لى أيضاً. ألم تظننى أنه جندى آخر، يبحث عن شىءٍ
يُسليهِه؟

- لا، لا. لم أر رداءك العسكرى. لم أر سوى عينيك منعكستين فى
الماء وعندها لم أعد أستطيع رؤية إنعكاسى بدون إنعكاسك إلى
جوارى.

- يا حلوة؛ يا حبى؛ إنظرى إن كان لدينا قهوة.

حين إفترقا، ذلك الصباح المماثل لكل صباحات حب عمره سبعة
شهور فتيةً، سألته إن كانت القوات ستعاود الخروج سريعاً. فقال أنه لا
يعرف فيم يفكر الجنرال. ربما كان عليهم الخروج لتشتيت بضع
جماعات من الفيدراليين المهزومين الذين مازالوا باقين فى الناحية،
لكن المعسكر سيظل فى هذه القرية على كل حال. فهناك ماء وفير
وماشية على مقربة. إنه موقعٌ جيد للبقاء برهة. فقد جاءوا مُتهكين،
من سينالوا، ويستحقون راحة قصيرة. فى الحادية عشرة يجب على
جميع القوات الإبلاغ فى قيادة الموقع. وفى كل قرية مرَّ بها الجنرال،
كان يستفسر عن ظروف العمل ويصدر مراسيم تخفض ساعات العمل
اليومية إلى ثمانى ساعات وتوزع الأراضى على الفلاحين. وإذا كانت
هناك ضيعة فى المكان، كان يأمر بإحراق مخازنها. وإذا كان ثمة
مرابين - وهناك منهم دائماً، إذا لم يكونوا قد فرَّوا مع الفيدراليين -
كان يُعلن إلغاء جميع الديون. الأمر السىء هو أن أغلب السكان كانوا
يحملون السلاح ويحاربون وجميعهم تقريباً من الفلاحين، بحيث لم
يكن هناك من يتولى تطبيق مراسيم الجنرال. ومن هنا كان من
الأفضل إنتزاع الأموال فوراً من الأغنياء الذين يتيقنون فى كل قرية
وإنتظار أن تنتصر الثورة لتقنين ما يتعلق بالأراضى وييوم العمل من

ثمانى ساعات. أما الآن فيجب الوصول إلى مكسيكو لكي يُسقطوا من الرئاسة السكير هويرتا، قاتل دون پانتشيتو ماديرو* . وماذا يتبقى! - غمغم بينما يُدخل القميص الكاكي فى البنطلون الأبيض - ماذا يتبقى! من بيراكروث، من الأرض، حتى مدينة مكسيكو ومن هناك حتى سوتورا، حين طلب منه الأستاذ سياستيان أن يفعل ما لم يعد العجائز يستطيعون فعله: أن يمضى إلى الشمال، ويحمل السلاح ويُحرّر البلاد. لقد كان صبيّاً حينذاك، رغم أنه كان سيكمل الحادية والعشرين. أكيد، فلم يكن حتى قد ضاجع امرأة. وكيف كان يمكنه أن يخذل الأستاذ سياستيان، الذى علّمه الأشياء الثلاثة التى يعرفها: القراءة، والكتابة، وكراهية القساوسة.

كفّ عن الكلام حين وضعت ريخينا قدحى القهوة على المنضدة.
- إنها ملتهبة!

كان الوقت مبكراً. خرجا إلى الطريق متعانقين من خصريهما. هى بجونلتها المنشأة؛ وهو بقبّعة الجوخ والسُترة البيضاء. كان البيت الذى يعيشان فيه قريباً من جرف الجبل؛ وكانت الأزهار البرية معلقة فى الفراغ وثمة أرنبٌ مزقته أنياب الذئب المكسيكى يتعفن بين الأغصان. وفى العمق، كان ينساب جدول. حاولت ريخينا النظر فيه، كأنها تتوقع أن تجد، مرةً أخرى، الإنعكاس الذى اخترعته فى خيالها. تماسكت اليدان: كان الطريق نحو القرية يمضى مُصعّداً بجوار المنحدر ومن الجبال تردد صدّى صوت طائر صدّاح. لا: إنه ضجيج حوافر خفيفة، ضائعة بين سحب التراب.

* ماديرو (فرانثيسكو إندالثيو) (١٨٧٣-١٩١٣): كان بطل الحريات الديمقراطية والاصلاحات الإجماعية ضد ديكتاتورية بورفيريو ديات. إنتخب رئيساً عام ١٩١١ واغتيال - م

- أيها الملازم كروث! أيها الملازم كروث!
ذلك الوجه المبتسم دوماً للوريتو، مساعد الجنرال، إختفى، حين
توقف الحصان بسهولة واحدة جافة، خلف العرق والتراب الذى يكسوه.
- تعال فوراً - لهث وهو ينظف وجهه بمنديل -؛ هناك مُستجدات:
سنخرج خلال برهة قصيرة. هل أفطرت؟ فى المعسكر يقدمون بيضاً.
- لدى ما يخصنى منه - أجاب هو بابتسامة.
كان عناق ريخينا عناقاً من تراب. وفقط عندما إبتعد حصان
لوريتو، وارتاحت الأرض، ظهرت المرأة بكاملها، مُتعلقةً بكفى حبيبها
الشاب.

- إنتظرنى هنا.
- ماذا تظن الأمر؟
لا بد أن هناك مجموعات مشتتة فيما حولنا. لا شئ خطير.
- هل أنتظر ك هنا؟
- نعم. لا تتحركى. سأعود الليلة أو غداً مبكراً على أقصى
تقدير.

- أرتيميو... سنعود إلى هناك يوماً ما؟
- من يدرى. من يدرى كم يستمر هذا. لا تفكرى فى ذلك.
أتعرفين أننى أحبك جداً؟
- وأنا أحبك. جداً. دائماً فيما أظن.

فى الخارج، فى الفناء المركزى للمعسكر، وفى إسطبلات الخيالة،
كانت القوات قد تلقت الأمر الجديد بالتحرك وأخذت تُعدُّ أشياءها
بهدوءٍ طقس. تدرجت المدافع فى طابور، تجرها بغال بيضاء تحيط
بعميوتها دوائر سوداء؛ وتبعثها عربات المدافع مُحملةً بالخيرة فوق
القضبان الحديدية التى تربط الفناء بالمحطة. وكانت قوات الفرسان
تشُدُّ أعنة الخيول، وتفك أكياس العلف، وتستوثق من إحكام السروج،

وتُرِيت على الأعراف الخشنة لخيول الحرب تلك، البالغة الدعة والبطء فى تعاملها مع الرجال: يلطّخها البارود، ويطونها تعجُّ بقُرَاد السهول، كان مائتاً حصان يتحركون بتثاقُل أمام المعسكر، بألوان برتقالية، ورطاء، وسوداء بلون التراب. وكان المشاة يزيّتون البنادق ويمرون فى صفٍّ أمام القزم المرح الذى يوزع الرصاص. قبعاتٌ من الشمال: قبعاتٌ من الجوخ الرمادى، ذات حافة مطوية. ومناديلٌ معقودةٌ حول العنق. وأحزمة طلاقات معقودة حول الخصر. أحذية قليلة: ينطلون من القماش الخشن وحذاء من الجلد الأصفر، إن لم يكن صندلاً هندياً. قميص مخطط، دون رقبة. وهنا وهناك - فى الشوارع، والأفنية، والمحطة - قبعات هنود الياكى مزينة بأغصان: الموسيقيون وبين أيديهم المزامير وعلى أكتافهم الآلات المعدنية. آخر رشفات من الخمر. قرواناتٌ مملوءة حتى الحافة بطبيخ الفاصوليا. أطباق من البيض المقلّى. تصاعد الصباح من المحطة: فقد وصلت إلى القرية عربية بضاعة مليئة بالهنود المايو، بقرع طبولٍ حادٍ وتلويحٍ بأقواس ملونة وسهام بدائية.

شقُّ لنفسه طريقاً: فى الداخل، أمام الخريطة السيئة التعليق فوق الحائط، شرح الجنرال: - شن الفيدراليون هجوماً مضاداً خلف ظهورنا، فى أرض حرّرتها الثورة. يحاولون فصلنا عن المؤخرة. فجر اليوم، تبين أحد الحراس سحابة كثيفة من الدخان تتصاعد من الجبل فى اتجاه القرى التى يحتلها المقدّم خيمينث. نزل ليحكى الأمر، فتذكرت أن المقدّم، فى كل قرية، كان قد أمر بجمع كومة كبيرة من الأخشاب وعلكات السكك الحديدية لإحراقها إذا هوجم حتى يندرنا. وهذا هو الأمر. علينا أن نقسم قواتنا، نصف القوات يتراجع إلى الجانب الآخر من الجبل لمعاونة خيمينث. والنصف الآخر يخرج ليضرب بقوة المجموعات التى هزمتها أمس، ولرؤية إن كنا سنواجه

هجوماً كبيراً آخر من الجنوب. ولن يبقى في هذه القرية سوى لواء واحد. لكن يبدو أن من الصعب أن يصلوا حتى هنا. الرائد جابيلان... الملازم أباريثيو... الملازم كروث: أنت ستراجع إلى الشمال.

كانت النيران التي أشعلها خيميث آخذة في الانطفاء حين عبر هو، نحو منتصف النهار، موقع المراقبة عند حافة الجبل. وهناك إلى أسفل، ظهر القطار الغاصُّ بالبشر: كان يجري دون صفير حاملاً مدافع الهاون والمدافع، وصناديق الذخيرة والمدافع الرشاشة. هبطت فصيلة الفرسان السفوح المنحدرة بصعوبة وبدأت المدافع، من خط السكة الحديد، في إطلاق قذائفها على القرى التي يُفترض أن الفيدراليين يحتلونها.

- فلنسرع - قال -. هذه النيران ستستمر نحو ساعتين وعلينا بعدها أن ندخل للاستكشاف.

لم يدرك أبداً لماذا، حين لمست حوافر حصانه بداية الأرض المستوية، خَفَضَ رأسه وضاع منه تصوُّر المهمة المحددة التي أوكلت إليه. تبخَّر وجود رجاله، مع الشعور الحازم ببلوغ هدف وظهرت بدلتهما تلك الرقة، ذلك الأسى الداخلي على شيء مفقود، تلك الرغبة في العودة ونسيان كل شيء بين ذراعي ريخينا. كأن كرة الشمس الملتهبة قد تغلَّبت على الحضور القريب للفرسان وعلى ضجيج المدفعية البعيد: بدل هذا العالم الواقعي ظهر عالم آخر، حُلُمي، ليس فيه سواه هو وحبيبته من لهما الحق في الحياة والمبرر لإنقاذها.

" - هل تذكر تلك الصخرة التي تنغمس في البحر مثل زورق حجري؟"

تأملها من جديد، متمنياً أن يُقبَّلها، وخائفاً من أن يوقظها، واثقاً من أنه بتأملها قد جعلها ملكه: فكر أن رجلاً واحداً هو المالك لكل

صور ريخينا السريّة وهذا الرجل يمتلكها ولن يتخلّى عنها أبداً. وبتأملها، كان يتأمل ذاته. أفلتت يداها اللجام: كل ما يعنى وجوده، كل حبه، مدفون فى لحم هذه المرأة التى تحتوى عليهما هما الإثنيْن. يودّ لو عاد... لو شرح لها كم يحبها... تفاصيل عاطفته... حتى تعرف ريخينا...

سهل الجواد ورفع قائميه الأماميين؛ فسقط الفارس فوق الأرض الصلبة، ذات الأحجار والشجيرات الشوكية. أمطرت القنابل اليدوية للقيدرايين فوق الفرسان ولم يستطع هو أن يميّز، حين نهض، من بين الدخان، إلا صدر حصانه المشتعل، الدرّع الذى أوقف النار. وحول الجسد الساقط كان يتلوى دون شعور أكثر من خمسين حصاناً: وفوقها، لم يكن ثمة ضوء؛ هبطت السماء درجةً وكانت سماءً من البارود، بإرتفاع القامة. جرى نحو إحدى الأشجار المنخفضة: كانت موجات الدخان تُخفى أكثر من تلك الأغصان العارية. على بعد ثلاثين متراً، كانت بداية غابة قصيرة لكنها كثيفة. وصل إلى مسامعه صراخ بلا معنى. قفز ليتعلّق بلجام جوادٍ طليق ولفّ قدماً واحدةً حول مؤخرته: أخفى جسده خلف الحصان ونخسه بمهمازه: شبّ الحصان وتشبّث هو، ورأسه متدلّية وعيناه يملؤهما شعره المشعث، بالسرج واللجام تشبّثاً يائساً. اختفى أخيراً ضياء الصباح؛ ومكّنته الظلمة من فتح عينيه، والإنفلات من لحم الحيوان، والتدحرج حتى إصطدم بجذع شجرة.

وهناك عاوده ما كان يشعر به من قبل. كانت تحيطُ به كل الضوضاء المختلطة للمعركة، لكن بين القُرب والضجيج الذى يبلغ مسامعه، امتدّت مسافة لا يمكن عبورها: هنا، كانت تسمع بدقة متناهية إهتزازات الغصون الخفيفة، والحركات المنفلتة للسحالى. وحيداً، ومستنداً إلى الجذع، عاوده الشعور بتلك الحياة العذبة،

الهادئة، التى أخذت تتدفق متمهلة فى دمه: هذه الهناءة للجسد الذى يقاوم أى محاولة متمردة للتفكير. رجاله؟ دق قلبه رتيباً، دون إنتفاض. هل يبحثون عنه؟ أحسّ الذراعان، والقدمان أنهم قريرون، نظيفون، متعبون. ماذا سيفعلون بدون أوامره؟ بحثت عيناه، بين سقف أوراق الشجر، عن التحليق الخفى لطائر. هل سيكونوا قد فقدوا الإنضباط؛ هل سيجرون، هم أيضاً، للإختفاء فى هذه الغابة الصغيرة الرائعة؟ لكن لا يمكن عبور الجبل ثانيةً على الأقدام. لابد من الإنتظار هنا. وإذا أخذوه أسيراً؟ لم يعد يستطيع التفكير: أزاح الأغصان أنين، قرب وجه الملازم، وتهاوى رجلٌ بين ذراعيه: رفضه ذراعه للحظة وعلى الفور عادا للإمساك بذلك الجسد الذى تتدلى منه خرقة حمراء، الذى فقد قواه، ولحمه ممزق. أسند الجريح رأسه إلى كتف رفيقه:

- إنهم... يضربون... بقوة...

أحس بالذراع المحطمة فوق ظهره، تصبغه وتصب فوقه دماً وجلاً. حاول إبعاد الوجه الذى يُقلّصه الألم: وجنتان مرتفعتان، فم مفتوح، عينان مغمضتان، شارب ولحية أشعثان، قصيران مثل شاربه ولحيته. لو كانت عيناه خضراوين، لكان توأمه...

- هل هناك مخرج؟ هل خسرنّا؟ أتعرف شيئاً عن الفرسان؟ هل

تراجعوا؟

- لا... لا... لقد مضوا... إلى الأمام.

حاول الجريح أن يشير، بذراعه السليمة، فالأخرى، حطّما الرشاش، دون أن يفقد تلك التقطبية الفظيعة التى بدا أنها تصلب عوده وتمدّ فى وجوده.

- يتقدمون؟ كيف؟

- ماء، يا رفيق... حالتى سيئة جداً...

غاب الجريح عن الوعي، وهو يحتضنه بقوة غريبة، مليئة بضراعات صامته. أسند الملازم ذلك الثقل الرصاصي المصبوب فوق جسده. وعادت إلى سمعه إرتجافات المدافع. مسحت ریح مترددة قمم الأشجار. مرة أخرى، السكون والهدوء اللذين يقطعهما المدفع الرشاش. تناول الذراع السليمة للجريح وتخلص من الجسد الملقى فوق جسده. أمسك رأسه وأسندها على الأرض ذات الجذور البارزة. نزع غطاء الزمزية ورشف رشفة كبيرة: قريباً من شفتي الجريح: فانساب الماء فوق الذقن المسودة. لكن القلب كان يدق: قريباً من صدر الجريح تساءل هو، على ركبتيه، إن كان سيظل يدق وقتاً طويلاً. فك المشبك الفضى الثقيل لحزام الجريح وأدار له ظهره. ماذا يجري هناك في الخارج؟ من سيكسب؟ نهض على قدميه وسار إلى داخل الغابة، بعيداً عن الجريح.

سار وهو يتحسس جسده، أحياناً يزيح الأغصان المنخفضة، لكنه يتحسس جسده على الدوام. لم يكن جريحاً. لم يكن بحاجة إلى العون. توقف بجوار عين ماء وملاً الزمزية. كان جدول صغير، ميت قبل أن يولد، ينساب من عين الماء ليضيع خارج الغابة، تحت الشمس. خلع سترته وفرك بكلتا يديه صدره، وإبطيه، والكتفين الملتهبتين، الجافتين، الخشتين كالصنفرة، والعضلات الممدودة للذراعين، والجلد الزيتوني، الناعم، ذا الحراشف الصلبة. حال دونه الزيد: كان يودُّ النظر إلى نفسه منعكساً في عين الماء. هذا الجسد ليس جسده: فقد منحه ريخينا ملكية أخرى: استحوذت عليه مع كل تربيته، لم يكن ملكه. كان ملكها أكثر منه. أن ينقذه من أجلها. لم يعودا يعيشان وحيدين ومعزولين؛ ها قد تحطمت جدران الانفصال: لقد صارا إثنين وواحد فقط، إلى الأبد. ستتقضى الثورة: ستتقضى القرى والحيوات، لكن هذا لن ينقضى. لقد أصبحت حياتها،

حياتهما. فرك وجهه. خرج إلى السهل من جديد.

كان موكب الثوريين قادماً من السهل صوب الغابة والجبل. كانوا يندفعون بسرعة بجواره بينما يهبط هو، فاقداً الإتجاه، صوب القرى المشتعلة. إستمع إلى رنين السياط فوق مؤخرات الخيول، وإلى الدوى الجاف لبعض البنادق وبقى وحيداً في الأرض المنبسطة. هل كانوا يهريون؟ دار حول نفسه، رافعاً يديه إلى رأسه. لم يفهم. كان من الضروري الإنطلاق من مكان، بمهمة واضحة، وعدم فقدان هذا الخيط الذهبي أبداً: بهذه الطريقة وحدها يمكن فهم ما يجري. وتكفى لحظة واحدة من الشرود حتى يتحوّل كلُّ شطرنج الحرب إلى لعبة غير معقولة، وغير مفهومة، من حركات ممزقة، فجائية، تفتقر إلى المعنى. هذه السحابة من الغبار... هذه الخيول الثائرة التي تتقدم عدوًّا... هذا الفارس الذي يصيح ويهزُّ حديدًا أبيض... هذا القطار المتوقف على مبعدة... هذه السحابة الترايبية التي تقترب رويداً... هذه الشمس التي تصبح كل دقيقة أقرب إلى الرأس الذاهلة... هذا السيف الذي يسمح جبهته... هذا الموكب من الخيول الذي يمر بجواره ويلقيه على الأرض...

نهض وهو يرئى على الجرح في جبهته. لابد أن يلوذ بالغابة من جديد: فهي المكان الوحيد الآمن. ترنّح. أسالت الشمس نظرتة ويخّرت إلى فتات الأفق، والمرج الجاف، وحدود الجبال. حين بلغ الأشجار، تشبّت بجذع شجرة؛ فك أزرار سترته ومزق كم قميصه. بصق فوقه وحمل الرطوبة إلى جبهته المقطوعة. لف قطعة القماش حول رأسه: الرأس التي شجّت حين دوّت الأغصان الجافة إلى جانبه، تحت ثقل حذاء عسكري مجهول. وأطلت النظرة المعذبة من بين الساقين القريبتين: كان الجندي من القوات الثورية وكان يحمل على ظهره جسداً آخر، جوالاً دامياً، مُحطماً، وذراعه مُتختر.

- وجدته عند مدخل الغابة. كان يحتضر. نسفوا ذراعاه، يا سيدي... يا سيدي الملازم.

زرَّ الجندي الطويل الصلب عينيه حتى تبينَّ الرتبة.

- أظنه مات منى. فهو ثقيل كميت.

أنزل الجسد وأسندته إلى الشجرة: نفس ما فعله هو منذ نصف ساعة، منذ خمس عشرة دقيقة. قرَّب الجندي وجهه من فم الجريح؛ وعاد هو التعرف على الفم المفتوح، والوجنتين البارزتين، والعينين المغمضتين.

- نعم. لقد مات. لو كنت قد وصلتُ منذ برهة، فربما كنت أنقذته.

أغلق عيني الميت بيده المريئة. وشبك المشبك الفضى وحين حنى رأسه قال من بين أسنانه البيضاء:

- اللعنة، يا سيدي الملازم. لو لم يكن في العالم قلةٌ من الشجعان مثل هذا، ماذا كان يمكن أن يكون حالنا نحن الباقين؟

أدار ظهره للجندي وللميت وعاد الجري نحو السهل. كان ذلك أفضل. رغم أنه لم يكن يسمع ولا يرى شيئاً. رغم أن العالم كان يمر بجانبه مثل ظل مفتت. رغم أن كل أصوات الحرب والسلام - الطيور المغردة، الريح، الأعواء البعيد - المتواترة قد تحوَّلت إلى ذلك الطبل الوحيد، الأصم، الذى إبتلع كل الأصوات واختزلها إلى حزن متجانس. تعثَّر في جسد ميت. رجع إلى جواره، دون أن يدري لماذا يفعل ذلك، لدقائق قليلة قبل أن يشق ذلك الصوت طريقاً لنفسه بين الدوى المصمت لكل الأصوات.

- أيها الملازم... أيها الملازم كروث...

توقفت اليد فوق كتف الملازم؛ فرفع رأسه.

- أنت جريح جرحاً بليغاً، أيها الملازم، تعال معنا. هرب

الفيدراليون. واحتفظ خيمينث بمعقله. عد معنا إلى المعسكر في ريوهوندو. خاضت قوات الفرسان معركة كبرى؛ كأنهم تضاعفوا، حقاً. تعال. إنك لا تبدو بحالة جيدة.

تعلقُ بكتفى الضابط. وغمغم:

- إلى المعسكر. نعم، هيا بنا.

كان الخيط قد ضاع. الخيط الذى كان يتيح له أن يجوب، دون أن يتوه، متاهة الحرب. دون أن يتوه: دون أن يهرب. لم يكن يقوى على الإمساك باللجام. لكن الحصان مضى مربوطاً بسرج الرائد جاييلان، خلال ذلك السير البطئ عبر الجبل الذى يفصل سهل المعركة عن الوادى حيث تنتظره هى. خلف الخيط وراءه. وهناك إلى أسفل، لم تتغير قرية ريوهوندو: إنها نفس الدار ذات السقف القرميدى المكسور وجدران الطين النىء، الوردية، الضاربة إلى الحمرة، البيضاء، المحاطة بنباتات الصبار، التى تركها ذلك الصباح. ظن أنه تبين، بجوار شفتى الأخدود الخضراوين، الدار، النافذة حيث لابد أن ريخينا تنتظره.

كان جاييلان يخبئ أمامه. وألقت ظلال الغروب خيال الجبل على الجسدين المتعبين للضابطين. توقف حصان الرائد برهة، فى انتظار أن يلحق به حصان الملازم. قدّم له جاييلان سيجارة. وما أن إنطفأ اللهب، حتى عاود الحصانان الخبئ. لكنه كان قد رأى، وهو يشعل السيجارة، كل الألم فى وجه الرائد وأحنى رأسه. هذا ما يستحقه. سيعرفون لابد حقيقة فراره خلال المعركة وسيحرمونه من رتبته. لكنهم لن يعرفوا الحقيقة بأكملها: لن يعرفوا أنه أراد إنقاذ نفسه حتى يعود إلى حب ريخينا، ولن يفهموا إذا شرح لهم. كذلك لن يعرفوا أنه تخلّى عن ذلك الجندى الجريح، أنه كان يمكن أن يُنقذ هذه الحياة. سيدفع حب ريخينا ثمن ذنب الجندى المتروك. لابد أن يكون الأمر على هذا النحو. خفض رأسه وأعتقد أنه يشعر بالعار لأول مرة فى

حياته. العار: لم يكن هذا ما أطلّ من عيني الرائد جابيلان الرائقتين، المباشرتين. ربّت الضابط بيده الخالية على لحية الشعر الأشقر، المعجونة بالتراب والشمس.

- نحن مدينون لك بحياتنا، أيها الملازم. أنت ورجالك أوقفتم التقدم. سيستقبلك الجنرال إستقبال الأبطال... يا أرتيميو... هل يمكن أن أدعوك أرتيميو؟

حاول الرائد الابتسام. وضع يده الخالية فوق كتف الملازم وتابع، بابتسامة جافة:

- مضى وقت طويل ونحن نقاتل معاً وها أنت ترى، فتحن لا ننادى بعضنا حتى بأسمائنا الأولى.

بحث الرائد جابيلان بعينه عن إجابة. هبط الليل بزجاجة الهيولى وانبتق آخر وميض خلف الجبال، التي أصبحت بعيدة، مختفية في الظلام، منكشّة. وفي المعسكر، اشتعلت نيران لا يمكن رؤيتها من بعيد في الليل.

- إنهم كلاب - قال الرائد فجأة بصوت حاد.. لقد دخلوا القرية بفتّة، حوالى الساعة الواحدة. بالطبع لم يستطيعوا الوصول إلى المعسكر. لكن إنتقموا من أحياء الضواحي؛ وأرتكبوا هناك أفعالهم. كانوا قد وعدوا بالإننتقام من كل القرى التي تساعدنا. أخذوا عشر رهائن وبعثوا يقولون أنهم سيشنقونهم إذا لم نسلم الموقع. فرد عليهم الجنرال بقذائف الهاون.

كانت الشوارع مليئة بالجنود والناس، بالكلاب الطليقة والأطفال، الطليقين مثل الكلاب، والذين يكون أمام الأبواب. لم تكن بعض الحرائق قد خمدت بعد وكانت النساء جالسات في منتصف الطريق فوق المراتب وكراسى الجريد التي أنقذنها.

- الملازم أرتيميو كروث - تمتم جابيلان منحنيّاً ليقترّب من آذان

بعض الجنود.

- الملازم كروث - سرت مهمة الجنود إلى النساء.

أفسح الناس طريقاً للحصانين: حصان الرائد الرمادى، العصبى بين الحشد الذى يضغطه، وحصان الملازم الأسود، المنخفض الرأس، الذى يترك الآخر يقوده. إمتدت بعض الأيدي: كانوا رجال فصيل الفرسان الذى يقوده الملازم. ضغطوا على ساقه علامة التحية؛ أشاروا إلى جبهته حيث كان الدم قد صبغ القماش المربوط؛ غمغموا تهنئة صماء على النصر. عبروا القرية: فى العمق كان الأخدود ينحدر والأشجار تهتز فى نسيم الليل. رفع بصره: الدار البيضاء. بحث عن النافذة، كانت كل النوافذ مغلقة. كان وميض الشموع يضىء مداخل بعض البيوت. وكانت المجموعات السوداء، الملتفة بالعباءات، مُقْبِعةً فى بعض المداخل.

- لا تفكوهما! - صاح الملازم أباريثيو، من فوق حصانه، بينما يدفعه ليتحرك فى دوائر ويُزيح بسوطه الأيدى التى ترتفع ضارعةً -. فليظلوا محفورين فى أذهانكم جميعاً! فلتعرفوا جيداً ضد من نقاتل! إنهم يُجبرون رجالاً من القرية على قتل إخوانهم. إنظروا جيداً. هكذا قتلوا قبيلة هنود الياكى، لأنها لم تشأ أن ينتزعوا منها أراضيها. وكذلك قتلوا عمال ريوبلانكو وكانانيا، لأنهم لم يريدوا أن يموتوا جوعاً. وهكذا سيقتلوننا جميعاً إذا لم نحطم أولاد القحبة. إنظروا.

جال إصبع الملازم الشاب أباريثيو بدغل الأشجار القريبة من الأخدود: كانت حبال الجوت، السيئة الصنع، الخشنة، لا تزال تتزعج الدم من الأعناق؛ لكن العيون المفتوحة، والألسنة القرمزية، والأجساد الساكنة التى لا تكاد تهزها الريح التى تهب من سلسلة الجبال، كانت ميتة. وعلى إرتفاع النظرات - وبعضها تائه، والبعض الآخر حائق، وأغلبها نظرات عذبة، غير مُدركة، مليئة بألم هادئ - لم يكن ثمة سوى

صنادل هندية يكسوها الطين، والقدمان العاريتان لطفل، والحداء
الأسود لإمرأة. ترجل هو عن حصانه. إقترب. واحتضن الجونلة
المنشأة لريخينا بصرخة مشروخة، بلغمية: بأول انتحاب له كرجل.
قاده أباريثيو وجايلان إلى غرفة الفتاة. أجبراه على الرقاد،
وأبدلا له القماش القذر بضمادة، ونظفاه له الجرح. وحين خرجا،
إحتضن الوسادة وأخفى وجهه. ودّ لو ينام، لا أكثر، وقال لنفسه سراً أن
النوم ربما استطاع أن يسوّى بينهما، أن يوحدهما من جديد. إنتبه إلى
أن ذلك مستحيل؛ إلى أنه الآن، فوق هذا الفراش ذى الناموسية
المُصفرة، أمكنه أن يستشعر، بكثافة تفوق كثافة الحضور، رائحة الشعر
الندي، والجمد الأملس، والفخذين الدافئين. كانت حاضرة هناك كما
لم تكن أبداً في الواقع، حية أكثر من أى وقت مضى على الإطلاق في
رأس الفتى المحمومة: إنها هى بدرجة أكبر، ملكه بدرجة أكبر، الآن
وهو يتذكرها. ربما، خلال شهور حبهما الوجيزة، لم ير أبداً جمال
عينيهما بكل هذه العاطفة، ولا استطاع أن يقارنهما، مثلما الآن،
بتوائمهما المتألقة: الجواهر السوداء، البحر العميق الهادئ تحت
الشمس، قاع الرمال التى تتأرجح فى الزمن، الكرزات الداكنة لشجرة
اللحم والأحشاء الساخنة. لم يقل لها ذلك أبداً. لم يتسع الوقت. لم
يتسع الوقت ليقول لها أشياء كثيرة عن الحب. لم يتسع الوقت أبداً
للكلمة الأخيرة. ربما لو أغمض عينيه لعادت هى مكتملة لتحيا على
التريبات المتلهفة التى كانت تنبض فى أطراف أصابع الرجل. ربما كان
يكفى أن يتخيلها لينالها دوماً إلى جواره. من يدرى إن كانت الذاكرة
قادرة حقاً على إطالة أمد الأشياء، على تضفير السيقان، وفتح النوافذ
عند الفجر، وتمشييط الشعر، وبعث الروائح، والأصوات، والملمس.
نهض. وبعث متحسساً، فى الغرفة المظلمة، عن زجاجة المسكال*.

♦ mescal: مشروب روحى مكسيكى قوى يُستقتر من نبات الصبار - م.

فجأة لم تعد تُقيد فى النسيان، كما يقول الجميع، بل فى إخراج الذكريات بسرعة أكبر.

سيعود إلى صخور ذلك الشاطئ، بينما يشعل الكحول الأبيض ناراً فى معدته. سيعود. إلى أين؟ إلى ذلك الشاطئ الأسطوري، الذى لم يوجد أبداً؟ إلى تلك الأكذوبة للطفلة المعشوقة، إلى ذلك الاختلاق للقاء بجوار البحر، اخترعته هى حتى يشعر هو أنه نظيف، برىء، واثق من الحب؟ طوح قذح المسكال إلى الأرض. فى هذا تفيد الخمر، فى تبديد الأكاذيب. كانت أكذوبة جميلة.

" - أين تعارفنا؟

" - ألا تتذكر؟

" - قولى لى أنت؟

" - ألا تتذكر ذلك الشاطئ؟ كنت أذهب إلى هناك كل أصيل.

" - الآن أتذكر. رأيت إنعكاس وجهى بجوار وجهك.

" - تذكر هذا: ولم أعد أريد أبداً أن أرى نفسى دون إنعكاسك

بجوار إنعكاسى.

" - نعم، أتذكر."

كان يجب عليه أن يُصدّق تلك الكذبة الجميلة، دوماً، حتى النهاية. لم يكن مؤكداً: لم يكن هو قد دخل تلك القرية فى سينالوا مثلاً دخل قرى كثيرة غيرها، باحثاً عن أول امرأة تمر، غير مُحاذرة، عبر الشارع. لم يكن حقيقياً أن تلك الفتاة ذات الثمانية عشر عاماً قد حُمِلت بالقوة فوق حصان واغتُصبت فى صمت فى عنبر النوم المشترك للضباط، بعيداً عن البحر، مُشيحةً بوجهها صوب سلسلة الجبال الشوكية والجافة. لم يكن مؤكداً أن إستقامة ريعينا قد غفرت له فى صمت: حين إستسلمت المقاومة للمتعة وأخذت الذراعان اللتان لم تلمسا رجلاً قط تلمسانه لأول مرةٍ بيهجة وأخذ الفم الرطب،

المفتوح، يردد فقط، مثل ليلة أمس، أن نعم، أن نعم، أن ذلك يروقها، أن ذلك معه يروقها، أنها تريد المزيد، أنها تخاف من هذه السعادة. ريخينا ذات النظرة الحاملة والمشتعلة. كيف قبلت حقيقة متعتها واعترفت بأنها عاشقة له؛ كيف اخترعت حكاية البحر والإنعكاس في الماء الساكن من أجل نسيان ما يمكن أن يُخجله فيما بعد، عندما يحبها. امرأة الحياة، ريخينا، المهرة الزاخرة بالطعم، جنية الدهشة الطاهرة، المرأة دون أعداء، دون كلمات تبرير. لم تعرف السأم أبداً؛ لم تُثقل عليه أبداً بشكايات مؤلمة. ستكون هناك دوماً، في قرية أو في أخرى. ربما الآن على الفور سيتبدد وهم جسد خامد معلق من حبل وهي... ستكون هي في قرية أخرى. لقد تقدمته فقط. نعم؛ كالمعتاد. خرجت دون إزعاج ومضت صوب الجنوب. اخترقت خطوط الفيدراليين ووجدت غرفة صغيرة في القرية التالية. نعم؛ لأنها لا يمكن أن تحيا بدونه، ولا هو بدونها. نعم. الأمر كله الآن هو الخروج، أخذ الحصان، شهر المسدس، مواصلة الهجوم والعثور عليها في الراحة التالية.

بحث في الظلام عن السترة. وضع حزامي الطلقات متقاطعين حول صدره. في الخارج، كان الحصان الأسود، الهادئ، مربوطاً إلى قائم. لم ينفصل الناس عن المشنوقين، لكنه لم يعد ينظر إلى ذلك الاتجاه. إمتطى حصانه وأسرع نحو المعسكر.

- إلى أين مضى أولاد القعبة هؤلاء؟ - صاح في أحد جنود الحراسة بالمعسكر.

- إلى الجانب الآخر من الأخدود، يا قائدى. يُقال أنهم متخندقون بجوار الجسر، في انتظار التعزيزات. أنهم يريدون الإستيلاء على هذه القرية مرة أخرى. أدخل، كل شيئاً.

ترجّل. سار متمهلاً نحو نيران الفناء، حيث تتأرجح الأواني

الفخارية فوق العصى المتقاطعة وتتصاعد جلبةً يدي امرأة تعجن كتلة الدقيق. غمس المغرفة في حساء الكوارع الذى يغلى، إل تقطُ قُضمةً من البصل، والفلفل الحار المطحون، والزعتر؛ مضغ الفطائر الشمالية، الصلبة، الطازجة؛ وأقدام الخنزير. كان حياً.

إنتزع من الحلقة الحديدية الصدئة الشعلة التى تضىء مدخل المعسكر. غرس المهمازين فى بطن الحصان الأسود: من كانوا لا يزالون يمشون فى الشارع جنحوا إلى جانب؛ حاول الحصانُ المندھش أن يجمع، لكنه هو شدّ قبضته على اللجام، وعاد غرس مهمازيه وأحس، فى النهاية، أن الحصان قد فهم. لم يعد حصان الرجل الجريح، الرجل المتشكك الذى عبر الجبل ذاك المساء. كان حصاناً آخر: فهم. هزّ عرّفه حتى يفهم هو: إنه الآن مَطِيَّةُ حرب، غاضبةٌ وسريعة مثل فارسها. ورفع الفارس الشعلة وأضاء، الآن، الحقول التى تحيط بالقرية لتؤدى إلى الجسر فوق الأخدود.

نارٌ أخرى كانت تضىء مدخل الجسر. كانت قبّعات الزُعران تتضوأ بشحوب ضارب إلى الحمرة. لكن حوافر الحصان الأسود كانت تستمدُّ كلَّ قوةٍ الأرض، وتمضى منتزعةً الأعشاب والتراب والشوك، تمضى مُخَلْفَةً ذَيْلاً من الشرر المتناثر من الشعلة التى يمسكها الرجل الذى داهم موقع الجسر، وقفز فوق النار، وأطلق مسدسه على العيون المرعوبة، على الرقاب الداكنة، على الأجساد التى لم تفهم، التى أخذت تسحب المدافع إلى الوراء، التى لم تستطع فى الليل تبيّن وحدة الفارس الذى يجب أن يصل إلى الجنوب، إلى القرية التالية، حيث ينتظرونه... - أفسحوا طريقاً، يا زعران يا أبناء المُقرِفِه! - تصيح الأصوات الألف لهذا الرجل.

صوت الألم والرغبة، صوت المسدس، الذراع التى تُوجَّه الشعلة إلى صناديق البارود وتجعل المدافع تتفجر وتجعل الخيول تهرب دون

فارس، وسط فوضى الصهيل والتداعيات والإنفجارات التي تجدُّ الآن صداها البعيد في أصوات القرية الضائعة، في الجرس الذي بدأ يدق في برج الكنيسة الضارب إلى الحُمرة، في نبض الأرض التي تدوسها حوافر الخيالة الثورية، التي تعبر الآن الجسر لتجد الدمار والفرار والثيران المطفأة، لكنها لا تجدُّ لا الفيدراليين ولا الملازم، الذي يعدو بحصانه صوب الجنوب، رافعاً الشعلة، وعيون حصانه مشتعلة؛ صوب الجنوب، والخيط في يده، صوب الجنوب.

أنا نجوتُ. يا ريخينا. ماذا كان اسمكِ؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان أسمكِ أنتِ، أيها الجندي بلا إسم؟ نجوتُ. وأنتم متم. أنا نجوتُ. آه، تركوني في سلام. يظنونني نائماً. تذكرتكِ، تذكرتكِ إسمكِ. لكن أنتِ ليس لكِ اسم. وتتقدم الإثنتان نحوي، متشابكتي الأيدي، ومحاجرهما خاوية، معتقدتين أنهما ستقنعاني، ستثيران تعاطفي. آه، لا. لست أدينُ بحياتي لكم. أدينُ بها لكبريائي، أسمعوني؟ أدينُ بها لكبريائي. تحدّيتُ. تجاسرتُ. الفضائل؟ التواضع؟ البر؟ آه، يمكن العيش دون ذلك، يمكن العيش. ولا يمكن العيش بدون كُبرياء. البر؟ من كان سيُفيدُ؟ التواضع؟ أنتِ، يا كاتالينا، ماذا كنتِ ستفعلين بتواضعي؟ به كنتِ هزمتي إحتقاراً، كنتِ هجرتني. أعرف أنك تغفرين لنفسك متخيّلة قداسة هذا العهد المقدّس. ها. لو لم يكن من أجل ثروتني، ما

كان ليهكم أن تُلْقَى. وأنت، يا تيريسا، إذا كنتِ تكرهيننى، تسبِّيننى، رغم أنى أقيمُ أودك، ماذا كنتِ ستفعلين وأنتِ تكرهيننى فى البؤس، وأنتِ تسبِّيننى فى الفقر؟ تخيلاً نفسيكماً دون كبريائى، أيتها الفريسيَّتان، تخيلاً نفسيكماً ضائعتين فى ذلك الحشد ذى الأقدام المتورِّمة، منتظرتين إلى الأبد سيارةً نقل على كل نواصى المدينة، تخيلاً نفسيكماً ضائعتين فى ذلك الحشد ذى الأقدام المتورِّمة، تخيلاً نفسيكماً عاملتين فى متجر، فى مكتب، تدقان على الآلة الكاتبة، تلفان طروداً، تخيلاً نفسيكماً تدخران لشراء سيارة بالتقسيط، تشعلان شموعاً للعدراء للإبقاء على الوهم، تدفعان أقساطاً شهرية لقطعة أرض، تتهدان من أجل ثلاجة، تخيلاً نفسيكماً جالستين فى سينما الحى كل سبت، تاكلان السوداني، وتحاولان العثور على تاكسى عند الخروج، تتناولان الطعام فى الخارج مرةً واحدةً فى الشهر، تخيلاً نفسيكماً بكل التبريرات التى جنبتكمُ أنا إياها، تخيلاً نفسيكماً مضطرتين للتهاف أن المكسيك ليس لها مثل لتشعرا أنكما على قيد الحياة، تخيلاً نفسيكماً مضطرتين للشعور بالفخر بعباءات الجبل¹ - sa-rape ويكانتينفلاس** ويموسيقى عازفى الجيتار الجوالين وباللحم الريفى المفروم المحمَّر لتشعرا أنكما على قيد الحياة، آه - آخ آى، تخيلاً نفسيكماً مضطرتين للإيمان حقاً بالتذور، والحج إلى المحارب، وبفاعلية الصلاة حتى تبقىا على قيد الحياة.

- Domine, non sum dignus ... -

" - سلام. أولاً، يريدون إلغاء كل قروض البنوك الأمريكية

* دثار جبلى. نوع من البطالية، من الصوف المشغول فى الحواف بألوان زاهية، فى وسطه فتحة لإدخال الرأس - م.

** كاستيفلاس. شخصية سينمائية كوميدية يمثلها الممثل ماريو مورينو - م.

الشمالية لسكك حديد الباسيفيكي. أتعرف كم تدفع السكك الحديد
سنوياً كقوائد على القروض؟ تسعة وثلاثين مليون بيسو. ثانياً، يريدون
فصل كل مستشارى تطوير السكك الحديد. أتعرف كم نربح؟ عشرة
ملايين فى السنة. ثالثاً، يريدون فصل كل من ندير القروض الأمريكية
الشمالية للسكك الحديد. أتعرف كم ربحت أنت وكم ربحت أنا العام
الماضى...؟

" - Three million pesos each ... "

" - بالضبط. ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد. من فضلك أرسل
برقية إلى الناشيونال فروتس إكسپريس بأن هؤلاء القادة الشيوعيين
يريدون إلغاء تأجير العربات - الثلاثات التى تُدرُّ على الشركة عشرين
مليون بيسو سنوياً وتُدرُّ علينا عمولة جيدة - سلام".

هئ، هئ، شرحت ذلك شرحاً جيداً. يا حمقى. ماذا لو لم أَدافع
أنا عن مصالحكم، يا حمقى. أوه، أغربوا جميعاً، دعونى أسمع. لنرى
إن كنتم ستفهمون. لنرى إن كنتم تفهمون ما تعنيه ذراع مطوية هكذا...
" - إجلسى، يا صغيرتى. الآن سأفرِّغ لك. دياث: إحذر تماماً
حتى لا يتسرب سطرٌ واحد حول قمع الشرطة لهؤلاء المشاغبين.

" - لكن يبدو أن هناك قتيلاً، يا سيدى. وفضلاً عن ذلك، جرى
الأمر وسط البلد تماماً. سيكون من الصعب...
" - مطلقاً، مطلقاً. إنها أوامر عليا.

" - لكننى أعرف أن إحدى جرائد العمال ستشر الخبر.
" - فيم تفكر إذن؟ ألا أدفع لك لتفكر؟ ألا يدفعون لك فى
(مصدرك) لتفكر؟ أبلغ النيابة ليفلقوا هذه الصحيفة..."

ما أقلّ ما يلزمنى لكى أفكر. مجرد شرارة. شرارة تبعث الحياة
فى هذه الشبكة المعقدة، الضخمة. هناك آخرون يحتاجون إلى توليد
كهربائى يمكن أن يقتلنى. أنا بحاجة إلى الإبحار فى مياه هائجة، إلى

إجراء مكالمات على مسافات بعيدة، إلى صد الأعداء. آه نعم. أدر هذا الجزء. لا يهمنى.

" - ماريا لويسا. هذا الـ خوان فيليبي كوتو، كالعادة، يريد أن يبدو ذكياً... هذا كل شيء، يا دياث... ناوليني كوب الماء، يا أمورة. أقول: يريد أن يبدو ذكياً. مثلما كان الأمر مع فيديريكو روبلس، أتذكرين؟ لكنه لن يستطيع معي...

" - متى، يا سيدى النقيب؟

" - حصل بمساعدتي على إمتياز إنشاء ذلك الطريق السريع فى سونورا. وساعدته أيضاً حتى يُصدّقوا له على ميزانية أكبر بثلاث مرات من التكلفة الفعلية للعمل، على أساس تفاهم بأن الطريق سيمر عبر المناطق المروية التى أشتريتها من المستفيدين بالأراضى المشاع. وقد بلغنى للتو أن الناصح أشتري هو الآخر أراضيه فى تلك النواحي ويفكر فى تغيير مسار هذا الجزء من الطريق حتى يمر بممتلكاته...

" - يا له من خنزير! مع ما يبدو عليه من أدب.

" - إذن، يا حلوة، أنت تعرفين؛ ضعى بعض الشائعات فى عمودك تتحدث عن الطلاق الوشيك لرجلنا. بنعومة شديدة، حتى لا يرتعب منا.

" - لدينا أيضاً بعض الصور لكوتو فى كاباريه مع امرأة شقراء حلوة ليست بالطبع مدام كوتو.

" - إحتظى بها لتتفع إن لم يستجب...

يُقال أن خلايا الإسفنجة لا يوحّدها شيء ومع ذلك فالإسفنجة موحّدة: هذا ما يقال، هذا ما أذكره لأنهم يقولون أن الإسفنجة إذا تم حكها بعنف، فإن الإسفنجة المفتتة تعود للتوحد، لا تفقد وحدتها أبداً، تبحث عن طريقة لتجميع خلاياها المتبعثرة من جديد، لا تموت أبداً. آه، لا تموت أبداً.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لتعبر النهر على صهوة الجياد .
- أنت سيطرت عليه وانتزعتة منى.
- ينهض على قدميه بين الأصوات المحتجة للمراتين ويأخذهما من ذراعيهما وأواصل أنا التفكير فى النجار ثم فى ابنه وفيما كنا سنوفره على أنفسنا لو تركوه طليقاً مع مندوبى علاقاته العامة الإثنى عشر، طليقاً كعنزة، يحيا على حكاية المعجزات، ويحصل على الوجبات مجاناً، وعلى الأسرة للنوم مجاناً ويجد مداووه المقدسون من يشاركهم فيها، حتى تهزمه الشيخوخة والنسيان وتجلس كاتالينا وتيريسا وخيراردو على المقاعد فى آخر المخدع. كم سيتأخرون فى إحضار قسيس، فى إستعجال موتى، فى إنتزاع الإعترافات منى؟ آه، يودون لو يعرفوا. كم سأسلى. كم كم. أنت، يا كاتالينا ستكونين قادرة على أن تقولى لى ما لم تقولىه أبداً لإضعاف عزيمتى ومعرفة ذلك. آه، لكنى أعرف ما تودين معرفته. والوجه المسنون لإبنتك لا يخفيه. لن يتأخر فى الظهور هنا ذلك الشيطان العس للإستعلام، للتباكى، لمعرفة إن كان سيسطيع فى النهاية التمتع بكل هذا. آه، ما أسوأ ما يعرفوننى. يعتقدون أن ثروة كهذه يمكن أن تتبدد بين ثلاثة مَهْرَجِينَ، بين ثلاثة خفافيش لا يعرفون حتى الطيران؟ ثلاثة خفافيش دون أجنحة: ثلاثة فئران. إنهم يحطون من قدرى. نعم. فهم لا يستطيعون تجنب الكراهية التى تتملك المتسولين. إنهما تحتقران الجلود الثمينة التى تكسوهم، والمنازل التى تسكنانها، والجواهر التى تلمع، لأننى منحتهما إياها. لا. لا تلمسانى الآن...
- دعونى...
- لقد جاء خيراردو... خيرارديتو... زوج إبنتك... إنظر إليه.
- آه، الشيطان العس...
- دون أرتيميو...

- ماما، لا أحتمل، لا أحتمل لا أحتمل!
- إنه مريض...
- أوف، سوف أنهض، سترون...
- قلت لك أنه كان يتظاهر.
- دعيه يستريح.
- أقول لك أنه يتظاهر! يخلقُ كما يفعل دائماً ليسخر منا كما يفعل دائماً كما يفعل دائماً.
- لا لا. الطبيب يقول...
- ماذا يعرف الطبيب. أنا أعرفه أفضل. إنها سخرية أخرى.
- لا تقولي شيئاً!
لا تقولي شيئاً. ذلك الزيت. يمسحون بذلك الزيت على شفتي.
على جفتي. على منخاري. لا تعرفان كم كلف ذلك. لم يكن عليهما أن
تقررا. على يدي. على الساقين الثلجيتين اللتين لم أعد أحسُّ بهما. لا
تعرفان. لم يكن عليهما أن تخاطرا بكل شيء. على العينين. يفتحون
ساقى ويمسحون بذلك الزيت على فخذى.
Ego te absolvo -
لا يعرفون. لم تتكلم هي. لم تقل.

أنت ستحيا واحداً وسبعين عاماً دون أن تتبّه: لن تتوقف

للتفكير في أن دمك يقوم بدورة، أن قلبك ينبض، أن غدتك المرارية
تُفرغ نفسها من سوائل لزجة، أن كبداك يُفرز الصفراء، أن كليتك تنتج
البول، أن بنكرياسك ينظم السكر في دمك: فلم تستشر هذه الوظائف
بتفكيرك: ستعرف أنك تننفس لكنك لن تفكر في الأمر لأنه لا يتوقف
على تفكيرك: ستتجاهل وستحيا: سيكون بإمكانك السيطرة على
وظائفك، التظاهر بالموت، عبور النار، تحمل فراش من نبت الزجاج:
ببساطة، ستحيا وتترك الوظائف تتفاهم فيما بينها بنفسها. حتى
اليوم، اليوم حين ستجبرك الوظائف اللاإرادية على الإنتباه، ستسيطر
عليك وستنتهي بأن تدمر شخصيتك: ستفكر في أنك تننفس في كل
مرة يمر فيها الهواء بصعوبة نحو رئتيك، ستفكر في أن الدم يقوم
بدورة في كل مرة تبيض فيها شرايين بطنك بهذا الحضور المؤلم:
ستهزمك لأنها ستجبرك على الإنتباه للحياة بدل أن تحياها. انتصار.
ستحاول أن تتخيل الأمر - فالوضوح يبلغ حداً يجبرك على إدراك أنه
ديب، كل حركات الإنقباض، والإنفصال، وحتى أشدها رهبة، حركة ما
لم يعد يتحرك - وفي داخلك، في أحشائك، سيكسو ذلك الغشاء اللزج
تجويف بطنك وسينطوي حول الأمعاء، وإحدى طياتها، تلك الطية
النسيجية، الأوعية الدموية والليمفاوية التي تربط المعدة والأمعاء
بجدران البطن، تلك الطية من الخلايا البدينة، سيتوقف عن رتبا ذلك
الشريان السميكة لنهر دمك البطني الذي يُغذي معدتك وأمعاءك
البطنية، يخترق نبت الطية ويهبط مائلاً إلى منبت الأمعاء الوسطى،
بعد أن يكون قد سار خلف البنكرياس، مُفرعاً شرياناً آخر يروى ثلث
الإثنا عشر وجانب البنكرياس؛ ويخترق عابراً إثنا عشر، وأورطاك،
ووريدك الأجوف السفلى، وحالبك الأيمن، وعصبك التاسلي -
الفخذى، وأوردة خصيتيك. هذا الشريان سيجري، مُخضباً، سميكا،
لحيماً، طوال واحد وسبعين عاماً، دون أن تعرف. واليوم ستعرف. لأنه

سيتوقف. المجرى سيجف. طوال واحد وسبعين عاماً سيبدل هذا الشريان جهداً مضنياً؛ فخلال مسار هبوطه، ثمة لحظة يكون عليه فيها، وهو مضغوطٌ بجزء من عمودك الفقرى، أن يتقدم، فى نفس الآن، إلى أسفل، وإلى الأمام، وإلى الوراء بحدة مرة أخرى. طوال واحد وسبعين عاماً سيمر شريانك المساريقى بهذا الاختبار، بهذه القفزة القاتلة. واليوم لن يعود يستطيع. اليوم لن يقاوم الضغط. اليوم، فى حركة المكبس السريعة إلى أسفل، وإلى الأمام، وإلى الوراء، سيتوقف، مختلجاً، متلبكاً، مُستنفداً، كتلة من الدم المشلول، صخرة قرمزية ستعوق أمعاءك: ستحس هذا الدبيب للضغط المتزايد، ستحسه: إنه دمك الذى يتوقف لأول مرة، الذى لن يبلغ ضفة حياتك هذه المرة، يتوقف ليتجمد داخل حرارة أمعائك، يتعفن، راكداً، دون أن يكون قد بلغ ضفة حياتك:

وعندئذ ستقترب منك كاتالينا، ستسألك إن كانت تُقدم لك شيئاً، لك يا من لا تستطيع سوى الإلتفات إلى الملك المتصاعد، محاولة طرده بالرغبة فى النوم، فى الراحة، بينما لا تستطيع كاتالينا تجنب تلك الإيماءة، تلك اليد الممدودة التى ستسحبها على الفور، خائفة، لتضمها إلى اليد الأخرى فوق ثدى العقيلة المحترمة، لتفصلها من جديد، وتقرئها، هذه المرة، مرتجفة، من جبهتك: ستربت جبهتك ولن تتبته أنت، ضائعاً فى التركيز الحاد للألم، لن تتبته إلى أن كاتالينا لأول مرة خلال عقود طويلة تقرّب يدها من جبهتك، تربت جبهتك، تزيح الخصلات البيضاء، المضمخة بالعرق، التى تغطيها وتعاود تربيبتها، بخوف مُمتن، فى النهاية، لأن الرقة قد هزمت، برقة خجلانة من نفسها، بخجل يبدو فى النهاية أنه قد خفّه اليقين بأنك لا تتبته إلى أنها تربت عليك، وربما تنقل لك بأصابعها، على جبهتك، بضع كلمات تريد أن تمتزج بتلك الذكرى

التي لا تكفُّ عن التدفق داخلك، ضائعة في قاع هذه الساعات، لا واعية، غريبة عن إرادتك لكنها مصهورة في ذاكرتك اللاإرادية، تلك التي تتساب بين ومضات ألمك وتكرَّر لك، الآن، الكلمات التي لم تستمع إليها حينذاك. هي أيضاً ستفكر في كبرياتها. وهناك ستولد الشرارة. هنالك ستستمع أنت إليها، في تلك المرأة المشتركة، في تلك البركة التي ستعكس وجهيكما، التي ستفرقكما حين تحاولان تقبيل بعضكما، في الانعكاس السائل لوجهيكما: لماذا لا تنظر إلى جانبك؟ هنالك ستكون كاتالينا بشحمها ولحمها؛ لماذا تحاول تقبيلها في الانعكاس البارد للماء؟ لماذا لا تقربُ هي وجهها إلى وجهك، لماذا، مثلك، تُغرقه في المياه الراكدة وتكرَّر لك، الآن، وأنت لا تسمعها، "تركتُ نفسي أنساق؟" ربما تحدثك يدها عن حرية مفرطة تهزم الحرية. الحرية التي تُشيدُ برجاً لا نهاية له، لا يبلغ السماء، لكنه يطوق الهاوية، يُحطِّم الأرض: ستسُمِّيها: انفصال: ستفرضها: كبرياء: ستجعو، يا أرتيميو كروث: ستجعو لأنك ستعرض نفسك للخطر: ستعرض نفسك لخطر الحرية: ستهزم الخطر، ودون أعداء، ستتحول إلى عدو لنفسك حتى تواصل معركة الكبرياء: بعد أن هُزم الجميع، لن يتبقى أمامك سوى أن تهزم نفسك: سيخرج عدوك من المرأة ليُشنَّ المعركة الأخيرة: الحورية المعادية، الحورية ذات النفس الثقيل، ابنة الآلهة، أم التيس المغوى، أم الإله الوحيد الميت في زمن البشر: من المرأة ستخرج أم الإله الكبير بان، حورية الكبرياء، نظيرتك، ومرة أخرى نظيرتك: عدوك الأخير، في الأرض الخاوية لمن هزمهم كبرياؤك: ستجعو: ستكتشف أن الفضيلة هي مجرد شيء مرغوب، لكن الكبرياء هو مجرد شيء ضروري: ورغم ذلك، فإن تلك اليد التي تربت جبهتك في هذه اللحظة ستتمكن في النهاية، بصوتها الضئيل، من إسكات صرخة التحذيرات، من تذكيرك أنه في

النهاية، ولو كان ذلك في النهاية، فإن الكبرياء زائد عن الحاجة والتواضع ضروري: ستلمس أصابعها الشاحبة جبهتك المحمومة، ستودُّ تهدئة أملك، ستودُّ أن تقول لك اليوم ما لم تقله منذ ثلاثة وأربعين عاماً:

(١٩٢٤: ٣ يونيو)

هو من لم يستمع إليها وهي تقول، حين استيقظت من أرقها، "تركتُ نفسي أنساق". وهي مستلقية إلى جواره. كان شعرها الكستنائي يغطي وجهها وفي كل طيّات جسدها أحسَّت بتلك الرطوبة المتعبّة، إرهاب الصيف ذاك. مرَّت بيدها على فمها وتوقّعت النهار الجديد ذا الشمس العمودية، وهطول المطر في المساء، والانتقال الليلي من القيظ الخانق إلى البرودة المنعشة ولم تُرد تذكر ما جرى خلال الليل. أخفت وجهها في الوسادة وكرّرت: - تركتُ نفسي أنساق.

محا الفجرُ ريشَ الليل ودخلَ، بارداً وصافياً، من نافذة المخدع المؤرّبة. حدّد من جديد التفاصيل التي كانت الظلمة قد مرّجتها في عناق واحد.

"أنا شابة؛ لي الحق..."

ارتدت قميص النوم وهربت من جانب الرجل قبل أن ترتفع الشمس إلى خط الجبال.

"لى الحق؛ لقد باركته الكتيبة."

الآن، من نافذة مخدعها، رأت الشمس تتوج قمة ثيتالتيبتل*
 البعيدة. هدهدت الطفل بين ذراعيها وبقيت بجوار النافذة.
 "أم، يا له من وهن؛ دائماً عند الاستيقاظ، هذا الوهن، هذه
 الكراهية، هذا الإحتقار الذى لا أكف عن الشعور به..."
 إلتقت نظريتها بنظرة ذلك الهندى المبتسم الذى كان يعبر حاجز
 البستان، فخلع قبعة الخوص وأحنى رأسه...
 "حين أستيقظ وأنظر إلى جسده النائم بجوارى..."
 لمعت أسنانه البيضاء، خصوصاً حين إقترب هو.
 "هل يحبني حقاً؟"
 أدخل السيد قميصه فى بطنلونه الضيق وأدار الهندى ظهره
 لنافذة المرأة.
 "ها قد مرت خمس سنوات..."
 أدارت ظهرها للحقول.
 - ماذا أتى بك مبكراً هكذا، يا بنتورا؟
 - جئتُ تقوِّدنى أذنأى. هل تسمح لى بأن أملأ القرعة**؟
 - هل كل شىء جاهز فى القرية؟
 أوماً بنتورا موافقاً؛ سار حتى البركة؛ غمس القرعة فى الماء؛
 رشف جرعة؛ وعاود ملأها.
 "ربما نسى هو أسباب زواجنا..."

* Citlaltépetl: قمة بركانية فى سلسلة جبال السييرا مادري الشرقية. هى
 الأعلى فى المكسيك (٥٧٠٠ متر) عادةً ما يغطيها الجليد. تسمى أيضاً قمة
 أوريثابا ORIZABA - م.
 ** guaje. قرعة جافة تستخدم كالدلو فى ملء المياه - م.

- وماذا تقول لك أذناك؟
- أن العجوز دون بيتارو لا يطيق رؤيتك.
- أعرف هذا.
- وتقول أذنأى أنه سينتهز فرصة فوضى اليوم الأحد لينتقم...
"... والآن يحبني حقاً..."
- بارك الله في أذنك، يا بنتورا.
- بارك الله في أمي التي علمتني أن أجعلهما دائماً نظيفتين دون
إتساخ.
- أنت تعرف ما يجب عمله.
"... يحبني أنا ويُعجب بجمالي..."
ضحك الهندي دون صوت، رُئّت حواف قبعته الممزقة ونظر إلى
الشرفة المغطاة بتعريشة من القرميد، حيث كانت تلك المرأة الجميلة
قد جلست فوق الكرسي الهزاز.
"... بعاطفتي..."
تذكّرها بنتورا، منذ أعوام، جالسةً هناك دائماً، أحياناً تكون
بطنّها مستديرة وضخمة، وأحياناً ممشوقةً وصامتة، غريبة دائماً عن
جلبة العريات المحملة عن آخرها بالحبوب، عن خوار الثيران التي
يجرى وسمها بالحديد، عن السقوط الجاف لثمار الزعرور خلال
الصيف في البستان الذي زرعه السيد الجديد حول المنزل الريفى.
"... بما أنا عليه..."
كانت هي تراقب الرجلين. تراقب بنظرة أرنب يقيس المسافة التي
تفصله عن الذئاب. كان موت دون جمالييل قد عراها، بغتةً، من
دفاعاتها المتكبرة خلال الشهور الأولى: مثل الأب إستمراراً للنظام
وللتراتبات وعلى الفور برّر الحمل الأول التباعّد، والحياء،
والتحذيرات.

"يا إلهى، لماذا لا أستطيع أن أكون نفس الشخص بالليل مثلما بالنهار؟"

أما هو، فحين أدار وجهه ليتابع نظرة الهندى، وجد وجه إمرأته الساكن وفكر أنه خلال هذه السنين الأولى لم يكن يعبأ ببرودتها. فهو نفسه كان يفتقر إلى الإرادة لرعاية هذا العالم، هذا العالم الثانوى لما لم يفرغ من استيعابه، من تشكيكه، من العثور على اسمه، من الإحساس به قبل أن يُسميه.

"... بالليل مثلما بالنهار؟..."

عالم آخر، أشد إلحاحاً، كان يشغله.

(" - السيد الحكومة لا يهتم بنا، سنيور أرتيميو، لهذا جئنا نطلب منك أن تساعدنا.

" - أنا موجودٌ لهذا، يا فتيان. ستالون طريقكم المحلى، أعدكم بذلك، لكن بشرط: ألا تعودوا تحملوا محاصيلكم إلى طاحونة دون كاستولو بيتارو. ألا ترون أن هذا العجوز يرفض أن يوزع حتى قطعة أرض. لا تحابوه. أحضروا كل المحصول إلى طاحونتي ودعوني أنا أ طرح المحاصيل فى السوق.

" - عندك حق، لكن دون بيتارو سيقتلنا لو فعلنا هذا.

" - بنتورا: وزع بنادقك على الفتيان حتى يتعلموا الدفاع عن أنفسهم.")

تأرجحت هى ببطء. تذكرت، أحصت أياماً وأحياناً شهوراً لم تنفوه خلالها بنيت شفة. "لم يؤنبنى هو أبداً على البرودة التى أعامله بها أثناء النهار."

بدا أن كل شىء يتحرك دون مشاركتها والرجل القوى الذى يترجل وأصابه متصلة وجهته مجعدة من الغبار والعرق كان يمر متجاهلاً والسوط بين يديه ليلقى بنفسه فى الفراش كى يعاود

الاستيقاظ قبل الشمس ويقطع، فى كل الأيام، جولة الإرهاق الطويلة على طول الأراضى التى يجب أن تنتج، أن تربح: أن تكون، عن وعى، نقطة إنطلاقه.

" يبدو أنه يكتفى بهذه العاطفة التى أقبله بها أثناء الليل".
أراضى الذرة، فى الوادى الضيق المروى الذى يطوق المنطقة المركزية للضياع: ضياع برنال، ولاباستيدا، وبيثارو؛ وعلى مسافة أبعد أراضى الصبار الأمريكى والخمر التى تقطر من نسغه، حيث يبدأ الصخر مرة أخرى.

" - هل هناك احتجاجات، يا بنتورا؟
" - إنهم يخفونها، يا سيدى، لأنهم الآن برغم كل شيء أفضل مما كانوا من قبل. لكنهم يلاحظون أنك لم توزع سوى أراضٍ موسمية واحتفظت بالأراضى المروية.

" - وماذا أيضاً؟
" - أنك تواصلت بتحصيل فوائد على ما تقرضه، تماماً مثل دون جماليل من قبل.

" - أنظر، يا بنتورا. إذهب وأوضح لهم أن الفوائد المرتفعة حقاً أتقاضاها من اللاتيفونديين⁴ من أمثال هذا البيثارو ومن التجار. والآن، إذا كانوا يحسون بأن قروضى تؤلمهم، فسوف أوقفها. كنت أظن أننى أقدم لهم خدمة...
" - لا، إلا هذا...

" - إحك لهم أننى خلال وقت قصير سأتقاضى الرهونات من بيثارو وعندئذ سوف أسلمهم الأراضى المروية التى أنتزعها من

⁴ اللاتيفونديا: هى المزرعة الصخمة - م.

العجوز. قل لهم أن يصمدوا ويثقوا بى، وسوف يرون".
كان رجلاً.

"لكن ذلك الإرهاق، وذلك الإنشغال باعداد. أنا لم أطلب ذلك
الحب المتعجل الذى كان يمنحنى إياه من مساء لمساء."
أمّا دون جماليل، عاشق المجتمع، والنزهات ووسائل الراحة فى
مدينة بوييلا، فنسى البيت الريفى وترك زوج إبنته يدير كل شئ كما
يحلو له.

"قبلت الأمر كما أراد. أبى. هو الذى طلب منى ألا أقبل شكوكاً
ولا تبريرات. كان قد تم شرائى وتوجّب علىّ أن أبقى هنا..."
لكن بينما كان أبوها حياً وكان يمكنها، كل خمسة عشر يوماً، أن
تسافر إلى بوييلا وتقضى النهار إلى جانبه، تملأ الخزانات بأنواع
الحلوى والجبن المفضلة، تؤدى معه فرائض معبد القديس سان
فرنسيسكو، تركع أمام مومياء المُتَّيِّح المبارك سباستيان دى أباريثيو،
تذرع سوق پاريان، وتتجول فى ميدان الإستعراضات، ترسم علامة
الصليب على أجران الماء المقدس الحجرية الضخمة للكاتدرائية المبنية
بأسلوب هيريرا* أو تنظر فقط إلى أبيها وهو يجئ ويروح فى مكتبة
الفناء...

"آه نعم، كيف لا، كان هو يحمينى، كان يساندنى".
... لم تكن أسباب حياة أفضل قد ضاعت تماماً وكان للعالم
الأليف والمحبوب، لسنوات الطفولة، واقع كافٍ يتيح لها العودة إلى
الريف، إلى الزوج، دون أسى.
"دون صوت ودون توجّه، مُشْتَرَاه، شاهدة صامتة عليه".

* هيريرا (خوان دى) (١٥٣٠ - ١٥٩٧) أهم ممثل لأسلوب النهضة الإسبانية. يتميز
أسلوبه بعظمة وتقشف. كلفه الملك فيليپى الثانى بإتمام بناء الإسكوريال - م.

كان يمكنها أن تتخيل نفسها كزائفةٍ عابرةٍ في ذلك العالم الغريب،
الذى أقامه زوجها بدءاً من الطين.

كانت تملك عالمها الحقيقي في الفناء الظليل في بويلا، في مُتَعِ
الكتان الغضّ المفروش على مائدة خشب الماهوجنى، في ملمس الأواني
الملونة يدوياً وفي أدوات المائدة الفضية، في الرائحة.

"... رائحة الكمثرى المقطّعة إلى شرائح، والسفرجل، ومربى
الخوخ..."

(" - أعرف أنك جلبت الخراب على دون ليون لباستيда. فتلك
الدور الثلاثة في بويلا تساوى ثروة.

" - أنت ترى، يا بيتارو. لباستيда يطلب ويطلب قروضاً، دون أن
تهمه الفوائد. هو بنفسه جدل الحبل لمشنته.

" - لا بد أنك تتمتع وأنت ترى كيف تتهاوى الكبرياءات القديمة.
لكنك لن تستطيع معي. فلست متأنقاً ريفياً مثل لباستيда ذاك.

" - أنت تفى بالتزاماتك في موعدها فلا تستبق ما يمكن أن
يحدث.

" - أنا لا يقودنى إلى الإفلاس أحد، يا كروث، وأقسم لك على
ذلك بهذه."

شعر دون جمالييل بدنوّ الموت وأعدّ بنفسه طقوس جنازته
بالتفصيل وببذخ. ولم يستطع زوج الابنة أن يمنع عنه الألف بيسو
الرنانة التى طلبها العجوز. أخذ البرد المزمّن يشتدّ، مثل فقاعةٍ من
زجاجٍ يغلى موضوعةٍ في الشمس وسرعان من إنسدّ صدره ولم تستطع
رثاه الحصول على هواء سوى ذلك الخيط الرفيع، البارد، الذى يفلح
في التسرّب خلال شقوق كتلة من البلغم، والتهيج، والدم.

"أه نعم، موضوعاً للذّة عابرة."

أمر العجوز بعربةٍ مطليةٍ بالفضة، مكسوّةٍ بطيلسانٍ من المخمل

الأسود وتجربها ثمانية خيول يجب أن تتلألاً بأعنة من الفضة وغرة من الريش الأسود فوق قمة رأسها. وجعلهم يقتادونه في كرسى بعجل حتى شرفة القاعة بينما العربية والخيول بكل عُدتها تمر، المرة تلو المرة، في الشارع أمام نظرتهم المحمومة.

"أم؟ يا لها من ولادة دون بهجة، ودون ألم."

قال للزوجة الشابة أن تخرج الشمعدانات الذهبية الأربعة الضخمة من الشترينة وأن تلمعها: إذ يجب أن تحيط به في طقس السهر على الجثمان مثلما في قداس الجسد المسجى. ورجاها أن تحلق له بنفسها، لأن الذقن تظل تنمو خلال ساعات عديدة: العنق والوجنتين فقط، وأن تمر بالمقص قليلاً على طرف الذقن وعلى الشارب. أن تلبسه الصديري الضيق والبذلة الفراخ وأن تعطى الكلب سماً.

"ساكنة وخرساء؛ بدافع الكبرياء."

أورث الإبنة ممتلكاته وعيّن زوج ابنته مستفيداً ومديراً لها. لم يذكره سوى في الوصية. أما هي فعاملها، أكثر من أي وقت مضى، بإعتبارها الطفلة التي كبرت إلى جواره ولم يتحدث أبداً عن موت الإبن، ولا عن تلك الزيارة، الأولى. بدا أن الموت هو المناسبة لإبعاد كل تلك الأحداث بورع والاستعادة العالم المفقود، في فعل أخير.

"هل لي الحق في تدمير حبه، إذا كان حبه حقيقياً؟"

قبل يومين من موته، ترك الكرسى المتحرك واستلقى في الفراش. ومضطجعاً على كومة من الوسائد، احتفظ بوضعه الأنيق والمنتصب، وبجانب وجهه الحريري الحاد الملامح. أحياناً كان يمد يده ليتأكد من قرب ابنته. وكان الكلب يزوم تحت الفراش. وفي النهاية، انفتحت الشفتان الرفيعتان في إختلاجة فزع ولم تعد اليد تستطيع أن تمتد. فبقيت فوق الصدر الساكن. بقيت هي هناك، تتأمل تلك اليد.

كانت أول مرة تشهد فيها حضور الموت. فقد ماتت أمها وهى صغيرة جداً. ومات جونتالوا بعيداً.

"إنه، إذن، ذلك الهدوء الشديد القرب، تلك اليد التى لا تتحرك."

عائلات قليلة جداً هى التى رافقت العربة الفارحة فى مسارها نحو معبد سان فرنثيسكو أولاً ثم إلى جبانة التل بعد ذلك. ربما كانوا يخشون الإلتقاء به. وأمر زوجها بتأجير منزل بويلا.
"يا للوحشة، هذه المرة. لم يكن الطفل كافياً. لم يكف لورنثو. أخذت أفكر فيما كان يمكن أن تكون عليه حياتى إلى جانب ذلك الآخر، الذى لم أراه إلا من وراء قضبان النافذة؛ فى الحياة التى حال دونها هذا.

(" - ها هو بيثارو العجوز يظل طول اليوم جالساً أمام منزل ضيعته، وبين يديه بندقية. لم يتبق له سوى منزل الضيعة.
" - نعم، يا بنتورا. لم يتبق له سوى منزل الضيعة.
" - كذلك تبقى معه بعض الفتيان الذين يقال أنهم شجعان وهم مخلصون له حتى الموت.

" - نعم، يا بنتورا. لا تتسّ وجوهمهم."

ذات ليلة إنتبهت هى إلى أنها تتجسّس عليه رغم إرادتها. دون أن تشعر، أخذت تتسّى تلك اللامبالاه الخالية من الإعزاز لسنواتها الأولى لتبدأ فى البحث، خلال ساعات الأصيل الرمادية، عن نظرة زوجها، عن الحركات المتأنية للرجل الذى يفرد ساقيه فوق المقعد الجلدى أو ينحنى ليشعل المدفأة القديمة خلال ساعات الريف الباردة.

"آه، لا بد أنها كانت نظرةً واهنة، مليئةً بالإشفاق على نفسى، تطلبُ نظرتَه؛ قلقةً، نعم، لأننى لم أستطع السيطرة على الحزن وقلة الحيلة للذين تركنى فيهما ذلك الموت. واعتقدت أن هذا القلق كان

يخصني وحدي..."

لم تتبه إلى أنه، في نفس الوقت، بدأ رجل جديد في مراقبتها
بعيون جديدة يملؤها الإسترخاء والثقة، كأنه يؤد أن يجعلها تدرك أن
الأوقات الصعبة قد إنقضت.

" - الآن، يقولون جميعاً متى ستوزع عليهم أراضي دون بيثارو.
" - قل لهم أن يصمدوا. ألا يرون أن بيثارو لم يستسلم تماماً؟ قل
لهم أن يصمدوا ببنادقهم إن تجاسر العجوز على الشجار معي. وحين
تهدا الأمور، سأوزع عليهم الأراضي.

" - أنا أحفظ سرّك. فأنا أعلم أنك أخذت تبيع أراضي دون
بيثارو الجيدة لبعض المستوطنين مقابل قطع أرض هناك في بويلا.
" - الملاك الصغار سييتيحون عملاً للفلاحين كذلك، يا بنتورا.
هيا، خذ هذا وابق هادئاً...

" - شكرأ، دون أرثيميو. أنت تعرف أنني..."

وأن رجلاً جديداً بدأ الآن، بعد أن تم إرساء أسس الرفاهية،
مستعداً لأن يبين لها أن قوته تفيد أيضاً في أفعال السعادة. وليلة أن
توقفت تلك النظرات، أخيراً، لتمنحها لحظة من الإهتمام الصامت،
فكرت هي لأول مرة منذ زمن طويل في تصفيف شعرها ورفعت يداً
إلى رقبتها ذات الشعر الكستائي.

"... بينما يتسم هو لي، وهو واقف بجوار المدفأة، بهذا، بما
يشبه البراءة... هل لي الحق في أن أنكر على نفسي سعادة
محتملة..."

" - قل لهم أن يُعيدوا إلى البنادق. يا بنتورا. فلم تعد تلزمهم.
الآن يملك كل واحد قطعة أرضه والمساحات الكبرى ملكي أو ملك من
هم تحت حمايتي. لم يعد لديهم ما يخشونه.
- كيف لا، يا سيدي. إنهم راضون وممتنون لعونك. البعض كانوا

يحملون بأكثر من ذلك، لكنهم الآن راضون مرة أخرى ويقولون أن هذا أفضل من لا شيء.

"- إختار نحو عشرة أو إثني عشر من أشدهم فتوةً وأعطهم البنادق. لا نود أن يكون هناك ساخطون من جانب أو آخر." (بعدها شعرت بالحنق. تركت نفسي أنساق... وراقني ذلك. يا للعار".

رغب في أن يمحو ذكرى أصل الحكاية ويجعلها تحبه دون ذكريات عن الفعل الذي أجبرها على الزواج منه. ممدداً إلى جانب زوجته، كان يرجو في صمت - هذا ما عرفته - أن تكون الأصابع المتشابكة في تلك الساعة أكثر من مجرد إستجابة لحظية. "ربما مع ذاك الآخر كنت سأشعر بما هو أكثر؛ لا أدري؛ فلم أعرف سوى فعل الحب مع زوجي؛ آه، ذلك الفعل الذي يمنحه بعاطفة مُتطلبّة، كأنه لن يستطيع الحياة لحظة أخرى دون أن يعرف أنني أبادله الشعور..."

كان يوتخ نفسه مُفكراً في أن المظاهر تقدّم برهاناً في غير صالحه. كيف يجعلها تصدّق أنه قد أحبها منذ اللحظة التي رآها فيها تعبر أحد شوارع بويبلا، قبل أن يعرف من هي؟ "لكننا حين تنفصل، حين ننام، حين نبدأ في أن نحيا يوماً جديداً، أفتر إلى ذاك، إلى الإيماءات، إلى التصرفات التي يمكن أن تطيل في الحياة النهارية حبّ الليل ذاك."

كان بإمكانه أن يقول لها ذلك، لكن أي إيضاح سيجبره بالضرورة على إيضاح آخر وستؤدي كل الإيضاحات إلى يوم ومكان محددين، إلى سجن، في إحدى ليالي أكتوبر. كان يودّ تجنب تلك العودة؛ وعرف أنه كي يحقّق ذلك كان بإمكانه فقط أن يجعلها ملكه دون كلمات؛ قال لنفسه أن اللحم والرقّة سيتحدثان دون كلمات. حينئذ، ساوره شكّ

جديد. هل ستفهم هذه الفتاة كل ما يود قوله لها حين يأخذها بين ذراعيه؟ هل ستعرف كيف تُقدّر غرض الرقعة؟ ألم تكن إستجابتها الجنسية مفرطة في المبالغة، ومُقلدة، ومكتسبة بالتعلم؟ ألا يضيغ في هذا التمثل اللاإرادي للمرأة أى وعد بالتفاهم الحقيقى؟

" - ربما كان خجلاً. ربما كان رغبةً فى أن يكون هذا الحب فى الظلام إستثنائياً، حقاً."

لكنه لم يجرؤ على السؤال، على الكلام. كان واثقاً أن الحقائق ستفرض نفسها فى النهاية؛ العادة، والقدرية، والضرورة أيضاً. إلى أين يمكنها أن تنظر؟ إن مستقبلها الوحيد هو إلى جانبه. ربما ينتهى الأمر بهذه البديهة إلى أن تجعلها تنسى ذلك الأمر الآخر، مسألة المبتدأ. كان ينام بجوار امرأته بهذه الرغبة، التى صارت حلماً.

"وأنا أطلب الصفح لأننى نسيت فى اللذة أسباب حلقى... يا إلهى، كيف يمكن أن أستجيب لهذه القوة، لبريق هاتين العينين الخضراوين؟ ماذا يمكن أن تكون قوتى، حين يأخذنى هذا الجسد المتوحش، الرقيق، بين ذراعيه ولا يطلب منى إذنًا، ولا صفحاً عما يمكننى أن أواجه به... آه، ليس لهذا إسم؛ الأشياء تحدث قبل أن يمكن إعطاؤها إسمًا..."

(" - هناك الكثير من الصمت هذه الليلة، يا كاتالينا... هل تخشين أن تكسريه؟ هل يقول لك شيئاً؟

" - لا... لا تتكلم.

" - إنك لا تطلين منى شيئاً أبداً. أودّ لو أنك أحياناً...

" - أتركك تتكلم. تعرفُ - الأشياء - التى...

" - نعم. ليس من الضرورى الكلام. أنت تروقينى، تروقينى... لم أظن أبداً..."

ستترك نفسها تتساق. ستتركه يحبها؛ لكنها حين تستيقظ

ستعاود تذكر كل شيء وتعارض بحنقها الصامت قوة الرجل.
 "لن أقول لك ذلك. تهزمنى بالليل. وأهزمك بالنهار. لن أقوله
 لك. أننى لم أصدق أبداً ما حكيتُه لنا. أن أبى عرف كيف يُخفى
 مهانتَه خلف أسلوبه النبيل، ذلك الرجل المهذب، لكننى أنا أستطيع
 الإنتقام له سراً وطوال الحياة برمتها."

نهضت من الفراش، وهى تضفر شعرها المحلول، دون أن تنظر
 إلى الفراش المنكوش. أشعلت شمعة الأيقونة وصلّت فى صمت، مثلما
 ستظهر فى صمت، خلال ساعات النهار، أنها لم تهزّم، رغم أن الليل،
 والحملُ الثانى، والبطن المنتفخة، يؤكدون العكس. وفى لحظات الوحدة
 الحقيقية فقط، حين لا يشغل تفكيرها لا حلق الماضى ولا الخجل من
 اللذة، كانت تعرف كيف تقول لنفسها بأمانة أنه هو، حياته، قوته،

"... يقدمون لى هذه المغامرة الغريبة، التى تملؤنى بالخوف..."
 كانت دعوة إلى المغامرة، إلى الإنطلاق برأسها إلى مستقبل
 مجهول، لن تكون خطواته مُكرّسة بقداسة العادة. فقد كان يخترع كل
 شيء ويخلقه من أسفل، وكان شيئاً لم يحدث من قبل، آدم دون أب،
 موسى دون ألواح. لم تكن الحياة هكذا، لم يكن هكذا العالم الذى
 نظمهُ دون جمالييل.

"من هو؟ كيف ينبعث من ذاته؟ لا، لا أملك الشجاعة الضرورية
 لمرافقته. يجب أن أسيطر على نفسى. لا يجب أن أبكى حين أتذكر
 حياتى وأنا طفلة. يا للحنين".

قارنت أيام الطفولة السعيدة بهذا التقافز غير المفهوم لوجوه
 قاسية، وطموحات، وثروات مهدومة أو مخلوقة من العدم، لرهونات
 حان أوان تسديدها، وفوائد تم تسديدها، وكبرياءات تم إخضاعها.
 (" - لقد أوقفنا فى البؤس. لا نستطيع التعامل معك فانتِ جزءٌ

مما يفعله بنا." (

كان هذا مؤكداً. هذا الرجل.

"هذا الرجل الذى يروقتنى على نحو لا شفاء منه، هذا الرجل الذى ربما كان يحببنى حقاً، هذا الرجل الذى لا أدرى ماذا أقول له، هذا الرجل الذى يُراوح بى من اللذة إلى الخجل، من الخجل الأشد كآبةً إلى اللذة الأشد، الأشد..."

هذا الرجل جاء ليدمرهم: وقد دمرهم فعلاً، ولم تنقذ هى سوى جسدها، وليس روحها، حين باعت نفسها له. ساعات طوال قضتها أمام النافذة المفتوحة على الريف، ضائعة فى تأمل الوادى الذى تظله شجيرات الفلفل الأحمر، وهى تهز أحياناً مهد الطفل، منتظرة الولادة الثانية، متخيّلة المستقبل الذى يمكن أن يقدمه لهم المغامر. لقد دخل العالم كما دخل جسد زوجته، هازماً الحياء، بتلك البهجة، محطماً قواعد اللياقة، بتلك المتعة. وأجلس على المائدة أولئك الرجال، ملاحظي الأراضى، الأجراء ذوى النظرات اللامعة، أناساً يجهلون آداب السلوك، ألغى كل التراتيبات التى جمدها دون جمالييل. حول ذلك البيت إلى اصطبل لفلاحين يتحدثون عن أشياء غير مفهومة، ومُضجرة، وبلا طعم. بدأ يتلقى عمولات من الجيران، ويستمع إلى عبارات الإطراء. يجب أن يذهب إلى مكسيكو، إلى البرلمان الجديد. سوف يبائعونه. من سواء يمكنه أن يمثلهم حقاً؟ إذا أراد هو والسيدة زوجته أن يتجولا فى القرى يوم الأحد، فسوف يريان كم يحبونهما وكيف أن نيابته مضمونة.

أحنى ينتورا رأسه من جديد قبل أن يرتدى قبعته. اقتاد أحد العمال العرية المكشوفة حتى الحاجز وأدار هو ظهره للهندي وسار نحو الكرسي الهزاز حيث كانت المرأة الحامل.

"أم أن واجبى أن أبقى حتى النهاية على الحق الذى أشعر به؟"
مدّ يده فتناولتها. انفتحت ثمار الخوخ المتعقنة تحت قدميه،
نبحت الكلاب وجرت حول العربة ونشرت أغصان البرقوق طراجة
الندى. وحين ساعدها على الصعود إلى العربة، ضغط لا إرادياً على
ذراع زوجته وابتسم.

- لا أدري إن كنت أذيت شعورك فى شيء. إن كنت قد فعلتُ،
فأرجوك أن تغفري لى.

ينتظر بضع لحظات. إن كانت، على الأقل، ستُظهر شيئاً من
الارتباك. كان ذلك سيكفيه: إيماءة، حتى لو لم تكن إيماءة محبة، تشي
بأقل ضعف، ستكون علامة كافية على الرقة، على الرغبة فى
الحماية.

"لو كنت فقط أستطيع أن أحزم أمري، لو كنت فقط أستطيع."
تماماً مثلما خلال لقائهما الأول، مدّ يده إلى راحتها وعاد لمس
لحم دون عاطفة. أمسك بالأعنة وجلست هى إلى جانبه وفردت
مظلتها الزرقاء، دون أن توجّه بصرها نحو زوجها.
- إعتوا بالطفل.

"قسّمتُ حياتى إلى ليل ونهار، كأنما لإرضاء الجانين. لماذا لا
أستطيع اختيار واحد فقط، يا إلهى؟"

سدّد بصره نحو الشرق. على طول الطريق كانت تمر أرض الذرة،
المحرثة بخيوط من الماء الذى يوجهه الفلاحون فى مساراته بأيديهم،
نحو الأراضى الفتية، ويحمون الأكوام الصغيرة التى تختبئ داخلها
البذور. إنزلقت الصقور على البعد: بزغت الصواري الخضراء لنباتات
الصبار الأمريكى؛ وعملت السواطير فى قطع حزوز فى الجذوع؛ ذلك
النسخ. وحده الصقر، من الأعلى، يمكنه أن يُميّز البقعة الرطبة
والخصبة التى تطوّق حدود أراضى السيد الجديد، التى كانت هى

الأراضى القديمة لبرنال، ولا باستيدا، وبيثارو.

"نعم: إنه يحبني، لا يد أنه يحبني."

سرعان ما نضب اللعاب الفضى للجدول وأفسح الاستثناء مكانه للقاعدة: السهل الجيرى لنباتات الصبار الأمريكى. وعند مرور العربة، ترك العمال سواطيرهم وفؤوسهم، وساط سائقو الدواب حميرهم: تصاعدت سحب الغبار فوق أرض أخرى، جافة على حين غرة. وأمام العربة، مثل سرب أسود، مضى الموكب الدينى الذى لم يتأخرا فى اللحاق به.

"لا بد أننى منحته كل الأسباب حتى يحبني. ألا تطرينى عاطفته تجاهي؟ ألا تطرينى كلمات حبه، وجسارته، وبراين متعته؟ حتى وأنا على هذه الحال. حتى وأنا حامل، لا يتركنى. نعم. نعم إنها تطرينى." أوقفهما تقدّم الحجاج البطىء: أطفال يرتدون عباءات بيضاء بحواف مذهبة، وأحياناً بهالات من الورق المفضّض والسلك تتأرجح فوق رؤوسهم السوداء، يمسكون بأيدي نساء متشحات، بوجنات حمراء ونظرات زجاجية، ترسم علامة الصليب وتغمغن بالتراتيل القديمة: راكعات، وأقدامهن حافية وأيديهن متشبثة بالمسايح: البعض يوقفون الرجل ذا الساقين المثخنتين بالجراح الذى يوفى نذره، والبعض يسوطون الخاطيء الذى يتلقى باستمئاع ضربات الحبال على ظهره العارى وخصره مُحزَم بأوراق الصبار الشائكة. وتيجان الشوك تفتح جروحاً فى الجبهات السمراء، ووشاحات الصبار فوق الصدور الجرداء: لم تكن الهمهمات باللغة الهندية ترتفع فوق سطح الأرض المنقطة بقطرات حمراء تسويها الأقدام البطيئة بالأرض وتخفيها على الفور: أقدام ذات حُرشفة صلبة، مُنكّسة، معتادة على حمل تلك الطبقة الثانية من الجلد الطينى. لم تتقدّم العربة.

"لماذا لا أعرف كيف أقبل كل هذا دون شيء غريب في قلبي، دون تحفظ؟ أريد أن أفهم هذا بإعتباره الدليل على أنه لا يستطيع مقاومة جاذبية جسدي لكنني أستطيع فهمه فقط على أنه برهان على أنني قد أخضعته، على أنني أستطيع أن أنتزع منه هذا الحب كل ليلة وأحتقره في النهار التالي بيرودي وتباعدي. لماذا لا أحزم أمري؟ لماذا يجب أن أحزم أمري؟"

ربط المرضى لزقات^١ البصل حول أصداعهم وتركوا النساء يُمسّدنهم بالأغصان المقدسة: مئات، مئات، عوئلٌ متصل هو وحده الذى كان يقطع الصمت الخفيض للهمهمات: حتى الكلاب التى يسيل من خَطمها اللعاب، ذات الجلد الأجرب، كانت تلهث بصوت خافت، وهى تحرى بين الحشد ذى الخطو البطيء الذى ينتظر أن تظهر، على البعد، أبراج الجير الوردى، وبوابة الأجر الأزرق وقباب القيسطانى الأصفر. صعدت التماائم الرخيصة إلى الشفاه الرفيعة للتائبين وإنساب على الذقون البلغم الكثيف لخمير الصبار الأمريكى. عيون بيضاء، مليئة بالدود؛ وجوه تبقّعها القوباء؛ رؤوس حليقة لأطفال مرضى؛ أنوف نخرها الجدري؛ حواجب محاها الزهرى: مَيَسِمُ الفاتح فوق أجساد المهزومين الذين يتقدمون على ركبهم، على أربع، على أقدامهم، صوب المحراب المشيّد لتمجيد إله القوم البيض. مئات، مئات: أقدام، أيدي، إشارات، عرق، شكايات، تورّمات، قمل، طين، شفاه، أسنان: مئات.

"يجب أن أحزم أمري؛ ليس أمامي احتمال آخر فى الحياة سوى أن أكون، حتى موتى، امرأة هذا الرجل. لماذا لا أقبل ذلك؟ نعم،

^١ chiqueadores: سرائح من ورق مدهون بالشحم أو بمواد يُعتقد أنها شافية تلمصق بالرأس كملاج مزلّى. تقابلها "اللزقة" المصرية القديمة. م.

التفكير فى ذلك سهل. وليس سهلاً نسيان دوافع حقنى. يا إلهى. يا إلهى، قل لى إن كنت أنا نفسى أدمّر سعادتى، قل لى إن كان يجب أن أفضّله على واجباتى كأخت وكإبنة..."

شقت العرية طريقها بصعوبة عبر الدرب الترابى، بين الأجساد التى لا تعرف العَجَلَة، التى تتقدم على رُكبها، على الأقدام، على أربع، صوب المحراب. كانت أفاريز الصبار الأمريكى تمنع الخروج على الطريق للإلتفاف حولهم وكانت المرأة البيضاء تحمى نفسها من الشمس بالمظلة بين أصابعها، وأرجعتها برفق أكتافُ الحجاج؛ عينا الغزالة، شحمتا الأذن المتورّدتان، البياض الناعم للوجه، المنديل الذى يغطى أنفها وفمها، النهدان الصليبان خلف الحورى الأزرق، البطن المنتفخة، القدمان الصغيرتان المتقاطعتان، والحذاء الواطئ..

"لدينا طفل. وأبى وأخى قد ماتا. لماذا تشلنى مغناطيسية الماضى؟ يجب أن أنظر باتجاه المستقبل. ولا أستطيع أن أحزم أمرى. هل سأترك الأحداث، الحظ، شيئاً خارجاً عنى يقرّر لى؟ هذا ممكن. يا إلهى. أنتظرُ طفلاً آخر..."

إمتدت الأيدي نحوها: أولاً، الذراع المتصلّب لهندى عجوز وخطه الشيب، ثم على الفور الأذرع، العارية تحت الوشاح، للنساء؛ مهمة هادئة للإعجاب والمحبة، تحرقُ للمسها، بضع مقاطع صفيرية: "ماميتا، ماميتا"⁺ توقفت العرية وقفز هو، ملوّحاً بالسوط فوق الرؤوس الداكنة، صائحاً أن إفتحوا طريقاً؛ طويلاً، مرتدياً السواد، والقيعة ذات الشريط غائصة حتى حاجبيه...

"... يا إلهى، لماذا وضعتى فى هذا الموقف الصعب؟..."
تناولت هى الأعنة، ووجهت الحصان بعنف نحو اليمين، مُطوّحةً

* Mamita: تصغير وتدليل ماما. م.

الحجاج على الأرض، حتى سهل الحصان، ورفع قائميه الأماميين، وحطم أوعية الفخار، وأقفاص الدجاجات التي أخذت توفوق، وتخفق بأجنحتها، وصدم رؤوس الهنود الذين سقطوا على الأرض، ودار على عقبيه، عرقاناً وملتماً، وأعصاب رقبته مشدودة وعيناه بارزتان: أحست هي فوق جسدها كل العرق والجروح، والصراخ الأصم، والحشرات، وفوح عطن خمر الصبار؛ طرقت، وهى واقفة، متوازنة بثقل بطنها، اللجام فوق صدر الحيوان. فتح الحشد طريقاً، بصرخات صغيرة تتم عن البراءة والدهشة، بأذرع مرفوعة، وأجساد مطوّحة نحو جدار الصبار وجرت هى عائدة،

"لماذا أعطيتنى هذه الحياة التى يجب فيها أن أختار؟ لم أولد لهذا..."

لاهثة، بعيداً عن أولئك الناس، نحو قمة المنزل الضائعة فى تموجات القيظ، التى يخفيها الإرتفاع السريع لأشجار الفاكهة التى زرعها هو.

"أنا امرأة ضعيفة. لم أرد سوى حياة هادئة، يختار فيها آخرون من أجلى. لا... لا أعرف كيف أحزم أمرى... لا أستطيع... لا أستطيع..."

أعدت الموائد الضخمة قرب المزار، مكشوفة للشمس؛ تطاير الذباب فى أسراب كثيفة فوق القصور الضخمة للفاسوليا وأقراص عجة الذرة الموضوعية فى أكوام فوق مفرش من ورق الصحف؛ أما دمجانات خمر الصبار المحلى بالكريز وكيزان الذرة الخضراء المجففة وقطع حلوى اللوز المثثة الألوان فكانت تكسر حدة قتامة الطعام والقصور. صعد رئيس البلدية إلى منصة وقدمه وامتدحه وقبل هو الترشيح لمنصب نائب فيدرالى، الذى كان قد تم ترتيبه قبل ذلك بشهور فى بوييلا وفى مكسيكو مع الحكومة التى إعترفت بمزايام

الثورية، وبالمثل الجيّد الذى ضربه حين تقاعد من الجيش ليطبق
تعاليم الإصلاح الزراعى وبخدماته الممتازة حين عوض عن غياب
السلطة من المنطقة، مقيماً النظام على حساب جهده ومخاطرته.
أحاطت بهم الهمهمات الصمّاء والمتصلة للحجاج الذين كانوا يدخلون
ويخرجون من المعبد، سيكون بصوت عالٍ عذراءهم وإلههم، ويتنحبون،
ويستمعون إلى الخطب ويشربون من الدُمجانات. صرخ شخصٌ، ودوّت
بضع طلقات. لم يفقد المرشّح رباطة جأشه، مضغ الهنود العجّة
وأعطى هو الكلمة لمحام آخر من الإقليم، بينما تحييه الطبلبة الهندية
وتختفى الشمس خلف الجبال.

- حدث ما نُبّهتُك إليه - غمغم بنتورا حين بدأت القطرات
المستديرة للمطر الدقيق التوقيت فى الطرقة فوق قبعته - كان قُتلة
دون بيتارو هناك، يصوّبون إليك بنادقهم فور أن صعدت إلى المنصة.
ولما كان دون قبعة، فقد وضع فوق رأسه غطاءً واقياً من أوراق
الذرة - وكيف أصبحوا؟
- باردين تماماً - ابتسم بنتورا - كنا قد طوّقناهم قبل بدء
الإحتفال.

وضع قدمه فى ركاب الحصان - ألقوهم أمام باب بيتارو مباشرةً.
كرهها حين دخل القاعة العارية، المطلية بالجير، ووجدتها وحيدة،
تتأرجح فى الكرسي وتريّت علي ذراعها كأن حضور الرجل يملأها
ببرد غير محسوس، كأن تنفس الرجل، والعرق الجاف لجسده،
والنغمة المرهوبة لصوته، تحمل جميعاً ريحاً مثليّة. إرتجفت الأنف
النحيلة والمستقيمة للمرأة: طوّح القبعة فوق المائدة وتقدمت المهاميز
راسمةً خطوطاً فى الأرضية القرميدية.

- لقد... لقد آخافونى...

لم يتكلم. خلع معطفه وفرده قرب المدفأة. إنساب الماء محدثاً

هسيساً بين بلاطات قرميد السقف. كانت أول مرة تحاول هي فيها تقديم تبرير.

- سألوا عن زوجتي. اليوم كان يوماً هاماً بالنسبة لى.

- نعم، أعرف...

- كيف أقول لك... إننا جميعاً... إننا جميعاً نحتاج إلى شهودٍ

على حياتنا حتى يمكننا أن نحياها...

- نعم...

- أنت...

- أنا لم اختر حياتي! - قالت بصوت عالٍ، وهى تشدد قبضتها

على ذراعى المقعد -. إذا كنت تجبر الناس على تنفيذ إرادتك، فلا

تطلب من أحد إمتناناً ولا...

- ضد إرادتك؟ لماذا أروقك، إذن؟ لماذا تتصايحين فى الفراش إذا

كنت بعدها ترسمين على وجهك تقطيعاً كتيبة؟ منذا يفهمك؟

- أيها البائس!

- هيا، يا منافقة، أجيبى لماذا؟

- سيكون الأمر مُماثلاً مع أى رجل.

رفعت بصرها لتواجهه. ها قد قالت ما يجب أن يقال. فضلت أن

تحطّ من قدر نفسها. - ما أدراك أنت؟ يمكنكى أن أمنحك وجهاً آخر

واسماً آخر...

- كاتالينا... لقد أحبيتك... ليس الخطأ من جانبي.

- دعنى. أنا فى يدك إلى الأبد. لقد حصلت على ما أردت. إقنع

ولا تطلب المستحيل.

- لماذا تتصلّين؟ أعرف أنتى أروقك...

- دعنى. لا تلمسنى. لا تواجهنى بضعفى. أقسم لك أنتى لن

أترك نفسى تساق ثانية... لذلك.

- أنت زوجتى.
- لا تقترب. لن تقتدنى. هذا يخصك... إنه جزء من إنتصاراتك.
- نعم، وسيكون عليك أن تحتمليه بقية حياتك.
- الآن أعرف كيف أجد العزاء. بالرب إلى جانبى، وبأبنائى، لن تقتصنى السلوى أبداً.
- لماذا يجب أن يكون الرب إلى جانبك، أيتها المهرجة؟
- لا تهمنى شتائمك. أنا الآن أعرف كيف أجد العزاء.
- عن ماذا؟
- لا تباعد. عن معرفتى أننى أعيش مع الرجل الذى أذل أبى وخان أخى.
- ستدفعين ثمن هذا غالياً، يا كاتالينا برنال. إنك تضعين فى رأسى فكرة أننى أذكرك بأبيك وأخيك فى كل مرة تفتحين لى ساقيك...
- لم تعد تستطيع إهانتى.
- لا تكونى متأكدة هكذا.
- إفعل ما يحلو لك. هل تؤلك الحقيقة؟ قتلت أخى.
- لم يفسح أخوك وقتاً لخيائته. كان يريد أن يصبح شهيداً. لم يشأ إنقاذ نفسه.
- مات هو وأنت هنا، تتمتع بالحياة وبميراثه. هذا كل ما أعرفه.
- إشتعلى إذن، وفكرى فى أننى لن أقتصل منك أبداً، أبداً، حتى حين أموت، لكننى أيضاً أعرف كيف أذل. سوف يؤلك أنك لم تنتهى...
- أنظن أننى لم أتبين وجهك الحيوانى وأنت تقول أنك تحببى؟
- لم أحبك أن تكونى منفصلة، بل مفروسة فى قلب حياتى...

- لا تلمسنى.. هذا ما لن تستطيع شراءه أبداً.
 - إنس هذا اليوم. فكرى فى أننا سنعيش الحياة كلها معاً.
 - إبتعد. نعم. فى هذا أفكر. فى سنين كثيرة قادمة.
 - سامحيتى، إذن. أرجوك مرة أخرى.
 - وهل ستسامحنى أنت؟
 - ليس لدى ما أسامحك عليه.
 - هل ستسامحنى على أننى لا أسامحك على النسيان الذى أخذ
 يلفُ الآخر، الذى كان يروقتى حقاً؟ لو كنتُ فقط أستطيع تذكر وجهه
 جيداً... لهذا أكرهك أيضاً، لأنك جعلتلى أنسى وجهه... لو كنتُ فقط
 قد نلتُ هذا الحب الأول لأمكننى أن أقول أننى قد عشت... حاول أن
 تفهمنى؟ أنا أكرهه أكثر مما أكرهك، لأنه استسلم للخوف ولم يعد
 أبداً... ربما أقول لك هذه الأشياء لأننى لا أستطيع قولها له... نعم،
 قل لى أن من الجبن التفكير على هذا النحو... لا أدرى؛ أنا... أنا
 ضعيفة... وأنت، إذا شئت، يمكنك أن تحب نساءً كثيرات، لكننى مقيّدة
 إليك. لو كان هو قد أخذنى بالقوة، لما كان على اليوم أن أنذكره
 وأكرهه دون أن أستطيع تذكر شكل وجهه. لقد صرتُ محببةً إلى
 الأبد، هل تفهمنى؟... إستمع لى، لا تبتعد... ولما لم تكن لدى
 الشجاعة لإدانة نفسى على كل ما حدث ولما لم يكن قريباً منى
 لأكرهه، فإننى أحملك أنت الوزر، وأكرهك أنت، أنت القوى جداً، الذى
 تستطيع تحمّل كل شيء... قل لى هل تسامحنى على هذا، لأننى لن
 يمكننى أن أسامحك طالما لا أسامح نفسى وأسامحه هو الذى كان...
 ضعيفاً جداً... لكننى لا أريد التفكير ولا الكلام؛ دعنى أحيا فى سلام
 وأطلب المغفرة من الرب، وليس منك...
 - إهدئى. كنتُ أفضلُك بصمتك الماكر.
 - أنت الآن تعرف. يمكنك أن تجرحنى قدر ما تشاء. فقد

أعطيتك حتى هذا السلاح. لأننى أريدك أن تكرهنى أنت أيضاً وأن
نتهى من الأوهام إلى الأبد...

- سيكون من الأسهل نسيان كل شيء والبدء من جديد.

- لم نصنع على هذا النحو.

تذكرت المرأة الساكنة قرارها الأول، حين أبلغها دون جمالييل ما
كان يجرى. الإستسلام بقوة. أن تدع نفسها تستشهد حتى تستطيع
الإنقاذ.

- لا يمكن أن يوقفنى شيء، أترى؟ قل سبباً يوقفنى.

- هذا أسهل.

- أقول لك لا تلمسنى، لا تربت على!

- الكراهية أسهل، أقول لك. والحب أصعب ويتطلب أكثر...

- هذا هو الشيء الطبيعى. هذا ما يخرج منى.

- ليس من الضرورى زرعته ومحبهته. يخرج وحده.

- أقول لك لا تلمسنى!

لم تعاود النظر إلى زوجها. محا غياب الكلمات قرب ذلك الرجل
الطويل الداكن، ذى الشارب الكثيف، الذى كان يحس أن حاجبيه
وعنقه يرزحان تحت ثقل حجرى. خمن أن هناك شيئاً آخر فى عينى
زوجته الجميلتين الغائمتين. فهذا الفم المزموم كان يلقى فى وجهه،
بلفتة إحتقار خفى، الكلمات التى لن يتفوه بها أبداً.

"أعتقد أنك بعد أن فعلت كل ما فعلت، مازال لك الحق فى
الحب؟ أعتقد أن قواعد الحياة يمكن أن تتغير حتى تتلقى هذه
المكافأة، علاوة على كل شيء؟ لقد فقدت براءتك فى العالم الخارجى.
ولا يمكنك إستعادتها هنا فى الداخل، فى عالم المشاعر. ربما كانت
لك حديقة. أنا أيضاً كانت لى حديقتى، فردوسى الصغير. والآن
فقدناهما كلانا. حاول أن تتذكر. لا يمكنك أن تجد فى ما ضحيت به

فعلاً، ما فقدته إلى الأبد نتيجة عمل يديك. لا أعرف من أين تأتي. ولا أعرف ماذا فعلت. كل ما أعرفه هو أنك في حياتك فقدت ما جعلتني أفقده بعد ذلك: الحلم، البراءة. ولن نعود أبداً كما كنا."

أراد أن يقرأ هذه الكلمات في وجه زوجته الساكن. ورغم إرادته، أحس أنه قريب من التعليل الذي لم تتطرق به. عادت الكلمة إلى رعبها الخفى. مخاتل: هذه الكلمة الفظيعة لا يجب أن تخرج، أبداً، من شفتي المرأة التي، رغم فقدانها الأمل في الحب، ستكون رغم ذلك الشاهد - الصامت، المتشكك - عليه خلال الأعوام التي ستأتي. صغط على صدغيه. فعلٌ واحدٌ، ربما، يمكنه أن يفك هذه العقدة للإنفصال والحنق. بضع كلمات فقط، إما أن تقال الآن أو لا تقال أبداً. إذا قبلتها هي، أمكتهما النسيان والبدء من جديد. وإذا لم تقبلها...

"نعم، أنا حيٌ وبجوارك، هنا، لأنني تركت آخرين يموتون من أجلى. يمكنني أن أحدثك عن ماتوا لأنني غسلت يدي وهزرت كتفي. إقبليني هكذا، بهذه الذنوب، وأنظري إليّ كما تنظرين إلى رجل محتاج... لا تكرهيني. لتأخذك الشفقة على، يا كاتالينا الحبيبة. لأنني أحبك؛ ضعى ذنوبي في كفةٍ وحبى في الكفة الأخرى وسترين أن حبى أكبر..."

لم يجرؤ. وتساءل لماذا لم يجرؤ. لماذا لم تطلب هي منه الحقيقة - منه هو، العاجز عن كشفها، والواعى بأن هذا الجبن يباعد بينهما أكثر ويجعله، هو أيضاً، مسئولاً عن الحب الفاشل - حتى يتطهر الإثنان من الذنب الذي أراد هذا الرجل إقتسامه، حتى ينال المغفرة.

"وحدى لا؛ وحدى لا أستطيع."

خلال تلك الدقيقة القصيرة الحميمة والصامتة...

"أنا الآن قوى. وقوتى في أن أقبل دون صراع هذه الأمور الحتمية".

... قبل هو أيضاً إستحالة النكوص، إستحالة العودة... ونهضت

هى مغممة أن الطفل بنام وحيداً فى المخذع. بقى هو وحيداً وتخيّل،
تخليها على ركبتيها، أمام الصليب العاجى، مؤدية الفعل الأخير الذى
يفصلها عنه.

"عن مصيرى وعن ذنبى، متشبّثةً بخلاصيك الشخصى، رافضةً
هذا، هذا الذى كان يجب أن يكون لنا نحن الإثنين، رغم أننى أعرضه
عليك فى صمت؛ لن تعودى بعد..."

عَقَدَ ذراعيه وخرج إلى ليل الريف، رافعاً رأسه ليحيى صُحبة
الزُهرة اللامعة، أول نجمة فى قبة سماوية سرعان ما إمتلأت
بالأضواء. ذات ليلة ماضية كان قد نظر إلى النجوم؛ ولن يفيد شيئاً
أن يتذكر ذلك. فلم يعد نفس الشخص، ولا النجوم عادت هى نفس
النجوم التى تأملتها نظرته الشابة.

كان المطر قد توقف. بعث البستان أريجاً فاغماً للجوافة والخوخ،
للبرقوق والكمثرى. كان هو قد زرع أشجار الحديقة. كان هو قد أقام
الحاجز الذى يفصل المنزل والبستان، مملكته الحميمة، عن أراضى
الفلاحة.

حين وطأت قدماء الأرض النديّة، غرس يديه فى جيبي بنطلونه
وسار ببطء نحو البوابة. فتحتها وواصل سيره نحو البيت المجاور.
خلال الحمل الأول لزوجته، كانت تلك الهندية الشابة تستقبله من حين
لآخر، بصمت خامل وغياب كامل للأسئلة والتوقعات.

دخل دون إندازٍ، دافعاً الباب بضربةٍ، إلى المنزل البائس ذى
الطوب التىء المحطم. أخذها من ذراعها، موقظاً إياها من النوم،
لامساً حرارة الجسد الداكن، الناعس. نظرت الفتاة برعب إلى الوجه
المتجهّم للسيد، إلى الشعر المجعد الذى يسقط فوق عينيْن من زجاج
مخضر، إلى الشفتين الغليظتين يحيطهما شعر أشعث خشن.
- تعالى، لا تخافى.

رفعت ذراعها لترتدى البلوزة البيضاء ومدّت يداً لتلتقط الشال.
قادها إلى الخارج. زامت بصوت خفيض، مثل عجل تلتف الأنشطة
حول رقبتة. ورفع هو وجهه نحو السماء، المرصعة هذه الليلة بكل
أضوائها.

- أترين هذه النجمة الكبيرة اللامعة؟ تبدو وكأنها فى متناول
اليـد، أليس كذلك؟ لكن حتى أنتِ تعرفين أنك لن تلمسيها أبداً. يجب
أن نقول لا بل لا نستطيع لمسه بأيدينا. تعالى؛ ستعيشين معى فى الدار
الكبيرة.

دخلت الشابة إلى البستان منكسة الرأس.
إلتمعت فى الظلمة الأشجار التى غسلها إنهمار المطر. وامتلات
الأرض المختمرة بروائح ثقيلة وتنفس هو بعمق.
وفى أعلى الدار، فى المخدع، تركت هى الباب موارباً واستلقت.
أشعلت المسرجة. أدارت وجهها إلى الحائط، ضمت يديها على
كتفـيها وثبت ساقـيها. وبعد برهة، فردتهما وتحسست موضع الخف
على الأرض. نهضت وسارت فى الغرفة، وهى ترفع رأسها وتخفضه.
رئيت، دون أن تدري، على الطفل النائم فى السرير الصغير.
تحسست بطنها. عاودت الاستلقاء وبقيت هكذا منتظرة أن ترن
خطوات الرجل فى المشى.

أنا أتركهم يفعلون، لا أستطيع التفكير ولا الرغبة؛ أتعوّد على هذا الألم؛ لا شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد دون أن يتحوّل إلى عادة؛ الألم الذى أحسّته تحت ضلوعى، حول بطنى، فى أحشائى، صار ألى، ألىمّ يقرض: طعم القىء على لسانى هو طعمى؛ إنتفاخ بطنى هو ولادتى، أشبّهه بالولادة، يُضحكنى. أحاول لمسه. أتلّمسه من المعدة إلى العانة. جديد. مستدير. طرى. لكن العرق البارد يتوقف. هذا الوجه دون لون والذى يمكننى رؤيته فى قطع الزجاج غير المتماثلة فى حقيبة يد تيريسا، التى تمر بجوار فراشى، ولا تترك حقيبة يدها أبداً، كأن ثمّة لصوصاً فى المخدع. أعانى من هذا الانهيار. لم أعد أدري. ذهب الطبيب. قال أنه سيبحث عن أطباء آخرين. لا يريد أن يتحمل مسئوليتى. لم أعد أدري. لكننى أراهم. لقد دخلوا. يفتح وينغلق الباب الماهوجنى ولا يُسمع صوت الخطوات فوق السجادة السمكية. أغلقوا النوافذ. أسدلوها، بهسيس، الستائر الرمادية. دخلوا. آه، هناك نافذة. هناك عالمٌ بالخارج. هناك هذه الريح العالية، ريح الهضبة، التى تهزُّ بضع أشجار سوداء ونخيلة. يجب أن أتّفسس...

- إفتحوا النافذة...

- لا، لا. قد تُصابَ بالبرد وتُعقّد الأمور.

- إفتحوا...

Domine non sum dignus ... -

- أبصق على الرب...

- ... لأنك تؤمن به...

ذكى جداً. كان هذا ذكياً جداً. يهدّتى. لا أعود أفكر فى هذه الأشياء. نعم، لماذا أسبّه، إذا كان غير موجود؟ هذا يفيدنى. سأسمح بهذا كله لأن تمرّدى يعنى التسليم بوجود تلك الأشياء. سأفعل هذا. لا أدري فيم كنت أفكر. عفواً. القس يفهمنى. عفواً. لن أجعلكم على حقٍ

بتمردى. هذا أفضل. يجب أن أرسم على وجهى السأم. هذا ما يليق.
كم من الأهمية يُضفونها على كل هذا. على فعل يعنى، بالنسبة لأكثر
من يهمه، بالنسبة لى، نهاية الأهمية. نعم. هكذا تسير الأمور سيراً
حسناً. هكذا. حين أنتبه إلى أن كل شيء يفقد أهميته، يحاول
الآخرون تحويله إلى أكثر الأشياء أهمية: ألم المرء ذاته، خلال الروح
الغريبة. أطلق هذا الصوت الأجوف من منخازى أنفى وأتركهم يفعلون
وأشبكُ ذراعى فوق معدتى. أوه، أغربوا جميعاً، دعونى أسمع. لنر هل
سيفهموننى. لنر هل سيفهمون ما تعنيه ذراعٌ مثيةٌ هكذا...

"... يزعمون أن هذه العربات ذاتها يمكن صنعها هنا فى
المكسيك، لكننا سمنع ذلك، أليس كذلك؟ فعشرون مليون بيسو تساوى
مليون ونصف من الدولارات...

"... Plus our commissions ...

"... لن يناسبك الثلج مع هذا الزكام.

"... Just hay fever Well, I'll be ...

"... لم أنته بعد. يقولون أيضاً إن رسوم الشحن التى تدفعها
شركات التعدين على النقل من وسط الجمهورية إلى الحدود منخفضة
جداً، أنها تعادل دعماً، أن نقل الخضروات يكلف ثمناً أعلى من نقل
معادن شركاتنا...

"... Nasty, nasty ...

"... وكيف لا. أنت تفهم أنهم لو رفعوا رسوم الشحن، فلن يكون
مريحاً لنا تشغيل المناجم...

"... Less proffits, sure, lesproffitsue lesslessless ...

ماذا يجرى، يا پاديبا؟ پاديبا، يا رجل. ما هذا اللغطة؟ پاديبا، يا
رجل.

- إنتهى الشريط. لحظة. البقية على الوجه الآخر.

- إنه لا يستمع، يا أستاذ.

لابد أن ياديبا بيتسم لأنه يعرف. ياديبا يعرفنى. أنا أستمع. آوه، أنا أستمع، آى. هذه الضوضاء تملأ مخى بالكهرباء. هذه الضوضاء لصوتى أنا، صوتى القابل للإنعكاس، نعم، الذى يعاود إصدار أزيز ويمكن سماعه وهو يدور إلى الخلف، بأزيز سنجاب، لكن صوتى مثل إسمى الذى ليس به سوى أحد عشر حرفاً ويمكن كتابته بألف طريقة أموك ريوثيرير ثورتيك مارثى إيتثاو أريمور إلا أن له مفتاحاً، سيداً، هو أرتيميو كروث، آه إسمى، يرن فى أذننى إسمى الذى يئن، ويتوقف، ويجرى فى الإتجاه المعاكس:

" - تكرر، يا مستر كروكرى. أرسل هذا كله لتغرافياً إلى المقرات الرئيسية المهمة فى الولايات المتحدة. قل لهم أن يحركوا الصحافة هناك ضد عمال السكك الحديدية الشيوعيين فى المكسيك.

" Sure, if you say they're commies, I feel it my duty to ____
uphold by any means our...

" - نعم، نعم، نعم. ما أجمل أن تتطابق مثلنا العليا مع مصالحنا، أليس كذلك؟ وهناك شىء آخر: تحدث مع سفيركم، حتى يمارس ضغطاً على الحكومة المكسيكية، الحديثة العهد والتى لم تتضج بعد.
" Oh, we never intervene.

" - إعذر خشونتى. إقترح عليه أن يدرس الموضوع بهدوء وأن يقدم رأيه النزيه، آخذاً فى الاعتبار قلقه الطبيعى على مصالح المواطنين الأمريكين الشماليين فى المكسيك. أن يشرح لهم أن من الضرورى الحفاظ على المناخ المواتى للاستثمار، فمع هذه التحريضات...

" O.K, O.K. "

آه، يا له من قصف من الإشارات، والكلمات، والمثيرات لسمعى

المتعب؛ آه، يا للإرهاق؛ آه، يا لها من لغةٍ دون لغةٍ؛ آه، لكننى قلت ذلك، إنها حياتى، يجب أن أستمع إليها؛ آه، لن يفهموا إشارتى لأننى أستطيع بالكاد تحريك أصابعى؛ أوقفوا هذا الآن، فقد أضجرتنى، ما شأن هذا، يا للإزعاج، يا للإزعاج... لدى ما أقوله لكم:
- أنتَ سيطرتَ عليه وانتزعته منى.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.
- أنا أحملك الذنب. أنت المذنب.

تترك تيريسا الصحيفة تسقط. تقول كاتالينا عند إقترابها من الفراش، كأننى لا يمكننى سماعها: - يبدو أن حالته سيئة جداً.
- هل قال أين هى؟ - تسأل تيريسا بصوت أكثر إنخفاضاً.
تنفى كاتالينا بهزة رأس. - ليست لدى المحامين. لابد أنها مكتوبة بخط اليد. رغم أنه قادرٌ على أن يموت دون وصية، حتى يعقّد لنا حياتنا.

أنصت إليهما وعيناي مغمضتان وأتظاهر، أظاهر.
- ألم يستطع الأب أن ينتزع منه شيئاً.

لابد أن كاتالينا نفت. أحس بها تركع بجوار رأس الفراش وتقول بصوت بطيء ومحطم: - كيف تشعر؟... أليس لديك رغبة فى الكلام قليلاً؟... أرتيميو... هناك شىء مهم جداً... أرتيميو... لا نعرف إن كنت قد تركت وصية. نريد أن نعرف أين...

الألم يبدأ فى التضائل. ولا تريان العرق البارد الذى ينساب على جبهتى، ولا سكونى المشدود. أستمع إلى الأصوات، لكننى الآن فقط أعاود تمييز الأشكال الداكنة. يعود كل شىء إلى بؤرته الطبيعية وأميزهما بكاملهما. بوجهيهما وتعبيراتهما، وأودّ لو عاد الألم إلى بطنى. أقول لنفسى، أقول لنفسى وذهنى صافٍ أننى لا أحبهما، أننى لم أحبهما أبداً.

- ... نريد أن نعرف أين...

تخيلا نفسيكما فى مواجهة بائع عديم الثقة، أيتها الحقيرتان،
فى مواجهة طردٍ من المسكن، فى مواجهة محام مخادع، فى مواجهة
طبيب مزيف، تخيلا نفسيكما من الطبقة المتوسطة التافهة، أيتها
الحقيرتان، واقفتين فى الطابور لشراء لبن مغشوش، لدفع الضرائب
العقارية، لحضور مقابلة رسمية، للحصول على قرض، واقفتين فى
الطابور لتحلما بإمكانكما بلوغ منزلة أعلى، حاسدتين مرور زوجة وابنة
أرتيميو كروث فى سيارتهما، حاسدتين منزلاً فى لاس لوماس دى
تشابولتيبيك، حاسدتين معطفاً من فراء المينك، عقداً من الزمرد،
رحلة إلى الخارج، تخيلا نفسيكما فى عالم بدون كبرياء وتصميمى،
تخيلا نفسيكما فى عالم أكون فيه أنا فاضلاً، أكون فيه رقيق الحال:
إلى أسفل، من حيث خرجتُ، أو إلى أعلى، حيث أنا: هنالك فقط،
أقول لكما، يوجد كبرياء، وليس فى المنتصف، ليس فى الحسد،
والرتابة، والطواير: كل شيء أو لا شيء: تعرفان رهانى؟ تفهمانه؟ كل
شيء أو لا شيء، كل شيء بالأسود أو كل شيء بالأحمر، بعزيمة، هيه؟،
بعزيمة، أن يكون المرء مخاطرأ بحياته، محطماً وجهها، مُعرضاً نفسه
لأن يعدمه بالرصاص من هم فوق أو من هم تحت؛ هذا ما يعنيه كون
المرء رجلاً، كما كنت أنا، لا كما كان يمكن أن تتمنيا أنتما، نصف رجل،
رجلاً ذا صرخات ناشزة، رجل مواخير وخمّارات، ذكورياً ممن يظهر
على بطاقات البريد، آه، لا، أنا، لا أنا لم أضطر للصراخ فى
وجهيكما، لم أضطر للإنغماس فى السكر حتى أخيفكما، لم أضطر
لضربكما حتى أفرض نفسى، لم أضطر لإذلال نفسى راجياً منكما
المحبة: أعطيتكما الثروة دون أن أنتظر منكما مكافأة، ولا محبة، ولا
تفهماً ولأنتى لم أطلبكما بشيء لم تستطيعا هجرانى، تشبثتما
ببذخى، لا عنتين إياى ربما كما لم تكونا لتلعنا مرتبى البائس الملعوف

فى ورق شفاف، بل ربما كنتما ستضطبران لإحترامى مثلما لم تكونا
لتحترما إبتذالى، آه أيتها العجوزتان الخرائيتان، العجوزتان المتباهيتان،
العجوزتان العاجزتان اللتان نلتما كل أشياء الثراء ومازال رأساكما
مبتذلين: لو كنتما على الأقل إستفدتما مما منحتكما، لو كنتما على
الأقل فهمتما فيم تفيد، وكيف تُستخدم أشياء البذخ: بينما نلتُ أنا كل
شئ، أتسمعانى؟ كل ما يُشتري وكل ما لا يُشتري، نلت ريخينا،
أتسمعانى، أحببتُ ريخينا، كان اسمها ريخينا وقد أحببتى، أحببتى
دون نقود، وتبعتنى، ومنحتنى الحياة هناك إلى أسفل، أتسمعانى؟
سمعتك، با كاتالينا، أنصتُ إلى ما قلته له ذات يوم:

" - أبوك؛ أبوك، يا لورنثو... أتظن...؟ أتظن أنه يمكن أن
ينجح...؟ لا أدرى، فى إختبار الرجال القديسين... الشهداء
الحقيقيين..."

Domine non sum dignus ... -

أنت ستشتم، فى أعماق الملك، هذا البخور الذى لا يريد أن يتبدد
وستعرف، خلف عينيك المغمضتين، أن النوافذ قد أغلقت أيضاً، أنك
لم تعد تتنفس هواء الأصيل المنعش: فقط فوح هذا البخور ورائحة
القس الذى سيتقدم ليمنحك الغفران، طقساً أخيراً لن تطلبه أنت،
وستقبله، رغم ذلك، حتى لا ترضيهم بتمردك فى الساعة الأخيرة: تودُّ

أن يجرى كل شيء دون أن تدينَ لأحدٍ بشيءٍ وتودُّ أن تتذكر نفسك في حياة لا تدين لأحدٍ بشيءٍ: لكنها ستمنعك، ذكرها ستمنعك - ستمنعها: ريخينا؛ ستمنعها: لاورا؛ ستمنعها: كاتالينا؛ ستمنعها: ليليا - ستلخص هي كلَّ ذكرياتك وستجبرك على الإعراف بها: لكنك ستحوِّل هذا الإمتنان - ستعرفُ ذلك، خلف كل صرخة ألم حادة - إلى إشفاق على نفسك، إلى ضياع لضياعك: لا أحد سيمنحك أكثر، لينتزع منك أكثر، من تلك المرأة، المرأة التي أحببتها بأسمائها الأربعة المختلفة: من غيرها؟

ستقاوم: ستكون قد قمت بإقتراع سرِّي: أن لا تعترف بديونك: ستكون قد طويت في نفس النسيان تيريسا وخيراردو: نسيان ستبرره لأنك لن تعرف شيئاً عنهما، لأن الفتاة ستكبر إلى جانب والدتها، بعيدة عنك أنت الذي لن تعيش إلا من أجل إبنك، لأن تيريسا ستزوج ذلك الفتى الذي لن تستطيع أبداً تثبيت وجهه في ذاكرتك، ذلك الفتى الضبابي، ذلك الرجل الرمادي الذي لن يجب أن يستهلك ويحتل زمن النعمة الممنوح لذاكرتك: وسباستيان: ألن تودَّ تذكر المعلم سباستيان: ألن تودَّ تذكر تلك اليدين المربعتين اللتين ستملصان أذنيك، ستضربانك بالمسطرة: ألن تودَّ تذكر عقل أصابعك المتألمة، أصابعك التي بيضها الطباشير، ساعاتك أمام السبورة وأنت تتعلم الكتابة، والضرب، ورسم أشياء أولية، منازل ودوائر، ألن تريد: إنه دينك:

ستصرخ وتتوقف ذراعاك: ستودُّ أن تنهض وتتمشى لتهدئة ألمك:

ستشم البخور

ستشم الحديقة المغلقة،

ستفكر في أنك لا يمكن أن تختار، أنك لم تختار ذلك اليوم: بل تركت الأمور تجري، لم تكن مسئولاً، لم تخلق شيئاً من المبدأين الأخلاقيين اللذين كانا يستميلانك ذلك اليوم: لم تستطع أن تكون

مَسْئُولاً عَنِ الْخِيَارَاتِ الَّتِي لَمْ تَخْلُقْهَا : سَتَحْلُمُ، مُنْفَصِلاً عَنِ جَسَدِكَ
الَّذِي يَصْرُخُ وَيَتَقَلَّصُ، مُنْفَصِلاً عَنِ ذَلِكَ السَّاطُورِ الَّذِي انْغَرَسَ فِي
مَعْدَتِكَ حَتَّى طَفَرَتْ مِنْ عَيْنِكَ الدَّمُوعُ، سَتَحْلُمُ بِذَلِكَ التَّرْتِيبِ لِلْحَيَاةِ،
الَّذِي خَلَقْتَهُ أَنْتَ، وَالَّذِي لَنْ تَسْتَطِيعَ الْكَشْفَ عَنْهُ أَبَداً لِأَنَّ الْعَالَمَ لَنْ
يُعْطِيكَ الْفُرْصَةَ، لِأَنَّ الْعَالَمَ لَنْ يَقْدِمَ لَكَ سِوَى قَوَانِينِهِ الرَّاسِخَةِ،
لِوَأَتْحِهِ الْمُنْتَصَارِعَةِ، أَنْكَ لَنْ تَحْلُمَ، أَنْكَ لَنْ تَفْكَرَ، أَنْكَ لَنْ تَحْيَا :
سَيَكُونُ الْبُخُورُ عَطِراً فِي الزَّمَنِ، عَطِراً يُحْكِي :
سَيَحْيَا الْأَبُ بَايْثَ فِي مَنْزِلِكَ، سَتُخْفِيهِ كَاتَالِينَا فِي الْبَدْرُومِ : لَنْ
يَكُونُ ذَنْبُكَ، لَنْ يَكُونُ ذَنْبُكَ :

لَنْ تَتَذَكَّرَ مَا تَقُولَانِهِ، أَنْتَ وَهُوَ، تِلْكَ اللَّيْلَةُ، فِي الْبَدْرُومِ : لَنْ تَتَذَكَّرَ
إِنْ كُنْتَ أَنْتَ، أَوْ كَانَ هُوَ مِنْ يَقُولِهِ : مَا اسْمُ الْوَحْشِ الَّذِي يَتَخَفَّى
بِإِرَادَتِهِ فِي زَى امْرَأَةٍ، الَّذِي يَخْصِي نَفْسَهُ بِإِرَادَتِهِ، الَّذِي يَسْكُرُ بِإِرَادَتِهِ
مِنَ الدَّمِ الْمَوْهُومِ لِلرَّبِّ؟ مِنْ سَيَقُولُ هَذَا؟ لَكِنَّهُ يَحِبُّ، وَأَقْسَمُ، لِأَنَّ حُبَّ
الرَّبِّ ضَخْمٌ جَدًّا وَيَسْكُنُ كُلَّ الْأَجْسَادِ، وَيَبْرُزُهَا : نَنَالُ أَجْسَادَنَا بِنِعْمَةٍ
وَمُبَارَكَةٍ مِنَ الرَّبِّ، لِنَمْنَحَهَا لِحَظَاتِ الْحُبِّ الَّتِي تَرِيدُ الْحَيَاةَ حَرْمَانَنَا مِنْهَا :
لَا تَشْعُرَنَّ بِالْخَجَلِ، لَا تَشْعُرَنَّ بِشَيْءٍ وَبِالْمُقَابِلِ سَتَتَسَّى أَحْزَانُكَ : لَا
يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَطِيئَةً لِأَنَّ كُلَّ كَلِمَاتٍ وَكُلَّ أَفْعَالٍ حَبْنَا الْقَصِيرِ،
الْمُتَعَجِّلِ، حُبُّ الْيَوْمِ وَلَيْسَ أَبَداً حُبُّ الْغَدِ، هِيَ مَجْرَدُ عِزَاءٍ نَمْنَحُهُ
لِأَنْفُسِنَا أَنْتَ وَأَنَا، قَبُولَ لُشُرُورِ الْحَيَاةِ الْضَّرُورِيَّةِ يَبْرُزُ فِيهَا بَعْدَ نَدْمِنَا
إِذْ، كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَوْجِدَ نَدَمٌ حَقِيقِي دُونَ الْإِعْتِرَافِ بِالْشَّرِّ الْحَقِيقِي فِي
دَاخِلِنَا؟ كَيْفَ نَنْتَبِهَ إِلَى الْخَطِيئَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَضْرِعَ رَاكِعِينَ لِنَنَالَ
الْمَغْفِرَةَ عَنْهَا إِذَا لَمْ نَرْتَكِبْ قَبْلَهَا الْخَطِيئَةَ ذَاتَهَا؟ إِنْسَ حَيَاتِكَ، دَعْنِي
أَطْفِئُ النُّورَ، إِنْسَ كُلَّ شَيْءٍ وَبَعْدَهَا سَتَضْرِعُ سِوَايَ مِنْ أَجْلِ غُفْرَانِنَا
وَنَقِيمَ صَلَاةً تَمْحُو لِحَظَاتِ حَبْنَا : لَكِي نَكْرُسَ هَذَا الْجَسَدَ الَّذِي خَلَقَهُ
الرَّبُّ وَالَّذِي يَذْكُرُ اسْمَ الرَّبِّ فِي كُلِّ رَغْبَةٍ مُتَحَقِّقَةٍ وَغَيْرِ مُتَحَقِّقَةٍ،

يذكر اسم الرب في كل تربيته سرية، يذكر اسم الرب في كل إخراج
لسائل منوى زرع الرب بين فخذيك:

أن تحياً يعنى أن تخون إلهك؛ فكل فعل من أفعال الحياة، كل فعل
يؤكدنا ككائنات حية، يتطلب إنتهاك وصايا ربك؛

ستحدث تلك الليلة مع الرائد جاييلان في ماخور، مع كل الرفاق
القدامى ولن تتذكر ما قالوه، تلك الليلة، لن تتذكر إن كانوا هم قد
قالوه، أو أنك أنت من قاله، بصوت بارد لن يكون صوت البشر: بل
الصوت البارد للسلطة وللمصلحة: نرغب في أفضل خير ممكن
للوطن: طالما ظل متمشياً مع رفاهيتنا الشخصية: لنكن أذكاء: يمكننا
الوصول إلى بعيد: فلنصنع الضروري وليس المستحيل: فلنجد مرة
وإلى الأبد كل أفعال القوة والقسوة التي يمكن أن تقيدنا مرة وإلى
الأبد: حتى لا نضطر لتكرارها: فلنشرع في وضع تدرج للمنافع حتى
يتذوقها الشعب: الثورة يمكن عملها بسرعة بالغة: لكنهم غداً
سيطالبوننا بالمزيد والمزيد والمزيد: وحينئذ لن يكون لدينا ما نقدمه إن
كنا قد فعلنا وأعطينا كل شيء: إلا توضيحتنا الشخصية وحدها: لماذا
نموت إن كنا لن نرى ثمار بطولتنا؟ فلنبق دائماً شيئاً احتياطياً: نحن
بشر ولسنا شهداء: كل شيء سيكون مسموحاً لنا به إذا حافظنا على
السلطة: إفقد السلطة وسوف يهتكوك: إنتبه لثروتنا: نحن شباب
لكننا محاطون بهالة مكانة الثورة المسلحة والمنتصرة: لماذا نتعارك؟
لنموت من الجوع؟ إذا لزم الأمر فإن القوة على حق: والسلطة لا
تقتسم:

وغداً؟ سنكون موتى أيها النائب كروث؛ فليرتب من يخلفوننا
الأمر كما يستطيعون:

: domine non sum dignus, domine non sum dignus

نعم، رجل يستطيع أن يتحدث مع الرب بالمرجل يمكنه غفران

الخطيئة لأنه إرتكبها، قسيس له الحق فى أن يكون كذلك لأن بؤسه
الإنسانى يتيح له ممارسة الخلاص فى جسده هو قبل أن يعطيه
للآخرين: domine non sum dignus :

سترفض الذنب؛ لن تكون أنت مسئلاً عن المبدأ الأخلاقى الذى
لم تخلقه، الذى وجدته جاهزاً: كنت ترغب

ترغب

ترغب

ترغب

آه، لقد كانت سعيدة تلك الأيام التى قضيتها مع المعلم سياستيان
والتي لن تودّ تذكرها بعد، جالساً على ركبتيه، وأنت تتعلم تلك الأشياء
الأولية التى يجب البدء منها لكى تصبح رجلاً حراً، وليس عبداً
للوصايا التى كتبت دون إستشارتك: آخ، كانت سعيدة أيام التعلم تلك،
تلك الحرف التى علمك إياها لكى تستطيع كسب قوتك: تلك الأيام مع
الكور والمطارق، حين كان المعلم سياستيان يعود متعباً ويشرع فى تلك
الدروس من أجلك فقط، حتى يمكنك أن تصنع لنفسك قيمة فى
الحياة وتخلق قواعدك الخاصة: أنت المتمرّد، أنت الحر، أنت الجديد
والفريد: لن تودّ تذكره: هو الذى أمرك، وأنت مضيت إلى الثورة: لا
تخرج منى هذه الذكرى، لن يبلّغك:

لن تكون لديك إجابة على القانونين المتعارضين والمفروضين؛

أنت برىء،

أنت ستودّ أن تكون بريئاً،

أنت لم تختبر، تلك الليلة.

(١٩٢٧ : ٢٣ نوفمبر)

هو من نظر بعينه الخضراوين إلى النافذة وسأله الآخر إن كان لا يريد شيئاً فزّر هو عينه، ونظر بعينه الخضراوين إلى النافذة. عندئذ قام الآخر، الذى كان قد ظل حتى تلك اللحظة هادئاً جداً، جداً، بجذب المسدس بعنف من حزامه ووضعه بضربة فوق المنضدة: أنصت هو إلى صدى إهتزاز الأكواب والزجاجات ومدّ يده لكن الآخر كان قد إبتسم، قبل أن يتمكن هو من إعطاء اسم للإحساس الجسمانى الذى أثارته فى فم معدته الحركة المباغتة، الضربة وتأثيرها على تلك الأكواب الكريستال الزرقاء، وتلك الزجاجات البيضاء. لكن الآخر إبتسم ومرت سيارةٌ مسرعة فى الزقاق، بين الصفير والشتائم بالأمّ وأضاءت مصابيحها رأس الآخر المستديرة. أدار الآخر ساقية المسدس وأشار إليه أن بها رصاصتين فقط؛ أدار من جديد، وضبط الزناد ووضع فوهة السلاح على صدغه. حاول هو أن يُشيع ببصره، إلا أن تلك الغرفة الصغيرة لم تكن بها نقطة ثابتة تجذب الإنتباه: الجدران العارية، المظلمة بالأزرق والأرضية الحجرية المستوية والمناضد، والكرسيان، والرجلان. إنتظر الآخر حتى كفت العينان الخضراوان عن الدوران فى الغرفة وعادتا إلى المقبض، وإلى المسدس، وإلى الصدغ. كان يبتسم، لكنه يعرق، وهو أيضاً. حاول أن يميّز فى صمت تكتكة الساعة الموضوعة فى الجيب الأيمن للمعطف. ربما كانت تدق أقل مما يدق قلبه؛ لم يكن لذلك أهمية، لأن انفجار طلقة المسدس كان يدوّى فى سمعه، من قبلها، وفى نفس الوقت كان السكون يسيطر على كل الأصوات الأخرى، بما فيها الصوت

المحتمل - الذى لم يرن بعد - لمسدس. إنتظر الآخر. جذب الآخر الزناد وضاعت تكة جافة ومعدنية فى السكون وفى الخارج استمر الليل كما هو، دون قمر. ظل الآخر بالسلاح مصوباً إلى صدغه وبدأ فى الابتسام، فى القهقهة: إرتجف الجسد البدين من الداخل، مثل المهلبية، من الداخل لأنه لم يتحرك من الخارج. هكذا بقيا بضع ثوان ولم يتحرك هو أيضاً؛ الآن شَم رائحة البخور التى صاحبتة منذ ذلك الصباح فى كل مكان واستطاع فقط من خلال الدخان المتخيل أن يميّز وجه الآخر، الذى ظل يضحك من الداخل قبل أن يعاود وضع المسدس فوق المنضدة، ويفرد أصابعه المبطّطة، الصفراء ويدفع السلاح ببطء نحوه. كان يمكن للسعادة العكرة فى عيني الآخر أن تكون إيداناً بدموع حبيسة؛ لم يُرد هو التحقق من ذلك. أَلَمته فى معدته الذكري، التى لم تصبح كذلك بعد، لذلك الشخص البدين والسلاح ملتصق بصدغه؛ أما الخوف لدى الآخر، الخوف المسيطر عليه فى المقام الأول، فقد قلّص أعماءه ومنعه من الكلام: ستكون تلك هى النهاية: أن يعثروا عليه فى هذه الغرفة مع البدين الميت، أن تكون هناك حجة ضده. كان قد تعرّف على مسدسه هو، المحفوظ دائماً فى درج الصوان، دون أن ينتبه حتى الآن إلى أن البدين يُقرّبه منه بأصابعه القصيرة، والمقبض ملفوف فى ذلك المنديل الذى ربما كان قد إنزلق من يده إذا كان الآخر... لكن إذا كان لم ينزلق، فإن الإنتحار يكون واضحاً. بالنسبة لمن؟ قائد شرطة يموت فى غرفة خالية وعدوّه فى مواجهته. من الذى تصرّف فى من؟ فك الآخر حزامه وتجرع الكوب حتى آخره مرة واحدة. كان العرق يُبَقع إبطيه وينساب على عنقه. أصرت الأصابع، المشوّهة لفرط قصرها، على تقريب المسدس منه. ماذا سيقول؟ أنه قد برهن من جانبه على كل شيء؛ ألن يجبن هو؟ ألن يفعل حقاً؟ سأل هو ما الذى تمت البرهنة عليه فقال الآخر أن ما تمت البرهنة عليه هو أنه من جانبه لم يتأخر، أنه إذا وصل الأمر إلى

حد الموت فإنه لم يجب، أنه لا يجب الاستمرار في جذب الخيط إلى الأبد، أن الأمور على هذا النحو. وإذا كان ذلك لم يقنعه، فلا يعرف ماذا يمكن أن يقنعه. كان ذلك برهاناً - قال له الآخر - على أنه هو يجب أن ينتقل إلى معسكرهم؛ فهل هناك واحد من جماعته مستعد لأن يثبت له ولو دفع حياته ثمناً أنهم يريدونه في ذلك الجانب؟ أشعل سيجارة وقدم له أخرى وأشعل هو نفسه سيجارته وقرب عود الكبريت من وجه البدين الذي بلون القهوة لكن البدين أطفأه بنفخة وشعر هو بأنه محاصر. تناول المسدس وترك السيجارة في توازن هش على حافة الكوب، دون أن ينتبه إلى أن الرماد يسقط داخل التكيلاً* ويترسب في القاع. ضغط فوهة المسدس على صدغه ولم يحس بأي حرارة، رغم أنه تخيل أنه لابد أن يحس ببرودة وتذكر أن عمره ثمانية وثلاثون عاماً، لكن هذا لا يهم أحداً ولا يهم البدين بل ولا يهمه هو نفسه.

وفي ذلك الصباح كان قد إرتدى ملابسه أمام المرأة البيضاء الضخمة في مخدعه وكان البخور قد وصل إلى أنفه لكنه تجاهل ذلك. كذلك تصاعدت من الحديقة رائحة ثمرة قسطل فوق تلك الأرض الجافة والنظيفة في هذا الوقت. رأى الرجل القوى، ذا الذراعين القويتين، والمعدة الملساء دون دهون، والعضلات الصلبة الملفوفة حول السرة الداكنة حيث ينتهي زغب العانة والمعدة. مرّ يداً على وجنتيه، وعلى الأنف المحطمة وعادته رائحة البخور. إختار قميصاً نظيفاً من الصوان ولم ينتبه إلى أن المسدس لم يعد هناك وانتهى من إرتداء ملابسه وفتح باب المخدع. "لا وقت لدى؛ حقاً، لا وقت لدى. أقول لك لا وقت لدى".

كانت الحديقة قد زرعت بنباتات زينة على شكل حدوة حصان

* tequila: شراب مسكر مكسيكي قوى يستخرج من الصبار الأمريكي - م.

وأزهار سوسن، مع أشجار ورد وشجيرات يحيط إطارها الأخضر بالمنزل ذى الطابق الواحد، المشيّد على الطراز الفلورنسى، بأعمدة رشيقة وأفاريز من الجصّ عند مدخل رواق البوابة. طُلِيَت الحوائط الخارجية باللون الوردى وفى داخل الصالونات، التى عبرها هو هذا الصباح، كان الضوء الباهت فى تلك الساعة يبرز الأشكال المرصّعة للمصاييح، وتماثيل الممر، وستائر المخمل، والمقاعد العالية ذات القماش المطرّز، والفترينات، والطلاء الذهبى لمقاعد الحب المزدوجة. لكنه توقف عند الباب الجانبى فى عمق الصالون، ويده فوق المقبض البرونزى ولم يُرد أن يفتح ويهبط.

"كان منزل أناس ذهبوا ليعيشوا فى فرنسا. إشتريناه بثمن بخس لكن الترميم كلفنا كثيراً. قلت لزوجى: دعنى أقوم بكل شىء، إترك كل شىء لى، فأنا أعرف كيف..."

قفز البدين من الكرسي، خفيفاً، ممتلئاً بالهواء وأزاح اليدّ التى تمسك بالسندس: لم يستمع أحداً إلى الطلقة، لأن الوقت كان متأخراً وكانا وحيدين، نعم، ربما بسبب ذلك لم يستمع إليها أحد، ففاصت فى حائط الغرفة الأزرق بينما ضحك قائد الشرطة وقال يكفى ألعاباً لهذه المرة، يكفى ألعاباً خطيرة: لماذا، إذا كان يمكن تسوية كل شىء بسهولة بالغة؟ بسهولة بالغة، فكّر هو؛ حان الوقت لتسوية الأمور بسهولة؛ ألنّ أحيا أبدأ فى هدوء؟

- لماذا لا تتركونى فى سلام؟ لم لا؟

- لكن هذا أسهل شىء، يا زمّل*. الأمر بيدك.

- إلى أين وصلنا؟

لم يصل؛ بل أحضروه؛ ورغم أنهم كانوا فى وسط المدينة، فقد

* زمّل: صيغة تحبّ من كلمة زميل، شائعة فى أوساط الجنود وما شابه - م.

دَوْخه السائق، إنحرف إلى اليسار، إنحرف إلى اليمين، حوّل ذلك التخطيط الإسباني، ذا المستطيلات، إلى متاهة ذات شفاطات غير محسوسة. كان ذلك كله غير محسوس، مثل اليد القصيرة والهشة للآخر، الذي إنتزع منه السلاح، وهو يضحك على الدوام، وعائد الجلوس، ثقيلاً مرةً أخرى، بديناً، عرقاناً، وعيناه تلمعان بالشرر.

- ألسنا نحنُ الناكحين الملاعين؟ أتعرف؟ إختار أصدقاءك دائماً

من بين الناكحين الكبار، لأنك معهم لن ينحكك أحد. هيا نشرب.

تبادلا الانتخاب وقال البدين أن هذا العالم ينقسم إلى ناكحين وحمقى وأن الوقت حان للإختيار. وقال أيضاً أنها ستكون خسارة أن لا يعرف النائب - هو - كيف يختار في الوقت المناسب، لأنهم شديدي الترابط، أناس طيبون جداً يمتحون الجميع فرصة الإختيار، إلا أنهم ليسوا جميعاً بحيوية النائب، يشعرون بأنهم ذكور جداً ثم يقومون بانتفاضة مسلحة، بينما من السهل جداً تغيير المرء لموقعه كأنه لا يرغب في ذلك ليصبح في الجانب الصحيح. هل هذه أول مرة يهرب فيها؟ إذن أين قضى السنوات الخمس عشرة الأخيرة؟ نَعَسَ صوته، البدين مثل لحمه، ذو الهسيس والمثلج مثل حية: حنجرة ذات حلقات منقبضة، يُزَيِّنُها الكحول والسيجار: - ألا يعجبك هذا؟

حدّ الآخرُ بصره فيه وواصل هو الترييت على مشبك الحزام دون أن ينتبه، حتى سحب أصابعه لأن الحلقة الفضية ذكّرت به ببرودة أو حرارة المسدس وأراد أن يحرّر يديه.

- غداً سيُعدمُ الرهبان رمياً بالرصاص. أقول لك هذا أيضاً

كبرهان على الصداقة، لأننى واثق أنك لست من أولئك الرخوين...

أبعدا الكرسيين. توجّه الآخر إلى النافذة وطرق بأصابعه بقوة على الزجاج. قام بإشارة ثم مد يده إلى الرجل. بقى الآخر عند الباب بينما هبط هو من البرج الدائرى العطن الرائحة والمظلم وقلب صندوق

قمامة وفاح كل شيء برائحة قشر برتقال متعفن، وأوراق صحف مبتلة. رفع الرجل الذي كان بجانب الباب إصبعاً إلى قبعته البيضاء وأشار له أن طريق ١٦ سبتمبر يقع إلى ذلك الجانب.

- ماذا تعتقد؟

- أننا يجب أن ننتقل إلى جانب الآخر.

- أنا لا.

- وأنت؟

- أسمعكم.

- ألا يسمعنا أحد آخر؟

- إن لاساتورنو امرأة موضع ثقة ولا تخرج من منزلها شائعة...

- إذا لم تخرج الشائعات، فسوف أخرجها أنا...

- صنعنا أنفسنا مع زعيمنا ومع زعيمنا عليهم أن يحطمونا.

- لقد ضاع. نصب له الجديد أحبولة محكمة تماماً.

- وماذا تقترح؟

- يجب أن نكون حاضرين، هذا ما أقوله.

- عليهم أولاً أن يقطعوا أذنى. أن نكون أو لا نكون.

- كيف؟

- هناك طرق.

- لكن، ليس بطريقة مكشوفة، أليس كذلك؟

- أكيد. من المعارض...

- لا، لا، أنا لا أقول شيئاً.

- كأنها نعم ولا فى نفس الوقت...

- أقول يجب أن نكون جميعاً، مثل ذكور حقيقيين، مع هذا أو مع

الآخر...

- استيقظ، يا سيدى الجنرال، فالنهار يطلع.

- إذن؟
- حسناً... الأمر يقف عند هذا الحد. كل واحد يعرف إلى أين يمضى.
- حسناً... من يدري.
- أنا أقول.
- أعتقد صراحةً أن زعيمنا لن يتقدم؟
- يبدو لى، يبدو لى...
- ماذا؟
- لا، فقط يبدو لى.
- وأنت، فى النهاية؟
- وأنا يبدو لى كذلك.
- المهم فى ساعة الحقيقة ألا تتذكروا حتى أننا تناقشنا اليوم.
- من سيتذكر أى شىء؟
- أقول، إذا كان ثمة شكوك.
- الشكوك اللعينة.
- إصمت أنت. أحضر لنا شيئاً، إذهب.
- الشكوك اللعينة، يا سيدى.
- إذن، لن نمضى سوياً؟
- سوياً نعم، لكن كل واحد بطريقته...
- ... وفى النهاية سيستمر توزيع الثمرة فى نفس المكان...
- فى نفس المكان. هذا صحيح.
- أَلن تأكل، يا سيدى الجنرال خيمينث؟
- كل واحد يعرف دوره.
- والآن، إذا أفلت لسان أحد...
- لكن، فيم تفكر، يا أخى؟ ألسنا جميعاً إخوة هنا؟

- أنا أقول أن نعم، لكن بعد ذلك يبدأ المرء فى تذكر الأم التى أنجبته، ويصراحة، تبدأ الشكوك...
 - الشكوك اللعينة، كما تقول لاساتورنو...
 - اللعينة جداً، يا سيدى الجنرال جابيلان.
 - ويتذكر المرء فقط.
 - يمضى المرء ويقرر وحده، وينقضى الأمر.
 - لكن المرء يريد إنقاذ نفسه، هيه؟
 - بشرف، يا سيدى النائب، بشرف دائماً.
 - بشرف، يا سيدى الجنرال، هذا أقل ما يجب.
 - إذن...
 - هنا لم يحدث شيء.
 - لا شيء، لا شيء مطلقاً، لا شيء.
 - لكن هل حقاً سينتزعون ضرس زعيمنا؟
 - أيهما، زعيمنا السابق أم الحالى؟
 - السابق، السابق...

Chicago, Chicago, that toddlin'town: رفعت لاساتورنو إبرة
 الفونوغراف وصفقت: - يا بنات، يا بنات، إنتباه...، بينما وضع هو
 الشريط فى الجهاز وأزاح الستائر، ضاحكاً، ولم يَرَهُنَّ إلا خلسةً،
 مُنْعَكِسَات فى المرأة المبقعة لتلك الصالة، سمراوات لكنهن يضعن
 البودرة والكريم، وطابع الحسن المزيف مرسوم فوق الخدود، وفوق
 الصدور، ويجانب الشفاه، بأخفاف الساتان والجلد، والجونلات
 القصيرة، والجفون المائلة إلى الزرقة ويد ثرييرو* فى ثياب الأحد
 وعلى وجهه البودرة هو أيضاً: - هديتى، يا سيدى؟

* ثرييرو: سريروس: حارس الجحيم. كلب ذو ثلاث رؤوس يحرس جهنم فى
 الميثولوجيا. واضح أنها كنية للبواب - م.

كان الأمر سيمضى على ما يرام، كان هو يعرف ذلك، حين
تحسس بطنه بيده اليمنى وتوقف فى الحديقة الصغيرة أمام دار البغاء
ليتنفس الندى الزغبى وطراجة الماء فى نافورة المخمل الطحلبى:
حسناً، لابد أن الجنرال خيمينث قد نزع الآن نظارته الزرقاء ولا بد أنه
يفرك جفنيه اليابسين، وتنف عُمَاص التهابِ الملتحمة الذى يكسو
ذقته: سيطلب أن يخلعوا له حذاءه العسكرى، أن يخلع له أحد الحذاء
العسكرى لأنه مُتَعَبٌ ولأنه متعوّد على أن يخلعوا له الحذاء وسوف
يضحك الجميع لأن الجنرال سينتَهز فرصة وضع الفتاة وهى تخلع له
الحذاء ليرفع جونلتها ويكشف الأفخاذ الصغيرة المستديرة الداكنة
المكسوة بحريز أرجوانى، رغم أن الآخرين سيفضلون المنظر الغريب
لتلك العينين المُحجوبتين دائماً، والمفتوحتين مرةً واحدة مثل محارتين
ضخمتين بلا طعم وسيشرح الجميع، الأصدقاء، الإخوان، الزملاء، فى
فرد أذرعهم ويجعلون فتيات ماخور لاساتورنو يخلعن لهم السترات،
لكنهن سيدرن كالتحلات حول من يرتدون السترة العسكرية، كأنما لا
تعرف أى واحدةٍ منهن ماذا يمكن أن يكون تحت الرداء العسكرى،
والأزوار ذات النسر والحية، والنجوم الذهبية: كان قد رأهن تتقافزن
هكذا، نديّات، خرجن لتوهن من الشرنقة، وأذرعهن الخلاسية مرتفعة
فى الهواء وفى أيديهن علبة البودرة والبدّارة، تبيّضن رؤوس الأصدقاء،
الإخوان، الزملاء المضطجعين على الأسيرة وسيقنّاهن مفتوحة
وقمصانهن مبقعة بالكونياك، وصدورهم مبلولة وأيديهم جافة، بينما
يتسلل إيقاع الشارلستون، بينما تأخذن فى نزع ثيابهم ببطء وفى تقبيل
كل جزءٍ عارٍ وتتصايحن حين يمدون أصابعهم: نظر إلى أظافره
بأطرافها البيضاء التى يقال أنها دليلٌ على الكذب وإلى هلال السبابة
ونبح الكلب قريباً منه. رفع ياقة جاكنته وسار نحو منزله، رغم أنه كان
يُفضّل العودة إلى المكان الآخر لينام تعانقه الأجساد المكسوة بالبودرة

ويتخلص من ذلك الحامض الذى يقتل أعصابه ويجبره على البقاء وعيناه مفتوحتان، ناظراً بلا ضرورة إلى تلك الصفوف من المنازل الخفيضة، الرمادية، المحاطة بشرفات غاصّة بأصص البورسلين والزجاج، إلى تلك الصفوف من النخيل الجاف والمترب للطريق، وهو يشم بلا ضرورة بقايا الذرة الخضراء فى الفلفل الأحمر والخل.

مرّر يده على وجنتيه، بحث بين مجموعة المفاتيح غير المريحة. ستكون هى موجودة بأسفل فى هذه اللحظة: هى التى تصعد وتهبط السلالم المفروشة بالسجاد دون أن تصدر صوتاً والتى تقزع دائماً عندما تراه يدخل: - آى! لقد أفزعمتى. لم أتوقعك. لا، لم أتوقعك مبكراً هكذا؛ أقسم لك أنتى لم أتوقعك مبكراً هكذا - وتساءل ما الدافع الذى يجعلها تتخذ مواقف التواطؤ لتجعله هو المذنب، لكن تلك أسماء أما اللقاءات، الانجذاب المرفوض قبل أن يبدأ حركته، الرفض الذى كان يقربهما أحياناً، فليس لها إسم بعد، لا قبل ولادتها ولا بعد إنتهاؤها، لأن كلا الفعلين هما نفس الشيء. ذات مرة، فى الظلمة، إنقبت أصابعه وأصابها على إفريز السلم وأبعدت هى يده وأشعل هو الضوء حتى لا يتعثّر، لأنه لم يكن يعرف أنها تهبط بينما يصعد هو، لكن وجهها لم يكن يحمل شعور اليد وأطفأت هى الضوء وأراد هو أن يسمى ذلك شذوذاً لكن ذلك لم يكن هو الإسم، لأن العادة لا يمكن أن تكون شاذة، بقدر ما تكف عن كونها إستثنائية وصادرة عن تفكير مسبق. كان يعرف شيئاً، ألسياً، ملفوفاً فى حرير وملاءات كتانية، موضوعاً للمس لأن أضواء المخدع لم تكن تضاً أبداً فى تلك اللحظات: فقط فى تلك اللحظة على السلم وحينئذ لم تخف هى وجهها، ولم تتظاهر بذلك. كانت مرة واحدة، لم يكن من الضروري تذكرها لكنها رغم ذلك قلّصت معدته برغبة حلوة - مرة فى أن تتكرر. فكر فى ذلك وأحسه عندما تكرّرت، حين تكرّرت ذلك الفجر ذاته

ولست نفسُ اليدِ يدها، هذه المرة على الإفريز الذى يؤدى إلى قبو المنزل، رغم أن ضوءاً لم يُشعل وسألته هى فقط: - عم تبحث هنا؟ قبل أن تصحّح نفسها وتكرّر بنفس الصوت: - آى! لقد أفرعتنى. لم أتوقعك. أقسم لك أننى لم أتوقعك مِكرأ هكذا: - نفس الصوت، دون تهكم وتنفس هو تلك الرائحة المُجسّدة تقريباً، تلك الرائحة ذات الكلمات، ذات الهسيس.

فتح باب القبو ولم يتبيّنه فى البداية، لأنه بدا أيضاً أنه مصنوع من البخور؛ أمسكت هى بذراع الضيف السرى الذى حاول إخفاء طيّات العباءة بين ساقيه وتبديد الرائحة المقدّسة بتلويح ذراعيه، قبل أن ينتبه إلى لا جدوى كل شيء - حمايتها، والحركات المسرحية السوداء - ويعنى رأسه فى إشارة تحاكى الختام لايد أنها أراحته وأكدت له أنه، من أجل رضاه هو إن لم يكن من أجل رضى الشاهدين اللذين لم يكونا ينظران إليه، بل إلى بعضهما، قد أدّى الأفعال المكرّسة للإذعان. أراد، تضرّع أن ينظر إليه الرجل الذى دخل لتوّه، أن يتعرّف عليه: بنظرة جانبية، رأى القس أنه لا يمكنه إنتزاع عيني الرجل عن المرأة، ولا عينيها عنه، مهما احتضنت هى، وحجبت مفوؤض الرب هذا الذى أحسّ فى تقلص الغدة المرارية، فى الصفرة التى سرت فى عينيهِ ولسانه، إرهاباً برعب لن يستطيع، إذا حانت لحظته - اللحظة التالية، فلن تكون ثمة أخرى - أن يخفيه. فكر الكاهن أنه لم تبق أمامه سوى هذه اللحظة، لقبول مصيره، لكن فى هذه اللحظة لم يكن ثمة شهود. كان ذلك الرجل ذو العينين الخضراوين يرجو: يرجوها أن ترجوه، أن تتجاسر على الرجاء، أن تُجرّب مع لا أو نعم القدر ولم تستطع هى الرد؛ لم تعد تستطيع الإجابة. تخيل القس أنها، ذات يوم آخر، حين ضحّت بهذه الإمكانية للإجابة أو الرجاء، كانت قد ضحّت منذ ذلك الحين بهذه الحياة، حياة الكاهن. أبرزت الشموع دُكّة الجلد،

المادة التى تحفظ الشفافية والبريق؛ نَسَخَتْ الشموعُ فى توأم أسود كلَّ بياض الوجه، والعنق، والذراعين. إنتظرَ حتى ترجوه. رأى إنقباض تلك الحنجرة التى توذُّ التقبيل. تنهد القس: لن ترجوه هى ولم تبق أمامه هو، فى مواجهة الرجل ذى العينين الخضراوين، سوى هذه اللحظة للقيام بإذعانه، لأنه لن يستطيعَ غداً، سيكون ذلك مستحيلًا عليه دون شك، غداً سينسى الإذعانُ إسمه وسيُدعى أحشَاء والأحشَاء لا تعرفُ كلمات الرب.

نام حتى الظهيرة. أيقظته موسيقى بيانولا فى الشارع ولم يشغل نفسه بالتعرف على الأغنية المعزوفة، لأن صمت الليلة السابقة - أو ذكرها، التى هى الليل والصمت - فَرَضَ لحظات طويلةً مَبْتَتَةً تقطع اللحن ليبدأ من جديد على الفور الإيقاعَ البطيء والحزين، الذى ينساب من النافذة المواربة، قبل أن تعاودَ مقاطعته هذه الذكرى الخالية من الأصوات. رن التليفون فرفع السماعه واستمع إلى الضحكة المكتومة للآخر وقال:

- حسناً.

- ها قد أصبح لدينا فى مقر القيادة، يا سيدى النائب.

- حقاً؟

- السيد الرئيس على علم.

- إذن...

- أنت تعرف. لفتة. زيارة. دون حاجةٍ لأن تقول أى شئ.

- فى أى ساعة؟

- مرّ هنا حوالى الثانية.

- سنتقابل.

إستمعت إليه من المخدع المجاور وشرعت فى البكاء، ملتصقةً بالباب، وبعدها لم تعد تسمع شيئاً وجففت خديها قبل أن تجلس

أمام المראה.

اشترى الصحيفة من أحد البائعين المتجولين وحاول قراءتها بينما يقود السيارة، لكنه لم يتمكن إلا من إلقاء نظرة على العناوين التي تتحدث عن الإعدام بالرصاص لمن حاولوا إغتيال الزعيم الآخر، المرشح. تذكره في اللحظات العظيمة، في الحملة ضد بييا، في الرئاسة، حين أقسم الجميع على الولاء له ونظر إلى تلك الصورة للأب پرو، وذراعه مفتوحتان، وهو يتلقى الرصاص. سارت إلى جواره الأغطية البيضاء للسيارات الجديدة، ومرّت الجونلات القصيرة وقبعات الأجراس للنساء والبنطلونات المنفوخة الشبيهة بالسحالي السائدة الآن وماسحو الأحذية الجالسون على الأرض، حول نافورة الضفدعة، لكن لم تكن المدينة هي التي تمر أمام هذه النظرة الزجاجية والثابتة، بل الكلمة. تذوقها ورآها في النظرات السريعة التي تتقاطع مع نظراته من الأرصفة، رآها في الأوضاع الجسمانية، في تقطيعات الوجوه، في الإيماءات العابرة، في هز الأكثاف، في الإشارات البذيئة للأصابع. شعر بأنه حي بصورة خطيرة، مشدوداً إلى عجلة القيادة، تسبب له الدوار الوجوه، والإيماءات، والأصابع البذيئة في الشوارع، بين تأرجحين للبندول. يجب أن يفعل ذلك اليوم إذ في الغد، وبشكل حتمي، سيقوم المهانون اليوم بإهانته هو. أعشى بصره انعكاس ضوء في زجاج فرفع يده إلى جفنيه: لقد أحسن الاختيار دائماً، إختار الفاكح الأكبر، الزعيم الصاعد ضد الزعيم الأقل. إنفتح الميدان الرئيسى الشاسع، بمنصات البيع تحت البواكى ودوت أجراس الكاتدرائية برنين البرونز العميق معلنة الثانية بعد الظهر. أظهر بطاقة النائب للحارس على مدخل قصر الرئاسة. أبرز شتاء الهضبة البللورى الخطوط الظلية الكنائسية للمكسيك العتيق وهبطت جماعات من الطلبة في فترة الامتحانات عبر شارعى الأرجنتين وجواتيمالا.

أوقف السيارة فى الفناء. صعد فى المصعد الشبيه بالقفص. عبر صالونات خشب الورد والثريات المضيئة وجلس فى قاعة الإنتظار. وفيما حوله، لم تكن الأصوات الخفيضة ترتفع إلا لتتطق بحماسة زائفة الكلمتين:

- السيّد الرئيس.
- السيّد الرئيس.
- السيّد الرئيس.
- النائب كروث؟ تفضّل.

مدّ له البدين ذراعيه ورَبَّتَ الإثنان على ظهرى بعضهما وعلى الخصرين وعلى المؤخرتين وضحك البدين كما يفعل دائماً، من الداخل وإلى الداخل وصنع بسبابته إشارة إطلاق النار على الرأس وعاد الضحك دون صوت، بالاهتزاز الصامت لكرشه وخديّه الداكنين. زَرَّ بصعوبة ياقة الرداء العسكري وسأله إن كان قد قرأ الصحف فقال هو نعم، أنه الآن يفهم اللعبة لكن كل هذا لا أهمية له وأنه جاء فقط ليؤكد للسيد الرئيس ولاءه، ولاءه غير المشروط، وسأله البدين إن كان يرغب فى شيء فحدّثه هو عن بعض الأراضى القفر فى ضواحي المدينة، لا تساوى الكثير اليوم لكنها مع الزمن يمكن أن تكون مُريحة ووعدته الآخر بتسوية المسألة لأنهم فى نهاية المطاف زملاء، إخوان. وقد ظل السيد النائب يناضل، هووه، منذ عام ١٢ وأصبح له الحق فى أن يعيش آمناً وخارج تقلّبات السياسة: قال هذا ورَبَّتَ على ذراعه وعادو الطبطة على ظهره ومؤخرته لتكريس صداقتهما. إنفتح الباب ذو المقابض المذهّبة وخرج من المكتب الجنرال خيمينث، والمقدم جاييلان وأصدقاء آخرون كانوا الليلة الماضية فى دار لاساتورنو ومروا دون أن يروه، ورؤوسهم مطأطأة وعادو البدين الضحك وقال له أن كثيرين من أصدقائه قد جاءوا ليضعوا أنفسهم رهن إشارة السيد

الرئيس فى ساعة الوحدة هذه ومدّ ذراعه ودعاه للدخول.
فى عمق المكتب، بجوار ضوء مائل إلى الخضرة، رأى تلك العينين
الثاقبتين فى عمق الجمجمة، عيني النمر المتحفز هاتين وأحنى رأسه
وقال: - تحت أمرك، يا سيدى الرئيس... فى خدمة سيادتك دون
شروط، أوكد لسيادتك، يا سيدى الرئيس...

أنا أشم هذا الزيت القديم الذين يلطّخون به عيّنّى، وأنقى،
وشفتّى، وقدمّى الباردتين، ويدى الزرقاوين، وفخذى، قرب عضوى
وأرجو أن يفتحوا النافذة: أريد أن أتّفسّس. أطلق هذا الصوت الأجوف
من منخارى وأتركهم يفعلون وأشبكُ ذراعى فوق معدتى. كتان الملاءة،
طلزاجتها، هذا حقاً أمرٌ هام. ماذا يعرفون هم، كاتالينا، والقس،
وتيريسا، وخيراردو؟

- دعونى...

- ماذا يعرف الطبيب. أنا أعرفه أفضل. إنها سخرية أخرى.

- لا تقولى شيئاً.

- تيريسيتا، لا تُعارضى أباك... أقصد، أمك... ألا ترين أن...

- ها. أنت مسئولة مثله تماماً. أنت لأنك ضعيفة وجبانة، وهو

لأنه... لأنه...

- كفى. كفى.

- مساء الخير.

- من هنا.

- كَفَى، بحق الرب.

- تقضلوا، تقضلوا.

فيم كنت أفكر؟ ماذا كنت أتذكر؟

- ... مثل متسولين، لماذا يُجبرُ خياردو على العمل؟

ماذا يعرفون هم، كاتالينا، والقَس، وتيريسا، وخياردو؟ ماذا ستكون أهمية حركاتهم المسرحية الدالة على الجِداد أو عبارات التكريم التي ستظهر في الصحف؟ منذ الذي ستكون لديه أمانة أن يقول، مثلما أقولُ الآن، أن حبي الوحيد كان إمتلاك الأشياء، ملكيتها الحسنية؟ هذا هو ما أحبه. الملاة التي أرئت عليها. وكل شيء آخر، كل ما يمر الآن أمام عينيّ. أرضية من المرمز الإيطالي، تتخلله عروق خضراء وسوداء. الزجاجات التي تحتفظ بصيف تلك الأنحاء. اللوحات القديمة، ذات الورنيش المتقشّر، التي تلتقط في بقعة واحدة ضوء الشمس أو ضوء القناديل، التي تتيح تلمسها ببطء بالنظر واللمس، وأنا جالسٌ فوق أريكة من الجلد الأبيض بنقوش ذهبية، وكأس الكونيك في يدٍ والسيجار في الأخرى، مرتدياً بذلة سموكج خفيفة، من الحرير، وخف من الجلد الناعم مزروع فوق سجادة سمكة وصامته من الصوف. هنالك يتملّك المرء المشهد ووجوه الرجال الآخرين. هنالك، أو جالساً في الشرفة في مواجهة المحيط الباسيفيكي، ناظراً إلى غروب الشمس ومُرَدِّداً بكل الحواس، بأشد الحواس توتراً، آه نعم، بأشد الحواس عذوبة، تقدّم وتراجع، واحتكاك تلك الأمواج المفضضة فوق الرمال النديّة. أرضٌ. أرضٌ يمكن ترجمتها إلى نقود. قطع أرض مريّة في المدينة تبدأ في الإرتفاع فوقها غابة دعائم البناء. أرضٌ خضراء وصفراء في الريف، الأفضل دائماً،

قرب السدود، يجتاحها طنين الجرارات. أراض رأسية في الجبال
المنجمية، خزائن نقود داكنة. آلات: تلك الرائحة اللذيذة لآلة الطباعة
التي تنقي أوراقها بإيقاع متسارع...

" - إيه، دون أرتيميو، هل تحس بتوعك؟

" - لا، إنها الحرارة. هذا القيظ. كيف حالك يا مينا؟ هل
تفضلين بفتح النوافذ؟
" - حالاً..."

آه، أصوات ضوضاء الشارع. فجأة. لا يمكن فصل بعضها عن
البعض الآخر. آه، أصوات ضوضاء الشارع.

" - ماذا تريد، دون أرتيميو؟

" - مينا، أنت تعرف بأي قدر من الحماس دافعنا هنا، حتى
اللحظة الأخيرة، عن الرئيس باتيستا. لكن لما لم يعد الآن في السلطة،
لم يعد الأمر سهلاً، وأقل من ذلك سهولة الدفاع عن الجنرال تروخييو،
رغم أنه يظل في السلطة. أنت تمثل الإثنيين ولا بد أنك تفهم... الأمر
مرهق...

" - حسناً، لا تشغل بالك، دون أرتيميو، سأعمل على تسوية
الأمر. لكن مع كل هؤلاء المنهويين... وإذا كنا نتحدث عن هذا، فأنا
أحضر لك الآن بضع أوراق تشرح عمل رجل الخير*... هذا كل
شيء...

" - وكيف لا، إتركها لي. آه، يا دياث، حسن أنك جئت. إنشر هذا
في صفحة الإفتتاحية بتوقيع تخرعه... نهارك سعيد، مينا، أنتظر
أخبارك..."

أخبارك. أخبار. أنتظر أخبارك. أخباراً من شفتي البيضاوين

* Benefactor: لقب الدكتاتور تروخييو - م.

آآى، يداً، أعطونا يداً، نبضاً آخر يُحى نبضى، شفاه بيضاء...

- أنا أحملك الذنب.

- هل يُريحك هذا؟ إفعليه. لنعبر النهر على صهوة الجياد. لنعدّ

إلى أرضى. أرضى.

- ... نريد أن نعرف أين...

أخيراً، أخيراً تمنحناى لذة المجىء، راكعتين لحماً وشحماً، لتطلبنا منى هذا. القس توقع ذلك. لأن شيئاً لا بد أنه يدور حولى على مقربة شديدة حتى تجيئان بدورهما إلى رأس مخدعى بذلك الإرتجاف الذى لا يغيى عن إنتباهى. تحاولان أن تتبيئنا سخرىتى، هذه السخرية الأخيرة التى طالما تلذذت بطعمها وحيداً، هذا الإذلال الحاسم الذى لن أتمكن من الاستمتاع بعواقبه النهائية، لكن إرتعاشاته الأولية تسرّنى فى هذه اللحظة. ربما سيكون ذلك هو الدفء الأخير للإنتصار...

- أين... - أغمغم بعذوبة بالغة، بتصنع بالغ... - أين... أتركانى أفكر... تيريسا، أظننى أتذكر... أليس هناك صندوق من الماهوجنى... أحفظ فيه بالسيجار...؟ له قاعٌ مزدوج...

لا أحتاج إلى إكمال كلامى. تهض الإثنتان وتجريان إلى الطاولة الحديدية الضخمة حيث تعتقدان أنى أحياناً، بالليل، أقضى ساعات الأرق فى قراءة أشياء: بوذهما أن يكون الأمر كذلك. تقلبان أدراجاً، وتبعثران أوراقاً وتعثران، أخيراً، على صندوق الأبنوس. آه، إذن فهى هناك. هناك أخرى. أم أخذتاها. لا بد أن أصابعهما قد فتحت بعجلة القاع الثانى، ساحبتين إياه من القاعدة بذلك الاحترام. لا شىء هناك. متى أكلتُ آخر مرة؟ تبوّلت منذ وقت طويل. لكن الأكل، تقيأت. لكن الأكل.

" - السكرتير المساعد على التليفون، دون أرتيميو..."

أسدلوا الستائر، أليس كذلك؟ الوقت ليل، أليس كذلك؟ هناك

نباتات تحتاج إلى ضوء الليل لتزهر. تنتظر حتى تظهر الظلمة. اللبلاب يفتح بتلاته عند الغروب. اللبلاب. فى ذلك الكوخ كان ثمة شجرة لبلاّب، فى الكوخ بجوار النهر. كانت تفتح عند حلول المساء. نعم.

" - شكراً، سنيوريتا... حسناً... نعم، أنا أرتيميو كروث. لا، لا، لا، ما من مصالحة مجدية. إنها محاولة واضحة لإسقاط الحكومة. ها قد أفلحوا فى جعل النقابة بكاملها تترك الحزب الرسمى؛ وإذا استمر ذلك، على ماذا ستستندون، يا سيدى السكرتير المساعد؟... نعم... هذا هو الطريق الوحيد؛ إعلان بطلان الإضراب، إرسال الجنود إليهم، تحطيمهم بالهروات وسجن قاداتهم... كيف لا تكون المسألة خطيرة، يا سيدى..."

الميموزا أيضاً، أذكرُ أن الميموزا أيضاً لها مشاعر؛ يمكنها أن تكون حساسة وخجولة، عفيفة ونابضة، حية، هذه الميموزا...
" - ... نعم، مؤكد... ثمة شئ آخر، حتى نتحدث بوضوح: إذا أظهرتم حضراتكم أنكم ضعفاء، فإننى أنا وشركائى سنودع رؤوس أموالنا خارج المكسيك بوضوح. نحن بحاجة إلى ضمانات. إسمع، ماذا يمكن أن يحدث إذا هربت من البلاد خلال أسبوعين مائة مليون دولار، مثلاً؟... إيه؟... لا، الآن أفهم. هذا ما كان ينقصنا!..."

خلاص. إنتهى. آه. كان هذا كل ما هناك. كان هذا كل ما هناك؟ من يدري. لا أتذكر. منذ زمن لا أستمع إلى أصوات جهاز التسجيل هذا، منذ زمن وأنا أنظاھر وأنا أفكر فى الحقيقة فى أشياء يطيب لى أن أكلها، نعم، التفكير فى الطعام أهم لأننى لم أكل منذ ساعات طويلة ويفصل ياديا الجهاز عن التيار وأبقيت عينيّ مغمضتين ولا أدري ماذا يظنون، ماذا تقول كاتالينا، وتيريسا، وخيراردو، والطفلة - لا، جلوريا خرجت، ذهبت منذ برهة طويلة مع ابن ياديا، إنهما يتباوسان فى

الصالة، منتهزين فرصة عدم وجود أحد - لأننى أظل وعينى مغلقتين ولا أفكر سوى فى ضلوع الخنزير، فى لحم الظهر المحمّر، فى الشواء، فى الديوك المحشّية، فى أنواع الحساء التى تعجبنى كثيراً، تقريباً بقدر ما تعجبنى أنواع الحلوى، آه نعم، كنت دائماً مفرماً بالحلوى والحلوى هنا لذيذة المذاق، حلوى اللوز والصنوبر، حلوى الكاكاو واللبن الرائب، آه، آه، واللبن المحروق أيضاً، حلوى لبن ثامورا، أفكر فى حلوى لبن ثامورا، والفواكه المسكّرة، وسمك الوقار، فى سمك القاروس، وسمك موسى، أفكر فى المحار والكابوريا.

- لتعبر النهر على صهوة الجياد. ونصل حتى الضفة الرملية والبحر. فى بيراكروث.

فى الصنَدَقِيَّاتِ والسُّبَيْطِ، فى الأخطبوط وفواكه البحر، أفكر فى البيرة، المرّة كالبحر، البيرة، أفكر فى لحم غزلان يوكاتان، فى أننى لست عجوزاً، لا، رغم أننى كنت عجوزاً ذات يوم، أمام مرآة، وفى الجبن الروكفور، كم أستطيعه، أفكر، أريد، كم يخفّ عنى هذا، كم يضجرنى الإستماع إلى صوتى الخاص الدقيق، الملىء بالتلميحات، التسلطى، الذى يلعب نفس هذا الدور، دائماً، يا للسام، بينما كان يمكننى أن أكل أكل: أكل، وأنا، وأضاجع والياقى، ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ من يريد أن يأكل ينام يضاجع بنقودى؟ أنت يا پاديا وأنت يا كاتالينا وأنت يا تيريسا وأنت يا خيراردو وأنت يا پاكييتو پاديا، هل تدعى هكذا؟ لا، لأنك الآن تأكل شفتى حفيدتى فى ظلمة صالتى أو هذه الصالة، أنت الذى مازلت شاباً، لأننى لا أعيش هنا، أنتما شابان، أنا أعرف كيف أعيش جيداً، لهذا لا أعيش هنا، أنا عجوز، هه؟ عجوز ملء بالوساوس، له الحق فى أن تكون له وساوس لأنه قد هُتِكَ، أترون؟ وهو يهتك الآخرين، إختار فى الوقت المناسب، مثل تلك الليلة، آه لقد تذكرتها قبلاً، تلك الليلة، تلك الكلمة، تلك المرأة: أعطونى

طعاماً: لماذا لا يعطوننى طعاماً: إغربوا: آه: ألم: إغربوا: إهتكوا أمكم:

أنت ستطبقها: إنها كلمتك: وكلمتك هى كلمتى؛ كلمة شرف: كلمة رجل: كلمة عَجَلَة: كلمة طاحونة: لعنة، تحية مقصودة، مشروع حياة، إنتماء، ذكرى، صوت اليائسين تحرير الفقراء، أمر ذوى النفوذ، دعوة إلى النزاع وإلى العمل، نقش للحب، علامة على المولد، تهديد وسخرية، كلمة شهادة، رقيقة للعيد وللسكر، سيف الشجاعة، عرش القوة، قمة المداھنة، شعار السلالة، طوق نجاة الحدود، خلاصة التاريخ: شارة المكسيك ورمزه: كلمتك:*

* الكلمة التى يكرّس لها فوينتس هذا المقطع بكامله لمحوريتها فى الوعى - واللاوعى - المكسيكى والتى يقول أنها "شعار المكسيك ورمزه" هى كلمة chingada بمعانيها واشتقاقاتها البالغة الإتساع. وهى من الفعل chingar الذى يعادل تقريباً الفعل الإنجليزي to Fuck، لكنها تحمل ظلالاً أشد تعقيداً وتشابكاً نتيجة تاريخ المكسيك. وقد أطلقت (كصفة) على مالينشى أو مالينالى التى كانت عبدة لدى هنود المايا ثم أهدوها إلى هرنان كورتيس فاتح المكسيك فأصبحت عشيقته ومترجمته وغيّر اسمها إلى مارينا. وكسبت فى هذا الوضع الجديد عدااء أهل البلاد. وتحمل الكلمة معانى الإتهاك والإغتصاب والفحش والإجبار والخديعة وليس مجرد الفعل الجنسى. وتشير إلى عمليات التهجين القسرى والعنيف والمتتابع لثقافات وأجناس عديدة على أرض المكسيك. فالمايا - مثلاً - يفتصبون سبايا القبائل الصغيرة المهزومة. والإسبان يفتصبون

- إهتك أمك
- ابن الهتكة
- نحن هنا الهاتكون الكبار
- دع عنك المهاتكة
- سأهتك هذا حالاً
- هيا، أيها المهتوك فى استسلام.
- لا تدعهم يهتكوك
- هتكتُ هذه العجوز
- إهتك أنت
- إهتك حضرتك
- إهتك جيداً، ولا يهم من
- المثل قال لك إهتك
- هتكته فى ألف بيسو
- إلى الهتكة ولو أرعدتم
- أمورى مهتوكة
- هتكنى الرئيس

سبايا الجميع. ويأتى الأمريكيون الشماليون لفرض إغتصاب مادی ومعنوی للمكسيك
نهب التروات وفرض الثقافة. ولا فكاك للمكسيكى من نتائج هذه الأفعال المركبة
والمتتالية. ونعتقد أن فوينتس يودّ التركيز على تقريبها من معانيها الدرامية الأولى
التي تحكم كل رؤيته للتاريخ المكسيكى كفعل تهجين عنيف وقسرى لكنه يُظهر الضيق
بها لسعيه إلى تجاوز هذا التاريخ بدءاً من قبوله
وقد نتج عن اتساع إستخدامها التقليل من عمق معانيها الأصلية فأصبحت تعنى فى
اللغة الدارجة أشياء كثيرة من الإحفاق إلى الضيق إلى الخداع إلى الخطأ إلى الهزل
إلى الافراط فى الشراب وحتى إلى تدريب ديكة القتال - م.

- لا تهتك لى يومى
- فلنذهب جميعاً إلى الهتيكة
- إنغمس فى الهتيكة
- لا أجبن حتى لو هتكونى
- هتكوا الهندى
- هتكنا المستوطنون الإسبان
- الجرينجو يهتكونى
- عاش المكسيك، أبناء الهتيكة الكبرى:

حزن، فجر، خديعة، تلطيخ سمعة، إحتيال، نوم سىء: أبناء الكلمة. وليدو الهتيكة، موتى فى الهتيكة، أحياء بفعل الهتيكة الخالصة: بطن وكساء، مختبئين فى الهتيكة. إنها تمنح الوجه، وتوزع أوراق اللعب، وتلاعب بالشعار، تغطى التلميح والتلاعب بوجهين، وتكشف العراك والشجاعة، تُسَكِّرُ، تصرخ، تستسلم، تحيا فى كل فراش، تتسيّد خيلاء الصداقة، والكراهية، والسلطة. كلمتنا. أنت وأنا، أعضاء هذه الطائفة الماسونية: طائفة الهتيكة. أنت من أنت لأنك عرفت كيف تهتك ولم تتركهم يهتكوك؛ أنت من أنت لأنك لم تعرف كيف تهتك وتركتمهم يهتكوك: سلسلة الهتيكة التى تسجننا جميعاً: حلقة إلى أعلى، وحلقة إلى أسفل، متحدين مع كل أبناء الهتيكة الذين سبقونا والذين سيتلوننا: سترث الهتيكة من أعلى؛ سترثها إلى أسفل: أنت ابن أبناء الهتيكة؛ ستكون أباً لمزيد من أبناء الهتيكة: كلمتنا، خلف كل وجه، وكل إشارة، وكل نصيحة: عضو الهتيكة، قضيب الهتيكة، مؤخرة الهتيكة: الهتيكة تصدر لك الوصايا، الهتيكة تُخلّصك من بلغم الصوم الكبير، تهتك الهتيكة، تهيب ذلك الهتيكة، لن تكون لك أم، بل ستكون لك هتيكتك: بالهتيكة تتأل كل أم، أنها توأمك، إنها قريبك، أخوك، أمك، إنها لك أفضل من لا

شئ: الهتيكة: تقصمُ ظهركَ بالهتيكة؛ تشعر أنك تستطيع عمل كل شئ بالهتيكة، تُطلق سلسلة ضرطات رائعة مع الهتيكة، يتجعدُ جلدك مع الهتيكة، تثبت عزيמתك مع الهتيكة: لا تجبنُ مع الهتيكة: تدورُ في فلك الهتيكة:

إلى أين تذهب مع الهتيكة؟

يا للسُر، يا للخديعة، يا للحنين: تعتقد أنك معها ستعود إلى الأصول: إلى أى أصول؟ ليس أنت: لا أحد يريد العودة إلى العصر الذهبي الكاذب، إلى الأصول المشئومة، إلى الزئير الوحشى، إلى الصراع على لحم الدُّب، على الكهف وحَجَر الزناد، إلى التضحية وإلى الجنون، إلى الرعب الذى لا إسم له للأصل، إلى الصنم الذى تجرى التضحية به، إلى الخوف من الشمس، الخوف من الإعصار، الخوف من الخسوف، الخوف من النار، الخوف من الأتعة، الرعب من الآلهة، الخوف من سنّ البلوغ، الخوف من الماء، الخوف من الجوع، الخوف من الوحشة، الرعب الكونى: الهتيكة، هَرَم الإنكارات، معبد الفزع.

يا للسُر، يا للخديعة، يا للسراب: تعتقد أنك معها ستسيرُ إلى الأمام، ستثبتُ ذاتك: إلى أى مستقبل؟ ليس أنت: لا أحد يريدُ السيرُ مُحملاً باللعنة، بالريبة، بالإحباط، بالضعفينة، بالكراهية، بالحسد، بالحنق، بالإحتقار، بانعدام الأمان، بالبؤس، بالإنتهاك، بالسباب، بالتخويف، بالكبرياء الزائف، بالنزعة الذكورية، بفساد هتيكتك المهتوكة:

إتركها فى الطريق، إغتلها بأسلحة ليست أسلحتها: فلنقتلها: فلنقتل هذه الكلمة التى تُمرقُ بيننا، تُحجّرنا، تُعضننا بِسْمِها المزدوج للمعبود والصليب: دعونا لا نجعلها جوابنا وشقاعنا: صلّ، بينما يدهن ذلك القس شفّتيك، وأنفك، وجفنيك، وذراعيك،

وساقيك، وعضوك بالمباركة الأخيرة: تضرع: ألا تكون جوابنا ولا شقاعنا: الهيكة، أبناء الهيكة، الهيكة التي تُسمَّى الحب، تفكُّ عُرَى الصداقة، تسحقُ الرُّقَّة، الهيكة التي تُفرَّق، الهيكة التي تفصل، الهيكة التي تُدمِّر، الهيكة التي تُسمَّى: الفرج الطافح بالأفاعى ومعدن الأمِّ الحجرية، الهيكة، التجشؤ الثمل للكاهن فوق الهرم، للسيد فوق العرش، للكاهن الأكبر فى الكاتدرائية: دخان، إسبانيا وأنا هواك¹، دخان، أسمدة الهيكة، براز الهيكة، هِضاب الهيكة، أضحيات الهيكة، تشريفات الهيكة، إستعبادات الهيكة، معابد الهيكة، لغات الهيكة: من ستهتك اليوم، كى توجد؟ ومن غدا؟ من ستهتك: من ستستخدم؟: أبناء الهيكة هم هذه الأشياء، هذه الكائنات التي ستحوِّلها أنت إلى موضوعات لإستخدامك، لمتعتك، لسيطرتك، لإحتقارك، لإنتصارك، لحياتك: إبن الهيكة هو شىء تستخدمه أنت: أفضل من لا شىء.

تتعبُ

لا تهزمها

تسمع غمغمات الصلوات الأخرى التي لا تُصَبِّتُ إلى صلاتك أنت: ألا تكون جوابنا وشقاعنا: إغسل نفسك من الهيكة:

تتعبُ

لا تهزمها

حملتها معك طوال حياتك: تلك:

أنت إبنٌ للهيكة

للمهانة التي غسلتها بإهانة رجال آخرين

للنسيان الذى تحتاجه حتى تتذكر

¹ موقع مدينة مكسيكو - م.

لهذه السلسلة اللانهائية لظلمنا

تتعب

تُعِينِي: تهزمنى؛ تجبرنى على الهبوط معك إلى هذا الجحيم؛ تودُّ
تذكُرُ أشياء أخرى، وليس هذا: تجبرنى على نسيان أن الأشياء ستكون،
ليست كائنة أبداً، ولم تكن كائنة أبداً: تهزمنى بالهتيكة

تتعب

إسترح

إحلم ببراءتك

قل ماذا إعتزمت، ماذا ستتناول: أن الإغتصاب سيُرَدُّ لك ذات
يوم بنفس العملة، سيديرُ لك وجهه الآخر: حين تريد أن تنتهك وأنت
شابٌ ما لا بد أنك ستكون ممتهناً له وأنت عجوز: اليوم الذى ستتبه
فيه إلى شيء، إلى نهاية شيء: يوماً ستُبَكِّرُ فيه - أنا أهزمك -
وسترى نفسك فى المرأة وسترى، فى النهاية، أنك قد تركت شيئاً
وراءك: ستتذكره: أول يوم بلا شباب، أول يوم فى زمن جديد: أنظر
إليه جيداً، ستنتظرُ إليه جيداً، كأنه تمثال، لتتمكن من رؤيته من
جميع الزوايا: ستزيح الستائر ليدخل هذا النسيمُ الباكر: آه، كم
سيملؤك، آه، سيجعلك تتسى رائحة البخور تلك، تلك الرائحة التى
تتعفُّبك، آه، كم سينظِّقُك: لن يسمح لك حتى بالتلميح بالشك: لن
يقودك إلى حافة ذلك الشك الأول:

(١٩٤٧: ١١ سبتمبر)

هو من أزاح الستائر واستشبق الهواء النظيف. كان التسييم الباكر قد دخل، هازاً الستائر ليعلن عن مقدمه. نظر إلى الخارج: ساعات الفجر هذه هي أفضل الساعات، أكثرها صفاءً، ساعات ربيع يومي. لن تتأخر الشمس المتأججة في خنقها. لكن في السابعة صباحاً، إستضاء الشاطئ أمام الشرفة بسلام منعش وخطوط ساكنة. لم تكد الأمواج توشوش ولم تبلغ أصوات المستحمين القلائل حد صرف الإنتباه عن اللقاء المستوحّد للشمس البازغة، والمحيط الهادئ، والرمل الذي مشطه المد. أزاح الستائر واستشبق الهواء النظيف. سار ثلاثة صبية على الشاطئ حاملين دلاءهم، وهم يجمعون كوز الليل: نجوم بحر، وقواقع، وقطع خشب لامعة. تآرجح زورق شراعى قرب الساحل: إنعكست السماء الشفافة على الأرض عبر فلتر من الأخضر الأشد شحوباً. لم تسير أى سيارة عبر الطريق الذى يفصل الفندق عن الشاطئ.

ترك الستارة تسقط ومشى إلى الحمام ذى السيراميك الموريسكى الطراز. نظر في المرأة إلى هذا الوجه المنتفخ بفعل نوم كان، رغم ذلك، قصيراً جداً، ومختلفاً جداً. أغلق الباب برفق. فتح الصنبورين ووضع السدادة في الحوض. ألقى قميص البيجاما فوق غطاء المراض. إنتقى شفرة جديدة، وأخرجها من لفافة الورق الشمعى وأدخلها في التجويف الذهبى. بعدها ترك سكين الحلاقة تسقط في الماء الساخن، وبِل فوطه وغطى وجهه بها. ضبب البخار الزجاج. مسح بإحدى يديه وأشعل إسطوانة ضوء النيون الموضوعة فوق المرأة. عصر أنبوبة مُنّج أمريكي شمالي جديد، كريم الحلاقة الذى يوضع على الجلد مباشرة؛ وضع المادة البيضاء المنعشة فوق خديه، وذقنه، ورقبته. لسع أصابعه عند إخراج سكين الحلاقة من الماء. أبدى إيماء ضيق وبيده اليسرى

فَرَدَ خِداً وبدأ يحلق، من أعلى إلى أسفل، بعناية، لاوياً فمه. جعله البخارُ يعرق؛ أحس بالقطرات تنزلق على ضلوعه. الآن حَلَقَ ضد إتجاه الشعر ببطء وبعدها رَئَتْ على ذقنه ليتأكد من نعومتها. عاود فتح الصنبورين، وبلَّ الفوطة، وتغطيته وجهه بها. نظف أذنيه وندى وجهه بلوسيون مثير جعله يزفر من المتعة. نظف الشفرة وأعاد وضعها في التجويف ووضَعَ سكينَ الحلاقة في جرابه الجلدي. جذب السِداة وتأمل، للحظة، شَفَطَ البركة الرمادية من الصابون والشعيرات الملتصقة. لاحظ تقاطيعه: أراد أن يكتشف نفس الشخص الذي عهد دائماً، لأنه حين نظَّف من جديد البخارَ الذي كسى الزجاج، شعرَ دون أن يدري - في هذه الساعة الباكرة، ساعة الواجبات التافهة لكن لا غنى عنها، ساعة التوعُّكات الهضمية وأنواع الجوع غير المحددة، ساعة الروائح غير المرغوبة التي تُلَفُّ الحياة اللاواعية للنوم - بأن زمناً طويلاً قد إنقضى دون أن يرى نفسه، بينما ينظر إلى نفسه كل يوم في مرآة حمّام. مُرِعَ من الزئبق والزجاج وصورة حقيقية فريدة لهذا الوجه ذي العينين الخضراوين والقم المليء بالحيوية، ذي الجبهة الواسعة والوجنتين البارزتين. فتح فمه وأخرج لسانه الخشن في جُزُرٍ صغيرة بيضاء؛ بعدها بحث في الإنعكاس عن فراغات الأسنان الناقصة. فتح خزانة الحمّام وتناول الكيارى التي كانت مستقرة في قاع كوب مملوء بالماء. شَطَفَهَا بسرعة وثبتها في مواضعها، مُدِيراً ظهره للمرأة. فَرَدَ المعجون المخضّر فوق فرشاة الأسنان ونظف أسنانه. تَفَرَّغَ وتخلّص من بنطلون البيجاما. فتح صنبوري البانيو. تحسس الحرارة بكفّ يده وأحس بالإنسكاب غير المتكافئ على رقبته، وهو يمرر الصابون فوق جسده النحيل، ذي الضلوع البارزة، ومعدته المترهلة وعضلاته التي مازالت تحتفظ ببعض الشدّ العصبي، لكنها الآن تميل إلى التدلى نحو الداخل، بطريقة بدت له غريبة، إذا لم يحافظ على انتباه نشيط،

ومصطنع... فقط عندما يكون مُراقباً، مثلما فى هذه الأيام، من جانب تلك النظرات الوقحة لفندق الشاطئ. أدار وجهه إلى البانيو، أغلق الصنبورين وفرك نفسه بالفوطة. عاوده الإحساس بالرضى حين فرك صدره وإبطيه بهاء اللاهثاندر ومرّر المشط فوق شعره المجعد. تناول من closet سروال الإستحمام الأزرق وقميص البولوا الأبيض. إرتدى الخفّ الإيطالى ذى القماش والرياط وفتح ببطء باب الحمام.

واصل النسيمُ هزّ الستائر والتمعت الشمس بالكاد: ستكون خسارة، خسارة حقيقة أن يضيع النهار. فى سبتمبر لا يمكن التكهن أبداً. نظر نحو الفراش المزدوج. ظلت ليليا نائمة، فى ذلك الوضع التلقائى، الحرّ: الرأس مستندة على الكتف والذراع ممدودة فوق الوسادة، الظهر مكشوف وإحدى الركبتين مثنية، خارج الملاءة. إقترب من الجسد الشاب، الذى كان هذا الضوء الأول يتلاعب فوقه بخفة، مضيقاً الزغب الذهبى للذراعين والأركان الندية للجفنين، والشفنتين، والإبط ذى القش. رقع لينظر إلى لآلى العرق فوق الشفتين ويحسّ بالدفع الفاتر الذى يتصاعد من جسد حيوان صغير مسترخ، لوّحته الشمس، لا يعرف الخجل فى براءته. مدّ ذراعيه، برغبة فى أن يديرها ويرى مقدمة الجسد. إنفعلت الشفتان شبه المفتوحتين وتهدّدت الفتاة. هبط هو ليُفطر.

حين إنتهى من قهوته، نظّف شفّتيه بالفوطة الصغيرة ونظر حوله. فى هذه الساعة، دائماً، يبدو أن الأطفال هم الذين يفطرون، بصحبة المربّيات. كانت الرؤوس الناعمة والرطوبة هى رؤوس من لم يستطيعوا مقاومة إغراء الاستحمام قبل الإفطار ويستعدّون الآن للعودة، بثياب الاستحمام المبلولة، إلى الشاطئ الذى يلوذ به ذلك الزمن بلا زمن ووحدتها مُخيّلة كل طفل هى التى تمنح فيه الإيقاع المرغوب لساعات، طويلة أوقصيرة، من قلاع وأسوار تقام، من

مُقدِّماتٍ مَرَحَةٍ لِلدَّفْنِ فِي الرَّمَالِ، مِنْ نُزْهَاتٍ يَتَنَاقَرُ فِيهَا الرِّذَاذُ
وَالْعَابُ مَهْدُومَةٌ، مِنْ أَجْسَادٍ مَتَمَدِّدَةٍ بِلَا زَمَنِ فِي زَمَنِ الشَّمْسِ، مِنْ
صَيْحَاتٍ فِي كَسَاءٍ غَيْرِ مَلْمُوسٍ مِنَ الْمَاءِ. كَانَ غُرْبِيًّا أَنْ يَرَاهُمْ، بِالْفَى
الصَّغِيرِ، يَبْحَثُونَ فِي الْخَلَاءِ الْمَفْتُوحِ عَنْ مَلَاذٍ فَرِيدٍ لِدَفْنِ خِيَالِي، لِقَصْرِ
مِنَ الرَّمَالِ. الْآنَ إِنْسَحَبِ الْأَطْفَالُ وَدَخَلَ ضَيُوفُ الْفُنْدُقِ الْبَالِغُونَ.

أَشْعَلُ سَيَجَارَةٌ وَإِنْتَابَهُ ذَلِكَ الدُّوَارُ الْخَفِيفُ الَّذِي ظَلَّ مِنْذُ بَضْعَةِ
أَشْهُرٍ يَصَاحِبُ دَائِمًا أَوَّلَ نَفْسٍ دَخَانَ فِي النَّهَارِ. وَجْهَ نَظَرْتَهُ بَعِيدًا عَنْ
صَالَةِ الطَّعَامِ، صَوَّبَ قَوْسَ الشَّاطِئِ النَّاعِمِ الَّذِي يَتَلَوَّى فِي الزَّيْدِ مِنْ
طَرَفِ الْمَحِيطِ الْمَفْتُوحِ حَتَّى الْهَلَالِ الْأَصْغَرِ لِلْخَلِيجِ، الْمَبْدُورِ الْآنَ
بِالْقَوَارِبِ الشَّرَاعِيَةِ وَبِجَلْبَةِ نَشَاطٍ مُتَصَاعِدَةٍ. مَرَّ بِجَوَارِهِ زَوْجَانِ مِنْ
مَعَارِفِهِ وَحَيَّاهُ بِإِيْمَاءَةٍ. هَزَّ رَأْسَهُ وَسَحَبَ مِنْ جَدِيدٍ نَفْسًا مِنَ الدِّخَانِ.

تَصَاعَدَتِ جَلْبَةُ صَالَةِ الطَّعَامِ: الشُّوْكَ وَالسَّكَاكِينُ فَوْقَ الْأَطْبَاقِ،
وَالْمَلَاعِقُ الصَّغِيرَةُ تَقْلُبُ مَا فِي الْفَنَاجِينِ، وَالزَّجَاجَاتُ الَّتِي تَنْزَعُ
سَدَادَاتِهَا وَفُورَانَ الْمِيَاهِ الْمَعْدِنِيَّةِ، وَالْكَرَاسِيُّ وَهِيَ تُحَرِّكُ مِنْ مَكَانِهَا،
وَأَحَادِيثُ الْأَزْوَاجِ، وَمَجْمُوعَاتُ السِّيَاحِ. وَالْوَشِيشُ الْمُتَزَايِدُ لِلْأَمْوَاجِ،
الَّذِي لَمْ يُرْضِهِ أَنْ تَغْلِبَهُ ضَوْضَاءُ الْبَشَرِ. وَمِنْ مَائِدَتِهِ، بِدَا مُتَنَزِّهَةٍ
الْوَاجِهَةِ الْحَدِيثَةِ لِأَكَايُولِكُو، الَّذِي أُنْشِئَ عَلَى عَجَلٍ لِتَوْفِيرِ الرَّاحَةِ لِلْعَدَدِ
الْكَبِيرِ مِنَ الْمَسَافِرِينَ الْأَمْرِيكِيِّينَ الشَّمَالِيِّينَ الَّذِينَ حَرَمَتْهُمْ الْحَرْبُ مِنْ
وَايِكِي، وَبُورْتُوْفِينُو، وَبِيَا رِيْتِزْ، وَكَذَلِكَ لِإِخْفَاءِ الْفَنَاءِ الْخَلْفِيِّ الْبَائِسِ،
الْفَارِقِ فِي الْوَحْلِ، لِلصِّيَادِينَ الْعَارِينَ وَأَكْوَاهُمْ بِالْأَطْفَالِ الْمُتَنَفِّخِ
الْبَطُونِ، وَالْكَلَابِ الْجَرِيَاءِ، وَبِرْكَ الْمِيَاهِ السُّودَاءِ، وَدِيدَانَ الْأَمْعَاءِ
الشَّعْرِيَّةِ وَجَرَائِمِ الْبَاسِيلُلُوسِ. الزَّمَانُ دَائِمًا، فِي هَذِهِ الْحَاضِرَةِ ذَاتِ
الْوَجْهِ الْمَزْدُوجِ، الشَّدِيدَةِ الْبَعْدِ عَمَّا كَانَتْ وَالشَّدِيدَةِ الْبَعْدِ عَمَّا تَرِيدُ أَنْ
تَكُونَ.

دَخَنٌ، جَالِسًا، وَتَمْتِيلٌ خَفِيفٌ فِي سَاقِيهِ اللَّتَيْنِ لَمْ تَعُودَا تَحْتَمِلَانِ،

حتى فى الحادية عشرة صباحاً، هذا الثوب الصيفى. فَرَكَ ركبته فى الخفاء. لايد أن فى داخله برد، لأن النهارَ تَجَجَّر فى ضوءٍ واحدٍ مستدير وتَأَجج قرص الشمس تحيطه حلقة برتقالية. ودخلت ليليا، وعيناها مختفيتان خلف نظارةٍ داكنة. نهض واقفاً وقَرَّب الكرسى من الفتاة. أشار للجرسون. ولاحظ تهامس الزوجين اللذين يعرفانه. طلبت ليليا ثمرة بايايا وقهوة.

- نَمَتَ جيداً؟

أومأت الفتاة بالإيجاب، إبتسمت دون أن تفتح شفتيها ورَبَّت يَدَ الرجل السمرء، البارزة فوق المفرش.

- ألم تصل الصحف من مكسيكو؟ - قالت بينما تُقَطِّع شرائح

الفاكهة - لماذا لا تتأكد؟

- نعم. أسرعى، فاليجت ينتظرنا فى الثانية عشرة.

- وأين سنأكل؟

- فى النادي.

توجه الرجل نحو الإدارة. نعم، سيكون يوماً مثل الأمس، يومَ حديث صعب، وأسئلة وأجوبة مسترخية. لكن الليل، دون كلمات، هو شىء آخر. لماذا يطلب أكثر؟ العقد، الضمنى، لا يتطلب حُباً حقيقياً، ولا حتى ما يشبه الإهتمام الشخصى. أراد فتاةً ترافقه فى الإجازة. وقد نالها. ويوم الإثنين سينتهى كلُّ شىء، ولن يعود لرؤيتها. منذاً سيطلب أكثر من ذلك؟ إشتري الصحف وصعد ليرتدى بنطلوناً من القطن الخفيف.

فى السيارة، إنغمست ليليا فى قراءة الصحف وعلقت على بعض أخبار السينما. وضعت ساقاً برونزية فوق الأخرى وتركت فردة حذاء تسقط من قدمها. أشعل السيجارة الثالثة هذا الصباح، ولم يقل لها أنه يُصدر هذه الصحيفة، تلهَّى بمراقبة الإعلانات التى تتَوَج المبانى

الجديدة وهذا الإنتقال الغريب للفندق ذى الخمسة عشر طابقاً ولطعم
الهمبورجر إلى الجبل العارى، الذى أخرج أحشاءه الحفّارُ الميكانيكى،
الذى يقف ببطنه الحمراء فوق الطريق.

حين قفزت ليلىا برشاقة إلى ظهر اليخت وحاول هو أن يتوازن
ووضع قدمه أخيراً على اليخت، كان الآخر هناك وكان هو من مدّ لهما
يده ليصعدا من الرصيف المتأرجح.
- كسافيه آدام.

شبه عار، بثوب استحمام بالغ القصر ووجهه داكن، بلون الزيت
حول العينين الأزرقاوين والحاجبين الكثيفين اللعوبين. مدّ يده بحركة
ذئب برىء: جسور، وصريح، ومتكتم.

- يسأل دون رودريجو إن كان لا يزعجكم أن تشاركونى المركب.
أوماً هو بالإيجاب وبحث عن مكان فى الكابينة الظليلة قال آدام
ليليا:

- ... عرضه على العجوز منذ نحو أسبوع وبعدها نسى...
ابتسمت ليلىا وفردت القوطة فوق مقدمة المركب المشمسة.
- أترغبين فى تناول شيء؟ - سأل الرجل ليلىا عندما إقترب خادم
المركب بعربة المشروبات والمزّات

قالت ليلىا، المستلقية، لا بإصبعها. قرّب هو العربة والتقط اللوز
بينما الخادم يعدّ له چين - آند - تونيك gin - and - tonic. كان
كسافيه آدام قد إختفى فوق سقف الكابينة. رن صوت خطواته
الثابتة، وحوارٌ سريع مع شخص فوق الرصيف، ثم حركة جسمه وهو
يستلقى على سقف الكابينة.

خرج اليخت الصغير ببطء من الخليج. تناول هو قنسنوته ذات
الحافة الشفافة واتكأ ليشرب الجين - آند - تونيك gin - and - tonic.
فى مواجهته، تمدّدت الشمس فوق ليلىا. فكّت الفتاة مشبك

السوتيان وكشفت ظهرها. أبدى جسدها كله رعشة إبتهاج. رفعت ذراعيها وعقدت شعرها المفكوك، النحاسي اللامع، فوق مؤخر رقبته. إنساب عرقٌ دقيقٌ جداً فوق رقبته، مبللاً اللحم الأملس المستدير للذراعين والظهر الناعم، بسلسلة الظهر الفائرة. نظر إليها من عمق الكابينة. الآن تتاعست في نفس وضع الصباح. متكئة على الكف، وإحدى ركبتيها مثيئة. رأى أنها قد حلقت إبطها. إنطلق الموتور وانشق الماء إلى قمتين مسرعتين، مُطَوِّحاً رذاذاً مالحاً، متماثلاً، مشقوقاً، سقط فوق جسد ليليا. بلل ماء البحر سروال الاستحمام الصغير وألصقه بإليتيها وغاص به بين فخذيها. إقتربت طيور النورس، متصايحة، من المركب السريع ورشف هو ببطء شرابه. هذا الجسد الفتى، بدل أن يُثيره، ملأه بالمشاكسة، بنوع من التقشف الحاقد. لعب، وهو جالس على كرسي القماش في عمق الكابينة، لعبة إرجاء رغباته، تخزينها حتى الليل الصامت والمتوحد، حين يختفي الجسدان في الظلمة ولا يمكن جعلهما موضوعاً للمقارنة. في الليل، لن يحتفظ لها سوى بيديه الخبيرتين، المحبتين للتأني والمفاجأة. خفض بصره ورأى هاتين اليدين السمرائين، بعروقهما المخضرة، الناتئة، اللتين حلتا محلّ توقد ونفاد صبر عصور أخرى.

وجدوا أنفسهم في البحر المفتوح. الساحل المهجور، ذو الأجسام المشعّة والصخور البارزة، كان يغطيه وهجٌ من القیظ الحارق. إستدار اليخت في البحر المرّ واصطدمت به موجة، قبلت جسد ليليا: صرخت بابتهاج ورفعت صدرها، الذي يبرز منه هذان الزرّان الوردیان اللذان بدا أنهما يُنبّتان النهدين الصليين. عاودت الإستلقاء. إقترب الخادم بطبق فوّاح من الكرز المخدوش، والخوخ، والبرتقال المقشّر. أغمض هو عينيه وأفسح المجال لإبتسامة صعبة، يفرضها التفكير: هذا الجسد الزلق، وهذا القوام المعتدل، وهذان الفخذان الممتلئان، يحملون أيضاً

خفيةً فى خليةٍ متناهية الصغر حتى الآن، سرطان الزمن. هذه الأعجوبة السريعة الزوال، فيم ستفترق، بعد مرور الأعوام، عن هذا الجسد الآخر الذى تملكه الآن؟ هيكلٌ عظمى فى الشمس تسيل منه الزيوت والعرق، يعرقُ شبابه الخاطف، الضائع فى غمضة عين، شعراً ذابل، وأفخاذٌ ستجعد بالولادات والبقاء المجرد، القلق فوق الأرض وروتيناتها الأولية، المتكررة دوماً، والعارية من الأصالة. فتح عينيه. نظر إليها.

هبط كسافيه من السقف. رأى هو ظهور الساقين المكسوتين بالشعر، ثم إنتفاخ العضو المختبئ، ثم الصدر الملتهب. نعم: كان يمشى مثل دئب، حين إنحنى ليدخل الكابينة المفتوحة ويأخذ خوختين من الطباق الكبير الموضوع فوق وعاء الثلج. وجّه إليه ابتسامة وخرج والفاكهة فى قبضته. ترّبع فى مواجهة ليليا، وساقاه مفتوحتان فى مواجهة وجه الفتاة؛ لس كتفها. ابتسمت ليليا وتناولت إحدى الخوختين المقدمتين بكلمات لم يستطع هو سماعها فقد خنقها صوت الموتور، والنسيم، والأمواج المسرعة. الآن أخذ هذان الفمان يمضغان فى وقت واحد وسالت العصاراة على ذقنيهما. لو على الأقل... نعم. ضم الفتى ساقيه واستند، وهو يمدهما، إلى جانب المركب. رفع عينيه الباسمتين، مقطباً جبينه، إلى سماء منتصف النهار البيضاء. نظرت إليه ليليا وحركت شفثيها. أشار كسافيه إلى شيء، حرك ذراعه وأشار نحو الشاطئ. حاولت ليليا النظر إلى هناك، مُغطّية نهديةا. عاود كسافيه الاقتراب وضحك الإثنان حين ربط لها مشبك السوتيان القماشى وجلست هى وصدرها رطبٍ ومرسوم وظللت جبهتها بإحدى يديها لترى ما أشار إليه فى الخط البعيد لبلاّج صغير غائر، كأنه خليج صغير أصفر، بين كثافة الدغل. نهض كسافيه على قدميه وصاح أمراً لقائد

اليخت. إستدار اليخت من جديد وتوجه إلى البلاج. استتدت الشابة أيضاً إلى جانب المركب وقرّبت حقيبة يدها لتقدم سيجارة إلى كسافييه. تحدثا.

رأى هو الجسدين، الجالسين جنباً إلى جنب، الداكنين بنفس الدرجة والناعمين بنفس الدرجة، مرسومين بخط واحدٍ لا ينقطع، من الرأس وحتى الأقدام المفرودة. ساكنين لكنهما مشدودين بانتظار أكيد، متماثلين في جدّتهما، في سعيهما الذي لا يجهدان في إخفائه إلى أن يُجرّيا نفسيهما، أن يعرضا نفسيهما. رشف شرابه ووضع نظارته السوداء، التي تكاد مع القلنسوة ذات الحافة أن تخفى وجهه.

تحدثا. فرغا من مصمصة بذرة الخوخ ولا بد أنهما قالوا: "الذيذ"، أو ربما،

"يروقنى..."

شيئاً لم يقله أحدٌ من قبل، بقوله الجسدان، الحضوران اللذان يستهلان الحياة. لا بد أنهما قالوا...

- لماذا لم نلتق من قبل؟ أنا دائماً في النادي...

- لا، أنا لا... هيا، تعالِ نقذف البذرتين. واحد...

رأهما يقذفان البذرتين في وقتٍ واحد، بضحكةٍ لم تبلغ مسامعه؛ رأى قوة الأذرع.

- غلبتك! - قال كسافييه حين سقطت البذرتان دون ضجيج،

بعيداً عن اليخت. ضحكت هي. عاودا الاسترخاء.

- هل تحبين التزلج؟

- لا أعرف.

- هيا سأعلمك...

ماذا سيقولان؟ سعل وقرّب العربة ليعدّ مشروباً آخر. لا بد أن

كسافييه سيتحقق من نوع الثنائي الذي تكونه ليليا وهو. لا بد أنها

ستحكي حكايتها الصغيرة البائسة. وسيهز هو كتفيه، ويجبرها على تفضيل جسد الذئب، الليلة واحدة على الأقل، من أجل التغيير. لكن أن يحب... أن يحب...

- المسألة هي إبقاء الذراعين صلبتين، أترين؟، ألا تنشئ ذراعيك...

- أرني أولاً كيف تفعل أنت...

- وكيف لا. دعينا نصل إلى البلاج الصغير.

آه، نعم! أن يكون المرء شاباً وثرياً.

توقف اليخت على مسافة بضعة أمتار عن البلاج المختبئ. إنزلق، مُتعباً، وأفلت رائحة البنزين، ملوثاً البحر ذا البلورات الخضراء والقاع الأبيض. تناول كسافيهيه لوحى التزلج وألقاهما فى الماء؛ ثم غطس، وطفًا مبتسماً وأرتداهما.

- إقذفى إلى الحبل!

بحث الفتاة عن المقبض وألقته إلى الشاب. عاود اليخت الإنطلاق وارتفع كسافيهيه من الماء، مُتتبعاً أثر المركب رافعاً إحدى ذراعيه بالتحية بينما تتأمله ليليا ويشرب هو الجين - آند - تونيك gin - and - tonic: هذه المسافة من البحر التى تفصل بين الشابين كانت تقرّيهما على نحو خفى؛ كانت توخّدهما أكثر من مضاجعة لصيقة وثبّتتهما فى قُرب ساكن، كأنها اليخت لا يمخرُ الباسيفيكي، كأن كسافيهيه تمثالٌ منحوتٌ إلى الأبد، تجرُّه المركب، كأن ليليا قد توقفت فوق واحدة، أى واحدة، من الموجات التى تقتقر ظاهرياً إلى قوام خاص بها، التى ترتفع، وتتلاطم، وتموت، وتتلاحم - هى نفسها أخرى - دائماً فى حركة ودائماً متماثلة، خارج الزمن، مرآة لذاتها، لموجات الأصل، موجات الألفية الضائعة والألفية المقبلة. غاص بجسده فى ذلك المقعد المنخفض والمريح. ماذا سيختار الآن؟ كيف يمكن أن يُقلّص من هذا القدر المشحون

بضرورات تقلتُ من سيطرة إرادته؟

أقلتُ كسافِييه المقبض وسقط في البحر أمام البلاج. غاصت ليليا دون أن تنظر إليه، دون أن تنظر إليه هو. لكن التوضيح سيأتي. أى توضيح؟ هل ستوضح ليليا له هو؟ هل سيطلب كسافِييه توضيحاً من ليليا؟ هل ستقدم ليليا توضيحاً لكسافِييه؟ حين ظهرت رأس ليليا، تضيؤها ألف لمسة غريبة للشمس والبحر، في الماء بجوار رأس الشاب، عرف أن لا أحد، باستثنائه، سيتجاسر على طلب توضيح؛ أن هناك إلى أسفل، في البحر الهادئ لهذا الخليج الشفاف، لن يقتش أحد عن الأسباب أو يوقف الإلتقاء الحتمي، لن يُفسد أحد ما جرى، ما كان يجب أن يجري. ما الذي يقف بين الشابين؟ أهو هذا الجسد الغائص في الكرسي، المرتدى قميص البولو، والبنطلون القطنى الخفيف والقلنسوة ذات الحافة؟

أهى هذه النظرة العاجزة؟ هناك إلى أسفل، كان الجسدان يسبحان في صمت ومنعته حافة المركب من رؤية ما يحدث. صفر كسافِييه. إنطلق اليخت وظهرت ليليا، للحظة، فوق سطح البحر. سقطت؛ توقف اليخت. الضحكات الواسعة، المفتوحة، بلغت سمعه. لم يسمعها تضحك هكذا أبداً. كأنها وُلدت لتوها، كأنما ليس وراءها، دائماً وراءها، شواهد لتاريخ وحكايات، حُزَم من العار، من أفعالٍ ارتكبتها هى، وارتكبتها هو.

ارتكبتها الجميع. كانت هذه هى الكلمة التى لا تُحتمل. ارتكبتها الجميع. لم تستطع التقطية المرة إحتواء هذه الكلمة التى تتجاوزها. التى تقطعُ كلَّ خيوط السلطة والذنب، خيوط السيطرة الفريدة على آخرين، على أحد، على فتاة فى سلطته، إشتراها هو، لتجعلهم يندرجون فى عالم واسع من الأفعال الشائعة، من المصائر المتماثلة، والخبرات دون بطاقة إمْتلاك. إذن فهذه المرأة ليست موسومةً إلى

الأبد؟ لن تكون، إلى الأبد، امرأة إمتلكها هو بشكل عابر؟ ألن يكون هذا هو تعريفها وقدرها: أن تكون ما كانته لأنها كانت ملكة في لحظة بعينها؟ هل تستطيع ليليا أن تحب كأنما لم يوجد هو أبداً؟ نهض، مشى إلى مقدمة المركب وصاح:
- الوقت تأخر. يجب العودة إلى النادي لتأكل في الوقت المناسب.

أحس بأن وجهه، وكل جسمه، متصلبين يغطيها نشاءً شاحب حين إنتبه إلى أن أحداً لم يسمع صيحته، فلم يكن يستطيع السمع جسداً خفيفان يسبحان تحت الماء المتلألئ، متوازيين، دون تلامس، كأنهما يطفوان في طبقة أخرى من الهواء.

تركهما كسافيهي آدم على الرصيف وعاد إلى اليخت: كان يريد أن يواصل التزلج. ودّعهما من مؤخرة المركب. لَوَّح بالقميص ولم يكن في عينيه شيء مما ودّ هو أن يراه. مثلما خلال الغداء عند شاطئ الخليج، تحت سقف سعف النخيل، ودّ أن يرى ما لم يجده في عيني ليليا الكستنائيتين. لم يكن كسافيهي قد سأل. ولم تكن ليليا قد حكّت تلك الحكاية الحزينة الميلودرامية التي إستمتع هو بمذاقها في داخله وهو يُميّز الطعوم المتمازجة لحساء فيشي Vichyssoise. زيجة الطبقة الوسطى تلك، مع الصعلوك الموجود دائماً، الذكورى، المفترى، الشيطان البائس؛ الطلاق ثم العهر. ودّ لو يحكيها - آه، لايد أن يحكيها - لكسافيهي. ورغم ذلك، كلفه تذكر الحكاية عناءً، لأنها كانت قد هربت من عيني ليليا، ذلك الأصل، كأنما كان الماضى قد هرب خلال الصباح من حياة المرأة.

لكن الحاضر ما كان يمكنه الهروب لأنهما يعيشانه، جالسين على هذين الكرسيين الحصير ويأكلان بطريقة ميكانيكية الغداء المُعدّ خصيصاً: حساء فيشي، وإستاكوزا، نبيذ كوت دو رون،

وآلاسكا مطهو. كانت جالسةً هناك، يدفع هولها. أوقف الشوكة بالجمبرى قبل أن تبلغ فمه: يدفع هولها، لكنها تفلت منه. لم يعد يستطع إمتلاكها أكثر من ذلك. ففى هذا المساء، هذه الليلة ذاتها، ستبحث عن كسافيه، وسيتقابلان سرّاً، وقد حدّدا الموعد فعلاً. أما عينا ليليا، الضائعتان فى مشهد الزوارق الشراعية والمياه الساكنة، فلم تقولاً شيئاً. لكن بإمكانه أن ينتزع ذلك منها، أن يفتعل فضيحة ... شعر بأنه زائف، وغير مرتاح وواصل أكل الإستاكوزا ... أى طريق الآن ... إنه لقاء قاتل يتغلّب على إرادته ... آه، يوم الإثنين سينتهى كلُّ شيء، لن يعود لرؤيتها، لن يعود للبحث عنها فى الظلام، عارياً، متأكداً من العثور على ذلك الدفء الفاتر مضطجعاً بين الملاءات، لن يعود ...

- ألسنت نعساناً؟ - غفمت ليليا حين قدّمت لهم الحلوى - ألا يسبّب لك النبيذ دواراً؟
- نعم. قليلاً. تفضلى.

- لا؛ لا أريد آيس كريم ... أودّ أن أنام القيلولة.

عند الوصول إلى الفندق، ودعته ليليا بإشارة من أصابعها وعبر هو الطريق وطلب من صبرى أن يضع له كرسيّاً تحت ظل النخيل. تعب فى إشعال السيجارة: فقد اجتهدت ریح خفية، لا يمكن تحديد إتجاهها فى وقت العصر الحار، فى إطفاء الكبريت. الآن كان بعض الثنائيات الشباب ينامون القيلولة بالقرب منه، محتضنين بعضهم البعض سيقانهم مشتبكة، والبعض الآخر يخفون رؤوسهم تحت القوط. بدأ يتمنى أن تهبط ليليا وتريح رأسها على ركبتيه المكتسيتين بالقطن الخفيف، الرقيعتين، الصلبتين. عانى أو أحس بأنه مجروح، متضايق، غير واثق. عانى من غموض ذلك الحب الذى لا يمكنه لمسه. عانى من ذكرى ذلك التواطؤ القورى، دون كلمات، المبرم أمام

عينيه بحركات لا تقول شيئاً فى ذاتها، لكنها فى حضور ذلك الرجل، ذلك الرجل الغائص فى كرسى القماش، الغائص خلف حافة القلنسوة، والنظارة الداكنة... تمددت إحدى الشابات المستلقيات بإيقاع كسول فى ذراعيها وشرعت ترش بيدها، مطراً من الرمل الناعم على رقبة رفيقها. صرخت حين قفز الشاب متصنعاً الغضب وأمسكها من خصرها. تدرج الإثنان على الرمال؛ ونهضت هى وجرت؛ وهو خلفها، حتى عاد للإمساك بها، لاهثة، عصبية، وحملها بين ذراعيه نحو البحر. تخلص هو من الخُف الإيطالى وأحس بالرمال الساخن تحت قاع قدميه. أن يذرع البلاج حتى نهايته، وحيداً. أن يسير وعيناه مصويتان على آثار أقدامه، دون أن يتوقع أن المدّ سيشرع فى محوها وأن كل خطوة جديدة هى الشاهد الوحيد، العابر، على نفسها.

كانت الشمس عند مستوى العينين.

خرج العاشقان من البحر - هو، المرتبك، لم يستطع قياس زمن هذا الجماع الطويل، على مرأى من البلاج تقريباً، لكنه ملتف فى ملاءات بحر الغروب الفضى - ولم يعد ذلك الإستعراض اللعوب الذى دخلا به إلى الماء، هذه المرة، سوى رأسين متحدين فى صمتٍ والنظرة الخفيضة لتلك الفتاة الرائعة، السمراء، الشابة... الشابة. عاود الشبان الإستلقاء، قريباً جداً منه، وتغطيته رأسيهما بنفس الفوطة. تغطيا أيضاً من المساء، المساء المدارى البطئ. بدأ الزنجى الذى يؤجر الكراسى فى جمعها. نهض هو وسار نحو الفندق.

قرر أن يأخذ غطساً فى حمام السباحة قبل أن يصعد. دخل إلى كايينة خلع الملابس القائمة بجوار الحمام وعاد إلى خلع الخُف، جالساً فوق مقعد خشبى. كانت الخزانات الحديدية التى تحفظ ثياب النزلاء تخفيه. سمع بضع خطوات رطبة فوق الأرضية

المطاطية، وراءه؛ وضجكت أصواتٌ فقدت أنفاسها؛ وجففت أجسادها بالقوط. نزع قميص البولوا. من الجانب الآخر للخزانة، تصاعدت رائحة نفاذة لعرق، وتبع أسود، وماء كولونيا. وتصاعد دخان نحو السقف.

- اليوم لم تظهر الجميلة والوحش.

- اليوم لا.

- غريبة هذه الفتاة...

- للأسف، هذا الطائر القبيح لن يصمد.

- سيموت بالسكتة فجأة.

- نعم، أسرع.

عاودا الخروج. إرتدى خُفّه وخرج مرتدياً القميص.

صعد السلم إلى المخدع. فتح الباب. لم يكن لديه سببٌ للإندهاش. كان السرير المُشعث من القيلولة هناك، لكن لم تكن ليلىا هناك. توقف في منتصف الغرفة. كانت المروحة تدور مثل طائر حبيس. وفي الخارج، في الشرفة، ليلة أخرى مليئة بالجنادب وديدان الوهج. ليلة أخرى. أغلق النافذة حتى لا تهرب الرائحة. إلتقطت حواسه هذا الفوج لعطر تم رشه حديثاً، لعرق، ومناشف مبلولة، ومواد تجميل. ليست هذه هي أسماؤها. فالوسادة، ألتى ما زالت غائرة، هي حديقة، فاكهة، أرض مبتلة، بحر. تحرك ببطء نحو الصوان حيث تضع هي... تناول بين يديه السوتيان الحريري، قربه من خده. إحتكت به الذقن النابتة. لأبد أن يكون مستعداً. يجب أن يستحم، ويحلق من جديد إستعداداً لليلة. أفلت السوتيان وسار بخطوة جديدة، راضياً مرةً أخرى، نحو الحمام.

أضاء النور. فتح صنبور الماء الساخن. ألقى القميص فوق غطاء المراض. فتح الخزانة الصغيرة. رأى تلك الأشياء، الأشياء التي

تخص الإثني. أنايب معجون الأسنان، كريم حلاقة بالمنتول، أمشاط من صدف السلاحف، كولد كريم cold cream، علبة أسبيرين، أقراص ضد الحموضة، فوط صحية، ماء لافندر، شفرات حلاقة زرقاء، بريانتين، أحمر شفاه، كبسولات ضد التقلصات، غرغرة صفراء، موانع حمل، ماء مغنيسيوم، أشرطة لاصقة، زجاجات يود، وعاء شامبو، قصافات، مقصات أظافر، قلم أحمر شفاه، قطرة للعين، إصبع كافور للأنف، شراب للسعال، مزيل لرائحة العرق. تناول سكين الحلاقة. كانت مليئة بزغب كستائي، كثيف، مشتبك بين الشفرات ومجراها. توقف والسكين بين يديه. قريها من شففيه وأغلق، لا إرادياً، عينيه. وحين فتحهما، فإن ذلك العجوز ذا العينين المحتقنتين، والوجنتين الرماديتين، والشففتين الذابلتين، ذلك الذي لم يعد هو الآخر، الإنعكاس المعروف، جاوب تقطيعته من داخل المرأة.

أنا أراهم. لقد دخلوا. ينفتح، وينغلق باب الماهوجنى ولا تُصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السمكة. لقد أغلقوا النوافذ. أسدلوها، بهسيس، الستائر الرمادية. وددتُ لو أطلبُ منهم أن يفتحوها، أن يفتحوا النوافذ. ثمة عالمٌ بالخارج. هناك ريح الهضبة، العالية، التى تهز بضع شجرات سوداء ونحيلة. يجب أن أتنفس... دخلوا. - أقترى، يا بُنيّتى، حتى يتعرّف عليك. قولى له إسمك.

رائحتها طيبة. رائحتها زكية. آه، نعم، مازلت أستطيع أن أتبيّن
خديها الملتهبين، وعينيها اللامعتين، وكل قوامها الفتى، الرشيق، الذى
يقترّب من فراشى بخطوات قصيرة.

- أنا ... أنا جلوريا ...

- إنتظرتك هذا الصباح بإبتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- أترى كيف إنتهى؟ أترى، أترى؟ تماماً مثل أخى. هكذا إنتهى.

- هل يُريحُك هذا؟ إفعليه

Ego te absolvo ... -

الخشخشة المنعشة والعذبة لأوراق البنكنوت والسندات الجديدة
حين تتناولها يدُ رجل مثلى. الإندفاع السلس لسيارة فاخرة، مصنوعة
خصيصاً، بتكييف هواء، وبار، وتليفون، ووسائد للظهر، ومساند
للأقدام، إيه، يا قسيس، إيه؟ هل هناك مثلاً فى السماء، هيه؟ وهذه
السماء التى هى السلطة على البشر، الذين لا يُحصّنون، ذوى الوجوه
المختفية، ذوى الأسماء المنسية: الأسماء ذات الألف شكل فى المنجم،
والمصنع، والصحيفة: ذلك الوجه المجهول الذى يحملنى صباح يوم عيد
قديسى، الذى يُخفى عنى عينيه تحت الخوذة حين أزور أعمال
التقيب، الذى يحنى لى رقبتة علامة على اللياقة حين أجوب المزارع،
الذى يرسم لى صوراً كاريكاتورية فى مجلات المعارضة: إيه، إيه؟ هذا
موجودٌ فعلاً، هذا يخصنى فعلاً. هذا هو حقاً كون المرء إلهاً، إيه؟ أن
يكون مرهوباً ومكروهاً أو ما شئت، هذا هو حقاً كون المرء إلهاً، فعلاً،
إيه؟ قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا وسأتركك تكمل كل طقوسك، أضربُ
صدرى، وأمشى على ركبتى حتى مزار مقدس، وأشرب الخلّ وأتوجُّ
نفسى بالأشواك. قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا، لأن روح ...

- ... الإبن، والروح القدس، آمين ...

يظل هناك، على ركبتيه، ووجهه مفسول. أحاول أن أدير له

ظهرى. يمنعنى ألم جنبى. آآآى. لعله إنتهى الآن. سأنال الغفران.
أريد النوم. ها هى الطعنة تأتى. ها هى تأتى. آآآى - آه. والنساء. لا،
ليستا هاتين. النساء. اللاتى تعشقن. كيف؟ نعم. لا. لا أدرى. نسيْتُ
ذلك الوجه. يا إلهى، نسيْتُ الوجه. كان ملكى، كيف أنساء.

" - باديبا... باديبا... إستدع لى رئيس الإستعلامات ومحبرة
الإجتماعيات."

صوتك يا باديبا، إستقبال صوتك الأجوف عبر ذلك الإنترفون...
" - نعم، دون أرتيميو. دون أرتيميو، هناك مشكلة عاجلة. هؤلاء
الهنود يمرضون ثائرين. يريدون أن تدفع لهم دينك لقطعك غاباتهم.

" - ماذا؟ كم المبلغ؟

" - نصف مليون.

" - فقط؟ قل لقائد الشرطة المحلى أن يؤدبهم، فأنا أدفع له من
أجل هذا. لم يكن ينقصنا إلا...

" - ها هو مينا فى صالة الإنتظار. ماذا أقول له؟

" - إجعله يدخل."

آه باديبا، لا أستطيع أن أفتح عينى وأراك، لكننى أستطيع رؤية
أفكارك يا باديبا، من خلف قناع الألم: الرجل الذى يحتضر إسمه
أرتيميو كروث، أرتيميو كروث فقط؛ وحده هذا الرجل يموت، هيه؟، لا
أحد غيره. كأنها ضربة حظ توجّل الميتات الأخرى. هذه المرة لا يموت
سوى أرتيميو كروث. وهذه الميتة ربما أصابته بدل أخرى، ربما ميتتك
أنت، يا باديبا... آه. لا. ما زالت لدى أشياء لأصنعها. لا تكونوا
متأكدين هكذا، لا...

- قلت لك أنه يتظاهر.

- دعيه يستريح.

- أقول لك أنه يتظاهر!

أراهما، من بعيد. أصابعهما تفتحُ بتعجُّلٍ القاع الثاني، تخرجانهُ من القاعدة بإحترام. لا شيء فيه. لكننى أهرُ ذراعى، مشيراً إلى حائط خشب البُلوط، إلى الصوان الضخم الذى يشغل جانباً بأكمله من المخذع. تجريان إلى هناك، تجذبان كلَّ الأبواب، تجذبان كل الشماعات المحمَّلة ببذلات زرقاء، ومخططة، وذات زرارين، وذات مخمَّل آيرلندى، ولا تتذكران أنها ليست بذلاتى، أن ثيابى فى منزلى، تجذبان كلَّ الشماعات بينما أشيرُ لهما بيديَّ اللتين أحركهما بالكاد، أن الوثيقة ربما كانت محفوظة فى أحد الجيوب الداخلية اليمنى لإحدى البذلات. تتزايد عجلة تيريسا وكاتالينا، وتأخذان فى التقليب دون تحفظ، تلقيان السُّترات الفارغة على السجادة، حتى تقلبانها جميعاً وتديران وجههما إلىّ. لا يمكننى إبقاء وجهى جاداً تماماً. أنا متمترسٌ خلف وسائل كبيرة وأتنفس بصعوبة، لكن نظرتى لا تقلت تفصيلاً واحداً. أحس بها سريعة ومتعطشة. أطلب بيدي أن تقتريا: - الآن أتذكر... إنها فى حذاء... أتذكر جيداً...

أراهما على أربع، فوق صفٍ من السترات والبنطلونات، تديران نحوى مؤخريهما العريضتين، وتحركان أفخاذهما بلهات فاحش، بين أحذيتى، وعند ذلك فقط تسقط سحابة العذوبة المرَّة فوق عينيّ، أرفع يدي إلى قلبى وأغلق جفنيّ. - ريخينا...

تبدأ هممة المهانة والجهد من المراتين فى التبدُّد فى الظلام. أحرك شفتيّ لأغمغم بذلك الإسم. لم يعد لدى الكثير من الوقت للتذكُّر، لتذكُّر الآخر، الذى أحبُّ... ريخينا... "ياديا... ياديا... أريد أن أكل شيئاً خفيفاً... ليست معدتى على ما يرام. تعال لترافقنى فور أن تنتهى من ذلك..." كيف؟ تنتهى، تشيِّدُ، تصنع، تحفظ، تواصل: لا أكثر... أنا...

" - نعم، إلى اللقاء. مع إحترامى.

" - أحسنت الكلام، يا سنيور. من السهل سحقهم.

" - لا، يا باديا، ليس سهلاً. ناولنى هذا الطبق... هذا، طبق

الساندوتشات... لقد رأيت هؤلاء الناس فى مسيرات. حين يحزمون أمرهم، يكون من الصعب إحتواؤهم..."

كيف كانت الأغنية؟ منفيًا مضيت إلى الجنوب، نفتى الحكومة وبعد عام عدتُ؛ أه يا للياللى القلقة التى أقضيها بدونك، بدونك؛ لا صديق ولا قريب يتألم لى؛ وحده الحب، وحده الحب، حب تلك المرأة، هو الذى جعلنى أعود...

" - لهذا يجب العمل الآن، حين يولد السخط ضدنا، وسحقهم

من الجذور. يفتقرون إلى التنظيم ويраهنون بكل شيء من أجل كل شيء. تفضل، تفضل ساندوتشات، فهناك ما يكفى إثنين...

" - تحريضٌ عقيم..."

لدى زوجُ غدارات بمقبض عاجى لأنضمَّ وسط الطلقات إلى عمال السكة الحديد أنا عاملة السكة حديد ولدى حبيبى خوان هو هنائى وأنا حبه: إذا حسبتى جندياً لأنك تريننى بجذاءٍ عسكرى فإننى عامل سكة حديد فقير من سكك الحديد المركزية.

" - لا، فمعهم حق. وليس معهم. لكنك أنت الذى كنتَ ماركسياً فى شبابك، يجب أن تفهم على نحو أفضل. عليك أن تخاف مما يجرى. أما أنا فلم أعد أخاف...

" - كامپانيلا بالخارج."

ماذا قالوا؟ ورم؟ نزيف؟ فتق؟ إنسداد؟ ثقب؟ إلتواء أمعاء؟ مغص قولونى؟

آه، باديا، يجب أن أضغط زراً كى تدخل، باديا، لا أراك لأن عيني مغمضتين، وعيناي مغمضتان لأننى لم أعد أثق بتلك الرقعة

الضئيلة، غير الكاملة، لشبكيّتي: ماذا لو فتحتُ عينيّ ولم تعد الشبكية
تستقبل أى شيء، لم تعد تثقل شيئاً إلى المخ؟ ماذا؟
- إفتحوا النافذة
- أنا أحملك الذنب. تماماً مثل أخى.
نعم.

أنت لن تعرف، لن تفهم لماذا تريد كاتالينا، الجالسة بجوارك،
أن تتقاسم معك تلك الذكرى، تلك الذكرى التى تريد فرض نفسها
على كل ما عداها: أنت فى هذه الأرض، لورنثو فى تلك الأخرى؟،
ماذا تودُّ هى أن تتذكر؟، أنت مع جونثالو فى هذا السجن؟، لورنثو
بدونك فى ذلك الجبل؟: لن تعرف، لن تفهم إن كنتَ أنتَ هو، إن كان
هو سيكون أنت، إن كنتَ عشتَ ذلك اليوم بدونه، معه، هو من أجلك،
أنت من أجله. ستتذكر. نعم، ذلك اليوم الأخير كنتما أنت وهو معاً -
إذن لم يعيش هو ذلك من أجلك، ولا أنت من أجله، كنتما معاً - فى
ذلك المكان. سألك هو إن كنتما تذهبان معاً حتى البحر! تذهبان
على صهوة الجياد؛ سألك إن كنتما ستذهبان معاً، على صهوة
الجياد، حتى البحر: سيسألك أين ستأكلان وقال لك - سيقول لك -
بابا، سيبتسم، سيرفع ذراعه بينديقية الصيد وسيخرج من المخاضة
وجذعه عارٍ، رافعاً إلى أعلى بنديقية الصيد والجرينديات القماش.

لن تكون هي هناك. لن تتذكر كاتالينا هذا. لهذا تحاول أنت أن تتذكره، حتى تتسى ما تريدك أن تتذكره. ستحيا هي حبيسة وسترتجف حين يعود هو، لعدة أيام، إلى مدينة مكسيكو، لوداعكم. إن كان سيعود لوداعكم. تعتقد هي ذلك. لكنه لن يفعل. سيأخذ السفينة البخارية من بيراكروث، سيمضى. لا بد أنه سيمضى. لا بد أنها تتذكر ذلك المخدع حيث تصارع روائح النوم لتبقى رغم أن هواء الربيع يدخل من الشرفة المفتوحة. لا بد أنها تتذكر السريرين المنفصلين، الغرفتين المنفصلتين، رأسى الفراشين الحريريين، الملاءات المنكوشة للغرفتين المنفصلتين، المساحات الفائرة فى الحشيتين، الخطى الظلى العنيد لمن ناما فى هذين الفراشين. لن يمكنها تذكر حافرى المهرة، الشبيهين بلؤلؤتين سوداوين، غسلهما النهر السبخ. أنت نعم. فعند عبور النهر، ستبتين أنت وهو على الضفة الأخرى شبح أرض مرتفع فوق التخم الضبابى للصباح. هذا الصراع للدغل الداكن مع الشمس اللاهية سيتجسد فى إنعكاس مزدوج لكل الأشياء، فى شبح للروطية وهى تعانق وهج القيظ. سيفوح المكان برائحة الموز. سيكون هو كوكويا. لن تعرف كاتالينا أبداً ما كانته، وما تكونه، وما ستكونه كوكويا. ستجلس هي تنتظر على حافة الفراش، والمرأة فى يد وفرشاة الشعر فى اليد الأخرى، بلا رغبة، وطعم المرارة فى حلقها، مقررّة أنها ستبقى هكذا، جالسة، ونظرتها ضائعة، دون رغبة فى عمل شيء، قائلة لنفسها أن المشاحنات تجعلها هكذا دائماً: فارغة. لا: وحدكما أنت وهو ستشعران بحوافر الحصان فوق التربة المسامية للضفة. كذلك، عند الخروج من الماء، ستشعران بالبرودة مختلطة بحرارة الغابة وستظنران إلى الوراء: ذلك النهر البطى الذى يحرك بعذوبة طحالب الضفة الأخرى. وعلى مسافة أبعد، فى عمق درب شجيرات

التاباتشين* المزهرة، السقف، الذى تم طلاؤه من جديد، لضبعة
كوكويا المستقرة فوق سهل ظليل. ستردد كاتالينا: "يا إلهى، لا
أستحق هذا!" سترفع المرأة وتتساءل هل هذا ما سيراه لورنثو حين
يعود، إن عاد: هذا التشوُّه المتزايد للذقن والرقبة. هل سينتبه
للتجاعيد المتخفية التى ستبدأ فى الظهور عند الجفنين والخددين؟
سترى فى المرأة شعرة أخرى وخطها المشيب وستتزعجها. وأنت،
ولورنثو إلى جانبك، ستدخل إلى عمق الغابة. سترى أمامك ظهر
إبنك العارى، الذى ستتقارب عليه أيضاً ظلال دغل المانجروف**
وحبيبات أشعة الشمس التى ستخترق سقف الأغصان الكثيف.
ستمرق جذور الأشجار الكثيرة العقد قشرة الأرض، وستطل خشنة
ومتلونة. على طول الدرب الذى يفتحه الساطور. درب سرعان ما
ستعاود النباتات المتسلقة نسج شباكها فيه. سيسير لورنثو خبيأ وهو
منتصب القامة، دون أن يحرك رأسه، ضارباً بسوطه جانبي المهرة
ليهش الذباب ذا الطنين. ستردد كاتالينا أنه لن يثق فيها، لن يثق
فيها ما لم يرها كما كانت من قبل، مثلما كان طفلاً، وستستلقى
وهى شن، وذراعاها مفرودتان، ونظرتها غائمة وستترك فردتى
الخف الحريريتين تقلتان من قدميها وستفكر فى إبنها، الشديد
الشبه بأبيه، الشديد النحافة، الشديد الدكة. ستقطع الأغصان
الجافة تحت الحواضر وسينفتح السهل الأبيض بشواشى القصب
المتماوجة. سيضغط لورنثو مهمازيه. سيدبر وجهه وستفزع شفتاه
فى ابتسامة ستصل إلى عينيك مصحوبة بصيحة إبتهاج وذراع
مرفوعة: ذراع قوية، وجلد زيتونى، وإبتسامة بيضاء مثل إبتسامات

* tabachines: اسم شمبى لنوع من الشجيرات موجود بكثرة فى المكسيك - م
* المانجروف: شجر ينبت على حافة المياه المالحة وتتدلى أغصانه لتصنع جذوراً

شبابك: ستتذكر شبابك بسببه وبسبب هذه الأرجاء ولن تريد أن تقول للورنثو كم تعنى بالنسبة لك هذه الأرض لأنك إن فعلت ربما إنتزعت تعاطفه: ستتذكر كاتالينا تربيئات لورنثو الطفولية، منذ الأيام القاسية لموت العجوز جمالييل، ستتذكر الطفل على ركبتيه بجوارها، ورأسه مستلقية على حجر أمه، بينما تدعوه هي بهجة حياتها، لأنها لم تجدها قبل أن يولد هو، فقد قاست كثيراً، دون أن تستطيع قول ذلك، لأنها كانت لديها واجبات مقدسة والطفل ينظر إليها دون أن يفهم: ما السبب، ما السبب، ما السبب. ستحضر أنت لورنثو ليحيا هنا حتى يتعلم محبة هذه الأرض وحده، دون حاجة لأن تشرح له دوافع الجهد الشغوف الذى ستكون قد أعدت به بناء جدران الضيعة المحترقة وأدخلت به الزراعة إلى أراضى السهل. ليس لسبب، بل دون سبب. ستخرجان إلى الشمس. ستأخذ القبة ذات الحافتين العريضتين، وستضعها فوق رأسه. الريح التى يثيرها العدو فى الجو الهادئ والمومض ستملأ فمك، وعينيك، ورأسك: سيتقدمك لورنثو، مثيراً غباراً أبيض، على الطريق المفتوح بين الزراعات وخلفه، عدواً، ستكون متأكداً من أن كليكما تحسان نفس الإحساس: السباق يوسّع الشرايين، يجعل الدم يتدفق، يغذى قوة الإبصار، يفتح على هذه الأرض الواسعة المفعمة بالحياة، الشديدة الاختلاف عن الهضاب، وعن الصحراوات التى ستعرفها، المقسمة إلى مربعات ضخمة، حمراء، وخضراء، وسوداء، تتناثر فيها النخلات العالية، الطينية والعميقة، التى تفوح بروائح الروث وقشور الفاكهة، التى تجيب بحواسها التى هذبها الكدح على الحواس المتيقظة، المنتشية لإبنك ولك أنت، أنت وإبنك اللذان تجريان بسرعة وتتقدان من الخمول كل الأعصاب، وكل عضلات الجسم المنسية. سيجرح مهمازاك بطن الكميت، حتى يدمى: ستعرف أن لورنثو يريد سباقاً.

ستقطع نظرتُه المتسائلة عبارات كاتالينا . ستتوقف هي، ستتساءل إلى أى مدى يمكنها أن تصل، ستقول لنفسها أنها مسألة زمن، مسألة أن تأخذ في كشف النقاب عن الأسباب تدريجياً، نعم، حتى يفهمها جيداً . هي جالسة على المقعد وهو على قدميه، وذراعه على ركبتها . ستدوى الأرض تحت السنابك؛ ستحنى أنت رأسك، كأنك تريد تقربها من أذن الحصان لتهمز به بالكلمات، لكن ثمة هذا الثقل، ثقل الهندي الياكى الذى سيكون منطرحاً، على وجهه، فوق مؤخرة نفس الحيوان، الياكى الذى سيمدُّ ذراعاً ليتعلق بخصرك: الألم سيجعلك تنعس: ستتدلى ذراعك وساقك خاملتين وسيظل الياكى يحتضن خصرك ويئن وسحنته متقلصة: ستتتابع أكوام الصخور وستسيران تخفيكما الظلمة، فى أخدود الجبل، مكتشفيين ودياناً داخلية من الصخر، وهادأً عميقة تستقر فوق مجارى مياه مهجورة، وطرقاً مليئة بالأشواك والأجمات: من سيتذكر معك؟ أهو لورنثو بدونك فى ذاك الجبل؟ أهو جوثالو معك فى هذا السجن؟

(١٩١٥: ٢٢ أكتوبر)

هو من إلتف بالبطانية الزرقاء، لأن الريح الثلجية لهذه الساعات كانت تكذب، بحفيف أعواد النباتات المقطوعة، حرارة النهار العمودية. كانوا قد قضوا الليل كله فى العراء، دون طعام. وعلى مسافة أقل من كيلومترين إنتصبت التيجان البازلتية لسلسلة الجبال، وجذورها غائرة

فى الصحراء القاسية. منذ ثلاثة أيام قبلها، كان فصيل الإستطلاع يسير دون إسترشاد باتجاه أو علامات، لا يرشده سوى أنف النقيب، الذى إعتقد أنه يعرف حيل وطرق الطوابير، الممزقة الآن والهارية، لفرنثيسكو بيبيا*. وإلى الورا، على مسافة ستين كيلومتراً، بقيت القوات التى لا تنتظر سوى رسول من الفصيل، بأقصى سرعة للجواد، لتتقض على بقايا قوات بيبيا وتمنعها من الإنضمام إلى قوات لم ينهكها القتال فى تشيهوا هوا. لكن أين ستكون مِرَق قوات الزعيم؟ إعتقد هو أنه يعرف: فى أحد الممرات الوعرة للجبل، سالكة أصعب الطرق. فى اليوم الرابع - هذا اليوم - كان يجب على الفصيل أن يتوغل داخل السيرا** بينما تتقدم القوات الموالية لكارانثا صوب الموقع الذى سيفادره هو ورجاله، عند الفجر. منذ الأمس، فرغت أكياس دقيق الذرة. والجوايش الذى خرج على حصانه الليلة الماضية، حاملاً زمزميات الفصيل كله، نحو الجدول الذى يفيض من بين الصخور ويغيب عند أول إلتقاء بالصحراء، لم يجده. فقد رأى المجرى ذا العروق المحمرة، نظيفاً ومجعداً، خاوياً. كانوا قد مروا منذ عامين بنفس هذا المكان فى موسم المياه والآن ليس سوى كوكب مستدير يتأرجح، من الفجر وحتى الفسق، فوق الرؤوس الملتهبة للجنود. كانوا قد عسكروا دون أن يشعلوا ناراً؛ لأن أى حارس يمكنه أن يتبينها من الجبل. وكذلك، لم يكن هذا ضرورياً. فلن يطهوا أى طعام، وفى إتساع السهل المتصحّر، لن تدفئ أحداً ناراً منعزلة. ملتفاً فى لفاعة، ربّت هو على وجهه التحيل؛ إمتداد الشارب الخشن فى الذقن التى نبتت خلال الأيام الماضية؛ وطبقة التراب الملتصقة بجانبى الشفتين، وفى الحواجب، وفى قصبه الأنف. شكّل المعسكر ثمانية عشر رجلاً، على

¹ Villa : اشتهر خارج المكسيك بإسم هيللا مع زاباتا ونطقه الإسبانى ثاباتا - م
² السيرا: سلسلة الجبال - م

مبعدة بضعة أمتار من القائد: فهو ينام أو يحرس وحيداً، دائماً،
تفصله مسافة من الأرض عن جنوده. وقريباً، كانت غُرر الخيل تتماوج
فى الريح وترتسم أشكالها السوداء على جلد الأرض الأصفر. كان يودُّ
الصعود: فمنبع المسيل فى الجبل وبين صخوره تتشكل تلك القطرات
من الإنتعاش القصير والمستوحد. كان يودُّ الصعود: فالعدو لا يمكن أن
يكون بعيداً. أحس جسده بالتوتر تلك الليلة. كان الصيام والعطش قد
جعلاً عينيه غائرتين ومفتوحتين أكثر، تلك العينان الخضراوان
بنظرتهمما المتماثلة والباردة.

ظل القناع المصبوغ بالتراب ثابتاً ومستيقظاً. إنتظر ظهور الخيط
الأبيض ليأخذ فى التحرك: فى اليوم الرابع، طبقاً لما هو متفق عليه.
لم ينم أحدٌ تقريباً، لأنهم كانوا ينظرون إليه من بعيد، جالساً وركبته
مضمومتين، ملتقاً بالبطانية، ساكناً. ومن حاولوا إغلاق عيونهم. كانوا
يصارعون ضد العطش، والجوع، والإرهاق. ومن لم ينظروا إلى النقيب
نظروا إلى صف الخيول برؤوسها المنحنية. كانت أعناقها قد رُبطت
بشجرة مئكتي* سميكة تبرز من الأرض، مثل إصبع ضائع. ونحو
الأرض كانت تنظر الخيول المتعبة. لا بد أن الشمس تظهر من خلف
الجبل. حان الوقت.

كان الجميع بانتظار هذه اللحظة التى نهض فيها القائد، وطوّح
لِفاعه الأزرق وكشف صدره المحمّل بأحزمة الرصاص، والمشبك اللامع
لحزام الرداء العسكرى، وقطعتى جلد الخنزير الملتفتين فوق ساقه فوق
الحذاء. دون كلمة، نهض الفصيل واقترب من الخيول. النقيب كان
على صواب: فقد ظهر الوميض المروحي خلف القمم الأكثر إنخفاضاً
وأطلق قوساً من الضوء صاحبه كورس الطيور غير المرئية، البعيدة،

* mezquite: شجر مكسيكى شبيه بالأكاسيا تستخرج منه عطور - م

لكنها سيدهُ السكون الشاسع للأرض المهجورة. أشار هو إلى الياكى توبياس وقال له بلغته: عليك أن تبقى فى المؤخرة، وفور أن نتبيّن العدوّ تسابق الريح لتُبْلَغ عن ذلك.

أوماً الياكى موافقاً، وهو يرتدى قبعته المنفوخة، ذات القمة المستديرة، المزيّنة بريشة حمراء مشبّوكة فى جانبيها. قفز النقيب إلى سرجه وبدأ طابور الرجال خببه الخفيف نحو بوابة السيرا: إلى الأخدود ذى الممرات الضيقة الصفراء.

برزت ثلاثة أفاريز فى جسم الأخدود. إتجهت القوة إلى الثانى: الأقلّ إتساعاً، لكنه يتيح مرور الخيل فى طابور منفرد: الذى يقود إلى النبع. كانت الزمزميات الفارغة تصطدم برنين مكتوم بأفخاذ الرجال؛ وكُرّر سقوط الأحجار تحت السنايك ذلك الصوت الأجوف العميق، الذى كان يتبدّد دون صدى، بالضربة الجافة الفريدة لطبل مشدود، على طول الإخدود. من أعلى الممر الضيق، كان الطابور القصير يبدو منكبساً رؤوسه، يتقدم متحسباً طريقه. هو وحده ظل ناظراً إلى القمم، مُزّزراً عينيه إتقاءً للشمس، تاركاً للحصان التعامل مع تضاريس الأرض. على رأس الفصيل، لكن يشعر لا بالخوف ولا بالفخر. كان قد خَلَف الخوف وراءه، ليس فى اللقاءات الأولى، بل فى اللقاءات المتكرّرة التى جعلت من الخطر حياة عادية ومن الهدوء عنصراً مُدهشاً. لذا، أزعجه سراً هذا السكون المطبقّ للأخدود ولذا شدد قبضته على الأعنة وأعدّ، دون أن ينتبه، عضلات ذراعه ويده لتناول مسدسه بسرعة. إعتقد أنه لا يعرف الكبرياء. فقد منعه من ذلك الخوف فى البداية، ثم التعوّد بعدها. لم يستطع أن يشعر بالفخر حين صُفرت الطلقات الأولى قريبة من سمعه وفرضت تلك الحياة المعجزة نفسها فى كل مرة يحيد فيها الرصاص عن هدفه: حينها لم يستطع سوى الشعور بالدهشة إزاء الحكمة العمياء لجسده فى تقادى الطلقات، فى

النهوض أو الإنحناء، فى إخفاء الوجه خلف جذع شجرة؛ دهشة واحتقار، حين فكّر فى العناد الذى يدافع به الجسد، الأسرع من الإرادة، عن نفسه. ولم يستطع أن يشعر بالفخر، بعدها، حين لم يعد يسمع إلا بالكاد ذلك الصغير العنيد، المألوف. فقط، كان يحيا لحظة خطر، محكومة وجافة، فى هذه اللحظات التى أحاطه فيها السكون غير المُتوقَّع. دفع فكّه إلى أمام، بإيماءة شك.

أكد له الصغير المتصل لأحد الجنود، خلفه، خطر هذه النزهة فى الأخدود. وقطعت الصغير طلقات مفاجئة وأنينٌ معروف: كانت خيول بييا تنقض، يدفعها فرسانها، رأسياً، من قمة الأخدود فى هبوطٍ إنتحارى، بينما البنادق المتمرسه فى الجرف الثالث تجرح رجال الفصيل وتجمع الخيول الدامية وتتدحرج، يلفها دوى البارود، حتى القاع ذى الصخور المدببة: لم يستطع هو إلا أن يدير وجهه ويرى توبيّاس يخرج عن الإفريز، مقلداً رجال بييا، متحدراً على السفوح المستننة، فى محاولة عبثية لتنفيذ الأوامر: إنزلت قدم حصان الياكى وطار خلال ثانية، قبل أن يصطدم بقاع الممر الضيق ويسحق فارسه تحت ثقله. تصاعد العويل، مصحوباً بنيران كثيفة؛ إنزلق هو من الجانب الأيسر للحصان وتدحرج، متحكماً فى سقوطه باستدارات واستنادات، نحو القاع: فى نظرته الغائمة، كانت بطون الخيل الجامحة تنبض فى الأعلى، بجوار الطلقات، غير المجدية هى الأخرى، للرجال المباغتين فوق ذلك الجرف الضيق، دون إمكانية للإحتماء أو المناورة بخيولهم. سقط، متشبثاً بجوانب الجبل، وسقط فرسان بييا فوق الجرف الثانى، لخوض القتال الإلتحامى. الآن إستمر التدحرج الوحشى لأجساد متلاحمة وخيول مجنونة، بينما يلمس هو بيديه الداميتين قاع الأخدود المظلم ويخرجُ مسدسه. لم يكن بانتظاره سوى سكون آخر. كانت القوات قد أبيدت. زحف،

بذراعه وساقه المتألمتين، نحو صخرة عملاقة.

- أخرج، يا نقيب كروث، سلّم نفسك...

أجاب الحنجرة الجافة: - حتى تعدمونى بالرصاص؟ أنا صامدٌ

هنا.

لكن اليد اليمنى، التى شلّها الألم، لم تكد تستطيع الإمساك بالمسدس. وحين رفع ذراعه، أحس بوخزة غائرة فى بطنه: أطلق الرصاص، ورأسه ساقط، لأن الألم يمنعه من رفع بصره: ظل يطلق الرصاص حتى كرّر الزناد وحده حركة معدنية. قذف المسدس إلى الجانب الآخر من الصخرة الضخمة وعاد الصوت من أعلى للصياح:

- إخرج ويداك خلف رقبتك.

على الجانب الآخر من الصخرة، تمدّد أكثر من ثلاثين حصاناً، ميتين أو محتضرين. بعضهم يحاول رفع رأسه؛ وآخرون يتكئون على ساق مثنية؛ وأغلبهم تلتصق وردات حمراء كبيرة فى جبهتهم، وعنقهم، وبطنهم. وفوق الحيوانات أحياناً، وتحتها أحياناً أخرى، إتخذ رجال الفريقين أوضاعاً ذاهلة: وجوههم إلى أعلى، كأنهم يبحثون عن خيط ماء المسيل الجاف؛ وجوههم إلى أسفل، محتضنين الصخور. وجميعهم موتى، باستثناء ذلك الرجل الذى يئن، تحت ثقل مهرة بُنية.

- دعونى أخرج هذا - صاح بجماعة القمة - قد يكون واحداً

منكم.

كيف؟ بأية أذرع؟ بأية قوة؟ لم يكد ينحنى ليمسك إبطى جسد توبيّاس المحشور، حتى صفرت طلقة من الصلب واصطدمت بالصخرة. رفع بصره. هدأ قائد الجماعة المنتصرة - خوذة بيضاء، بادية من ظلّ القمة - مُطلق الرصاص بحركة من ذراعيه. إنساب العرق اللزج، المترب، من معصميه وإذا كان أحد المعصمين لا يكاد يستطيع الحركة، فقد تمكّن المعصم الآخر من جذب كتف توبيّاس

بإرادة مُركزة.

أنصت، خلف ظهره، إلى السنايك المسرعة لأنصار بييا الذين انفصلوا عن الطابور ليقبضوا عليه. كانوا فوق رأسه حين خرجت ساقا الياكي المحطمتان من تحت الحيوان. إنتزعت أيدي أنصار بييا أحزمة الطلقات من صدره.

كانت الساعة السابعة صباحاً.

ولن يتذكر تقريباً، عندما دخل في الرابعة بعد الظهر سجن بيرالس، السير الحثيث الذي فرضه المقدم ثاجال تابع بييا على رجاله وعلى السجينين ليقطع، في تسع ساعات، الممرات الوعرة للمسييرا ويهبط إلى القرية التابعة لولاية تشيهواهاوا. ففى رأسه التى تخرقها الأم ثقيلة، لم يكد يتبيّن الطريق الذى قطعه. الطريق الأصعب، فى الظاهر. والأسهل لمن كان، مثل ثاجال، قد رافق بانتشو بييا منذ العمليات الأولى وظل عشرين عاماً يذرع هذه السييرا ويُسجّل مخابئها، وممراتها، وأخايدها، ودروبها المختصرة. كان شكل الخوذة الشبيه بالفطر يُخفى نصف وجه ثاجال، لكن أسنانه الطويلة المضمومة كانت تبتسم دائماً، يحدّدها الشارب واللحية الأسودين. إبتسمت حين أركبوه هو بصعوبة فوق الحصان ومدّوا الجسد المحطم للياكي، على وجهه، على عجيزة نفس الحصان. وابتسمت حين مد توبياس ذراعه وتعلّق بخصر النقيب. وابتسمت حين شرع الطابور فى السير متوغلاً فى فوهة مظلمة، فى كهف حقيقى ذى فتحتين، يجهله هو وغيره من أنصار كارائنا، أتاح فى ساعة واحدة قطع مرحلة تستغرق أربع ساعات فى الطرق المفتوحة. لكنه إنتبه إلى ذلك كله نصف إنتباه. كان يعرف أن كلا فريقى الحرب الطائفة كانا يعدمان بالرصاص فوراً ضباط الجماعة المعادية وتساءل ما الدافع، الآن، للمقدم ثاجال فى إفتياده إلى مصير مجهول.

أنعسته الرائحة. كان ذراعه وساقه، اللتين حطمتهما السقطة تتدليان خاملتين وظل الياكى يحتضنه ويثن، ووجهه مُتقلّص. كانت أكوام الصخر المنحدرة تتتابع وهم يسرون تخفيهم الظلال، عند قاعدة الجبال، مكتشفين ودياناً داخلية من الصخور، وهوآت عميقة تستقر فوق مجارى مياه مهجورة، وطرق تُقدّم فيها شجيرات الأشواك والأجمات سقفاً خادعاً لمرور الطابور. ربما لم يعبر هذه الأرض سوى رجال بانتشو بيبا، فكَرّ، ولهذا تمكنوا من الفوز، قبلاً، بتلك السلسلة من إنتصارات حرب العصابات التى حطمت ظهر الدكتاتورية. إنهم أساتذة فى المباغته، والحصار، والهروب السريع بعد توجيه الضربة. كل ما هو نقيض مدرسته فى الحرب، مدرسة الجنرال البارو أوبريجون، التى كانت مدرسة المعركة التقليدية، فى سهل مفتوح، يعتادُ كافٍ ومناورات فى أراضٍ تم إستكشافها.

- ضُمّوا الصف، بنظّام. لا تتشتتوا منى - كان المقدم ثاجال يصيح كلما خرج من مقدمة الطابور وسار نحو الخلف، مبتلعاً الغبار ومبرزاً أسنانه - . سنخرج الآن من الجبل ومن يدري ماذا ينتظرنا. إستعدوا جميعاً؛ إنحنوا؛ عيونٌ صاحبة لتمييز سحب الغبار؛ جميعنا يمكننا الرؤية أفضل منى وحدى...

أخذت كتل الصخور تنفتح. كان الطابور فوق قمةٍ مستوية وصحراء تشيهواهاوا، المتماوجة، المرشّقة بأشجار الميثيكتى، تنفتح عند أقدامهم. كانت تقطع الشمس لفحاتٍ من الهواء المرتفع: طبقة باردة لا تلمس أبداً حواف الأرض الملتهبة.

- سنسلك طريق المنجم، لنهبط بسرعة أكبر - صاح ثاجال - . أمسك رفيقك جيداً، يا كروث، فالهبوط عمودى.

ضغطت يد الياكى حزام أرتيميو؛ لكن كان فى ضغطته شئ أكثر من الرغبة فى عدم السقوط: إلحاحٌ تواصلى. خفض أرتيميو رأسه،

رَبَّتْ عنق الحصان ثم أدار وجهه نحو سحنة توبياس المتقلصة.
 - غمغم الهندى بلغته: - سنمرُّ بجوار منجم مهجور منذ زمن بعيد.
 حين نمر بجوار إحدى فوهات الدخول، إنزلق من على الحصان وأجر
 إلى الداخل؛ المنجم ملئٌ بالأنفاق ولا يمكن أن يعثروا عليك هناك...
 لم يتوقف عن الترييت على شعر الحصان. عاود رفع رأسه
 وحاول أن يتبين، أثناء الهبوط نحو الصحراء، ذلك المدخل الذى تحدث
 عنه توبياس.

غمغم الياكى: - إنسى. فساقى مكسورتان.
 الثانية عشرة؟ الواحدة؟ كانت الشمس تزداد ثقلًا.
 ظهرت بضع عنزات فوق صخرة فصوب إليها بعض الجنود
 بنادقهم. هربت واحدة، وسقطت الأخرى صريعة من فوق قاعدتها
 فترجل أحد جنود بييا وحملها فوق ظهره.
 - لتكن هذه آخر مرة يصطاد فيها أحدُ الماشية! - قال ثاجال
 بصوته الأجش والباسم - . ستحتاجون إلى هذه الطلقات ذات يوم، يا
 عرّيف بايان.

ثم نهض فوق الركاب، وقال للملابور كله: - إفهموا شيئاً، يا
 حمقى: إننا نمضى وأنصار كارانثا يدوسون على ذيلنا. فلا تعاودوا
 تبديد الذخيرة. ماذا تظنون؟ أننا نمضى منتصرين صوب الجنوب،
 مثلما من قبل؟ لا. إننا نمضى مهزومين، صوب الشمال، من حيث
 خرجنا.

- إسمع، يا سيدى المقدم - زام العرّيف بصوته المكتوم -، لدينا
 على الأقل شئٌ نبتلّج به.

- ما لدينا هي أم عامرة - صرخ ثاجال.
 ضحك الطلابور وربط العرّيف بايان العنزة الميتة فوق مؤخرة
 حصانه.

- لا يلمس أحد الماء ولا دقيق الذرة حتى نصل إلى أسفل - أمر
ثاجال.

لكن تفكيره هو كان مثبتاً في شعاب الهبوط. وها هي هناك، عند
إستدارة هذا المنعطف، الفوهة المفتوحة للنجم.

إصطدمت سنابك ثاجال بالقضبان الضيقة التي تتقدم لنصف
متر خارج المدخل. الآن قفز كروث من الحصان وتدحرج على المنحدر
الخفيف قبل أن تستطيع البنادق المباشرة الاستعداد وسقط على ركبتيه
في الظلام: رنت الطلقات الأولى واختلطت أصوات أنصار بيبا. جعل
البرد المباغت رأس الرجل خفيفة؛ وسببت لها الظلمة الدوار. إلى
الأمام: جرت الساقان ناسيتين الألم، حتى إصطدم الجسد بالصخر:
وحين فتح ذراعيه، مدهما نحو نفقين متباعدين. من أحدهما تهب ريحٌ
قوية؛ وفي الآخر، حرارة متكومة. أحست اليدان الممدوتان، في أطراف
الأصابع، هاتين الحرارتين المتعارضتين. عاود الجري، عبر الجانب
الساخن، الذي لا بد أنه أعمق. ووراءه، كانت تجري أيضاً، بموسيقى
المهاميز، أقدام أنصار بيبا. أطلق عودٌ ثقاب وميضه البرتقالي وفقد
هو توازنه وسقط في نفق رأسى وشعر بالصدمة الجافة لجسده فوق
بعض الدعامات المسوّسة. فوقه، لم تتوقف جلبة المهاميز وارتدت
غمغمة الأصوات فوق حوائط النجم. نهض المطارد بعناء؛ حاول أن
يتبين أبعاد المكان الذي سقط فيه، والمخرج الذي يمكن منه متابعة
الفرار.

"الأفضل أن أنتظر هنا..."

تصاعدت الأصوات فوقه، كأنها تتجادل. ثم سُمعت، بوضوح،
قهقهة المقدم ثاجال. تراجعت الأصوات. صفر شخصٌ ما، عن بعد:
صفارة إنتباه واحدة، خشنة. وبلغت المخبأ جَلَبَاتٌ أخرى غير محدّدة،
ثقيلة، إستطالت خلال عدة دقائق. وبعدها، لا شيء. بدأت العينان في

الإعتياد: الظلمة.

"يبدو أنهم مضوا. ربما كان كميناً. الأفضل أن أنتظر هنا."

في حرارة النفق المهجور، تحسّس صدره، وجسّ جنبه الذي ألمته الصدمات. كان في مساحة مستديرة بلا مخرج: هي، بالتأكيد، آخر نقطة في إحدى الحفائر. كانت بضع دعامات مكسورة ملقاة على الأرض؛ وكانت أخرى تسند سقف الصلصال الضعيف. تحقّق من ثبات إحداها ووضع ثقله عليها، جالساً، في انتظار مرور الساعات. كانت إحدى الأخشاب تمتد نحو الفتحة التي سقط منها: لم يكن صعباً تسلّقها والوصول مرةً أخرى إلى كهف المدخل. لمس عدّة تمزقات في بنطلونه، وفي السترة التي انفصلت منها خطوط القصب المذهبة. إرهاق، وجوع، ونعاس. مدّد جسده شارباً ساقيه وأحس بالنبض القوي في فخذه. الظلمة والاسترخاء، اللهاث الخفيف والعيون المغمضة. فكر في النساء اللواتي كان يؤدّ معرفتهن؛ أما جسد من عرفهن فهرب من خياله. الأخيرة كانت في فرسنبيو. عاهرة ترتدى أفضل ثيابها. واحدة من أولئك اللواتي يكيّن حين تسألن، "من أين أنت؟ ولماذا إنتهى بك المطاف هنا؟". السؤال الدائم، من أجل بدء محادثة ولأنهن جميعاً يسرّهن إختراع حكايات. أما تلك فلا؛ إنها تبكي فقط. والحرب التي بلا نهاية. واضح أن هذه هي العمليات الأخيرة. شبك ذراعيه فوق صدره وحاول أن يتنفس بانتظام. حالما سيسيطرون على الجيش المحطم لبانشو بيبا، سيكون ثمة سلام. سلام.

"ماذا سأفعل حين ينتهى هذا؟ ولماذا الإعتقاد بأنه سينتهى؟ أنا لا أفكر هكذا أبداً."

ربما سيعنى السلامُ فرص عمل طيّبة. في إرتحاله المتعرّج عبر أراضى المكسيك، لم يشارك سوى في التدمير. لكن دُمّرت أراض زراعية يمكن زراعتها من جديد. وذات مرة، في الباخيبو، رأى أرضاً

زراعية ممتازة، يمكن بجوارها أن يبنى لنفسه بيتاً ببواكى وأفنية
مزهرة ويسهر على البذار. أن يرى كيف تنمو بذرة، ويعتق بها، ويرعى
إزدهار النبتة، ويجمع الفاكهة. يمكن أن تكون هذه حياة طيبة، حياة
طيبة...

"لا تتم، كن مستعداً..."

قَرَصَ فخذه. طَوَّحَتْ عضلات الرقبة رأسه إلى الوراء.
لم يكن يأتي من أعلى أى صوت. باستطاعته الاستكشاف. إتكا
على الدعامة الصاعدة حتى يبلغ، بقدمه، النتوءات الصخرية للفوهة.
مضى متأرجحاً، بذراعه القوية، من نتوء إلى نتوء، حتى أنشأ أظافره
فى المنصة العليا. ظهرت رأسه. كان فى النفق الساخن. لكنه بدا الآن
أشدَّ ظلمةً وإختافاً مما كان. سار حتى الكهف الذى تتوزع منه
الأنفاق. تعرّف عليه لأن نفق الريح القوية كان إلى جوار النفق الآخر
السئ التهوية، لكن على مسافة أبعد لم يكن الضوء يدخل من الفتحة
الأصلية. هل يكون الليل قد حل؟ هل يكون قد فقد حساب الساعات؟
فى الظلام، بحثت يده عن المدخل. لم يكن الليل هو الذى أغلقه،
بل متراس من الصخور الثقيلة، أقامه أنصار بييا قبل ذهابهم. لقد
حبسوه فى هذه المقبرة ذات الدعامات المتهاكة.

أحس بهذا فى أعصاب معدته: أنه منسحق. وعلى نحو آلى. وسّع
منخازى أنفه فى جهد خيالى للتنفس. رفع أصابعه إلى صدغيه ورى
عليهما. النفق الآخر، الجيد التهوية. فهذا الهواء يأتي من الخارج،
يصعد من الصحراء، تسوطه الشمس. جرى نحو الممر الثانى. إلتصق
أنفه بذلك الهواء العذب، المتجدد، وأخذ، ويدها مُستدتان على
الجدران، يتعثّر فى الظلام. بلّلت يده قطرة. قَرَّبَ فمه المفتوح من
الجدار، باحثاً عن مصدر الماء. من السقف الأسود كانت تتساقط تلك
اللالئ البطيئة، المنعزلة. إلتقط قطرة ثانية بلسانه؛ وانتظر الثالثة،

والرابعة. آمال رأسه. بدا أن النفق قد بلغ نهايته. تشمّم الهواء. كان يأتي من أسفل، أحسّ به حول كاحله. ركع، وبحث بيديه. من تلك الفتحة غير المرئية، من هناك ينبع: والنفق الضيق هو ما كان يمنحه قوة أكبر من قوته الأصلية. كانت الأحجار مُفككة. بدأ يجذبها، حتى إتسع الشق، وفي النهاية، إنهار: دهليزٌ جديد، تضيقُهُ عروق فضيَّة، انفتح خلف الإنهيار. دفع جسده وانتبه، في الممر الجديد، إلى أنه لا يستطيع السير على قدميه: فلم يكن الممر يسعه إلا وهو على بطنه. وهكذا ظل يسحب جسده، دون أن يعرف إلى أين يؤدي جهده الزاحف. عروقٌ رمادية، وإنعكاسات مذهبة لشرائط الضابط المقصبة: وحدها هذه الأضواء المتفاوتة كانت تضيئ تمهله الشبيه بأفعى متشرنقة. عكست عيناه أشد أركان الظلمة سواداً وإنساب خيطٍ من اللعاب على ذقنه. أحس بفمه مليئاً بثمار التمر الهندي: ربما كانت الذكرى اللاإرادية لثمرة ما زالت تثير في الذاكرة غدده اللعابية، ربما كانت الرسول الأمين لرائحة تتبعث من بستان ناء، حملها هواء الصحراء الساكن، حتى بلغت الممر الضيق. إلتقطت حاسة الشم المنتبهة شيئاً آخر. فماً ممتلئاً بالهواء. رئة ممتلئة. طعماً لا يخطئ لأرض قريبة: لا يخطئ بالنسبة لشخص ظل وقتاً طويلاً حبيس طعم الصخور. ظل الممر المنخفض يرتفع؛ والآن إنتهى بشكل مفاجئ وإنحد، بجدة، إلى فضاء داخلي واسع وأرض رملية. أفلت الدهليز المرتفع وترك نفسه يسقط فوق أفراس الأبيض. كانت بعض عروق النباتات قد دخلت حتى ذلك الموضع. من أين؟

"نعم، الآن يعود إلى الإرتفاع. لكنه ضوءاً بدا إنعكاساً للرمال. لكنه ضوءاً!"

جري، وصدره ممتلئ، نحو الفتحة التي تستحم في الشمس.
جري، دون أن يسمع أو يرى. دون أن يسمع عزف الجيتار البطئ

والصوت الذى يصاحبه، صوتٌ متناقلٌ وحسنى لجندىٍ مُرهقٍ.
فتياتٍ دورانجو يكسرين بالأزرق والأخضر،
من الساعة الثامنة فصاعداً، من لا تقرصُ منهم تعضُّ...

دون أن يرى النار الصغيرة التى يتأرجح فوقها الهيكل العظمى
للعزة التى تم إصطيادها فى الجبل ولا الأصابع التى تنتزع منها مِرْقاً
من الجلد.

سقط دون أن يسمع أو يرى، فوق أول شريط من الأرض المضاءة.
كيف كان بإمكانه أن يرى، تحت شمس الثالثة بعد الظهر هذه،
المنصبة، التى تضئ مثل فطرٍ من الجير خوذة الرجل الذى ضحك ومدَّ
يده.

- هيا، يا نقيب، فأنت ستجعلنا نصل متأخرين. إنظر فقط كيف
يدخل الياكى إلى الضيعة. والآن نعم، يمكن استخدام الزمريات.
فتيات تشيهوا هو لم تعدن تعرفن ماذا تفعلن،
وتطلبن من الرب أن يكون ثمة رجل يعرف كيف يجيد محبتهم...

رفع السجين وجهه وقيل أن يرى المجموعة المتكئة للمقدم ثاجال،
ترك عينيه تتوهان فى المنظر الطبيعى الجاف للأحجار والنباتات
الشائكة، المنظر الطبيعى الممتد والبطئ، الساكن والثقيل كالرصاص.
بعدها، نهض ووصل إلى المعسكر الصغير. نظر إليه الياكى محدقاً.
مد هو ذراعه وانتزع مِرْقَةً محترقة من ظهر العزة وجلس يأكل.
بيرالس.

كانت قرية من الطوب النئى. لا تكاد تتميز عن غيرها من القرى.
مربعٌ واحد، هو الذى يمر فى مواجهة رئاسة البلدية، كان مرصوفاً
بالحجارة. أما ما عداه فكان من التراب الذى سوته أقدام الأطفال

العارية، وأظافر الديكة الرومية التى تتنفس عند مداخل الشوارع، وأقدام جماعات الكلاب التى تقام أحياناً فى الشمس وتجرى جميعها أحياناً، وهى تتبج، على غير هدى. ربما كان هناك واحدٌ أو إثني من المنازل الجيدة، ببيوَابات ضخمة ومزاليج من الحديد ومواسير من الصفيح: هما دائماً منزل المرابى ومنزل الزعيم السياسى (حين لا يكون هذا وذلك هما نفس الشخص)، الهاربين الآن من العدالة العاجلة لبانتشو بيبا. كانت القوات قد احتلت المقرَّين مائة الأفتية - المختبئة خلف الجدران الضخمة التى تدير وجهها الشبيه بالحصن نحو الشارع - بالخيول والقش، بصناديق الذخيرة والأدوات: ما استطاعت فرقة الشمال، المهزومة، إنتاذه فى مسيرتها نحو نقطة إنطلاقها. كان لون القرية مُغْبِراً، واجهة الرئاسة وحدها كانت تضى بلون وردى، يضيع على الفور، عند الجانبين وعند الأفتية، فى نفس لون الأرض المائل إلى الرمادى. كان هناك مصدر ماء قريب؛ ولهذا السبب تأسست القرية، التى كانت ثروتها تتحصر فى بعض الديكة والدجاجات، وبعض أعواد الذرة الجافة المزروعة فى الحوارى الترايية، ودكانتى حدادة، ودكان تجارة، ودكان بقاله وبعض الصناعات المنزلية. كانت القرية تحيا بـمعجزة. وتحيا فى صمت. ومثلما فى غالبية النجوع المكسيكية، كان من الصعب معرفة أين يختبئ سكانها. فى الصباح كما فى المساء، وفى المساء كما فى الليل، ربما أمكن سماع ضربات مطرقة، ملحاحة، أو عويل طفل حديث الولادة، لكن سيكون من الصعب الإلتقاء فى الشوارع الحارقة بكائن حى. وأحياناً يُطلُّ الأطفال، ضئيلين، حفاة. القوات أيضاً بقيت خلف جدران المنازل التى استولت عليها أو مختفية فى أفتية الرئاسة، التى إتجه نحوها الطابور المتعب. وحين ترجلوا، إقترب حارس فأشار المقدم ثالجال إلى الهندى الياكى.

خذ هذا إلى السجن. وأنت تعال معى، يا كروث.

الآن لم يكن المقدم يضحك. فتح مصراعى باب المكتب المطفى
بالجير وجفف عرق جبهته بكمّته. فك حزامه وجلس. تأمله السجين
وهو واقف.

- إجذب كرسيّاً، يا نقيب، ودعنا نتحدث على سجيتنا، هل تريد
سيجارة؟

تناولها السجين وقرب لهبُ الولاعة الوجهين.
- حسناً. عاود ثأجال الإبتسام، الأمر بسيطٌ جداً. بإمكانك أن
تخبرنا بخطط من يطاردوننا وسنطلق سراحك. أنا صريح معك. نحن
نعرف أننا خسرنا، ورغم كل شيء نريد الدفاع عن أنفسنا. أنت جنديّ
جيد وتفهّم هذا.

- بالتأكيد. ولهذا السبب نفسه لن أتكلم.
- نعم. لكن ما سيكون عليك أن تخبرنا به قليلٌ جداً. فأنت وكل
أولئك الموتى الذى تخلفوا فى الأخدود كنتم تشكلون فصيل استطلاع،
كان ذلك واضحاً تماماً. وهذا يعنى أن مجمل القوات ليست بعيدة.
حتى أنهم إشتمّوا الطريق الذى سلكناه نحو الشمال. لكن لما كنتم لا
تعرفون جيداً ذلك المر عبر الجبل، فالمؤكد أنه كان عليكم أن تعبّروا
السهل كله وهذا يستغرق عدة أيام. والآن: كم عددهم، وهل هناك
قوات سبقت بالقطار، وبكم تحسب إمداداتهم من الذخيرة، وكم عدد
قطع المدفعية التى يجرّونها؟ أى تكتيك إستقروا عليه؟ أين ستتجمّع
الألوية المتفرقة التى تقتفى أثرنا؟ تصوّر بساطة الأمر: عليك أن تقصّ
على كلّ هذا وتخرج حراً. أعطيك كلمتى.

- منذ متى تعطون هذه الضمانات؟
- مرحى، أيها النقيب، إننا سنخسر فى كل الأحوال. أنا صريح
معك. الفرقة تفكّكت. إنقسمت إلى مجموعات ستضيع فى الجبال،
وتسلّ بإطراد، لأنهم على طول الطريق سيقبّون فى قراهم، فى

أراضى ضياعهم. نحن مُتعبون. إنها أعوامٌ طويلة من القتال، منذ أن
إنتفضنا ضد دون پورفيريو. بعدها قاتلنا مع ماديرو، ثم ضد الملّوين
أنصار أوروثكو، ثم ضد زعران هويرتا، ثم ضدكم أنتم أنصار كارانثا.
إنها أعوام طويلة. وقد تعبنا. وقومنا مثل الحرباوات، يأخذون لون
الأرض، يستقروّن في الأكواخ التي خرجوا منها، يعاودون إرتداء زى
الْفَعْلَة ويعاودون إنتظار ساعة مواصلة القتال، ولو طال الأمد مائة
عام. وهم يعرفون الآن أننا خسرنا هذه المرة، تماماً مثل أنصار ثاباتا*
في الجنوب. أنتم كسبتم. فلماذا يجب أن تقتلنا وفريقك هو الذى
كسب الحرب؟ دعنا نخسر ونحن نقاتل. لا أطلب منك سوى هذا. دعنا
نخسر ببعض الشرف.

- بانتشو بيبا ليس في هذه القرية.
- لا. إنه يسبقنا. والرجال يهجروننا. لقد صرنا قلة قليلة.
- وأى ضمانات تعطوننى؟
- نتركك حياً هنا في السجن حتى ينقذك أصدقاؤك.
- هذا، إذا كسب رجالنا. وإذا لم يكسبوا...
- إذا هزمناهم، أعطيك حصاناً حتى تذهب.
- وهكذا يمكنكم قتلى بالرصاص من الظهر حين أخرج جرياً.
- قل لنا أنت...
- لا. ليس لدى ما أقوله.
- فى السجن صديقك الياكى والمحامى برنال، مبعوث كارانثا.
- إنتظر معهما أمر الإعدام بالرصاص.
- نهض ثاجال.
- لم يكن لدى أى منهما مشاعر. فقد فقدنا كل واحدٍ منهما، فى

* Zapata: اشتهر خارج المكسيك باسم زاباتا - م

فريقه، تأكلت بفعل الأحداث اليومية، بفعل الدفع المتصل دون هدنة لصراعهما الأعمى. كانا قد تحدثنا بطريقة اليه، دون توريط لعواطفهما. طلب ثاجال المعلومات وأتاح فرصة الاختيار بين الحرية وبين فصيل الإعدام، ورفض السجين تقديم المعلومات: لكن ليس بوصفهما ثاجال وكروث، بل مثل ترسين في ماكينتي حرب متعارضتين. لهذا السبب، لقي نبأ الإعدام بالرصاص لا مبالاة مطلقة من جانب السجين. لا مبالاة هي، بالضبط، ما أجبره على الإنتباه إلى الهدوء الوحشى الذى قبل به موته الخاص. عندئذ نهض هو أيضاً وهو يجز على فكيه.

- أيها المقدم ثاجال، لقد قضينا زمناً طويلاً ونحن نطيع الأوامر، دون أن نتيج لأنفسنا الوقت لفعل شيء، كيف أقول لك؟، لفعل شيء يقول: هذا الشيء أفضله بوصفى أرتيميو كروث؛ هذه اللعبة ألعبها أنا وحدى، وليس بصفتى ضابطاً فى الجيش. إذا كان عليك أن تقتلنى، إقتلنى بوصفى أرتيميو كروث. لقد قلت أنت أن هذا سينتهى، أننا متعبون. أنا لا أريد أن أموت بوصفى آخر ضحايا قضية منتصرة وأنت أيضاً لا تريد أن تموت بوصفك آخر ضحايا قضية خاسرة. كن رجلاً، يا سيدى المقدم، ودعنى أكون رجلاً. أقترح عليك أن نتبارز بالمسدسات. إرسم خطأ فى الفناء ولنخرج كلانا مسلحين من ناصيتين متقابلتين. وإذا تمكنت أنت من جرحى قبل أن أعبر الخط، فلتقتلنى. وإذا عبرته دون أن تصيبنى، فلتطلق سراحى.

- عريف پايان! صاح ثاجال وبريق فى عينيه .. خذه إلى الزنزانة.

ثم أدار وجهه إلى السجين. - لن تخطرأوا بساعة تنفيذ الإعدام، ومن ثم يجب أن تظلوا مستعدين، قد يكون خلال ساعة، وكذلك قد يكون غداً أو بعد غد. وعليك فقط أن تفكر فيما قلته لك.

عبر القضبان كانت تدخل الشمس الغاربة وترسم بالأصفر
الخطوط الخارجية لهذين الرجلين، أحدهما واقف، والآخر مستلق.
حاول توبياس أن يغغم بتحية؛ أما الآخر، الذى كان يتمشى بعصبية،
فاقترب منه فور أن أصدرت الزنزانة صريراً واحتكت مفاتيح عريض
الحراسة بالمزلاج.

- حضرتك النقيب أرتيميو كروث؟ أنا جونثالو برنال، مبعوث
القائد الأعلى بينوستيانو كارانثا.

كان يرتدى زياً مدنياً: بذلة كشمير بلون البن بحزام مستعار فى
الجزء الخلفى. وراقبه هو مثلما يراقب كل المدنيين الذين يلقون
بأنفسهم من حين إلى آخر على النواة الفارقة فى العرق لمن يقاتلون؛
بنظرة سريعة متهمكة ولا مبالية، حتى استرسل برنال، وهو يمر بمنديل
على جبهته الواسعة وشاربه الأشقر:

- الهندى فى حالة سيئة جداً. ساقه مكسورة.

هز النقيب كتفيه. - لن يبقى طويلاً

- ماذا تعرف؟ - سأل برنال وأوقف المنديل فوق شفتيه، بحيث
خرجت الكلمات مخنوقة.

- سينسفوننا جميعاً. لكنهم لا يقولون فى أى ساعة. لن نموت من
الزكام.

- أليس هناك أمل فى أن يصل رجالنا قبل ذلك؟

كان النقيب هو من توقف الآن. كان يدور، مراقباً السقف،
والحوائط، والنافذة الصغيرة ذات القضبان، والأرضية الترابية: البحث
الغريزى عن الفوهة التى يمكن الهرب منها. ونظر إلى عدو جديد:
الواشى المزروع داخل الزنزانة.

سأل: - ألا يوجد ماء؟

- شربه الياكى.

أنَّ الهنـدى. إقـتـرب هو من الوجه النحاسى المتكئ على المسند الحجرى لتلك المصطبة العارية التى تقوم مقام السرير والمقعد. توقف خـدّه بجوار خـدّ توييـاس ولأول مرة، بقوة أجبرته على التراجع، شعر بحضور ذلك الوجه الذى لم يكن أبداً أكثر من عجيـنة داكنة، جزء من القوات، يمكن التعرف عليه فى التكامل العصبى والسريع لجسده المقاتل أكثر مما يمكن التعرف عليه فى هذا الهدوء، وهذا الألم. كان لتوييـاس وجه: وقد رآه. كانت مـثـات من الخطوط البيضاء - خطوط ضحك وضيق وعيون مُزَرَّرة ضد الشمس - ترسم عند زاويتي الجفون وتتقاطع على الوجنتين العريضتين. إبتسمت الشفتان الممتلئتان والبارزتان بعذوبة وكان فى العينين الرماديتين، المعذبـتين شـيء شبيه بـبـئر من الضوء الكابى، المسحور، الذكى.

- لقد وصلت حقاً - قال توييـاس فى لغته، التى تعلمها النقيب خلال تعامله اليومى مع قوات سبيـرا إقليم سنياوا.

ضـفـط اليد المعروقة للياكى - نعم، يا توييـاس. من الأفضل أن تعرف شيئاً: سيعدموننا بالرصاص.

- هذا ما يجب أن يفعلوه. لو كنت أنت لفعلت نفس الشـيء.

- نعم.

ظلوا صامتين، بينما تختفى الشمس. أعدّ الرجال الثلاثة أنفسهم لقضاء الليل معاً. تمشّى برنال بتمهل فى الزنزانة: أما هو فتنهض ثم جلس فوراً على التراب مرةً أخرى ورسم خطوطاً على الأرضية. وفى الخارج، فى الدهليز، أضيئ مصباحٌ بترولـى وصدر صوتٌ عن فكى عريف الحراسة. هبّت ريـحٌ باردة فوق الريف الصحراوى.

نهض على قدميه من جديد، وإقـتـرب من باب الزنزانة: ألواح سميكة، خشب صنوبر دون تلميع، وتلك الفتحة الصغيرة على ارتفاع النظر. من الجهة الأخرى، إرتفع دخان سـيـجـارة أوراق الشجر التى

أشعلها العريف. أغلق قبضتيه حول القضبان الصدئة وراقب المنظر الجانبي لوجه حارسه. كانت الخصلات السوداء تبرز من القلنسوة القماشية وتنتهي عند الوجنتين المربعتين الجرداوين. بحث السجين عن نظرتيه وأجاب العريف بإيماء سريعة، إيماءة "ماذا تريد؟" صامتة من رأسه ويده الخالية. وأطبقت اليد الأخرى على القرينة بحكم العادة.

- هل تلقيتم الأمر لصباح الغد؟

نظر إليه العريف بعينيه الواسعتين الصفراوين. ولم يجب.

- أنا لست من هنا. وأنت؟

- من هناك من الشمال. قال العريف.

- كيف حال المكان؟

- أين؟

حيث سيعدموننا. ماذا يبدو للنظر من هناك؟

توقف وأشار للعريف أن يناوله الولاة.

- ماذا يبدو للنظر؟

عند ذلك فقط تذكر أنه ظل دائماً ينظر إلى الأمام، منذ الليلة التي عبر فيها الجبل وأفلت من نطاق بيراكروث القديم. منذ ذلك الحين لم يعاود النظر إلى الوراء. منذ ذلك الحين أراد أن يعرف نفسه وحده، دون أي قوة أخرى سوى قواه الخاصة... والآن... لم يستطع مقاومة هذا السؤال. كيف حال المكان، ماذا يبدو للنظر من هناك. الذى ربما كان طريقته فى إخفاء ذلك التوق إلى التذكر، ذلك المنحدر المؤدى إلى صورة نباتات سرخس وارفة وأنهار متمهلة، صورة أزهار مُستديقة فوق كوخ، صورة جولة منشأة وشعر ناعم، يفوح برائحة السفرجل...

- سيحملونكم إلى الفناء الخلفى. كان العريف يقول. وما يبدو

للنظر، حسناً، ماذا يمكن أن يكون؟ جدارٌ مرتفع، كله ثقوب من فرط
الإعدامات التي نُجريها هنا...

- والجبل؟ ألا يبدو الجبل للنظر؟

- حسناً، الحقيقة هي أنني لا أتذكر.

- هل رأيت الكثيرين...؟

- يوووو...

- من المحتمل أن من يعدم بالرصاصة يرى ما يجري أفضل ممن
يُعدمون.

- ألم تشهد إعداماً أبداً؟

("نعم، لكن دون أن ألاحظ جيداً، دون أن أفكر أبداً فيما يمكن
أن يكون شعور من يُعدمون، في أن دورى قد يجئ ذات مرة، لذا ليس
لى الحق في أن أسألك، أليس كذلك؟ إنك فقط قد قتلت مثلي، دون
أن تلاحظ جيداً أى شيء. لهذا لا يعرف أحدٌ شعور من يُعدمون ولا
يستطيع أحدٌ أن يحكيه. إذا كانت العودة ممكنة، إذا كان ممكناً حكى
ما يعنيه سماع دفعة طلاقات والإحساس بها في الصدر، في الوجه. إذا
كان ممكناً حكى حقيقة ذلك، فربما لن نجروء على القتل، أبداً؛ وربما
لم يعد يهم أحداً أن يموت... ربما كان ذلك فظيماً... وربما كان
طبيعياً تماماً مثل الميلاد... ما أدرانا أنت وأنا؟")

- إسمع أيها النقيب، شرائط القصب هذه لن تفيدك بعد. أعطنى
إياها.

أدخل العريف يده من بين القضبان وأدار هو ظهره إليه. ضحك
الجندي بأزيز مكتوم.

الآن كان ألياكى يغمغم أشياء بلغته وجرجر هو قدميه إلى المسند
الصلب، ليلمس بيده جبهة الهندي المحمومة ويستمع إلى كلماته. كانت
تساب بهسهسة عذبة.

- ماذا يقول؟

يحكى أشياء. كيف إنتزعت منهم الحكومة أراضيهم الأزلية لتعطيتها لبعض الجرينجو*. كيف قاتلوا هم دفاعاً عنها ثم وصلت القوات الفيدرالية وبدأت تقطع أيدي الرجال وتطاردهم في الجبل. كيف صعدوا بزعماء الياكى إلى زورق حربي ومن هناك قذفوا بهم إلى البحر مُحمّلين بالأنقال.

كان الياكى يتحدث وعيناه مغمضتين.. نحن الذين بقينا قيّدونا في طابور طويل جداً ومن هناك، من سينالوا، جعلونا نمشي حتى الطرف الآخر، حتى يوكاتان.

- كيف كان عليهم أن يسيروا حتى يوكاتان وأخذ العجائز والنساء والأطفال يتساقطون موتى. ومن تمكّنوا من بلوغ ضياع السيزال** بيعوا كعبيدٍ مع فصل الأزواج عن زوجاتهم. كيف أجبروا النساء على مضاجعة الصينيين، حتى تتسبن لفتهن وتلدن المزيد من الأجراء...
- عُدْتُ، عدْتُ. فور أن عرفت باندلاع الحرب، عدتُ مع إخوتي لتفاضل ضد الأذى.

ضحك الياكى بهدوء وأحسنّ هو بالرغبة في التبول. نهض وفتح فتحة البنطلون الكاكي؛ يبحث عن ركن وسمع صوت الطرطشة في التراب. قطّب جبهته وهو يفكر في النهاية المعتادة للشجعان الذين يموتون وبقعة رطبة في بنطلونهم العسكري. أما برنال، المشبوك الذراعين الآن، فبدأ أنه يبحث، عبر القضبان العالية، عن شعاع من القمر يضيئ هذه الليلة الباردة والمظلمة. أحياناً، كان يتهاوى إليهم ذلك الطرّق الملحاح للقرية؛ وتنبح الكلاب. واستطاعت بضع محادثات ضائعة، بلا معنى، إختراق الجدران. نقض سترته وإقترب

* الجرينجو: تقال إحتقاراً أو تهكماً للأمريكيين الشماليين - م
** pita = Henequen: نبات تصنع من أليافه الحبال - م

- من المحامي الشاب.
- أليديك سجائر؟
 - نعم... أظن أن نعم... كانت هنا.
 - قدّم منها للياكى.
 - قدّمت له من قبل. لا تعجبه سجائرى.
 - وهل يحمل سجائره؟
 - يبدو أنها نفدت منه.
 - قد يكون لدى الجنود أوراق لعب.
 - لا؛ لن يمكنى التركيز. أظننى لن يمكنى...
 - هل تشعر بالنعاس؟
 - لا.
 - معك حق. لا يجب النوم.
 - أتظن أنك ستقدم ذات يوم؟
 - ماذا؟
 - أقول، ستقدم على أنك نمت قبل...
 - هذا ظريف.
 - آه، نعم. من الأفضل إذن أن نتذكّر. يُقال أن التذكر شىء طيب.
 - ليست وراءنا حياة طويلة.
 - كيف لا. هذه هى ميزة الياكى. ربما لهذا السبب لا يحب الكلام.
 - نعم. لا، لا أفهمك...
 - أقول أن لدى الياكى أشياء كثيرة ليتذكرها.
 - ربما كان التذكر مختلفاً فى لغته.
 - كل تلك المسيرة، من سينالوا. ما حكاها لنا منذ برهة.
 - نعم.

- ...
- ريخينا...
- ماذا؟
- لا. إنتى فقط أردد بعض الأسماء.
- ما عمرك؟
- سأتمُ السادسة والعشرين. وأنتى؟
- تسعة وعشرون. وأنا أيضاً ليس لدى الكثير لأتذكره. هذا مع أن الحياة قد أصبحت مضطربة، على حين غرة.
- متى بدأ المرء فى تذكر طفولته، مثلاً؟
- بالتأكيد؛ فهذا يُرهق.
- أتعرف؟ الآن، بينما نتحدث...
- نعم؟
- حسناً؛ رددتُ بعض الأسماء. أتعرف؟ لم تعد أليفة؛ لم تعد قادرةً على أن تقول لى شيئاً:
- الفجر سيطلع.
- لا تلتفت لهذا.
- ظهري يعرق بشدة.
- أعطنى السيجارة. ماذا حدث؟
- عفواً. ها هى. ربما لا يشعر المرءُ بشيء.
- يقولون هذا.
- من الذين يقولون، يا كروث؟
- من يَقْتُلُون. مؤكد.
- وهل يهتمك كثيراً؟
- حسناً...
- لماذا لا تفكر فى...

- فى ماذا؟ فى أن كل شىء سيظل على حاله، رغم أنهم يقتلوننا؟
- لا، لا تفكر فيما سيحدث، بل فيما حدث. أنا أفكرُ فى كل من ماتوا فعلاً فى الثورة.
- نعم؛ أتذكّر بولى، وأباريشيو، وجومث، والنقيب تيبوريثو أمارياس... أتذكر قليلين.
- أراهن أنك لا تعرف إسم عشرين منهم. وليسوا هم فقط. ماذا كانت أسماء كل الموتى؟ ليس فقط موتى هذه الثورة؛ بل موتى كل الثورات وكل الحروب وحتى الموتى على فراشهم. منذا سيتذكّره؟
- أنظر: أعطنى تقاباً.
- عفواً.
- الآن طلع القمر.
- أتريد رؤيته؟ إذا إستدتت على أكتافى، يمكنك بلوغ...
- لا. لا يستحق الأمر العناء.
- من الأفضل أنهم نزعوا ساعتى.
- نعم.
- أعنى، حتى لا أحسب الساعات.
- مؤكد. لقد فهمتُ.
- الليل بدا... بدا أطول...
- اللعنة على هذه الرغبة فى التبول.
- أنظر إلى الياكى. لقد نام. من الأفضل أن أحداً لم يُظهر الخوف.
- الآن، يومٌ آخر ونحن هنا.
- من يدرى. ربما دخلوا فجأة بعد برهة.
- لا. تروقه لعبتهم. ثمة إعتيادٌ مفرط على الإعدام عند الفجر.
- سوف يلعبون معنا.

- أليس شديد الإندفاع؟
- بيبيا، نعم لكن ليس ثاجال.
- كروث... ألا يبدو هذا بالغ العيشية؟
- ماذا؟
- أن يموت المرء على يد أحد الزعماء وهو لا يؤمن بأى واحدٍ منهم.
- هل نذهب نحن الثلاثة معاً أم يخرجوننا واحداً واحداً؟
- مرة واحدة أسهل، أليس كذلك؟ أنت العسكرى.
- ألا تخطر على بالك أى حيلة؟
- سأقص عليك شيئاً؟ إنه شئ يميتُ من الضحك.
- ما هو؟
- ما كنت أقوله لك لو لم أكن متأكداً من أننى لن أخرج من هنا حياً. لقد أرسلنى كارانثا فى هذه المهمة بهدفٍ وحيد هو أن يمسكوا بى ويكونوا هم المسئولين عن موتى. لقد سيطر على عقله أن بضلاً ميتاً أفضل من خائن حي.
- هل أنت خائن؟
- الأمر يتوقف على الطريقة التى تنظر بها إليه. أنت لم تفعل سوى القتال؛ أطلعت الأوامر ولم تتشكك مطلقاً فى رؤسائك.
- بالتأكيد. فالهم هو كسب الحرب. ماذا، ألسن مع أويريجون وكارانثا؟
- مثلما كان يمكن أن أكون مع ثاباتا أو بيبيا. أنا لا أوئن بأى واحدٍ منهم.
- إذن؟
- هذه هي المأساة. ليس هناك سواهم. لا أدري إن كنت تتذكر البداية. كانت منذ وقت قصير جداً، لكنها تبدو بعيدة جداً... وقتها لم

يكن القادة مهمين. وقتها كنا نفعل هذا ليس للإرتفاع برجل، بل للإرتفاع بالجميع.

— أتريد الحديث بسوءٍ عن ولاء رجالنا؟ هذه هي الثورة، لا أكثر: الولاء للرؤساء.

- نعم. حتي الياكي، الذي خرج في البداية للقتال من أجل أرضه، لا يقاتل الآن إلا من أجل الجنرال أوبريجون وضد الجنرال بييا. لا، من قبل كان الأمر مختلفاً. قبل أن يتدهور هذا إلى طوائف. الشعب الذي يمر بثورة كان شعباً تنتهي فيه ديونُ الفلاح، وتُصادرُ فيه ممتلكات المرابين، ويُطلقُ فيه سراح السجناء السياسيين ويجرى فيه تدمير الإقطاعيين القدامى. لكن إنظر فقط، كيف تركنا خلف ظهورنا من يؤمنون بأن الثورة ليست من أجل تضخيم الزعماء بل من أجل تحرير الشعب.

- سيُتاح الوقت لهذا

- لا، لن يُتاح. الثورة تبدأ بدءاً من ميادين القتال، لكنها فور أن يصيبها الفساد، تكون قد ضاعت حتى لو ظلت تكسب المعارك الحربية. وقد كنا جميعاً مسئولين. فقد تركنا الجشعين، والطموحين، والتافهين يُفرّقون بيننا ويقودوننا. والذين يريدون ثورة حقيقية، جذرية، غير متهاونة، هم لسوء الحظ رجالٌ جاهلون ودمويون. أما المتعلمون فلا يريدون سوى نصف ثورة، تتمشى مع الشيء الوحيد الذي يهمهم: أن يزدهروا، ويعيشوا حياة رغدة، ويحلوا محلّ نخبة دون بورفيريو. هنا تكمن مأساة المكسيك. إنظر إلى أنا. طيلة حياتي وأنا أقرأ كرويتكين، وباكونين، ويليخانوف العجوز، بصحبة كتبي منذ أن كنت صبياً، أناقش وأناقش. وفي ساعة الحسم، على أن أنضمّ إلى صفوف كارانثا لأنه هو الذي يبدو مهذباً، هو من لا يخيفني. أترى هذه الرقاعة؟ أنا أخاف من

الزعران، من بييا ومن ثاباتا ... "سأظلُّ شخصاً مستحيلاً طالما ظل
الأشخاص المُمكنون اليومَ ممكنين..." آه، نعم. كيف لا.

- أنت تفقد الحياء في ساعة الموت...

— "هذا هو العيب الجذرى في طبعى: حب ما هو خيالى،
المغامرات التى لم يرها أحدٌ قط، المشروعات التى تفتح آفاقاً لا نهائية
وغير متوقَّعة..." آه، نعم. كيف لا.

- لماذا لم تقل هذا أبداً هناك فى الخارج؟

- قلته منذ عام ١٣ لإيتورى، للوثيو بلانكو، لبويلنا، لكل
المسكربين الشرفاء الذين لم يحاولوا أبداً التحول إلى زعماء. ولهذا
لم يعرفوا كيف يوقفوا لعبة كارائنا العجوز، الذى كرس نفسه طوال
حياته لززع الفرقة والانقسام، ولو كان الأمر بخلاف ذلك، ألم يكن
بإستطاعة أى واحد أن يأكل منه القيادة، هذا العجوز التافه؟ لهذا
رقى التافهين، أمثال پابلو جونثالث، الذين لا يمكنهم منافسته. هكذا
فرق صفوف الثورة، وحولها إلى حرب طائفية.

- ولهذا بعثوك إلى بيرالس؟

- بمهمة هى إقناع أنصار بييا بأن عليهم الاستسلام. كأننا لم نكن
نعرف جميعاً أنهم يهريون مهزومين وأنهم فى يأسهم يُعملون سلاحهم
فى أى مؤيدٍ لكارائنا يقف فى طريقهم. فالعجوز لا يحب أن يلوّث
يديه. يفضل أن يقوم له العدو بالأعمال القذرة. أرتيميو، أرتيميو، لم
يكن الرجال على مستوى شعبهم وثورتهم.

- لماذا لا تنتقل إلى صفوف بييا؟

- إلى زعيم آخر؟ لأرى كم يدوم ثم أنتقل إلى آخر وآخر غيره،
حتى أعود فأجدنى فى زنزانة أخرى فى انتظار أمرٍ إعدامٍ آخر؟
- لكلك تنقذ نفسك هذه المرة...

- لا ... صدقتى، يا كروث، كان بوذى أن أنقذ نفسى، أن أعود إلى

بويبلا. أن أرى زوجتى، وإبنى. لويسا وپانتشولين. واختى العزيزة كاتالينا، التى ترتبط بى كثيراً. أن أرى أبى، دون جمالييل العجوز، البالغ النبالة، البالغ العمى. أن أحاول أن أشرح له لماذا ورطت نفسى فى هذا. فلم يفهم أبداً أن ثمة واجبات من الضرورى إنجازها حتى لو عرفنا مقدماً أنها ستفشل. بالنسبة له فإن ذلك النظام أبدى؛ الضياع، الربا المُنقَع، وكل ذلك... ليته كان هناك من يمكن أن أكلفه بالذهاب لرؤيتهم وإبلاغهم بأى شىء من طرَفى. لكن لن يخرج أحدٌ من هنا حياً، أعرف. لا؛ الأمر كله هو لعبة تصفيات مشئومة. ها نحن نحيا بين مجرمين وأقزام، لأن الزعيم الأكبر يتبنى أقزاماً لا يستطيعون منافسته والزعيم الصغير عليه أن يفتال الكبير كى يصعد. يا للأسى، يا أرتيميو. ما ضرورة كل ما يجرى وما ضرورة عدم إفساده. ليس هذا ما أردناه حين صنعنا الثورة مع كل الشعب، عام ١٣ ... وأنت، إحزم أمرك. فعندما تتم تصفية ثاباتا وبيبا، لن يبقى سوى زعيمين، هما زعيماك الحاليان. إلى من منهما ستحاز؟

- زعيمى هو الجنرال أوبريجون.

- من الأفضل أنك حرزمت أمرك فعلاً. فلنر إن كان ذلك لن يكلفك حياتك؛ فلنر إن...

- أنت تتسى أنهم سيعدموننا.

ضحك برنال باندهاش، كأنه حاول الطيران فمنعه الثقل المنسى لبعض الأصفاد. ضغط على كتف السجين الآخر وقال:
- هوسٌ سياسى لعين! وربما كان حديساً. لماذا لا تنتقل أنت إلى صفوف بييا؟

لم يستطيع أن يتبين جيداً وجه جونثالو برنال، لكنه شعر فى الظلمة بهاتين العينين المتهاكمتين، بجو العليم بكل شىء والذى يحيط بهؤلاء المحامين التافهين الذين لم يقاتلوا أبداً، الذين لم يفعلوا سوى

أن يتكلموا كثيراً بينما يكسبون هم المآرك. أبعد جسده بعنف عن
جسد برنال.

- ماذا حدث؟ - إبتسم المحامي.

زام هو وأشعل سيجارته المطفأة. - لا يصح الحديث على هذا
النحو - قال من بين أسنانه. - ماذا؟ هل أحدثك بشكل مباشر؟ يثير
قرفى من يكشفون عن دخليتهم دون أن يطلب منهم ذلك أحد
وخصوصاً في ساعة الموت. إبقى صامتاً، يا سيدى المحامي، وقل
لنفسك ما شئت، لكن دعنى أموت دون أن تضعف عزميتى.

إكتسى صوت جونزالو بقشرة معدنية: - إسمع، يا جدد، نحن
ثلاثة رجال محكوم عليهم بالإعدام. وقد حكى لنا الياكى حياته...
وكان السخط موجهاً ضد نفسه، لأنه قد ترك نفسه لينساق للثقة
والثروة، وكشف عن دخلته لرجل لا يستحق الثقة.

- كانت تلك حياة رجل. كان معه حق.

- وأنت؟

- قاتلت فقط. وإن كان هناك المزيد، فلست أتذكره.

- أحببت امرأة ما...

أطبق قبضتيه.

- ... كان لك أبوان؛ وما أدرانى إن كان لديك حتى ابن. لا؟ أنا
كان لدى ابن، يا كروث؛ أنا حقاً أعتقد أن حياتى كانت حياة رجل،
وددت لو كنت حراً لأواصلها؛ ألا تودُّ أنت؟ ألا تودُّ فى هذه الساعة لو
كنت تربيت...؟

تقطع صوت برنال حين بحث يده هو عنه فى الظلمة، وخبطته
فى الحائط، دون أن ينطق بكلمة، بخوار مُصمت، وأظافره مغروسة فى
ياقة البذلة الكشمير لهذا العدو الجديد المسلح بالأفكار وضروب
الرقعة، الذى لم يكن يفعل سوى تكرار نفس تفكيره الدفين، تفكير

النقيب، السجين، تفكيره هو: ماذا سيحدث بعد موتنا؟ وكرّره رنال، رغم القَبَضَتَيْن المَضمومتَيْن اللتين تَتَهَكَّاهُ:

- لو لم يقتلونا قبل أن نكمل الثلاثين؟... كيف كانت ستصبح حيواتنا؟ كان بودّى أن أفعل أشياء كثيرة...

حتى غمغم هو أيضاً، وظهره غارق في العرق ووجهه قريب جداً من وجه برنال: - ... سيظل كل شيء على حاله، ألا تعرف هذا حقاً؟ ستطلع الشمس؛ وسيظل الأطفال يولدون رغم أنك أنت وأنا سنكون قد نُسِفْنَا تماماً، ألا تعرف هذا حقاً؟

أقلت الرجلان من عناقهما العنيف. تهاوى برنال على الأرض؛ ومشى هو نحو باب الزنزانة، عازماً: سيقصّ على ثاجال خطة زائفة، ويطالب بإنقاذ حياة الياكى، وسيترك برنال ليواجه مصيره.

حين قاده عريف الحراسة، وهو يترنم، إلى حضرة المقدم، لم يكن هو يشعر إلا بذلك الألم الضائع لريخينا، تلك الذكرى العذبة والمرّة التي طالما إختبأت والآن تتفتّح عن آخرها، راجية إياه أن يظل حياً، وكان امرأة ميتة تحتاج إلى ذكرى رجل حي لتظل أكثر من مجرد جسدٍ إلتهمه الدود في حفرة بلا إسم، في قرية بلا إسم.

- سيكون من الصعب عليك أن تخدمنا - قال المقدم ثاجال بصوته المبتسم الأبدى - في نفس هذه اللحظة يخرج فصيلان ليريا إن كان ما تحكيه لنا مؤكداً وإذا لم يكن، أو إذا جاء الهجوم من ناحية أخرى، فعليك أن تسلّم نفسك إلى السماء وأن تفكر في أنك لم تكسب سوى بضع ساعات من الحياة، لكن على حساب شرفك.

مدّ ثاجال ساقيه وحرك أصابع قدميه داخل الجورب. كان الحذاء العسكري فوق المنضدة، مُتعباً ودون دعامة.

- والياكى؟

- لم يكن هذا ضمن ما أبرمناه. إنظر: الليل يستطيل. فلماذا

نجعل أولئك التعماء يحلمون بشمس جديدة؟ عريف بايان!... فلنبعث بالسجينين إلى الحياة الأفضل. أخرجهما من الزنزانة واحملوهما إلى الخلف.

- الياكى لا يستطيع السير - قال العريف.
- أعطوه ماريجوانا - قهقهة ثاجال -. حسناً، أخرجوه على نقالة وأسندوه كيفما استطعتم إلى الجدار.

ماذا رأى توبياس وجونثالو برنال؟ نفس ما رآه النقيب، رغم أن هذا يفوقهم إرتفاعاً، وهو واقف إلى جانب ثاجال فوق شرفة الرئاسة. وإلى أسفل، تم إخراج الياكى على نقالة وسار برنال مطأطئ الرأس ووُضع الرجلان أمام جدار الإعدام بين مصباحين بتروليين.

إنها ليلة تأخرت فيها ومضات الفجر فى الإنبلاج ولم ترسم خطوط الجبال، حتى حين دوت البنادق بإرتجاجات حمراء مدّ برنال يده ليلمس كتف الياكى. ظل توبياس مستنداً إلى الجدار، مُحتمياً بالنقالة. أضاء المصباحان وجهه المحطّم، بعلامات الرصاصات. ولم يلتصع سوى كاحلى جسد جونثالو برنال الساقط، حيث بدأ يسيلُ خيطان من الدم.

- هاك ميّتاك - قال ثاجال.

وتبعت كلماته رصاصات أخرى، بعيدة وكثيفة، انضم إليها على الفور مدفعٌ أجشُّ أطار إحدى زوايا المبنى. تصاعدت صرخات أنصار بييا مُشوَّشة حتى الشرفة البيضاء حيث صاح ثاجال بتساؤل مرتبك:
- وصلوا فعلاً وجدونا فعلاً هم أنصار كارانتال بينما أسقطه هو وأطبق يده - التى عاودتها الحياة، مُركّزة بكل قوته - على مقبض مسدس المقدم. أحس فى يديه بالجفاف المعدنى للسلاح. غرسه فى ظهر ثاجال وطوّق بذراعه اليمنى عنق المقدم، وضغطه وأبقاه على الأرض، بلهاتٍ عفيف ورغوة بين شفّتيه. من فوق حاجز الشرفة،

إستطاع أن يرى القوضى التى سادت فى فناء الإعدام. جرى جنود
فصيل الإعدام، وهم يطأون جثتى توبياس وبرنال، ويقلبون مصباحي
البترول: تتابعات الانفجارات المنهالة فى كل قرية بيرالس، مصحوبة
بصرخاتٍ وحرائق، بتقاذز خيول وصهيل. خرج المزيد من جنود بييا
إلى الفناء، وهم يرتدون السترات العسكرية، ويربطون بنطلوناتهم.
ورسمت الأضواء الساقطة خطأً ذهبياً فى كل منظر جانبي لوجه، فى
كل حزام، فى كل عروة. إمتدت الأيدي لتتناول البنادق وأحزمة
الطلقات. فُتح باب الإسطبل بعجلةٍ وخرجت الخيول الصاهلة إلى
الفناء، إمتطأها الفرسان واندفعوا من البوابة المفتوحة. جرى بعض
المتأخرين خلف الخيالة وفى النهاية ظل الفناء خاوياً. جثتا برنال
والياكى. مصباحا بترول. إبتعد الصياح؛ مضى للقاء الهجوم المعادى.
أقلت السجين ثاجال. ظل المقدم على ركبتيه، يسعل، ويتحسس عنقه
المخنوق. إرتفع صوته بالكاد: - لا تستسلموا. أنا هنا.

وكشف الصباح، أخيراً، جفنه الأزرق فوق الصحراء.

توقف الطنين القريب. وعبر الشوارع جرى جنود بييا لمواجهة
الحصار. إصطبغت قمصانهم البيضاء بالأزرق. لم يصدر عن الفناء
همهمة واحدة. نهض ثاجال على قدميه، وهو يفك أزرار سترته
الرمادية، فى حركةٍ يقدم فيها صدره للرصاص. تقدم النقيب بدوره،
والمسدس فى يده.

- إقبل ما عرضته عليك - قال للمقدم بصوتٍ جافٍ.

- فلنهبط - قال ثاجال وفرد ذراعيه.

فى المكتب، أخذ ثاجال المسدس الكولت من أحد الأدراج.

سارا، مُسلّحين كلاهما، عبر الممرات الباردة حتى الفناء. حسباً
منتصف المربع. أزاح المقدم، بقدمه، رأس برنال. رفع النقيب مصباحي
البترول.

إتخذ كلُّ منهما موقعه عند زاوية. وتقدّما.
أطلق ثاجال النار أولاً وجرحت طلقته الياكى توبيّاس من جديد.
توقف المقدم وأضاء عينيه السوداوين أملّ: كان الآخر يتقدّم دون أن
يطلق النار. كان الحدثُ يجرى مثل طقس شرف. تشبّث المقدم - ثانية،
ثانيتين، ثلاث ثوان - بالأمل في أن الآخر سيحترم شجاعته، في أن
الإثنين سيلتقيان عند منتصف الفناء دون إطلاق نار جديد.
توقف الإثنين عند منتصف الفناء.

عادت الإبتساماة إلى وجه المقدم. عبر النقيبُ الخطّ المتخيل.
ضاحكاً، أوماً ثاجال إيماءة صداقة بيده حين إختزقت طلقتان
متتابعتان معدته ورآه الآخر ينشئ ويسقط عند قدميه. عندها ترك
المسدس يسقط فوق جمجمة المقدم الفارقة في العرق وظل، دون
حراك، واقفاً.

حركت ريح المسحراء خصلات شعره الأكرت على جبهته،
وكرمشات السترة المبللة بالعرق، والأريطة المقطوعة لقطعتي الجلد
الملتفتين حول ساقيه. وقفت شعرات ذقنه ذات الأيام الخمسة فوق
خديّه وضاعت عيناه الخضراوان خلف رموشه المتربة والدموع الجافة.
على قدميه، بطلاً وحيداً في ساحة الموتى المحاصرة. على قدميه،
بطلاً دون شهود. على قدميه، محاطاً بالوحشة، بينما تدور المعركة
خارج القرية، على قرع الطبول.

خفض بصره. كان الذراع الميّت للمقدم ثاجال يمتد نحو الرأس
الميّت لجونثالو. وكان الياكى جالساً، وجسده الميّت مستند إلى جدار
الإعدام؛ كان ظهره قد ترك توقيماً مخططاً فوق قماش النقالة. إنحنى
بجوار المقدم وأغلق له عينيه.

نهض بسرعة واستنشق هواءً ودّ فيه أن يجد، أن يشكر، أن يمنح
إسماً لحياته وحرّيته. لكنه كان وحيداً. لم يكن لديه شهود. لم يكن

لديه رفاق. أفلتت من حنجرته صرخة صماء، أخمدها المدفع الرشاش
المعادل لها على البعد.
"أنا حر؛ أنا حر".

ضمّ قبضتيه فوق معدته وتقلّص وجهه من الألم.
رفع بصره ورأى، أخيراً، ما لا بد أن يراه محكوم بالإعدام عند
الفجر: خطّ الجبال البعيد، والسماء التي إبيضت أخيراً، وجدران
القضاء الطينية. وسمع ما لا بد أن يسمعه محكوم بالإعدام عند الفجر:
شقشقة الطيور المختبئة، وصرخة حادة لطفل جائع، وذلك الوقع
الغريب لمطربة أحد عمال القرية، غريباً عن الطنين المتصل، الرتيب،
الضائع، لإطلاق المدافع وزخات الرصاص المستمرين خلف ظهره. عمل
مجهول الهوية، أقوى من الطنين، واثق من أنه بعد إنقضاء الصراع،
والموت، والنصر، ستعاود الشمس الشروق، كل يوم...

أنا لا أستطيع أن أرغب؛ أتركهم يفعلون. أحاول لمسها. أتحمسها
من السرّة حتى العانة. مستديرة. طريّة. لم أعد أدري. ذهب الطبيب.
قال أنه سيبحث عن أطباء آخرين. لا يريد أن يكون مسئولاً عنى. لم
أعد أدري. لكننى أراهم. لقد دخلوا. يفتح، وينغلق باب الماهوجنى ولا
تُصدرُ الخطوات صوتاً فوق السجادة السمكية. لقد أغلقوا النوافذ.
أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. لقد دخلوا.
- إقتربى، يا بنيّتى... حتى يتعرّف عليك... قولى له إسمك...

رائحتها طيبة. رائحتها زكية. آه، نعم، مازلت أستطيع أن أتبيّن خديّها الملتهبين، وعينيها اللامعتين، وكل قوامها الفتى، الرشيق، الذى يقترب من فراشى بخطوات قصيرة.
- أنا... أنا جلوريا...

أحاول أن أتمم إسمها. أعرف أن كلماتى غير مسموعة. على الأقل يجب أن أشكر لتيريسا هذا: أنها قرّبت منى جسد إبتها الفتى. لو كنت فقط أتبين وجهها على نحو أفضل. لو كنت فقط أستطيع رؤية تقطيباتها على نحو أفضل. لابد أنها تشم رائحة القشور الميتة هذه، رائحة القي والدم؛ لابد أنها تنظر إلى هذا الصدر الفائر، إلى هذه الذقن الرمادية المشعثة، إلى هاتين الأذنين الشمعيتين، إلى هذا الرشح الأنفى الذى لا سبيل إلى إيقافه، إلى هذا اللعاب الجاف فوق الشفتين والذقن، إلى هاتين العينين الزائفتين اللتين لابد أنهما تُظهران نظرة أخرى، وهذه...

يعدونها عنى

- المسكينة... لقد تأثرت...

- هيه؟

- لا شيء، يا بابا؛ استرح.

يقولون أنها خطيبة ابن باديا. كيف لابد أنه يقبلها، أى كلمات لابد أنه يقولها لها، آه، نعم، أى خجل. يدخلون ويخرجون. يلمسون كتفى، يهزون رؤوسهم، يغمغمون بعبارات مهموسة، نعم، لا يعرفون أننى أنصت إليهم، رغم كل شيء؛ أنصت إلى أشد المناقشات تباعداً، إلى المحادثات فى أركان المخدع، وليس إلى المحادثات القريبة، الكلمات التى تُقال بجوار رأس فراشى.

- كيف تراه، سنيور باديا؟

- سىء، سىء.

- إنه يترك إمبراطورية كاملة.

- نعم.
 - سنوات طويلة على رأس أعماله!
 - سيكون من الصعب جداً إستبداله.
 - سأقول لك. بعد دون أرتميو، ليس هناك سواك...
 - نعم، أنا مُنْفَهُم...
 - ومن سيتولّى منصبك، فى هذه الحالة؟
 - هناك الكثير من الناس المؤهلين.
 - إذن، هل يتم الإعداد لعدة ترقيات؟
 - كيف لا. توزيع جديد كامل للمسئوليات.
 - آه، باديا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟
 - على مسئوليتك؟
 - دون أرتميو... أحضرت لك...
 - " - نعم، يا رئيس.
 - " - كن مستعداً. الحكومة ستضرب بيدٍ من حديد ويجب أن تكون مستعداً لتولّى إدارة النقابة.
 - " - نعم، يا رئيس.
 - " - أنبهك إلى أن عدداً من الذئاب العجوزة يُعدُّون أنفسهم هم أيضاً. وقد ألححت للسلطات أنك من يتمتع بثقتنا. ألا تتناول شيئاً؟
 - " - شكراً لكننى أكلتُ. أكلتُ منذ برهة.
 - " - لا تجعلهم يأكلون منك القيادة. قم بجولتك، فى السكرتارية، فى إتحاد العمال المكسيكى، فى هذه الأماكن...
 - " - وكيف لا، يا رئيس. إعتد علىّ.
 - " - وداعاً، كامپانيلا. فى الخفاء. حاذر جيداً. هيا بنا، يا باديا...
- خلاص. إنتهى. كان هذا كل شيء: هل كان هذا كل شيء؟ من

يدري. لا أتذكر. منذ زمن وأنا لا أستمع إلى أصوات جهاز التسجيل هذا. منذ زمن وأنا أظهار. من يلمسني؟ من هذا القريب مني جداً؟ يا للعبث، يا كاتالينا. أقول لنفسى: يا للعبث، يا لها من ترييتة بلا جدوى. أتساءل: ماذا ستقولين لي؟ أتظنين أنك قد وجدت أخيراً الكلمات التي لم تجرؤي قط على نطقها؟ أه، أنت أحببتني؟ لماذا لم نقل ذلك؟ أنا أحببتك. لم أعد أذكر. ترييتك تجبرني على رؤيتك ولا أعرف، لا أفهم لماذا، وأنت جالسة إلى جوارى، تتقاسمين معي في النهاية هذه الذكرى ودون لوم في عينيك هذه المرة. الكبرياء. لقد أنقذنا الكبرياء. وأما الكبرياء.

- ... بمرتّب بائس، بينما يهيننا بهذه المرأة، يقذف بالترف في وجوهنا، يمنحنا ما يمنحنا وكاننا شحاذون...

لم يفهموا. لم أفعل شيئاً من أجلهم. لم أضعهم في حساباني. فعلته من أجلى. لا تهمنى هذه الحكايات. لا يهمنى تذكر حياة تيريسا وخيراردو. لا يهمنى.

- لماذا لم تطلب منه أن يعطيك مكانك، يا خيراردو؟ أنت مسئول مثله تماماً...

لا يهمنى.

- إهدئي، تيريسيتا، إفهمى وضعى؛ أنا لا أشكو.

- قليلٌ من الشخصية؛ ولا هذا...

- دعوه يستريح.

- لا تتحازى إلى جانبه! لم يُعذّب أحداً قدر ما عذّبك...

أنا نجوت. يا ريخينا. ماذا كان إسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندي بلا إسم؟ جونثالو. جونثالو برنال. هنديّ ياكى. ياكى بائس. نجوت. وأنتم مِتتم.

- وكذلك عذّبتنى. كيف يمكن أن أنسى. لم يحضر حتى العُرس.

عُرسى، عُرس إبنته...
 لم تفهما أبداً. لم أكن بحاجة إليهما. صنعت نفسى وحدى.
 جندى. ياكى. ريخينا. جونثالو.
 - لقد حطمت حتى ما أحبه، يا ماما، أنت تعرفين.
 - لا تتكلمى. بحق الرب، لا تتكلمى...
 الوصية؟ لا تشغلوا بالكم: توجد ورقة مكتوبة، ومختومة، ومسجلة
 أمام مؤثق؛ أنا لا أنسى أحداً: لماذا أنساكم، لماذا أكرهكم؟؛ ألن تشكروا
 لى هذا، سرأ؟ ألن يسعدكم التفكير فى أننى حتى اللحظة الأخيرة
 فكرت فيكم لأسخر من نفسى؟؛ لا، أنا أذكركم بلا مبالاة إجراء بارد،
 عزيزتى كاتالينا، إبنتى الحبيبة، حفيدتى، زوج إبنتى: أوزع عليكم ثروة
 هائلة، ستسبونونها أنتم، علناً، إلى مجهودى، إلى دأبى، إلى إحساسى
 بالمسئولية، إلى مميزاتى الشخصية. إفعلاوا ذلك. إجلسوا هادئين.
 إنسوا أننى كسبت هذه الثروة مُعرضاً حياتى للخطر، دون أن أعرف،
 فى صراع لم أشأ فهمه لأنه لم يكن يناسبنى أن أعرفه، أن أفهمه، إذ
 لم يكن يستطيع معرفته، وفهمه إلا من لا ينتظرون شيئاً من وراء
 تضحياتهم. هذه هى التضحية، أليس هذا حقاً؟؛ منح كل شىء مقابل لا
 شىء. كيف سنسمّى، إذن، منح كل شىء مقابل كل شىء؟ لكن هؤلاء لم
 يقدموا لى كل شىء. هى قدمت لى كل شىء. ولم آخذ. لم أعرف
 كيف آخذ. ماذا سيكون اسمها؟

" O.K. The picture's clear enough Say, the old boy at _
 the Embassy wants to make a speech comparing this Cuban

٢٠ أ.و. كى. الصورة واضحة بما يكفى. لنقل أن الفتى الكبير فى السفارة يريد أن يلقى
 خطاباً يقارن فيه هذه الفوضى الكوبية بالثورة المكسيكية العتيقة. لماذا لا تمهد الجو
 بإفتاحية...؟

mess with the old - time Mexican revolution Why don't you
the climate with an editorial...? *prepare

" - نعم، نعم. سنفعل. عشرون ألف بيسو؟

" - Seems fair enough. Any ideas?

" - نعم. قل له أن يُقيم تضاداً واضحاً بين حركة فوضوية،
دموية، مُدمرة للملكية الخاصة ولحقوق الإنسان وبين ثورة منظمة،
سلمية، ومشروعة مثل الثورة المكسيكية، التي أدارتها طبقة وسطى
تستلهم جيفرسون. إن ذاكرة الناس سيئة في نهاية المطاف. قل له أن
يتملقنا.

" - "Fine. So long, Mr. Cruz, it's always ...

آه، يا له من قصف للإشارات، والكلمات، والمثيرات لسمعي
المتعب؛ آه، يا للإرهاق؛ لم يفهموا إيماءتي لأنني لا أكاد أستطيع
تحريك أصابعي؛ فليقلطوه، لقد أسأمتي، ما علاقة ذلك، يا للضجر، يا
للضجر...

- باسم الأب، والإبن...

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- لماذا إنتزعته من جانبي؟

- سأورثهم الميثاق اللامجدية، الأسماء الميثة لريخينا، للياكي...

- توبياس، الآن أتذكر، كانوا ينادونه باسم توبياس... لجونثالو برنال،
لجندي بلا إسم. وهي؟ إنها أخرى.

- أفتحوا النافذة.

- لا. قد تصاب بالبرد وتُعقّد الأمور.

- لاورا. لماذا؟ لماذا جرى كل شيء على هذا النحو؟ لماذا؟

أنت ستبقى على قيد الحياة: ستعاود تحسُّس الملاءات وستعرف أنك قد بقيتَ على قيد الحياة، برغم الزمن والحركة اللذين يُقلِّلان حظوظك مع كل لحظة: بين الشلل وبين الإنفلات يقع خط الحياة: المغامرة: ستخيِّل الأمان النهائي، ألا تتحرك أبداً: ستخيِّل نفسك ساكناً، في مأمن من الخطر، من الصدفة، من عدم اليقين: لن يوقفَ هدوؤك الزمن الذي يجري بدونك، رغم أنك تختصره وتقيسه، الزمن الذي ينفي سكونك ويخضعك لخطره المتمثل في الإنقراض: مغامراً، ستقيس سرعتك بسرعة الزمن:

الزمن الذي ستخترعه لتظلَّ على قيد الحياة، لتتظاهر بوهم بقاء أطول على الأرض: الزمن الذي سيخلقه مُخك بقوة إدراك ذلك التابع للضوء والظلمات في لوحة الحلم؛ بقوة الإبقاء على تلك الصور للصفاء الذي تتهدده التراكمات المركزة والسوداء للسحب، ونذير الرعد، وما يتبعُ البرق، والإنصباب المنهمر للمطر، والظهور الأكيد لقوس قزح؛ بقوة الإنصات إلى النداءات الدورية للحيوانات في الجبل؛ بقوة الصراخ بعلامات الزمن: عواء زمن الحرب، عواء زمن الحِداد، عواء زمن الإحتفال؛ في النهاية، بقوة قول الزمن، التحدث بالزمن، التفكير في الزمن غير الموجود لكون لا يعرفه لأنه لم يبدأ مطلقاً ولن ينتهى أبداً: لم تكن له بداية، ولن تكون له نهاية ولا يعرفُ أنك ستخترع مقياساً للأمتاهي، إحتياطياً للعقل:

ستخترع وتقيس زمناً غير موجود،

ستعرف، ستميّز، ستحكم، ستحسب، ستخيل، ستوقع، وستنتهي
 بالتفكير فيما لن يكون له واقع آخر سوى ما يخلقه مخك، ستتعلم
 السيطرة على عبقك حتى تسيطر على عنف أعدائك: ستتعلم فرك
 خشبتين حتى تشتعلا لأنك ستكون بحاجة إلى وضع مشعل على مدخل
 كهفك وإخافة الوحوش التي لن تتبيّنك، التي لن تُفرّق لحمك عن لحم
 الوحوش الأخرى وسيكون عليك أن تشيّد ألف معبد، وتصدّر ألف
 قانون، وتكتب ألف كتاب، وتعبد ألف إله، وترسم ألف لوحة، وتصنع
 ألف آلة، وتسيطر على ألف شعب، وتحطم ألف ذرة لتعود وتضع
 مشعلك المشتعل على مدخل الكهف،

وستفعل كل هذا لأنك تفكر، لأنك ستكون قد طوّرت تصريفاً
 عصبياً في المخ، شبكة كثيفة قادرة على تلقّي المعلومات وإرسالها من
 الجبهة إلى الوراء: ستبقى على قيد الحياة، ليس لأنك الأقوى، بل
 بفعل الصدفة الدائكة لكون يزداد برودة باستمرار، لن يبقى فيه على
 قيد الحياة سوى التكوينات العضوية التي تعرف كيف تحافظ على
 درجة حرارة أجسادها في مواجهة تغيّرات الوسط المحيط، التي تركّز
 هذه الكتلة العصبية في الجبهة وتستطيع توقّع الخطر، والبحث عن
 الغذاء، وتنظيم حركتها وتوجيه سباحتها في المحيط المستدير، الممتد،
 المزدحم للأصول: ستبقى في قاع البحر الأنواع الميّنة والمفقودة،
 أخواتك، ملايين الأخوات التي لم تخرج من الماء بنجومها الخمسة
 القابلة للإنقباض، بأصابعها الخمسة المغروسة في الضفة الأخرى، في
 الأرض الصلبة، في جُزر الفجر: ستبزغ مع الأميبا، والزواحف،
 والطيور مهجئة معاً: الطيور التي ستلقى بنفسها من القمم الجديدة
 لتتحطم في الهاوى الجديدة، وهي تتعلم خلال إخفاقها، بينما صارت
 الزواحف تطير والأرض تبرد: ستبقى على قيد الحياة مع الطيور التي
 يحميها الريش، مُلتقّة بسرعة حرارتها، بينما تنام الزواحف الباردة،

تبيت بيئاتاً شتوياً وتموت في النهاية وأنت ستتشبُّ حوافرك في الأرض الصلبة، في جزر الفجر، وستغرق مثل حصان، وستتسلقُ الأشجار الجديدة بدرجة حرارتك الثابتة وستهبط بخلاًيا مخك المتمايزة، ووظائفك الحيوية التي صارت تلقائية، وثوابتك من الهيدروجين، والسُّكَّر، والكالسيوم، والماء، والأكسجين: حراً لتفكر فيما يتجاوز الحواس المباشرة والاحتياجات الحيوية.

ستهبط بخلايا مخك العشرة آلاف مليون، ببطاريك الكهربائية في رأسك، مَرناً، مُتَحَوِّلاً، لتستكشف، لتُشبع فضولك، لتقترح على نفسك غاياتٍ، وتحققها بأقل مجهود، لتتجنب المصعوبات، لتستشرف، وتتعلم، وتنسى، وتتذكر، وتربط بين الأفكار، وتتعرف على الأشكال، وتضيف درجاتٍ إلى الهامش الذي تركته الضرورة حُرّاً، وتطرح إرادتك من جوانب جاذبية ورفض الوسط المادي، وتبحث عن الشروط المواتية، وتقيس الواقع بمقياس الحد الأدنى، وترغب سِرّاً في الحد الأقصى، ولا تُعرّض نفسك، رغم ذلك، لرتابة الإحباط:

تتعوّد، تتوافق مع متطلّبات الحياة المشتركة:

ترغب: ترغب في أن تكون رغبتك والشئ المرغوب هما نفس الشئ؛ تحلم بالتحقق الفوري، بالتماهى دون أى انفصالٍ بين الرغبة وما هو مرغوب:

تتعرف على نفسك:

تتعرف على الآخرين وتجعلهم يتعرفون عليك: وتعرف أنك تُعارض كل فردٍ، لأن كل فردٍ هو عقبة أخرى أمام بلوغ رغبتك: ستختار، ستختار حتى تبقى على قيد الحياة، ستختار واحدة فقط من بين المراهيا اللانهائية، واحدة فقط ستعكسك بطريقة لا رجوع فيها، وستملأ بقية المراهيا بظل أسود، ستقتل أنت هذه المراهيا قبل أن تقدّم لك، مرةً أخرى، هذه الطرق اللانهائية أمام الاختيار:

ستُقرر، ستتلقى واحداً من الطرق، ستضحى بالبقية: ستضحى
بنفسك عندما تتقى، ستكف عن كونك كل الرجال الآخرين الذين كان
يمكنك أن تكونهم، ستود أن يكمل رجال آخرون - رجل آخر - بدلاً منك
الحياة التي شوّهتها عندما اخترت: عندما اخترت نعم، عندما اخترت
لا، عندما سمحت ليس لرغبتك، المطابقة لحريتك، بأن ترشدك في
مناهة، بل لمصلحتك، لخوفك، لكبريائك:

ستخاف من الحب، ذلك اليوم:

لكنك ستستطيع إستعادته: سترقد وعيناك مغمضتان، لكنك لن
تكف عن الرؤية، لن تكف عن الرغبة، لأنك على هذا النحو ستجعل
الشيء المرغوب ملكك:

الذكرى هي الرغبة المتحققة

اليوم حيث حياتك ومصيرك هما نفس الشيء.

(١٩٣٤: ١٢ أغسطس)

هو من إنتقى عود ثقاب، وحكّه على الجانب الخشن لعلبة
الكبريت، تأمل اللهب وقريّه من طرف السيجارة. أغمض عينيه.
إستنشق الدخان. مدّد ساقيه واضطجع في المقعد المخمل؛ مسدّد
المخمل بيده الخالية وشم أريج أزهار أقحوان موضوعة في إناء
زجاجي، على الطاولة، خلف ظهره. أنصت إلى الموسيقى البطيئة،

المتبعثة من الفونوغراف، الموضوع هو الآخر خلف ظهره.

- أنا جاهزٌ تقريباً.

بحثٌ مُتَحَسِّساً، بيده الخالية، عن الألبوم المفتوح الموضوع فوق منضدة الجوز الصغيرة، إلى يمينه. لس أغلفة الكرتون، وقرأ -Deuts- chen Grammophon Gesellschaft وأنصت إلى الإستهلال الجليل للتشيلو الذى إنفصل عن بقية الآلات، وأبرز حضوره، وتغلب فى النهاية على قرار الكمنجات وأزاحها إلى المرتبة الثانية. كفَّ عن الإنصات. سوَّى رباط عنقه ورِيَّت خلال بضع ثوان على الحرير المتبعج، ذلك الحرير الذى يخشخش بخفةٍ حين تلمسه الأصابع.

- هل أعدُّ لك شيئاً؟

إتجه إلى المنضدة الواطئة، على عجالات، المخصَّصة لحمل أنواع الزجاجات والكؤوس حيث إنتقى زجاجة ويسكى إسكتلندى وكأساً ثقيلةً، من زجاج بوهيميا، وقاس إصبعين من الويسكى داخل الكأس، ثم إختار مكعباً من الثلج وصب قليلاً من الماء المعدنى.

- ما تتناوله أنت.

عندئذ كرَّر العملية وتناول الكأسين بين يديه، وهزَّهما، وأدارهما قليلاً فى راحتيه حتى يمتزج الويسكى جيداً بالماء واقترب من باب المخدع.

- دقيقة واحدة.

- هل إختبرته من أجلى؟

- نعم. أتذكُّر؟

- نعم.

- إعذرني لتأخُّرى.

عاد إلى المقعد. عاود تناول الألبوم، ووضعه على ركبتيه. Werke von Georg Friedrich Händel. إستمعاً إلى الكونشرتو هين فى تلك

القاعة المفرطة التدفئة وبالصدفه كان من حظهما أن جلسا جنباً إلى جنب، واستمعا - إستمعت هي - لأنه كان يتحدث بالإسبانية ويُعلق مع صديق له على أن التدفئة أكثر من المعتاد فى القاعة. طلب هو منها البروجرام بالإنجليزية فابتسمت هي وقالت له، بالإسبانية، بكل سرور. إبتسم الإثنين. كونشرتى جروسى، العمل رقم ٦.

تواعدا على اللقاء فى الشهر التالى، حين كان كلاهما سيصل إلى تلك المدينة، فى ذلك المقهى فى شارع كوماتران، بالقرب من بولفار دى كابوسين، والذى سيعاود هو زيارته بعدها بسنوات، بدونها، دون أن يستطيع تحديد موقعه بالضبط، راغباً فى أن يراه من جديد، فى أن يعود فيطلب نفس المشروب، وحده بأنه مقهى له ديكورٌ أحمرٌ وبنى داكن، بكراسى رومانية بلا ظهر وبار طويل من الخشب المائل إلى الحمرة، ليس مقهى فى الهواء الطلق، لكنه مقهى مفتوح، دون أبواب. شربا نعناعاً بالماء. وعاود الطلب. قالت هي أن سبتمبر هو أفضل الشهور، نهاية سبتمبر وبدايات أكتوبر. الصيف الهندى. العودة من الإجازات. دفع الحساب. تعلقت بذراعه، ضاحكة، مستشقة الهواء، وعبرا أفنية الهاليه رويال، وسارا بين قاعات العرض والأفنية، وهما يدوسان أوراق الشجر الأولى الميتة، ترافقهما الحمائم، ودخلا ذلك المطعم ذا الموائد الصغيرة وظهور الكراسى المخملية وحوائط المرايا الملونة، والمزئج برسوم قديمة، بطلاء قديم من الذهب، والأزرق، والبنى الداكن.

- جاهزة.

نظر من فوق كتفه ورآها تخرج من المخدع، واضعةً القُرط فى شحمة أذنها، ومُسويةً يديها شعرها الناعم، بلون العسل. قدّم لها الويسكى المعدّ ورشفت هي رشفةً صغيرة، مُكرمشةً أنفها وجلست فى المقعد الأحمر، ووضعت ساقها اليمنى فوق الأخرى ورفعت الكأس إلى

مستوى عينيها. أجاب هو بإيماءٍ مماثلة وابتسم لها، بينما إلتقطت هي شيئاً من على ياقة رداءها الأسود. كانت آلة الكلافسان تؤدّي النغمة المحورية لذلك الهبوط، بمصاحبة آلات الكمان: تخيّل كهبوط من القمة، وليس كمسيرةٍ إلى الأمام: هبوط بطيء، غير محسوس، يتحول عند لمس الأرض إلى بهجةٍ من التضادات بين نغمات الكمنجات العميقة والحادة. كانت آلة الكلافسان قد أفادت، مثل الأجنحة، في الهبوط ولس الأرض. والآن، على الأرض، كانت الموسيقى ترقص. نظر الإثنان إلى بعضهما.

- لاورا...

أصدرت إشارةً بإصبعها السبابة وواصل الإثنان الإستماع؛ هي جالسة، والكأس بين يديها؛ وهو واقفاً، يدير كرة الأبراج السماوية حول محورها، ويوقفها من حين إلى حين ليتبيّن الأشكال المرسومة بالفضة فوق الهيئة المفترضة للمجرات: centauro, altar, pez, lebril, escudo, cuervo. أخذت الإبرة تدور فوق الصمت؛ مشى هو حتى الفونوغراف، رفع الإبرة عن الأسطوانة، ووضعها فوق مسندها. - ناسبتك الشقة جداً.

- نعم. أمرٌ غريب. لكنها لم تتسع لكل أشياءي.

- إنها على أحسن حال.

- اضطررت لتأجير بدروم للإحتفاظ بكل ما لم تتسع له.

- لو شئت، لأمكنك...

- شكراً. - قالت ضاحكةً -: أتمنى فقط بيتاً كبيراً، سأبقى في

هذه الشقة.

- أتريدين سماع المزيد من الموسيقى، أم نمضي؟

- لا. نكمل الكأس ونخرج.

توقفاً أمام تلك اللوحة وقالت هي أنها تروقها جداً ودائماً ما

تأتى لرؤيتها لأن هذه القطارات المتوقفة، وهذا الدخان الأزرق، وهذه البيوت الضخمة بالأزرق والأصفر فى العمق، وهذه الأشكال الآدمية الممحيّة، المُشار إليها بالكاد، وهذا السقف الفظيع، من الحديد وقطع الزجاج الداكنة، لمحطة سان - لازار المرسومة بريشة مونيه تروقهها جداً، هى ما يروقهها فى هذه المدينة حيث الأشياء، ربما، ليست جميلة جداً إذا نُظِر إليها معزولةً، فى تفاصيلها، لكنها لا تُقاوم إذا نُظر إليها سوياً. قال لها أن تلك فكرة فضحكت هى وريّبت على يده وقالت له أن معه حق، أنها تروقهها ببساطة، يروقهها كل شىء، أنها راضية وعاد هو، بعدها بسنوات، لرؤية تلك اللوحة، حين كانت معروضة فى ال - جى - دو - يوم* وقال له المرشد الخاص أن الأمر لافِت، فخلال ثلاثين عاماً تضاعفت قيمة تلك اللوحة أربع مرات، وهى الآن تساوى عدة آلاف من الدولارات، أمرٌ لافِت.

إقترب، توقف خلفها، رُيَّت على مسند المقعد ثم لمس كتفى لاورا. أمالت رأسها على يد الرجل، ومسّدت خدّها بأصابعه. تهدت إبتسامةً جديدة، إبتعدت ورشفت قليلاً من الويسكى. طوّحت رأسها إلى الورا، وعيناها مغمضتين، وإبتلعت الرشفة بعد أن أبقتها بين لسانها وحلقها.

- يمكننا أن نعود العام القادم. ألا تظنين؟

- نعم، يمكننا أن نعود.

- أتذكر كثيراً كيف كنا نتمشى فى الشوارع.

- وأنا أيضاً، لم تكن قد ذهبت أبداً إلى ال Village¹. أتذكر أننى

أخذتك إلى هناك.

*Jeu - de - Paume: متحف للفن الحديث فى قصر التويلرى كانت تعرض فيه

اللوحة الانطباعية. م.

*+Village: حتى راق فى نيويورك. م.

- نعم. يمكننا أن نعود.
- ثمة شيءٌ حتىٌ جداً فى تلك المدينة. أتتذكّر؟ لم تكن قد تعلمت تمييز رائحة النهر والبحر معاً. لم تكن قد حدّدتها. سرنا حتى نهر الهدسون وأغمضنا عيوننا حتى نميّزها.
- تناول يد لاورا، وقبل أصابعها. رنّ جرس التليفون وتقدّم هو ليتناول السماعة، رفعها واستمع إلى الصوت الذى كان يردّد: - أيوه... أيوه، أيوه... لاورا؟
- وضع يداً فوق السماعة السوداء وقدّمها إلى لاورا. تركت هى الكأس فوق المنضدة الصغيرة ومشّت حتى التليفون.
- نعم؟
- لاورا. أنا كاتالينا.
- نعم. كيف حالك.
- ألا أعطّلك؟
- كنت خارجة.
- لا، لن آخذ منك وقتاً طويلاً.
- قولى.
- ألا آخذ وقتك؟
- لا، أقول لك لا.
- أعتقد أننى إرتكبت خطأً. كان يجب أن أقول لك.
- حقاً؟
- نعم، نعم. كان يجب أن أشتري منك الأريكة. الآن وأنا أفرش المنزل الجديد إنتبهت. هل تذكرين الأريكة، تلك الأريكة المزينة بشغل الإبرة؟ تصوّري أنها يمكن أن تناسب الردهة على نحو جيد جداً، لأننى أشتريت بضع سجاجيد فرنسية، سجاجيد لتزيين الردهة وأعتقد أن الشيء الوحيد الذى يناسبها هو أريكتك المشغولة...

- من يدري. ربما كان شغل الإبرة أكثر مما ينبغي.
- لا، لا، لا. إذ أن سجاجيدي ألوانها غامقة وأريكتك ألوانها فاتحة، بحيث أن هناك تضاداً جميلاً.
- لكنك تعرفين أنني فرشت هذه الأريكة هنا، في الشقة.
- آه، لا تكوني هكذا. لديك مايزيد عن حاجتك من الأثاث. ألم تحكى لى أنك وضعت أكثر من نصف الأثاث في بدروم؟ نعم، حكيت لى، اليس كذلك؟
- نعم. لكننى رتبت الصالة بحيث...
- إذن فكرى في الأمر. متى ستأتين لتري المنزل؟
- وقتما تشائين.
- لا، ليس هكذا، بشكل غير محدد. إختارى يوماً لنتناول الشاي سوياً ونتحدث.
- الجمعة؟
- لا، الجمعة لا أستطيع، لكن الخميس ممكن.
- إذن الخميس.
- لكننى أقول لك أنه بدون قطعة أثاثك ستضيع الردهة، أكاد أفضل لو لم يكن لدى ردهة، أترين؟ ستضيع. من السهل توضيب شقة. ستريين.
- إذن الخميس.
- ورأيت زوجك ماشياً في الشارع. حياني باهتمام كبير. لاورا، إنها لخطيئة، خطيئة أن تطلقا. وجدته أمور جداً. وواضح أنه يفتقدك. لماذا، يا لاورا، لماذا؟
- هذا أمرٌ إنقضى.
- إذن الخميس. نحن الإثنان وحدنا، لتتحدث على راحتنا.
- نعم، يا كاتالينا. إلى الخميس.

- وداعاً.

دعاهما للرقص وعبرا صالونات فندق بلازا ذات التخييل المزروع
فى الأصص وتوجَّها إلى الصالون وأخذها هو بين ذراعيه وربَّتت هى
على أصابع الرجل الطويلة، ولمست حرارة راحة يده، وأسندت رأسها
على كتف رفيقها، وباعدتها، ونظرت إليه بامعان، مثلما نظر هو إليها:
ناظرين إلى بعضهما، ناظرين إلى بعضهما، عيناه خضراوان، وعيناها
رماديتان، ناظرين إلى بعضهما، وحيدين فى صالون الرقص مع تلك
الأوركسترا التى كانت تعزف لحن بلوز بالغ البطء، ناظرين إلى
بعضهما، والأصابع متعانقة، والقامة متعانقة، يدوران بطء، وتلك
الجولة ذات الكرانش، تلك الجولة...

وضعت هى السماعه ونظرت إليه وانتظرت. مشت حتى الأريكة
المشغولة وربَّتت عليها وعادت النظر إلى الرجل.

- هل تسمح بإضاءة النور؟ هذا الذى إلى جوارك. شكراً.

- إنها لا تعرف شيئاً.

ابتعدت لأورا عن الأريكة ونظرت إليها. - لا، الضوء أكثر مما
يجب لا أعرف بعد كيف أوزعه جيداً. إضاءة منزل ضخم ليست
كإضاءة هذه...

شعرت بأنها مرهقة، جلست على الأريكة، تناولت كتاباً صغيراً،
مجلداً بالجلد، من المنضدة الجانبية وقلبت صفحاته. أزاحت إلى
جانب شعرها الأشقر الذى كان يغطى نصف وجهها، بحثت عن ضوء
الأباجورة وتمتمت بصوت خفيض ما تقرأه، وحاجبها مرفوعان وفى
شفتيها إستكانة خفيفة. قرأت ثم أغلقت الكتاب وقالت: - كالديرون
دى لا يارك، ورددت من الذاكرة، ناظرة إلى الرجل: - ألن تكون ثمة
سعادة ذات يوم؟ يا إلهى، قل لى، لماذا خلقت أزهاراً، إن لم يكن للشم
أن يستمتع بالرائحة الناعمة لأريج عطورها...

تمدّدت فوق الأريكة، مُغطّيةً عينيها بيديها، مُردّدةً بصوتٍ دقيق،
مُرهِق، بصوتٍ لا يريد أن يسمع نفسه أو يُسمع: - ... إن لم يكن
السمعُ أن يسمعها؟ ... إن لم يكن للعيون أن تراها؟ ... وأحسّت بيده
فوق عنقها، تلمس اللآلئ الحية، متلامسةً مع جلد الصدر.

- أنا لم أجبرك...

- لا، لا علاقة لك. هذا أمرٌ سابق.

- ولماذا حدث؟

- أوه، ربما لأن فكرتي عن نفسي مفرطةٌ في الخُيلاء... لأنني
أعتقد أنني أستحق معاملةً أفضل... ألا أكون شيئاً بل شخصاً.

- ومعنى؟

- لا أدري. لا أدري. أنا في الخامسة والثلاثين. ومن الصعب أن
نبدأ من جديد، ما لم يمدّ لنا أحدٌ يداً... تكلمنا تلك الليلة، أتذكر؟

- في نيويورك.

- نعم. قلنا أننا يجب أن نعرف بعضنا...

- ... أن إغلاق الأبواب أخطر من فتحها... ألا تعرفني حتى الآن؟

- أنت لا تقولين شيئاً أبداً. لا تطلبين مني شيئاً أبداً.

- كان عليّ أن أفعل ذلك، أليس كذلك؟ لماذا؟

- لا أدري...

- لا تدري. ولن تدري إلا إذا أفصحتُ لك...

- ربما.

- أنا أحبك. وأنت قلت لي أنك تحبيني. لا، أنت لا تريد أن

تفهم... أعطني سيجارة.

أخرج علبة السجائر من جيب الجاكتة. إنتقى عود ثياب وأشعله
بينما تناولت هي السيجارة وأحست بالورق بين شفّتيها، وبلّته، وأزالت
الحافة المنتزعة، الملتصقة بالشفة، بإصبعين وفركتها بين الإصبعين،

وقذفتها بخفةٍ وانتظرت. ونظر هو إليها .

- الآن ربما إستأنفت دروسى. فى الخامسة عشرة كنت أريد أن
أرسم. ثم نسيت ذلك بعدها .
- أَلن نخرج؟

نزعت حذاءها، وأراحت رأسها على وسادة، ونفتت حلقات
الدخان نحو السقف .

- لا، لن نخرج الآن.
- أتريدى ويسكى آخر؟
- نعم، أعطنى آخر.

تناول الكأس الفارغ من على المنضدة، نظر إلى بقعة أحمر
الشفاه على حافنه، إستمع إلى خشخشة مكعب الثلج وهو يصطدم
بالزجاج، مسى حتى المنضدة الواطئة، صب الويسكى من جديد، تناول
مكعب الثلج الآخر بالكماشة الفضية...
- دون ماء، لو سمحت .

سألته هى إن كان لا يقلقه أن يعرف إلى ماذا تنتظر، إلى من وإلى
ماذا تنظر الفتاة الواقفة فوق الأرجوحة، المكتسية بالبياض - بالبياض
والطل - والشرائط الزرقاء المعقودة تنتشر على طول الفستان؛ قالت له
أن شيئاً يظل دائماً خارج اللوحة، لأن العالم الذى تمثله اللوحة يجب
أن يتسع، أن يمتد إلى خارجها ويصبح ممثلاً بألوان أخرى، بحضورات
أخرى، بإغراءاتٍ أخرى، تتشكّل بفضلها اللوحة وتكون. خرجا إلى
شمس سبتمبر . سارا، تحت بواكى شارع ريقولى وقالت هى أنه يجب
أن يعرف ميدان فوسج، الذى ربما كان أجمل الميادين. أوقفنا سيارة
أجرة. فرد هو فوق ركبته خريطة المترو وأخذت هى تتبّع بإصبعها
الخط الأحمر، والخط الأخضر، متعلقة بذراعه، ونفسها قريب جداً
من نفسه، فائلة أن تلك الأسماء تسعدُها، ولا تتعبُ من ترديدِها،

ريشار لونوار، ليدرو - رولان، هَيّ دو كالفير...
 تناولها الكأس وعاد لإدارة كرة الأبراج السماوية، لقراءة الأسماء
 serpens, libra, argo navis, horologium, piscis, sagittarius, cater,
 .Jupus جعلها تدور، تاركاً إصبعه يحتك بالكرة، يلمس النجوم الباردة،
 النائية.

- ماذا تفعل؟

- أنظر إلى هذا العالم.

- آه.

إنحنى وقبّل شعرها المحلول؛ أومأت برأسها، وابتمت.

- زوجتك تريد هذه الأريكة.

- سمعتُ.

- بماذا تتصحنى؟ هل يجب أن أكون سَخِيَّة؟

- كما تشائين.

- أم لا مبالية؟ هل أنسى أنها كلمتني؟ أفضّل أن أكون لا مبالية.

السخاء مثل شتمة قبيحة ودون ظُرْفٍ أحياناً، ألا تظنُّ ذلك؟

- لا أفهمك.

- ضع قليلاً من الموسيقى.

- أيها تريدين الآن؟

- نفس الموسيقى. ضع نفس الموسيقى، لو سمحت.

قرأ الأرقام على الأربعة وجوه. رتبها، وضغط الزر، وترك

الأسطوانة تسقط، تسقط بلطمتها الجافة على القرص اللّين. شم

ذلك المزيج من الشمع والمواسير الساخنة والخشب الملمّع وعاد

الإستماع إلى أجنحة الكلافسان، الهبوط الناعم نحو البهجة، إلى زهد

الكلافسان، زهد في الهواء، حتى يلمس مع الكمنجات الأرض

- الصلبة، الدعامة، ظهر العملاق.
- هل ارتفاع الصوت مناسبٌ هكذا؟
- أعلى قليلاً. أرتيميو...
- نعم؟
- لم أعد أحتمل أكثر، يا حبي. عليك أن تختار.
- إصبري، يا لاورا. خذي بالك...
- من ماذا؟
- لا تجبريني.
- على ماذا؟ هل أنت خائفٌ مني؟
- ألسنا على ما يرام هكذا؟ هل ينقص شيء؟
- من يدري. ربما لا ينقص شيء.
- لا أسمعك جيداً.
- لا، لا تخفض الصوت. إستمع إليّ رغم الموسيقى لقد تعبتُ.
- أنا لم أخدعك. ولم أجبرك.
- لم أغيّرك، وهو أمرٌ مختلف. أنت لست مستعداً.
- أنا أحبك هكذا، كما كنّا حتى الآن.
- مثل أول يوم.
- نعم، هكذا.
- لم يعد اليوم أول يوم. الآن تعرفني. قل لي.
- خذي بالك، يا لاورا، لو سمحت. فهذه الأشياء تُسبّبُ الأذى.
- يجب أن نعرف كيف نراعى...
- المظاهر؟ أم الخوف؟ لكن لن يحدث شيء، تأكد أن شيئاً لن يحدث.
- كان يجب أن نخرج.
- الآن لا. لا، الآن لا. إجعل الصوت أعلى.

ارتطمت الكمنجات بالزجاج: البهجة، الزهد. بهجة تلك التقطية
المفتصبة تحت العينين الصافيتين واللامعتين. تناول هو القبة من فوق
كرسى. مشى نحو باب الشقة. توقف ويده فوق المقبض. نظر إلى
الوراء. لاورا مقرفصة، والوسائد بين ذراعيها، مُديرةً ظهرها إليه.
خرج. أغلق الباب بعناية.

أنا استيقظ مرةً أخرى، لكن بصرخة هذه المرة: شخصٌ ما غرس
نصلاً طويلاً وبارداً فى معدتى؛ شخصٌ ما من الخارج: فانا لا يمكننى
أن أحاول إغتيال حياتى بهذه الطريقة: ثمة شخص، ثمة آخر قد
غرس قطعة صلب فى أحشائى: أفرد ذراعى، أبذل جهداً كى أنهض
فأجد الأيدى، الأذرع الغريبة تسندنى، تطالبنى بالهدوء، تقول أننى
يجب أن أظل ساكناً ويسجل إصبعٌ بسرعة الأرقام فى التليفون،
يخطئ، يعاود المحاولة، ويعاود الخطأ، وينجح أخيراً فى الإتصال،
يطلب الدكتور، حالاً، بسرعة، لأننى أودّ لو أنهض وأخفى الألم
بالحركة ولا يتركوننى أفعل - من يكونون؟ من يكونون؟ - وتتصاعد
التقلصات، أتخيلها مثل حلقات أفعى، تصعد حتى الصدر، حتى
الحنجرة، وتملأ لسانى، فمى، بهذا الطعام المطحون، المرّ، لوجبة
قديمة ما نسيتها والآن أتقيؤها، ووجهى إلى أسفل، باحثاً عبثاً عن إناء
بورسلين لا عن هذه السجادة الملطخة بسائل معدتى السميك والكريه

الرائحة. لا يتوقف، يخدش صدرى، إنه شديد المראה ويجعل حنجرتى
تضحك، يُدغِدِغْنِي دَغْدَغَاتُ مُفْرِزَعَةٍ: يستمر، لا يتوقف، إنه هضم
قديم مع دَمٍّ، أَتَقِيَّوْهُ فَوْقَ سَجَادَةِ الْمَخْدَعِ وَلَا أَحْتَاجُ لِأَنْ أَرَى نَفْسِي كَيْ
أَحْسَ بِشَحُوبِ وَجْهِى، بِرَرَقَةِ شَفَتَيْ، بِالِإِيقَاعِ الْمَتَسَارِعِ لِقَلْبِي بَيْنَمَا
يَخْتَفِي النُّبْضُ مِنْ مَعْصَمِي: غَرَسُوا نَصْلًا فِي سِرَّتِي، نَفْسُ السَّرَّةِ الَّتِي
غَذَّتْنِي بِالْحَيَاةِ ذَاتَ مَرَّةٍ، ذَاتَ مَرَّةٍ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصْدُقَ مَا تَقُولُهُ لِي
أَصَابِعِي حِينَ أَلْسُ هَذِهِ الْبَطْنَ الْمُلْتَصِقَةَ بِجَسَدِي لَكِنَهَا لَيْسَتْ بِطَنِي:
مَنْتَقِخَةٌ، مَتَضَخِّمَةٌ، بَارِزَةٌ بِفَعْلِ هَذِهِ الْغَازَاتِ الَّتِي أَحْسَ بِهَا تَتَحَرَّكُ وَلَا
أَسْتَطِيعُ إِطْلَاقَهَا، مَهْمَا ضَغَطْتُ: هَذِهِ الضَّرَطَاتُ الَّتِي تَصْعَدُ حَتَّى
حَنَجْرَتِي وَتَعُودُ لِلْهَبُوطِ إِلَى بَطْنِي، إِلَى أَمْعَائِي، دُونَ أَنْ أَسْتَطِيعَ
إِطْلَاقَهَا: لَكِنْنِي أَسْتَطِيعُ شَمَّ نَفْسِي الْعَطِينِ، الْآنَ وَأَنَا أَتِمَكَّنُ مِنَ
الِاسْتِلْقَاءِ وَأَشْعُرُ أَنَّهُمْ بِجَوَارِي يَنْظِفُونَ السَّجَادَةَ بِتَعْجَلٍ: أَشَمُّ الْمَاءِ
بِالْصَابُونِ، الْخَرْقَةُ الْمَبْلَلَةُ الَّتِي تَحَاوِلُ هَزِيمَةَ رَائِحَةِ الْقِيءِ تِلْكَ: أُرِيدُ أَنْ
أَنْهَضُ؛ إِذَا مَشَيْتُ فِي الْحَجَرَةِ سَيَنْقَشِعُ الْأَلَمُ، أَنَا أَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَنْقَشِعُ:
- إِفْتَحُوا النَّافِذَةَ.

- لَقَدْ حَطَّمْتُ حَتَّى مَا أَحَبَّهُ، يَا مَامَا، أَنْتَ تَعْرِفِينَ.

- لَا تَتَكَلَّمِي. بِحَقِّ الرَّبِّ، لَا تَتَكَلَّمِي.

- أَلَمْ يَقْتُلْ لُورِنْثُو، أَلَمْ يَفْعَلْ...؟

- إِسْكُتِي، يَا تِيْرِيْسَا! أَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَوَاصِلِي الْكَلَامَ. إِنَّكَ

تَجْرَحِينَنِي.

هِيَه، لُورِنْثُو؟ لَا يَهْمُ. لَا يَهْمُنِي. فَلْيَقُولُوا كُلَّ شَيْءٍ. أَعْرِفُ مِنْذُ
زَمَنٍ بَعِيدٍ مَا يَقُولُونَهُ دُونَ أَنْ يَجْرُؤُوا عَلَى قَوْلِهِ لِي. فَلْيَقُولُوهُ الْآنَ.
فَلْيَنْتَهِزُوا الْفُرْصَةَ. لَقَدْ فَرَضْتُ نَفْسِي. وَهَمْ لَمْ يَفْهَمُوا. هُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيَّ كَالْتِمَائِيلِ بَيْنَمَا الْكَاهَنُ يَدَهْنُنِي بِالزَيْتِ فِي جَفْنِي، وَفِي عَيْنِي، وَفِي
شَفَتِي، وَفِي قَدَمِي وَيَدَيَّ، وَبَيْنَ سَاقِي، قَرِبَ عَوْرَتِي. أَوْصِلْ جِهَازَ

التسجيل، ياباديا .

لنعب النهر ...

وتوقفنى هى، تيريسا، وهذه المرة أرى الخوف في عينيها، أرى
الذعر فى تقطبة شفيتها الخاليتين من الأصباغ، وفي ذراعى كاتالينا
ثَقَلْ لا يُحتمل من الكلمات التى لم تُتلق أبداً وأمنعها أنا من نطقها:
يتمكنون من طرحى على الفراش: لا أستطيع، لا أستطيع، الألم يثنى
خصرى، على أن ألمس أطراف قدمي بأطراف أصابعى حتى أعرف أن
القدمين موجودتان ولم تختفيا، مثلجتين، ميتين فعلاً، آآآآآآآ،
ميتين فعلاً وأنبه الآن فقط إلى أنه دائماً، طوال حياتى، كانت ثمة
حركة غير ملحوظة في أمعائي، طوال الوقت، حركة أتعرف عليها الآن
فقط لأننى فجأة لم أعد أحس بها: لقد توقفت، كانت حركة موجية
صاحبتنى طوال حياتى، والآن لا أحس بها، لا أحس بها، لكننى أنظر
إلى أظافرى حين أفردي يدي لألمس قدمي المثلجتين اللتين لم أعد أحس
بهما، أنظر إلى أظافرى الجديدة الزرقاء، المسودة، التى نبتت كى
أموت، آآآ - آآآ، لا، سينقضى هذا، لا أريد هذا الجلد الأزرق، هذا
الجلد الملون بلون الدم الميت، لا، لا لا أريده، الأزرق شئ آخر، السماء
زرقاء، الذكريات زرقاء، الخيول التى تعبر الأنهار زرقاء، زرقاء الجياد
اللامعة وأخضر هو البحر، الأزهار زرقاء، أزرق أنا لا، لا، لا، لا،
آآآآآآآ، وعلى أن أسقط على ظهري لأننى لا أدري إلى أين أتوجه،
ولا كيف أتحرك، لا أدري إلى أين أوجه ذراعى وساقى اللتين لا أحس
بهما، لا أدري إلى أين أنظر، لم أعد أريد النهوض لأننى لا أدري إلى
أين أذهب، لدى فقط هذا الألم فى سرتي، هذا الألم فى بطني، هذا
الألم بجانب ضلوعى، هذا الألم فى شرجى وأنا أدفع بلا جدوى، أدفع
وأنا أخدش نفسى، أدفع وساقى منفرجتين ولم أعد أشم شيئاً لكننى
أستمع إلى نحيب تيريسا وأحس بيد كاتالينا على ظهري.

لا أدري، لا أفهم لماذا، وأنت جالسة إلى جوارى، تتقاسمين معى هذه الذكرى أخيراً وهذه المرة دون لوم في نظرتك. آه، لو فهمت. لو فهمنا. ربما كان ثمة غشاء آخر خلف العيون المفتوحة والآن فقط سنمزقه، لنرى. يمكن أن يخرج من الجسد بقدر ما يمكن لجسد المرء أن يستقبله من نظرة، ومن تربيته الآخرين. تلمسيننى. تلمسين يدي وأحسُّ بيدك دون أن أحسَّ بيدي. تلمسينى. تربت كاتالينا يدي. هل يكون حباً. أتساءل. لا أفهم. هل يكون حباً؟ كنا معتادين تماماً. على أننى إذا قدَّمت الحب، تردُّ هى باللوم؛ على أنها إذا قدَّمت الحب، أردُّ أنا بالكبرياء؛ ربما كانا نصفين لنفس العاطفة، ربما. تلمسينى. تريد أن تتذكر معى ذلك، ذلك وحده؛ أن تفهمه.

- لماذا؟

- لنعبر النهر على صهوة الجياد...

أنا نجوت. يا ريخينا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمك أنت، أيها الجندي بلا أسم؟ نجوت. وأنتم مِتُّم. أنا نجوت.

- اقتربي، يابنيتي... حتى يتعرَّف عليك... قولى له إسمك...

لكننى أسمع نحيب تيريسا وأحسُّ بيد كاتالينا على ظهرى وبالحركة السريعة ذات الصرير لذلك الرجل الذى يتحسَّس معدتى، وقيس نبضى، ويفتح بعنف أجفانى ويُغرق عيني في ضوء زائف يضئ وينطفئ، يُضئ وينطفئ ويعاود تحسس معدتى، يُدخل إصبعاً في شرجى، يدخل الترمومتر الساخن والكحولى في فمي وتتوقف الأصوات الأخرى ويقول الشخص الحديث الوصول شيئاً على مبعده، في قاع نفق:

- من المُستحيل أن نعرف. قد يكون فتقاً مُحْتَبساً. وقد يكون إلتهاباً فى الغشاء البريتونى. وقد يكون مغص إلتهاب كلوى، وفي هذه الحالة، يجب حقنه بإثنين سنتيجرام من المورفين. لكن هذا يمكن أن

يكون خطيراً. أعتقد أننا يجب أن نستشير طبيباً آخر.

آى أيها الألم الذى يهزم نفسه بنفسه، آى أيها الألم الذى تستطيل حتى لا يعود الأمر يُهم، حتى تتحول إلى حالة إعتيادية: آى أيها الألم، لن أعود أنحملُ غيابك، أعودُ عليك، آى أيها الألم. آى...

قل شيئاً، دون أرتيميو، تكلم، لو سمحت. تكلم.

- ... لا أتذكرها، لم أعد أتذكرها، نعم، كيف سأنساها...

- أنظر: النبض يتوقف تماماً حين يتكلم.

- إحقنه، يا دكتور، حتى لا يتعذب...

- يجب أن يراه طبيب آخر. الأمر خطير.

- ... كيف سأنساها...

- إسترخ، من فضلك. لا تقل شيئاً. هكذا. متى تبوّل آخر مرة؟

- هذا الصباح... لا، منذ ساعتين، دون أن يدري.

- ألم تحتفظوا بالبول؟

- لا... لا.

- ضعوا له المبولة. إحتفظوا بالبول؛ من الضروري تحليله.

- لم أكن هناك؛ فكيف سأذكر؟

مرة أخرى ذلك الشئ البارد. مرة أخرى عضوى الميت موضوعاً في الفتحة المعدنية. سأتعلم كيف أحيأ مع كل هذا. إنها نوبة؛ نوبة يمكن أن تصيب عجوزاً في سنّ؛ نوبة ليست شيئاً من العالم الآخر؛ ستنتفضى؛ لا بد أن تنتفضى؛ لكن الوقت قليل جداً، لماذا لا يتركونى أتذكرُ ذلك؟ نعم، حين كان الجسد فتياً؛ كنت فتياً ذات مرة؛ كنت فتياً... آه، الجسد يموت الماء، لكن المخ يمتلئ بالضوء؛ ينفصلان، أعرف أنهما ينفصلان: لأننى الآن أتذكرُ ذلك الوجه.

- أظهر الندم؛

لى إبن، صنعته أنا؛ لأننى الآن أتذكرُ ذلك الوجه: من أين أمسكُ

به، من أين حتى لا يهرب، من أين، بحق الرب، من أين، من فضلك، من أين.

أنت ستصيحُ من أعماق ذاكرتك: ستخفض رأسك كأنك تريد أن تُقربها من أذن الحصان وتهمز به بالكلمات. ستحسُّ - ولا بد أن ابنك سيحس بنفس الشئ - بذلك النفس القوى، الذي يتصاعد منه البخار، بذلك العرق، بتلك الأعصاب المشدودة، بتلك النظرة الزجاجية، بفعل المجهود. سيضيع الصوتان تحت رنين الحوافر وسيصيح هو: "لم تستطع أبداً التغلب على المهرة، يا بابا!" ومن علمك ركوب الخيل؟ هيه؟"، "أقول لك أنك لا تستطيع التغلب على المهرة!"، "لنرى!" يجب أن تحكى لى كل شئ، يا لورنثو، مثلما حدث حتى الآن، تماماً... تماماً مثلما حدث حتى الآن... لا يجب أن يُخجلك شئ، إن كنت تحكيه لأُمك؛ لا، لا، لا ترتبك أبداً في حضوري؛ فأنا أفضل صديق لك، وربما صديقك الوحيد... ستُكرّر ذلك ذاك الصباح، مُمدّدة فوق الفراش، ذاك الصباح الربيعي وستردّد لنفسها كل المحادثات التي كانت قد أعدتها منذ طفولة ابنها، منتزعة إياه منك، وهى ترعاه اليوم بطوله، رافضة أن تقبل مربية، ساجنة الطفلة، منذ سن ست سنوات، في المدرسة الداخلية الدينية، حتى يصبح الوقت كله للورنثو، حتى يتعود لورنثو على تلك الحياة المريحة،

دون خيارات. ستجعل السرعة الدموع تطفر من عينيك: ستحتضن بساقيك بطن الحصان الكُميت، ستطوح بنفسك بعنف على غُرته، لكن المهرة السوداء ستظل تسبقك بثلاثة أطوال. ستتصب، مُرهقاً؛ ستخفف عذوك. سيبدو لك أجمل أن ترى المهرة والفارس الشاب وهما يبتعدان بتلك الضوضاء الضائعة في غناء الببغاوات الضخمة، في القفار التي ستحدر من جوانب الجبال: سيكون عليك أن تزرر عينيك حتى لا تغيب عن بصرك مهرة لورنثو، التي ستتحرف الآن عن الدرب لتعاود الحَبَب باتجاه النباتات المتكاثفة، عائدة إلى مجرى النهر. لا: دون خيارات صعبة، دون ضرورات مزعجة للاختيار، ستقول كاتالينا لنفسها، مُفكرة في أنك، في البداية، قد ساعدتها بلا مبالاة، دون أن تدري، لأنك ستكون منتمياً إلى عالم آخر، ذلك العالم المتمثل في العمل والقوة الذي عرّفته هي حين أخذت أنت أراضى الدون جمالييل، تاركاً الطفل لينضم، في البداية، إلى العالم الآخر للمخادع نصف المضاءة: وسط طبيعي، مناخ من الاستباعات والإندماجات غير المحسوسة تقريباً، تصنعه هي بين الغمغمات المقدسة، والتصنعات الهادئة. ستتحرف مهرة لورنثو عن الدرب لتعاود الحَبَب باتجاه النباتات المتكاثفة، عائدة إلى مجرى النهر. سيشير ذراع الفتى المرفوع صوب الشرق، حيث بزغت الشمس، صوب البحيرة التي يفصلها عن البحر حاجز النهر. ستغمض عينيك حين تحس، من جديد، بتصاعد البخار الساخن نحو وجهك، بهبوط الظل المنعش فوق رأسك، ستترك الحصان يواصل طريقه وحده ويؤرجحك فوق السرج المبلى بالعرق. وخلف أجفانك المغمضة، سيتأثر في ومضات غير مرئية شكل الشمس وشكل الظل، سيرتسم الطيف الأزرق للهيئة الشابة والقوية. ستكون قد إستيقظت ذاك

الصباح، مثل كل الصباحات، بالبهجة المتوقعة. "لقد أدركتُ دائماً خدًى الآخر"، ستردد كاتالينا، والطفل قريب منها، "دائماً؛ دائماً ما تحملتُ كل شئ؛ لو لم يكن من أجلك"، وستحبُّ أنت هاتين العينين المندھشتين، المتسائلتين، اللتين ستركّانك تقودهما: "ذات يوم سأحكى لك..." لن تخطئ بحملك لورنثو إلى كوكويا منذ سن الثانية عشرة؛ ستركر ذلك؛ لا. من أجله فقط ستكون قد اشترت الأراضى، وأعدت بناء الضيعة وتركته فيها، طفلاً - سيداً، مستولاً عن الحصادات، مفتوحاً على حياة الخيول والصيد، حياة السباحة وصيد السمك. ستراه من بعيد، على صهوة المهرة، وستقول لنفسك أنه قد صار صورة شبابك، ممشوقاً وقوياً، أسمرّاً، وعيناه الخضروان غائرتان في وجنتيه البارزتين. ستستشق العفن الطينى للضفة. "ذات يوم سأحكى لك... أبوك؛ أبوك، يا لورنثو..." سترجّلان بجانب الأعشاب المتماوجة للبحيرة. وسيخفض الحصانان خطميهما، وقد تحرّرا، سيلعان الماء، سيلعان أحدهما الآخر وفماهما رطبان. وعلى الفور سيجريان ببطن، بخيب مُنوّم، وهما يُفرّقان الأعشاب المتدلّية في الماء، ويهزّان عرْفيهما؛ ويثيران زبداً متناثراً، تاركين الشمس وإنعكاس الماء يذهبانهما. سيضع لورنثو يده فوق كتفك. "أبوك؛ أبوك، يا لورنثو... لورنثو: هل تحبُّ حقاً الربَّ ألهنا؟ هل تؤمن بكل ما علمتُك؟ هل تعرف أن الكنيسة هى جسدُ الرب على الأرض وأن الكهنة هم مفوضو الرب...؟ هل تؤمن...؟" سيضع لورنثو يده فوق كتفك. ستظن أن فى عيون بعضكما، وستبتسمان. ستمسكُ لورنثو من رقبته؛ سيظهر الفتى بتوجيه ضربة إلى معدتك؛ ستكش أنت شعره، ضاحكاً؛ ستتعانقان في صراع زائف لكنه قوى، مُطلق العنان، لاهث، حتى تسقطا مستسلمين فوق العشب، ضاحكين،

مختقين، ضاحكين... "يا إلهي، لماذا أسألك عن هذا؟ ليس لي الحق، فعلاً ليس لي الحق... لا أدري، في امتحان الرجال القديسين... امتحان الشهداء الحقيقيين... هل تعتقد أنه يمكن أن ينجح؟... لا أدري لماذا أسألك..." سيعود الحصانان، مُتعبين مثلكما وستسيران، ممسكين بعنانيهما، على طول الجسر الرملي المؤدّي إلى البحر، إلى البحر المفتوح، لورنثو، وأرتيميو، إلى البحر المفتوح، إلى حيث سيجري لورنثو، متوثباً، نحو الأمواج التي ترتطم بخصره، إلى البحر الإستوائي الأخضر الذي سيبلل بنطولونه، البحر الذي يحرسه طيران النوارس المنخفض، البحر الذي يقنع بإخراج لسانه المتعب فوق الشاطئ، البحر الذي ستتناوله أنت، بدافع تلقائي، في راحة يدك وترفعه إلى شفتيك: البحر الذي له طعم بيرة مُرة، ويفوح برائحة الشَّمَام، والجوانابانا*، والجوافة، والسفرجل، والتوت: سيجذب الصيادون شباكهم الثقيلة نحو الرمل، ستقتربان، ستكسران معهم صدقات القواقع، ستأكلان معهم الكابوريا والجمبرى وكاتالينا، وحيدة، ستحاول أن تغمض عينيها وتنام، ستنتظر عودة الصبي الذي لم تره منذ عامين، منذ أن أكمل الخامسة عشر ولورنثو، وهو يمزق الغلاف الوردي للجمبرى ويشكر الصيادين على شريحة الليمون التي يناولونه إياها، سيسألك إن كنت لا تفكر أبداً فيما يوجد على الجانب الآخر من البحر، لأنه يعتقد أن الأرض كلها تُشبه بعضها، والبحر وحده هو المختلف. ستقول له أن ثمة جُزُر. سيقول لورنثو أن أشياء كثيرة تحدث في البحر، وكأن علينا أن نكون أضخم، أكمل حين نعيش في البحر. وتودُّ أنت فقط، وأنت تتمدد على الرمل وتستمع إلى القيثارة المحلية لصيادي بيراكروث، تودُّ فقط أن تشرح له أنه في

* guánabana : ثمرة خشنة من الخارج ذات نواة بيضاء شهية قد يبلغ وزنها كيلو جرامين. تنمو في المناطق الاستوائية من أمريكا-م.

السنوات المنصرمة، منذ أربعين سنة، إنكسر شئٌ هنا، كى يبدأ شئٌ
أو كى لا يبدأ أبداً شئٌ، أكثر جدّةً. تحت شمس الفجر الغائمة، في
شمس الظهيرة القوية والمصهورة، على الدروب السوداء وبجانب هذا
البحر، هذا، الهادئ الآن، الكثيف، الأخضر، وُجدَ بالنسبة لك طيفٌ.
ليس واقعياً رغم أنه حقيقى، كان يمكنه... لم يكن ذلك - نفس
حقيقة تلك الإمكانيات الضائعة - هو ما أزعجك إلى هذا الحد، ما
دفعتك للعودة إلى كوكوبا ولورنثو في يدك، بل شيئاً أشدَّ صعوبة -
ستقول ذلك بعينيك المغمضتين، بطعم الجمبرى في فمك، باللحس
البيراكروثى في مسامعك، ضائعاً في إتساع هذا الأصبل - في
التعبير عنه، في التفكير فيه وأنت وحيد؛ ورغم أنك تؤدُّ أن تقوله
لإبنك، فلن تجرؤ: يجب أن يفهم من تلقاء ذاته: تسمعه يتمدد،
يقرفص، ووجهه يأتجاه البحر المفتوح، وأصابعه العشرة مفتوحة،
تحت السماء الغائمة، الداكنة على حين غرة: "ستبحر سفينة خلال
عشرة أيام. وقد حجزت تذكرة": السماء ويد لورنثو التى تمتد لتلتقى
أولى قطرات المطر، كأنها تتسوّلها: "ألم تكن أنت لتفعل نفس الشئ،
يا بابا؟ أنت لم تبق في دارك. الإيمان؟ لا أدري. أنت آتيت بى إلى
هنا، وعلمتني كل هذه الأشياء. كأننى عدتُ لأحيا حياتك، أتقهمني؟"
"نعم". الآن هناك تلك الجبهة. أعتقد أنها الوحيدة الباقية.
وسأذهب... أوه، هذا الألم، أى هذه الوخزة، آى، كم ستؤدُّ أن
تهض، وتجرى، وتتسى الألم وأنت تسير، تعمل، تصيح، تنظم: ولن
يتروكوك، سيأخذونك من ذراعيك، سيحبسونك على أن تظل هادئاً،
سيحبسونك، جسمانياً، على مواصلة التذكر، ولن تريد، تريد، آى، لا
تريد: ستكون فقط قد حلمت بأيام تخصك: لا تريد أن تعرف شيئاً
عن يوم يخصك أكثر من أى يوم آخر، لأنه سيكون اليوم الوحيد الذى
يحياه شخص آخر من أجلك، الوحيد الذى ستستطيع تذكره بإسم

شخص آخر؛ يومٌ قصير، رعب، يومٌ أشجارٍ حورٍ بيضاء، يا أرتيميو،
إنه يومُك أيضاً، إنها حياتك أيضاً... آى.

(١٩٣٩: ٣ فبراير)

هو من كان فوق السقيفة، وبين يديه بندقية، وتذكر حين كان
الإثنان يخرجان للصيد إلى البحيرة. لكن هذه بندقيةٌ صَدئةٌ، لا تُقيد
في الصيد. من السقيفة، ظهرت واجهة الأسقفية. لم تبق سوى
الواجهة، مثل قشرة دون طوابق ولا أسقف. خلف الواجهة، كانت
القنابل قد هدمت كلَّ شئ. ظهرت بعض قطع الأثاث القديمة.
مدفونة؛ وفي الشارع كان يسير في صفٍ واحدٍ رجلٌ له عنق دجاجة
وأمرأتان تلبسان السواد. زَرَّروا أعينهم وهم يحملون بين أيديهم بعض
الصُّرر ويمشون بخطو ذاهل بجانب الواجهة. كان يكفى النظر إليهم
للتعرُّف على الأعداء.

- هيه، إلى الرصيف الآخر!

صاح فيهم من ذلك الموقع المرتفع فوق السقيفة فرفع الرجل
وجهه وأعشت الشمس عويناته. هز ذراعه ليشير لهم أن يعبروا
الشارع ويتجنبوا خطر الواجهة التي بدت على وشك الانهيار. عبروا
الشارع وعلى البعد دوَّت طلقات مدفعية الفاشيين - كانت ترن جوفاءً
حين تسقط فى تجاويف الجبل وحادة حين تصفر في الهواء. بعدها

جلس على كيس رمل . إلى جواره كان ميجيل . لم يكن شئٌ ليفصله عن المدفع الرشاش . رأيا من السقيفة شوارع القرية المهجورة . كانت في الشوارع حُفر ، وأعمدة تلفراف مكسورة وكابلات متشابكة - وذلك الدوى الذى لا ينتهى لطلقات المدفعية والـ تـاك - تـاك - تـاك لبعض البنادق، وألواح القرميد الجافة والباردة :- وحدها واجهة الأسقفية القديمة ظلت واقفة في ذلك الشارع .

- لم يبق لدينا سوى شريط واحد من طلقات الرشاش - قال لميجيل فأجاب ميجيل :- سننتظر حتى الغروب . ويعدها ...

استدا على الجدار وأشعلا سيجارتين . لف ميجيل كوفيته حتى أخفت لحيته الشقراء . هنالك على البعد ، كانت الجبال مغطاة بالجليد ؛ كان الجليد قد تساقط كثيراً ، رغم أن الشمس تلمع . في الصباح ، كانت الجبال ترسم ويبدو أنها تتقدم نحوهم . ثم ستراجع ، عند الغروب ؛ ولن تعود ترى الدروب وصنوبرات السفوح . وعند نهاية النهار ، لن تعود سوى كتلة نائية وينفسجية .

لكن في تلك الظهيرة ، نظر ميجيل إلى الشمس وزرَّ عينيه وقال له :- لو لم تكن المدافع وتكتكة الطلقات ، لحسب المرء أننا في سلام . جميلة أيام الشتاء هذه ، إنظر إلى أين هبط الجليد .

نظر إلى التجاعيد البيضاء والعميقة التى تسرى من جفون ميجيل إلى خده الملتحي ؛ كانت تلك التجاعيد مثل الجليد لوجهه . لن ينساها ، لأنه تعلم أن يرى فيها المأساة ، والشجاعة ، والسخط ، والهدوء . أحياناً كانوا قد كسبوا في المعارك ، قبل أن يدفعوهم من جديد إلى الوراء . وأحياناً كانوا يخسرون فقط . لكن قبل الكسب والخسارة ، كانت خطوط وجه ميجيل تحمل التعبير الذى يجب أن يرسم فيها . تعلم

الكثير من وجه ميجيل . ولم يكن ينقصه سوى أن يراه ييكى .
أطفأ السيجارة على الأرضية فامتد طرفها مثل خيطٍ من الشرر
وسأل ميجيل لماذا أخذوا يخسرون فأشار إلى جبال الحدود وقال :-
لأن مدافعنا الرشاشة لم تمرّ من هناك .
أطفأ ميجيل السيجارة هو الآخر وبدأ يدندن:

الجنرالات الأربعة، الجنرالات الأربعة،
الجنرالات الأربعة، يا أماء،
الذين تمرّدوا ...

فأجابه هو، مستنداً بدوره على أكياس الرمل:
مع حلول عيد الميلاد، يا أماء،
سيكونوا قد سُنّقوا، سيكونوا قد سُنّقوا ...

أنشدا كثيراً، لقتل الوقت. كان ثمة ساعات كثيرة مثل هذه،
يتوليان فيها الحراسة ولا يحدث شيء فينشدان. لم يكونا يعلنان أنهما
سينشدان. كذلك لم يكونا يشعران بالخجل من الغناء بصوت عال أمام
الآخرين. تماماً مثلما كانا يضحكان دون سبب ويلعبان أنهما
يتصارعان وينشدان كذلك على الشاطئ قرب كوكويا، مع صيادي
السّمك. لكنهما الآن ينشدان لتقوية عزيمتهما، رغم أن كلمات النشيد
لا بد أنها تبدو كسخرية، لأن الجنرالات الأربعة لم يُسنّقوا، بل قطعوا
عليهم خط الرجعة في هذه القرية وأمامهم كانت الحدود الجبلية. ولم
يعد أمامهم مكان يذهبون إليه .

بدأت الشمس في الإختفاء مبكراً، حوالى الرابعة بعد الظهر،
وربّت هو على بندقيته العتيقة المائلة إلى اللون البرتقالى، بمقبضها

الملوّن بالأصفر، ووضع قلنسوته. لفّ كوفيته، تماماً مثل ميجيل. منذ عدة أيام، أراد أن يقترح عليه أمراً. كان حذاؤه متهاكاً، لكنه مازال يتحمّل. وبالمقابل، كان ميجيل يمشى بخُفٍ قماشى قديم، ملفوف في خرق قماش ومربوط بخيوط. كان يريد أن يقول لهُ أنهما يمكن أن يتأوبا الحذاء: يومٌ يرتديه هو ويومٌ ترتديه أنا، لكنه لم يجرؤ. كانت تجاعيد الوجه تقول له أنه لا يجب أن يفعل ذلك. الآن أخذاً ينفحان في أيديهما، لأنهما يعرفان ما يعنيه قضاء ليلة شتوية فوق السقيفة. عندئذ، من عمق الشارع، ظهر يجرى، وكأنه خرج من إحدى تلك الحُفر، جنديٌّ من رجالنا، جمهوري. لوّح بذراعيه وسقط أخيراً، على وجهه. وخلفه، كان عدّة جنود جمهوريون يضربون بأحذيتهم الأرصفة المقصوفة بالقنابل. فذلك القصف المدفعي، الذي بدا نائياً جداً، اقترب دفعةً واحدة ومن الشارع صاح أحد الجنود:

- سلاح، من فضلكم، سلاح!

- لا تتوقفوا! - صرخ الرجل الذي كان في مقدمة جنودنا -. لا تكونوا هدفاً سهلاً.

مروا جرياً أسفلهما فصوصاً المدفع الرشاش نحو مؤخرة رفاقهما: إعتقدا أنهم يطاردونهم.

- لا بد أنهم أصبحوا على مقربة - قال لميجيل.

- صوّب، يا مكسيكي، صوّب جيداً - قال له ميجيل وتناول بين راحتيه آخر شريط طلقات بقي لديهم.

لكن رشاشاً آخر سبقهما، على مسافة ناصيتين أو ثلاث، كان وكر رشاش متمرس آخر، لكنه تابعٌ للفاشيين، قد إنتظر لحظة إنسحابنا والآن يرشق الرشاش الشارع ويقتل جنودنا.

لكن ليس قائدهم، الذي إنبطح على وجهه وصاح:

- إنبطحوا على بطونكم! لن تتعلموا أبداً!

حوَّل هو وضع الرشاش ليطلق النار على وكر الرشاش المتمرس
ذاك وغابت الشمس خلف الجبال. نيران الرشاش بين يديه هزَّت
جسده وغمغم ميجيل:- العزيمة وحدها لا تكفى. المغاربة* الشُّقر
مجهزون تجهيزاً أفضل.

فقد أصدرت المحركات أزيزاً فوق رأسيهما.

- ها قد وصلت طائرات كايروني.

كان يقاتلان جنباً إلى جنب، لكنهما لم يعودا يريان بعضهما في
الظلام، مدَّ ميجيل ذراعه ولمس كتفه. للمرة الثانية هذا اليوم، يقصف
الطيران الإيطالي القرية.

- هيا بنا، يا لورنثو. ها قد عادت طائرات كايروني.

- إلى أين نذهب؟ ماذا؟ هل نترك الرشاش؟

- لم يعد يفيد. ليس لدينا طلقات.

كان الرشاش المعادي قد سكت أيضاً. وتحتهما، في الشارع، مرَّت
جماعة من النساء. تبتَّهناهن لأنهن كن ينشدن، رغم كل شيء، بأصوات
مرتفعة.

مع ليستر وكامپسينو

مع جالان ومع مودستو،

مع القومندان كارلوس،

لا يعرف جنود الميليشيا الخوف...

كانت أصواتاً غريبة، بين كل ضجيج القنابل، لكنها أقوى من
القنابل، لأن هذه كانت تتساقط بين الحين والحين بينما تتشد

× moros :تقال - تحقيراً للمغاربة الذين حاربوا في صفوف فرانكو. والشُّقر
تجعل الإشارة إلى الاسبان الفاشيين مع التحقير الموجه للمغاربة-م.

الأصوات طوال الوقت. "ولم تكن أصواتاً عسكريةً جداً، بابابا، بل أصوات نساء عاشقات. كنَّ يشدن لمقاتلي الجمهورية كما ينشدن لأحبائهن وهنَّاك في أعلى، وقبل أن تتخلَّى عن الرشاش، تلامست بالصدفة يدانا أنا وميجيل وفكرنا في نفس الشيء. أنهن تنشدن لنا، لميجيل ولورنثو وأنهن يحبيننا..."

عندئذٍ إنهارت واجهة الأسقفية فانبطحا على الأرض، يغطيها الغبار، وفكر هو في مدريد، حين وصل، في المقاهي الغاصَّة بالناس حتى الثانية أو الثالثة فجراً، حين لم يكونوا يتكلمون إلا عن الحرب ويشعرون بنشوة هائلة، ييقين هائل بأنهم سينتصرون وفكر في أن مدريد ستظل تقاوم وفي أن نساء مدريد صنعن من القنابل فتاحات زجاجات... زحفاً حتى السلم. كان ميجيل ساكناً. ومضى هو يجرجر بندقيته البرتقالية. كان يعرف أن لديهم بندقية واحدة لكل خمسة محاربين. وقرر ألا يُفلت بندقيته.

هبطا السلم الحلزوني.

"أظن أن طفلاً كان يبكي في إحدى الغرف، لا أدري، لأنني ربما خلطت بين البكاء وبين صفارات الإنذار الجوى".

لكنه تخيله هناك، وقد هجره ذووه. هبطا مُتحمسين طريقهما، في الظلام. كانت الظلمة من الكثافة بحيث أنهما عند خروجهما إلى الشارع بدا لهما أن الوقت نهار. قال ميجيل: "لن يمروا" * فأجابته النساء: "لن يمروا" أعشاهما الليل ولا بد أنهما سارا قليلاً فاقدى الاتجاه، لأن إحدى النساء جرت نحوهم وقالت: - ليس من هنا. تعالوا معنا.

حين تعودوا على ضوء الليل، كانوا جميعاً منبطحين على وجوههم

[†] no pasarán : شعار الجمهوريين، أطلقته دولوريس إيباروري، الزعيمة الشيوعية،

أثناء حصار مدريد، دلالة على الإصرار على عدم ترك الفاشيين يمرّونهم

على الرصيف. عزلهم الانهيار عن الرشاشات المعادية: كان الشارع مقطوعاً؛ استششق هو الغبار، وكذلك عرق الفتيات المستلقيات إلى جواره. حاول أن يرى وجوههن. ولم ير سوى كاسكيت، سوى بيريه من الصوف، حتى رفعت الفتاة الممددة إلى جواره وجهها فرأى شعرها المفكوك، الكستائي، الذى أبيض بفعل جير الانهيار وقالت هى:

- أنا دولورس

- لورنثو. وهذا ميغيل.

- أنا ميغيل.

- فقدنا جماعتنا.

كنا من الفرقة الرابعة.

- كيف نخرج من هنا؟

- يجب الالتفاف وعبور الجسر

- هل تعرفان المكان؟

- ميغيل يعرفه.

- نعم، أنا أعرفه.

- من أين أنت؟

- أنا مكسيكى.

- آه، إذن لن يكون التفاهم صعباً.

ابتعدت الطائرات ونهض الجميع على أقدامهم. ذكرت نوري ذات الكاسكيت وماريا ذات البيريه الصوف إسميهما فكرراً هما إسميهما. كانت دولورس ترتدى بنطلوناً وچاكتته والإثنتان الأخريان معطفين وحقيبتى ظهر. تقدموا في طابور عبر الشارع المهجور، قريباً جداً من جدران المنازل العالية، تحت الشرفات الداكنة بنوافذها المفتوحة، كأن اليوم صيف. سمعوا صوت الطلقات الذى لا ينتهى، لكنهم لم يعرفوا من أين تأتى. أحياناً، كانوا يدوسون الزجاج المكسور أو كان ميغيل،

الذى يمضى في مقدمة الطابور، يقول لهم أن يحذروا أحد الكابلات. نبج فيهم كلبٌ من مدخل أحد الشوارع فقذفه ميغيل بحجر. في إحدى الشرفات كان يجلس عجوزٌ على كرسيه الهزاز وكوفيته ملفوفة حول رأسه. لم ينظر إليهم حين مرّوا ولم يفهموا ماذا يفعل هناك؛ هل ينتظر عودة أحد أم ينتظر بزوغ الشمس. لم ينظر إليهم.

أخذ هو نفساً عميقاً. تركوا القرية وراءهم وبلغوا حقل أشجار حور عارية. ذلك الخريف، لم يجمع أحدٌ الأوراق الجافة التى أخذت تخشخش تحت أقدامهم، وقد إسودّت من الرطوبة. نظر إلى الخرق المبلّلة التى تلف قدمي ميغيل وأراد، مرةً أخرى، أن يُقدم له حذاءه، لكن الرفيق كان يسير بثبات بالغ، تحمله ساقان قويتان ورشيقتان جداً، بحيث إنتبه إلى لا جدوى أن يُقدم له ما لا يحتاجه. وعلى البعد، كانت تنتظرهم جوانب الجبال الداكنة. ربما، سيحتاج الحذاء عندما يبلغونها. أما الآن فلا. الآن كان هناك الجسر وتحتة يجرى نهرٌ مؤرّ وعميق توقف الجميع لينظروا إليه.

- ظننته سيكون متجمداً - أوماً هو إيماءة ضيق.
- أنهار إسبانيا لا تتجمد أبداً - غمغم ميغيل -. تجرى دوماً.
- لماذا؟ - وجهت دولورس سؤالها إليه هو.
- لأننا على هذا النحو يمكننا أن نتجنب الجسر.
- لماذا؟ - قالت الآن ماريا وكان الثلاثة الآخرون، بنظراتهم المتسائلة، مثل أطفال فضوليين.

قال ميغيل: - لأن الجسور ملفومة عموماً.
لم تتحرك المجموعة الصغيرة. مَسَمَرهم النهر السريع الأبيض الذى يجرى تحت أقدامهم. لم يتحركوا. حتى رفع ميغيل وجهه ونظر نحو الجبل وقال:

- لو عبرنا الجسر، لأمكننا الوصول إلى الجبل ومن هناك إلى

الحدود. ولو لم نعبه، سيعدموننا بالرصاص...
- إذن؟ - قالت ماريًا بشهقة مكتومة وللمرة الأولى رأى الرجلان نظرتها الزجاجية والمتعبة.

- لقد خسرنّا! - صرخ ميغيل وضم قبضتيه الفارغتين وتحرك هكذا، كأنه يبحث في الأرض المغطاة بالأوراق السوداء عن بندقية - ما من عودة إلى الوراء! فلم يعد لدينا لا طيران، ولا مدفعية، ولا أى شيء! لم يتحرك هو. ظل ناضراً إلى ميغيل حتى أمسكت دولورس، اليد الدافئة لدولورس، الأصابع الخمسة التي سحبتها لتوها من إبطها، بالأصابع الخمسة للفتى وفهم هو. بحثت عن عينيه ورأى هو، للمرة الأولى كذلك، عينيه، رَمَسَ ورأهما خضراوين، تماماً مثل البحر قرب أرضنا. رآها منكوشة الشعر ودون أصباغ، وخداها محمرّان من البرد وشفتاهما ممتلئتان وجافتان. لم يلتفت إليهما الثلاثة الآخرون. سارا، هي وهو، متشاكى اليدين وداسا فوق الجسر. تشكك هو للحظة. لكنها لم تتشكك. منحتهما الأصابع العشرة دفئاً، هو الدفء الوحيد الذي شعر هو به خلال كل هذه الشهور.

"... الدفء الوحيد الذي شعرتُ به خلال كل تلك الشهور من التراجع البطئ نحو قطالونيا وجبال البرانس..."

استمعا إلى خرير النهر تحتتهما وإلى طقطقة ألواح خشب الجسر. وإذا كان ميغيل والفتاتان قد صاحبا عليهما من الضفة الأخرى، فإنهما لم يسمعا. فقد إستطال الجسر، بدا كأنه يعبر محيطاً وليس هذا النهر المندفع.

"دق قلبي بسرعة. ولابد أن النبض كان محسوساً في يدي، لأنها رفعتها ووضعتها على صدرها وأحسستُ هناك بقوة قلبها..."

عندئذ سارا جنباً إلى جنب دون خوف وقصُر الجسر.
من الجانب الآخر للنهر، انبتق ما لم يكونا قد رأياه. شجرة دردارٍ

ضخمة بلا أوراق، ضخمة، جميلة، وبيضاء. لم يكن الجليد يغطيها، بل تلج لامع. التمتعت مثل جوهرة، من فرط بياضها، في الليل. أحسّ هو بثقل بندقيته فوق كتفه، بثقل ساقيه، وقدميه الرصاصيتين فوق خشب الجسر: بكل تلك الخفة، والالتماع، والبياض بدت له شجرة الدردار تلك التي تنتظرهما. تشبّث بأصابع دولورس. أعمته الريح الثلجية. فأغمض عينيه.

"أغمضت عيني، يابابا، وفتحتهما، خائفاً ألا تعود الشجرة هناك..."

عندئذ أحست الأقدام بالأرض، توقفاً، لم ينظرا إلى الوراء، جَرَيَا كلاهما نحو شجرة الدردار، دون أن يعيرا إلتفاتاً لصرخات ميغيل والفتاتين، ودون أن ينصتا للمسيرة الجديدة لرفاقهما فوق الجسر، جَرَيَا واحتضنا الجذع العاري، الأبيض المكسو بالثلج، إهتزازاً ملتصقين به بينما تتساقط تلك اللآلئ من البرد فوق رأسيهما، تلامسا بأيديهما وهما يعانقانه ثم انفصلا بعنف عن شجرتهما ليتعانقا دولورس وهو، ليربّت هو على جبهتها وتربّت هي على عنقه؛ تباعدت هي حتى يرى بشكل أفضل عينيها الخضراوين، النديتين، وفمها المنفرج قبل أن تدفن رأسها في صدر الفتى وترفع وجهها وتمنحه شفيتها، قبل أن يحيط بهما الرفاق، لكن دون أن يعانقوا الشجرة كما فعلا...

"يالدفتك، يالولا، ما أدفاك وكم صرتُ أحبك!"

عسكروا في تنوعات سلسلة الجبال. تحت تاج الجليد. بحث ميغيل والشاب عن أغصان وأشعلا ناراً. جلس هو بجوار لولا وعاد ليمسك بيدها. أخرجت مارتياً من حقيبة ظهرها إناءً مكسوراً وملأته بالجليد وأذاخته فوق النار كما أخرجت قطعة من جبن الماعز.. وبعدها، ضاحكة، أخرجت نوري من صدرها بعض الأكياس المجمدة من شاي ليبتون وضحكوا جميعاً من وجه قبطان اليخت الإنجليزي

ذلك الذى يزِين أكياس الشاى.

حكّت نورى أنه قبل سقوط برشلونه كانت قد وصلت علب تبغ، وشاى ولبن مجفف بعث بها الأمريكيون. كانت نورى مائلة إلى البدانة ومرحة وعملت قبل الحرب في مصنع منسوجات، لكن ماريا تحدثت وتذكرت أيام أن كانت تدرس في مدريد وتعيش في نُزل الطلبة وتخرج إلى الاضرابات ضد پريمو - دى ريبيرا^١ وتبكى في حفلات افتتاح مسرحيات لوركا.

"اكتب لك، وأنا أسند الورق على ركبتيّ، وأسمعهن يتحدثن وأحاول أن أقول لهن كم أحبّ إسبانيا ولا يخطر ببالي سوى الحديث عن زيارتي الأولى إلى توليدو، وهى مدينة كنت أتخيلها كما رسمها إلجريكو، ملتفه بإعصار من البروق والسحب المخضرة، مشيدة فوق نهر التاخو الضيق، مدينة، كيف أقول لك؟ كانت في حرب ضد نفسها. ووجدتُ مدينة تستحم في الشمس، مدينة للشمس والصمت وقصر مقصوف، لأن لوحة إلجريكو - أحاول أن أقول لهن - هى كل إسبانيا وإذا كان تاخو** توليدو أشد ضيقاً، فإن جرح إسبانيا يمتد من البحر إلى البحر. رأيت هذا هنا، يا بابا. هذا ما أحاول أن أقول لهن..."

هذا ما قاله لهن، قبل أن يبدأ ميغيل في حكي كيف انضم إلى لواء المقدّم أسنثيو وكم كلفه أن يتعلم القتال. قال لهن أن كلّ مقاتلى الجيش الشعبى بالغو الشجاعة، لكن ذلك لا يكفى للانتصار. فلا بد

^١ الدكتاتور ميغيل/بريمودى ريبيرا اى أوربايخا (١٨٧٠-١٩٣٠) عسكري وسياسي إسباني تمرد عام ١٩٢٣ وأقام دكتاتورية عسكرية. وفي ١٩٢٧ أقام بوحي من الفاشية الإيطالية حزباً قومياً وبرلماناً استشارياً. عزل عام ١٩٣٠م
** tajjo : النهر الذى يمر بتوليدو (طليطلة) وتعنى الكلمة (بحروف صغيرة) جرحاً أو قطعاً بالسيف أو جرحاً غائراً. وهو يلعب على المعنيين -م

من تعلم القتال. والجنود المرتجلون يستغرقون وقتاً طويلاً في فهم أن ثمة قواعد للأمان وأن من الأفضل أن يواصلوا البقاء أحياء كي يواصلوا القتال. علاوة على ذلك، فإنهم حين يكونون قد تعلموا الدفاع عن أنفسهم يكون مازال ينقصهم تعلم كيف يهاجمون. وحين يكونون قد تعلموا كل هذا، يكون مازال ينقصهم أصعب شئ، أن يحرزوا أصعب انتصار، الذي هو الانتصار على أنفسهم، على عاداتهم وأوجه راحتهم. تحدث بسوء عن الفوضويين، الدين هم، وفقاً لما يقوله ميغيل، انهزاميون وتحدث بسوء عن تجار السلاح الذين وعدوا الجمهورية بأسلحة كانوا قد باعوها لفرانكو. قال أن أكبر آلامه، ذلك الذي سيحمله معه إلى القبر، هي عدم فهمه للسبب في أن عمال العالم لم ينتفضوا حاملين السلاح ليدافعوا عنا في إسبانيا، لأن إسبانيا إذا خسرت فسوف يعنى ذلك أنهم جميعاً خسروا. قال هذا وقسم سيجارة وأعطى نصفها للمكسيكى ودّخن الإثنان، هو بجوار دولورس ومرّر لها العقب لتدخن هي أيضاً.

سمعوا قصفاً عنيفاً، من بعيد. ومن المعسكر، ظهر وميض مائل للصفرة، مروحة من الغبار في الليل - إنها فيجيراس - قال ميغيل - إنهم يقصفون فيجيراس.

نظروا صوب فيجيراس. كانت لولا قريبة منه. لم تكن تتحدث إلى الجميع. كانت تتحدث إليه وحده، بصوت خفيض، بينما ينظرون لذلك الغبار وتلك الضجة النائيين. قالت إنها في الثانية والعشرين، أكبر منه بثلاث سنوات، وزاد هو من عمره وقال أنه قد أكمل الرابعة والعشرين. قالت أنها من الباثيتى وأنها قد ذهبت إلى الحرب لتتبع خطيبها. فقد درس الإثنان سوياً - درسا الكيمياء - وتبعته هي، لكن المغاربة أعدموه فى أوبييدو. حكى هو لها أنه قدم من المكسيك وأنه كان يحيا هناك في موضع حار، قريب من البحر، ملئ بالفاكهة. طلبت

هى منه أن يحدثها عن الفواكه الاستوائية وأضحكتها الأسماء التي لم تكن قد سمعتها قط وقالت له أن مامى* mamey يبدو كأنه إسمٌ لسمٌ وجوانابانا guanabana إسمٌ لطائر. قال لها أنه يحب الخيول وأنه حين وصل كان في سلاح الفرسان، لكن لا توجد الآن خيول ولا أى شئ. قالت له أنها لم تركب خيلاً أبداً؛ وحاول هو أن يشرح لها البهجة التي يمنحها ركوب الخيل، خصوصاً على الشاطئ عند الفجر، حين تخفُّ الريح الشمالية لكن مطراً خفيفاً مازال يسقط ويختلط الزبد الذي تثيره الحوافر بالمطر الخفيف ويمضى المرء بصدر عار وشفتين مليئتين بالملح. أعجبها هذا. قالت أنه ربما لازال باقياً لديه تذكارٌ من الملح في فمه وقبّلته. كان الآخرون قد ناموا بجوار النار وكانت النار تخمد. نهض ليقبّلها، ومازال طعم لولا ذاك في فمه. رأى أنهم قد ناموا جميعاً بالفعل، متعانقين ليتدفأوا وعاد إلى جانب لولا. فتحت له الجاكتة المبطّنة بصوف الخراف فشبك يديه على ظهر الفتاة وبلوزتها القطنية وغطت هى ظهره بالجاكتة. همست في أذنه أنهما يجب أن يحدداً مكاناً يعاودان الإلتقاء فيه، إذا ما انفصلا. فقال أنهما يمكن أن يلتقيا في مقهى يعرفه بالقرب من تمثال La Cibeles، حين نحرّر مدريد فردّت هى أنهما يمكن أن يتقابلا في المكسيك فقال نعم، في ميدان ميناء بيراكروث، تحت البواكى، في مقهى لا پاروكيا. سيتاوان قهوة ويأكلان كابوريا.

إبتسمت هى وابتسم هو أيضاً وقال لها أنه يودّ أن ينكش شعرها ويقبّلها فسبقته ونزعت قلنسوته ونكشت شعره بينما وضع يده تحت بلوزتها القطنية، وربّت على ظهرها، وبحث عن نهديها الطليقين وعندها لم يعد يفكر في شئ ولا هى أيضاً. بالتأكيد، لأن صوتها لم

* فاكهة إستوائية أمريكية لذيذة-م

يكن ينطق كلمات بل يُفْرغُ كل ما تفكّر فيه في تلك الغمغمة المتصلة
التي هي في آن واحدٍ شكرًا أحبك لا تتسنى تعال...

أخذوا يخترقون الجبل ولأول مرة أخذ ميغيل يسير بصعوبة
وليس بسبب الصعود، الذي كان شاقاً. فقد إخترق البرد قدميه، بردٌ
بأسنان كان الجميع يحسّونه على وجوههم. استندت دولورس على
ذراع حبيبها وإذا نظر إليها خلصة رآها مهمومة، لكنه إذا نظر إليها
مباشرةً تبسم. إنه يرجو فقط - ويرجون جميعاً - ألا يهْبُ إعصار. هو
الوحيد الذي يحمل بندقية وليس في بندقيته سوى طلقتين. قال لهم
ميغيل أنهم لا يجب أن يخافوا.

"أنا لا أخاف. فالحدود على الجانب الآخر وسنعبّر هذه الليلة
إلى فرنسا، في فراش، يُظِلّه سقف. سنتعشى جيداً. أتذكرك وأفكر
أنك لن تشعر بالخجل مني، أنك كنت ستفعل نفس ما فعلت. أنت
أيضاً ناضلت، وسيسرُّك أن تعرف أن ثمة دائماً شخصٌ يواصل
النضال. أعرف أن هذا سيسرُّك. لكن هذا النضال سينتهي الآن. فور
عبورنا الحدود سيكون قد إنتهى العضو الشارد في الألوية الدولية
وسيبداً شيء آخر. لن أنسى أبداً هذه الحياة، يابابا، ففيها تعلّمتُ كلَّ
ما أعرف. الأمر بسيطٌ جداً. سأقصه عليك حين أعود. الآن لا
تواتيني الكلمات".

لمس بإصبع الخطاب الذي يحمله في جيب قميصه. لم يكن
يستطيع فتح فمه في هذا البرد. تنفّس لاهثاً. نفث من بين أسنانه
المطبّقة بخاراً أبيض. مضوا ببطء بالغ. كان طابور اللاجئين هائلاً؛
إمتد حتى مرمى البصر. مضت أمامهم العربات المحمّلة بالقمح
والمقاييق التي يحملها الفلاحون إلى فرنسا؛ ومضت النساء حواملات
المراتب والملاءات، وآخرون حاملين صورا وكراسي، جراً ومرايا. قال
الفلاحون أنهم سيواصلون البذر في فرنسا. تقدموا ببطءٍ شديد.

ومضى معهم أطفال أيضاً، بعضهم رُضعٌ. كانت أرض الجبل جافة، قاسية، شائكة، مليئة بالأجمّات. مضوا يخترقون الجبل. أحس بقبضة دولورس المختبئة في جنبه وأحس كذلك بأنه يجب أن ينقذها ويحميها. كان يحبها أكثر من الليلة الماضية. وعرف أنه في الغد سيحبها أكثر من اليوم. وستحبه هي أيضاً. لم يكن ثمة حاجة لقول ذلك. كانا يروقان بعضهما. هذا هو الأمر. كنا نروق بعضنا. أصبحا يعرفان كيف يضحكان معاً. وكان لديهما ما يقصّانه.

إنفصلت دولورس عنه وجرت نحو ماريا. كانت جنديّة المليشيا قد توقفت بجانب صخرة، وإحدى يديها فوق جبهتها. قالت أن هذا لا شئ. أنها تحس بالإرهاق الشديد. كان عليهم أن يتحوّوا جانباً كي تمر الوجوه المحمّرة، والأيدى المتجمّدة، والعربات الثقيلة. عادت ماريا لتقول أنها تشعر ببعض الدوار. أخذتها لولا من ذراعها وواصلوا طريقهم وعندها، نعم عندها شعروا بضجيج المحرك قريباً منهم وتوقفوا. لم تظهر الطائرة. فتشوا عنها جميعاً، لكن السماء كانت ملبّدة. كان ميجيل أول من تبيّن الأجنحة السوداء، والصليب المعقوف وأول من صرخ في الجميع: إنبطحوا! على وجوهكم!.

على وجوههم جميعاً، بين الصخور، وتحت العربات جميعاً، ما عدا تلك البندقية التي مازالت فيها طلقتان. ولا تطلق النار، بندقية الـ ٨ ملليمتر اللعينة، المقشّة اللعينة الصدئة، لا تطلق النار مهما ضغط على الزناد، واقفاً، حتى يمر الضجيج فوق الرؤوس، ويملؤها بذلك الظل السريع وبمدفع رشاش يرشق الأرض ويُدوى على الأحجار...

"إنبطح يا لورنثو، إنبطح، أيها المكسيكي!"

إنبطح، إنبطح، إنبطح، يا لورنثو، وهذا الحذاء الجديد فوق الأرض الجافة، يا لورنثو، وبندقيتك على الأرض، يا مكسيكي، ومدّ في معدتك، كأنك تحمل المحيط في أحشائك وها قد أصبح وجهك على

الأرض بعينيك الخضراوين والمفتوحتين وما يُشبه الحلم، بين الشمس والليل، بينما تصرخ هي وتعرف أنت أن الحذاء سيفيد في النهاية
 ميجيل المسكين بلحيته الشقراء وتجاعيده البيضاء وخلال دقيقة
 واحدة ستلقى دولورس نفسها فوقك، يا لورنثو، وسيقول لها ميجيل أنه
 لا فائدة، باكياً لأول مرة، أنهم يجب أن يواصلوا طريقهم، أن الحياة
 على الجانب الآخر من الجبال، الحياة والحرية، لأن تلك، نعم، كانت
 الكلمات التي كتبها: أخذوا هذا الخطاب، أخرجوه من القميص الملطّخ،
 ضغطت هي عليه بين يديها، ما أذفأه، لو سقط الجليد لدفته، حين
 قبّلتها مرة أخرى، يا دولورس، منطرحة فوق جسده وودّ هو أن يحملك
 إلى البحر، على صهوة الجياد، قبل أن تلمس دمه وينام معك في
 عينيه... ما أشدّ خضرتهما... لا تنسى...

أنا كنت سأقول لنفسى الحقيقة، لو لم أكن أحسُّ بشفتيّ
 البيضواوين لو لم أُنثن مطوياً، عاجزاً عن السيطرة على نفسى، لو
 احتملت ثقل الملاءات، لو لم أعاود الإستلقاء، مُتقلصاً، ووجهى إلى
 أسفل، لأتقيأ هذا المخاط، هذه العصارة المرارية: كنت سأقول لنفسى
 أنه لا يكفى ترديد الزمن والمكان، البقاء الخالص؛ كنت سأقول لنفسى
 شيئاً أكثر من ذلك، رغبة لم أعبر عنها أبداً، هي التي أجبرتني على

أن أقوده - آى، لا أدري لا أنتبه - نعم، على أن أجبره على العثور على طرف الخيط الذى قطعتُه أنا، على مواصلة حياتى، على إكمال مصيرى الآخر، الجزء الثانى الذى لم أستطع أنا إكماله، ولا تفعل هى سوى أن تسألنى جالسةً بجوار رأس فراشى:

- لماذا جرى الأمر على هذا النحو؟ قل لى: لماذا؟ وأنا ربيته من أجل شئٍ آخر. لماذا إنتزعته؟

- ألم يُرسل إلى الموت ابنه المدلل ذاته؟ ألم يفصله عنك وعنّى كى يشوّهه؟ أليس هذا صحيحاً؟

- تيريسا، أبوك لا يسمعك...

- إنه يتظاهر. يغمض عينيه ويتظاهر.

- إسكتى.

- إسكتى.

أنا لم أعد أدري. لكننى أراهم. لقد دخلوا. يفتح وينغلق البابُ الماهوجنى ولا تُصدرُ الخطوات صوتاً فوق السجادة السمكية. أغلقوا النوافذ. أسدلووا، بهسيسٍ، الستائر الرمادية. دخلوا.
- أنا ... أنا جلوريا...

الخشخشة المنعشة والعذبة لأوراق البنكوت والسندات الجديدة حين تتناولها يدُ رجل مثلى. الإندفاع السلس لسيارةٍ فاخرة، مصنوعةٍ خصيصاً، بتكييف هواءٍ، ويار، وتليفون، ووسائد للظهر ومساند للأقدام، إيه، يافسيس، إيه؟ هل هناك مثلها فى السماء، هيه؟

- أريد أن أعود إلى هناك، إلى الأرض...

- لماذا جرى الأمر على هذا النحو؟ قل لى: لماذا؟ وأنا ربيته من أجل شئٍ آخر. لماذا انتزعته؟

ولا تُتتبه إلى أن ثمة شيئاً أشدَّ إيلاًماً من الجثة المهجورة، من الثلج والشمس اللذين دفناها، من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين

إلتهمتها الطيور: تكف كاتالينا عن فرك القطن على صدغى وتبتعد ولا أدري إن كانت تبكى: أحاول أن أرفع يدي لأجدها: يسرى فيّ المجهود في طعنات متقطعة من الذراع حتى الصدر ومن الصدر حتى البطن: فعلى الرغم من الجثة المهجورة، على الرغم من الثلج والشمس اللذين دفناها، على الرغم من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين إلتهمتها الطيور، ثمة ما هو أسوأ: هذا القى الذى لا سبيل إلى إيقافه، هذه الرغبة التى لا سبيل إلى إيقافها في التبرز دون أن أستطيع، دون أن أنجح في جعل الغازات تخرج من هذه البطن المنتفخة، دون قدرة على وقف هذا الألم المنتشر، دون قدرة على العثور على النبض في المعصم، دون قدرة على الإحساس بالساقين، شاعراً بأن الدم ينبجس منى. ينسكب داخلى، نعم، داخلى، أنا أعرف ذلك وهم لا يعرفون ولا أستطيع إقناعهم، فهم لا يرونه يقطر من شفتى، وبين ساقى: لا يصدقونه، يقولون فقط أننى لم تعد لدى حرارة، آه حرارة، فقط يقولون إنهيار، إنهيار، فقط يُخمنون تورماً، تورماً لحواف سائلة، هذا ما يقولونه بينما يمسون بى، يتحسسوننى، يتحدثون عن قطع رخام، نعم، أسمعهم، قطع رخام بنفسجية في أحشائى التى لم أعد أحس بها، لم أعد أراها: على الرغم من الجثة المهجورة، على الرغم من الثلج والشمس اللذين دفناها، على الرغم من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين إلتهمتها الطيور، ثمة ما هو أسوأ: ألا أستطيع أن أتذكره، ألا أستطيع أن أتذكره إلا عن طريق تلك الصور الشخصية، تلك الأشياء المتروكة في المخدع، تلك الكتب بالملاحظات على هوامشها: لكن ما هى رائحة عرقه؟

لاشئ يُكرّر لون جلده: أننى لا أستطيع التفكير فيه حين لا أعود أستطيع رؤيته والإحساس به؛

مضى على صهوة الحصان، ذاك الصباح؛

هذا أذكركُ: تلقيت خطاباً بطوابع أجنبية لكن التفكير فيه
 آه، حلمتُ، تخيلتُ، عرفتُ تلك الأسماء، تذكرتُ تلك الأناشيد، آه
 شكراً، لكن المعرفة، كيف يمكنني أن أعرف؟ لا أدري، لا أدري كيف
 كانت تلك الحرب، مع من تحدثت قبل أن يموت، ماذا كانت أسماء
 الرجال والنساء الذى مضوا بصحبته إلى الموت، ما قاله، ما فكر فيه،
 ماذا كان يرتدى، ماذا أكل ذلك اليوم، لا أدري: اخترعُ مشاهد طبيعية،
 اخترعُ مُدناً، اخترعُ أسماءً وها لم أعد أذكرها: ميغيل، خوسيه،
 فيديريكو، لويس؟ كونسويلو، دولورس، ماريّا، إسييرانثا، مرثيدس،
 نوري، جوادالوبي، إستيبان، مانويل، آورورا؟ جواداراما، اليرانس،
 فيجويراس، توليدو، تيرويل، إبرو، جيرنيكا، جوادالافارا؟ الجثة
 المهجورة، الثلج والشمس اللذين دفناها، العينين المفتوحتين إلى الأبد،
 اللتين إلتهمتهما الطيور.

آى، شكراً، على أنك علمتني ما كان يمكن أن تكونه حياتي،
 آى، شكراً، لأنك عشت ذلك اليوم بدلاً مني،
 فثمة شئ أشد إيلاماً:

إيه، إيه؟ هذا موجودٌ فعلاً، هذا يخصني فعلاً. هذا هو حقاً كونُ
 المرأ إلهاً، إيه؟ أن يكون مرهوباً ومكروهاً أو ما شئت، هذا هو حقاً
 كونُ المرء إلهاً، فعلاً، إيه؟ قل لي كيف أنقذُ كل هذا، أيها القسيس،
 وسأتركك تكمل كل طقوسك، أضربُ صدري، وأمشي على ركبتني حتى
 مزار مقدس وأشرب الخلّ وأتوجّ نفسي بالأشواك. قل لي كيف أنقذُ
 كل هذا، لأن روح...

- ... الإبن، والروح القدس، آمين...
 ثمة شئ أشد إيلاماً:

- لا، في هذه الحالة، لا بد أن هناك ورم طرى، نعم، لكن هناك
 كذلك إزاحة أو خروج جزئي لإحدى الأمعاء...

- أكرّر: إنها التواءات معوية. هذا الألم لا يسبّبه سوى إلتواء
الطيّات المعوية، ومن هنا الإنسداد ...
- في هذه الحالة، يجب إجراء عملية ..
- ربما تتطور الفرغرينا، دون أن نتجنبها ...
- الإزرقاق قد صار واضحاً ...
- السحنة ...
- إنخفاض في الحرارة ...
- غيبوبة ...
إسكتوا... إسكتوا!
- إفتحوا النوافذ
لا أستطيع أن أتحرك! لا أعرف إلى أين أنظر، إلى أين أتوجّه! لا
أحس بالحرارة، فقط بالبرودة التي تأتي وتروح في الساقين، لكن ليس
برودة وحرارة كل ما عداهما، كل ما هو محفوظ، وما لم آره أبداً ...
- المسكينة... لقد تأثّرت ...
... إسكتوا...، أخمّن شَبْهِي، لا تقولوه... أعرف أن أظاfer
مسوّدّة، وحلدى مُزرقٌ... إسكتوا...
- إلتهاب الزائدة الوددية؟
- يجب أن نجرى عملية.
- إنها مخاطرة.
- أكرّر: مفص كلوى. إثنين سنتيجرام من المورفين ويهدأ.
- إنها مخاطرة.
- لا يوجد نزيف.
شكراً. كان يمكن أن أموت في بيرالس. كان يمكن أن أموت مع
ذلك الجندي. كان يمكن أن أموت في تلك الغرفة العارية، أمام ذلك
الرجل البدين. أنا نجوت. وأنت متّ. شكراً.

- أمسكوه. الميولة.
 - رأيت كيف إنتهى به الأمر؟ رأيت، رأيت؟ تماماً مثل أخى.
 هكذا إنتهى.
 - أمسكوه. الميولة.
 أمسكوه. إنه يمضى. أمسكوه. يتقيأ. يتقيأ ذلك الطعم الذى كان
 يشمه فقط. لم يعد يستطيع الإنحناء. يتقيأ وفمه إلى أعلى. يتقيأ
 برازه. يسيل من شفثيه، على خديه. نفاياته. تصرخن. تصرخن. لا
 أسمعهن، لكن لا بد من الصراخ. لا يحدث. هذا لا يحدث. لا بد من
 الصراخ كي لا يحدث هذا. يمسكوننى، يضغطوننى. إنتهى الأمر. إنه
 يمضى. إنه يمضى دون أى شئ، عارياً. دون أشياءه. أمسكوه. إنه
 يمضى.

أنت ستقرأ ذلك الخطاب، المؤرخ في معسكر اعتقال، المختوم
 بأختام بلد أجنبى، الموقع باسم ميجيل، الذى سيضم الخطاب الآخر،
 المكتوب بسرعة، والموقع باسم لورنثو: ستتلقى ذلك الخطاب، ستقرأ:
 "أنا لا أخاف... أتذكرك... لن تشعر بالخجل... لن أنسى أبداً هذه
 الحياة، يا بابا، ففيها تعلّمتُ كل ما أعرف... سأقصه عليك حين
 أعود": ستقرأ وستختار مرة أخرى: ستختار حياة أخرى.

ستختار أن تتركه في رعاية كاتالينا، لن تحمله إلى تلك الأرض،
 لن تضعه على حافة إختياره الخاص: لن تدفعه إلى ذلك المصير
 القاتل، الذي كان يمكن أن يكون مصيرك: لن تجبره على فعل ما لم
 تفعله أنت، على إنقاذ حياتك الضائعة: لن تسمح، هذه المرة، بأن تموت
 أنت في درب صخري وتنجو هي:

ستختار أن تعانق ذلك الجندي الجريح الذي يدخل الغابة
 الصغيرة الرائعة، أن تمدده، وتنظف له ذراعه التي حطمها الرشاش
 بمياه ذلك الجدول الضئيل، الذي تحرقه الصحراء، أن تضمّ جراحه،
 أن تبقى معه، أن تحافظ على أنفاسه بأنفاسك، أن تنتظر، تنتظر حتى
 يكتشفونكما، ويقبضون عليكما، ويعدومونكما بالرصاص في قرية
 ذات إسم منسى، مثل تلك القرية الترابية، مثل تلك القرية المبنية كلها
 بالطلوب ألتئى وأوراق الشجر: أن يعدموا الجندي ويعدموك، أن يعدموا
 رجلين بلا إسم، عاريين، مدفونين في القبر الجماعي للمحكوم عليهم،
 دون شاهد قبر: ميتاً في سن الرابعة والعشرين، دون مزيد من
 الدروب، دون مزيد من المتاهات، دون مزيد من الاختيارات: ميتاً
 ممسكاً بيد جندي بلا إسم أنقذته أنت: ميتاً:

ستقول للاورأ: نعم

ستقول لذلك الرجل البدين في تلك الغرفة العارية، المطلية
 بالأزرق: لا

ستختار البقاء هناك مع برنال وتوييأس، أن تتبع قدرك، ألا تصل
 إلى ذلك الفناء الدامى لتبرّر نفسك، لتفكر أنك بموت ثاجال قد
 غسلت موت رفيقك.

لن تزور جمالييل العجوز في بوييلا
 لن تمتلك ليلى حين تعود تلك الليلة، لن تفكر أنك لن تستطيع
 أبداً، بعد ذلك، إمتلاك امرأة أخرى.

ستكسر الصمت تلك الليلة، ستحدث مع كاتالينا، سترجو منها
 أن تغفر لك، ستحدثها عن الذين ماتوا من أجلك، سترجوها أن تقبلك
 هكذا، بتلك الذنوب، سترجوها ألا تكرهك، أن تقبلك هكذا.
 ستبقى مع لونيرو في الضعية، لن تهجر أبداً ذلك المكان
 ستظل بجانب المعلم سباستيان - كيف كان، كيف كان -، ولن
 تذهب للانضمام إلى الثورة في الشمال،
 ستكون أجيراً
 ستكون حدّاداً
 ستبقى بعيداً، مع الذين بقوا بعيداً

لن تكون أرثيميو كروث، لن يكون عمرك واحداً وسبعين عاماً، لن
 تزن تسعة وسبعين كيلو جراماً، لن يكون طولك متراً وإثنين وثمانين
 سنتيمتراً، لن تستخدم أسناناً صناعية، لن تدخن سجائر تبغ أسود، لن
 تستخدم قمصاناً حريرية إيطالية، لن تجمع أزهار القمصان، لن تعهد
 بأربطة عنقك إلى دار أزياء نيويورك، لن ترتدي تلك البذلات الزرقاء
 ذات الأزهار الثلاثة، لن تفضل الكشمير الأيرلندي، لن تشرب حين مع
 تونيك، لن تكون لديك سيارة فولفو، وسيارة كاديلاك، وسيارة كاميون
 رامبلر، لن تتذكر وتحب تلك اللوحة لرينوار، لن تقطر بيضاً مسلوفاً
 وخيزراً مُحَمَّصاً بهري ماركة يلاكويل، لن تقرأ كل صباح صحيفة
 تملكها، لن تتصفح مجلتي لايف وباري مانش في بعض الليالي، لن
 تسمع تلك التعويذة إلى جوارك، تلك الجوقة، تلك الكراهية التي تؤدّ
 إنتزاع حياتك قبل الأوان، التي تستحضر، تستحضر، تستحضر،
 تستحضر ما كان باستطاعتك أن تتخيله، مبتسماً، منذ قليل والآن لن
 تتحمّله:

De profundis clamavi
 De profundis clamavi

إنظر إلىّ، إستمع إلىّ، أضئ عينيّ، لا تجعلني أرقد ميتاً / لأنك
يوم تأكل منها ستموت موتاً/ لا تفرح لموت أحد، تذكر أننا جميعاً
نموت/ ألقى الموت والجحيم في بركة النار وكان هذا هو الموت الثاني/
ما أخشاه، هو ما يحدث لي، وما يزعني، هو ما يملكني/ ما أشدّ
مرارة ذكراك للرجل الذي يشعر بالرضى بشرواته/ هل فتحت لك
أبواب الموت؟ / بالمرأة بدأت الخطيئة وبالمرأة نموت جميعاً/ هل رأيت
أبواب المنطقة المظلمة؟/ جيّد هو حُكمك للمعوّز ومن نصبت قواه/
وأى ثمار نالوا حينئذ؟ إنها تلك التي يدخلون منها الآن، لأن نهايتها
هي الموت/ لأن شهية الجسد هي الموت:
كلمة الرب، حياة، ونذرٌ بالموت،

de profundis clamavi, domine,
omnes eodem cogimur, omnium versatur urna
quae quasi saxum Tantalum semper impendit
quid quisque vitet, nunquam homini satis cautum est
in horas
mors tanem inclusum protrahet inde caput
nascentes morimur, finisque ab origine pendet
atque in se sua per vestigia volvitur annus
omnia te vita perfuncta sequentur

جوقة، قبر؛ أصوات، محرقة؛ ستتخيّل، في المنطقة إنسن وعيك،
وتلك الطموس، وتلك الإحتفالات، وتلك الأفولات: دفنٌ، حرقٌ جثمانٌ،
بلسم: مكشوفاً في أعلى برج، حتى لا تُحلّلك الأرض، بل الهواء: حبيساً
في القبر مع عبيدك الميتين؛ تبكيك نائحاتٌ مُستأجراتٌ؛ مدفوناً مع
أعزّ ممتلكاتك، مع صحبتك، مع لأئك السوداء: شمعة، سهرٌ،

requiem aeternam, dona eis Domine
de profundis clamavi, Domine

صوت لاورا، التي كانت تتحدث عن هذه الأشياء، جالسة على

الأرض، وركبتهاها مثنيتان، والكتاب الصغير المُجلَّد بين يديها... يقول أن كلَّ شيء يمكن أن يكون قاتلاً لنا، حتى ما يمنحنا الحياة... يقول أننا مادمن لا نستطيع شفاء الموت، والبؤس، والجهل، فإننا نُحسِّنُ صنعاً، كي نكون سعداء، بالألَّا نفكر فيها... يقول أن الموت المِباغت هو وحده ما يجب الخوف منه؛ لهذا يحيا كهنة الإعتراف في بيوت الأقوياء... يقول كُن رجلاً؛ إخش الموت خارج الخطر، وليس في الخطر... يقول أن تبصُر الموت هو تبصُر الحرية... يقول يالها من خطوات بكما تحملك، أه أيها الموت البارد... يقول لن تستطيع أن تغفر لك الساعات؛ الساعات التي تلعق الأيام... يقول مُظهراً لى العقدة الضيقة مقطوعة... يقول، أليس بابى مصنوعاً من معادن مزدوجة؟... يقول ساعانى ألف موت، فأنا أنتظر حياتى ذاتها... يقول إن الإنسان يريد أن يحيا بينما يريدُه الربُّ أن يموت... يقول، فيم تفيد الكنوز، والأتباع، والخدم...؟

فيم؟ فيم؟ فليفتوا، فلينشدوا، فلينوحوا: فلن يلمسوا المنحوتات الباذخة، الترصيعات الوافرة، المصبوبات من الجص والذهب، الصناديق المُطعمّة بالعظم والصدف، الأقفال والمزايح، الخزائن ذات المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية، المقاعد الفوّاحة من الصنوبر المكسيكى، كراسى الجوقة، الحليات العليا والأفاريز السفلى الباروكية مساند المقاعد المنحنية، الدعامات المخروطة، الأتعة المتعدّدة الألوان، المسامير البرونزية، الجلود المنقوشة، أقدام الموييليا ذات المخالب والكُرات، عباات الكهنة ذات الخيوط الفضية، المقاعد المكسوة بالدمقس، الأرائك المخملية، موائد قاعات الطعام، الأوانى والجرار، أسطح الموائد المشطوفة الحافة، الأسرّة ذات المظلات والطنافس، الأعمدة المُحرّزة، شعارات النبالة والحواف المنقوشة، الأبسطة الصوفية، المفاتيح الحديدية، اللوحات الزيتية المُتشقّقة، أقمشة الحرير

والكشمير ، الأصواف والتافتاه، آنية الكريستال والقناديل، الأطباق
المرسومة يدوياً، دعامات السقف الدافئة، هذا لن يمُسَّوه: هذا سيكون
ملكك:
ستمُدُّ يدك:

ذات يوم عادى، لكنه سيكون رغم ذلك يوماً إستثنائياً؛ منذ ثلاث،
أو أربع سنوات؛ لن تتذكر؛ ستتذكر من أجل التذكر؛ لا، ستتذكر لأن
أول ما تتذكره، حين تحاول التذكر، هو يومٌ على حدة، يومٌ إحتفال
طقسى، يومٌ ينفصل عن سواه بفعل الأرقام الحمراء؛ وسيكون هذا هو
اليوم - أنت نفسك ستفكر في ذلك حينها - الذى تختمرُ فيه كلُّ
أسماءٍ وأشخاص، وكلمات، وأفعال دورة* وتجعل قشرة الأرض
تططق؛ ستكون ليلةٌ ستحتفلُ فيها أنت بالعام الجديد؛ أصابعك
المصابة بالتهاب المفاصل ستمسك بالدرابزين الحديدى بصعوبة؛
وستدسُ اليد الأخرى في قاع جيب الجاكته وستهبطُ بتثاقل:
ستمُدُّ يدك:

^٢ «إحتفال كويوا كان هو طقس سيكون فيه أرتيميو نفسه — محكياً بضمير المفرد
الفائب — هو المحتفل. ويتم الطقس في تاريخ أسطورى، في يوم من أيام التقويم
المقدس، تحدده الأرقام الحمراء، يشيرُ إلى وداع عام وقدم العام الجديد، نعرف أن
أرتيميو قد إحتفل لأعوام عديدة بنفس الإحتفال دون أن يكون له معنى خاص. ومن ثم
تتابنا الشكوك.

عمر أرتيميو ستة وستون عاماً. في الرابعة عشرة ينفصل عن لونيرو، وبذلك،
فإنه يُكمل اثنين وخمسين عاماً من الحياة العامة. وحين يُكمل كلُّ عام يومه الأخير،
كان المكسيكيون القدماء يقيمون إحتفال النار، لكن هذا الإحتفال كانت له دلالة خاصة
حين تكتمل دورة من اثنين وخمسين عاماً. وهنا يكمن السبب الذى يوضح الشحنة
الدلالية الغريبة لـ «يوم الإحتفال» هذا. إنه تاريخ تجتمع فيه الأسماء، والأشخاص،
والكلمات، والأفعال لتصوّر الحدث الجوهري: إكتمال الدورة. إنه اللحظة التى نجد

(١٩٥٥: ٣١ ديسمبر)

هو من أمسك بالدرابزين الحديدي بصعوبة. دسَّ اليد الز
في قاع جيب الجاكت المنزلية وهبط بثقل، دون أن ينظر إلى
المخصَّصة لتماثيل العذراء المكسيكية. عذراء جوادلوبى، وثا
وريميدوس. الشمسُ الغاربة، عند دخولها من نوافذ الزجاج
ذهبت الأتواب المحشوة الدافئة، والتورات الواسعة الشبيهة بأ
فضيَّة؛ وصبغت بالحُمرة خشب العوارض المحروق؛ وأضاءت ز
وجه الرجل. كان مرتدياً البنطلون، والقميص ورباط العنق السم
مكسوًّا بالروب المنزلى الأحمر، بدا مشعوذاً عجوزاً ومتعباً: و
التكرار، المتوقع تلك الليلة، للأفعال التى أمكنها ذات مرة أن تت

فيها أن كل الظروف التى تكوُّنها «تختمر وتحمّل قشرة الأرض تطعطق»، تاريخ
بقوى فائقة للطبيعة، حتمية، لا يمكن تجنبها، تجسّد هي مواضع بعينها: منزل
كان، ذكرى الإبن الميت، الانفصال عن كاتالينا، ليليا، الإنطلاق الإنحلالى وا
للثروة. والهيئة: خايمي ثيبايوس، إلخ..

ولهب المدفأة، والألعاب النارية لايد أنها تُذكرُ بانقضاء الزمن القديم الذى
أرتيميو. لهذا فإن الراوى يؤكد على تعثره، وإلتهاب مفاصله، وتضاؤل كبرائه.
أن الزمن الجديد سيقوم على أنقاضه.

Réné Jara C. مقال الناقد

بمنوان. El mito y la nueva novela hispanoamericana.

A propósito de "La muerte de Artemio Cruz"

مُشَبَّعةٌ بمسرةٍ فريدة؛ أما اليوم، فسوف يتعرَّفُ بضيقٍ على نفس الوجوه، ونفس العبارات التي أضفت رنينها عاماً بعد عام على إحتفال سان سيلبستري في مقر الإقامة الضخم في كويواكان.

رننت الخطوات جوفاء فوق الأرضية الحجرية. والقدمان، المضغوطتان بخفةٍ داخل الخُفِّ القماشى الأسود، تجرّجرتا بذلك الثقل المرتجف الذي لم يعد يستطيع السيطرة عليه، طويلاً، ومتأرجحاً على عقبيه غير الثابتين، وصدره عريض ويدان متدلّيتان، عصبيتان، تتخللهما هما أيضاً عروقٌ نافرة، قطع ببطء الممرات المطلية بالأبيض، وهو يبطأ الأُسطة الصوفية السمكية، وينظر إلى نفسه في المرايا العتيقة وفي قطع الكريستال المتقرّقة للأثاثات الكولونيالية، مُمسداً بأصابعه الأقفال والمزاليج، والخزائن ذات المصاريح وفتحات المفاتيح الحديدية، والمقاعد الفوّاحة من الصنوبر المكسيكي، والترصيعات الوافرة. فتح له أحدُ الخدم باب الصالون الكبير؛ توقّف العجوز لآخر مرة أمام مرآةٍ وسوى ربطة عنقه الناعمة. سوى، براحة يده، الشعرات الرمادية القليلة، المتماوجة، التي تحيط بجبهته المرتفعة. ضغط فكّه لتستقر أسنانه الصناعية في موضعها ودخل الصالون ذا الأرضية الملمّعة، ذلك الإتساع الفسيح من ألواح الأرز اللامعة التي أزيحت عنها الأبسطة لإتاحة الرقص، المفتوح على العشب الناعم وشرفات القرميد، المزّين بلوحات العصر الاستعماري: سان سباستيان، سانتا لوثيا، سان خيرونيمو، سان ميغيل.

في آخر الصالون، كان بانتظاره المصوِّرون، مجتمعين حول مقعد الدمقس الأخضر، تحت النجفة ذات الخمسين ضوءاً والمعلقة من السقف. دقّت الساعة السادسة في الساعة الموضوعة فوق المدفأة المفتوحة بجوار المقاعد الجلدية المتأثرة حول النار المشتعلة خلال تلك الأيام الباردة. حيّاهم برأسه وجلس على المقعد، مُسوياً الصديري

المنشئ وأساور القميص القطنية. إقترب خادم آخر بكلبي الحراسة الرماديين، بخطميهما الورديين وعيونهما الحزينة ووضع الطوقين الخشنيين بين يدي السيد. لمع طوقا الكلبين، المزينان بالبرونز، بأضواء متباينة. رفع رأسه وضغط على أسنانه من جديد. أضاءت الومضات الرأس الرمادية بدرجات ضوء جيرية. وكلما طلبوا منه أوضاعاً جديدة، كان يُصرُّ على تسوية شعره والمرور بأصابعه على الكيسين الثقيلين اللذين يتدليان من منخاريه وينتهيان عند عنقه. وحدهما الوجنتان العاليتان كانتا تحتفظان بصلايتهما المعهودة، رغم الشبكات الدقيقة من التجاعيد التي تتخللهما بدءاً من الجفنين وتزداد عمقاً كل يوم، كأنها تريد حماية تلك النظرة التي تبدو مرحة ومرة في آن واحد، وتلكما الحدقتين الخضراوين المختفيتين بين طيات اللحم المتهدل.

نجح أحد الكلبين وأراد الإنفلات من قيده. إنطلق وميض في نفس اللحظة التي إنجذب هو فيها بعنف من مقعده، وعلى وجهه تعبير عن الحيرة المتصلبة، بفعل قوة جذب الكلب. نظر بقية المصورين بقسوة لمن التقط الصورة. نزع المستول المربع الأسود من الكاميرا وسلمها، في صمت، إلى مصوّر آخر.

حين خرج المصورون، مدّ هو يده المرتعشة وتناول سيجارة بفلتر من الصندوق الفضي الموضوع فوق المنضدة الريفية الطراز. أشعل لهب الولاعة بصعوبة وتفقد ببطء، هاراً رأسه بإيماء موافقة، لوحات سير القديسين العتيقة، المدهونة بالورنيش، تبعها مساحات كبيرة ميتة من الضوء المباشر تخفي التفاصيل المركزية للأعمال لكنها، بالمقابل، تضيء بروزاً داكناً على الأركان ذات الدرجات الصفراء والظلال المائلة إلى الحمرة. ربت على الدمقس واستشق الدخان عبر الفلتر. إقترب الخادم دون أن يصدر صوتاً وسأله إن كان يقدم له شيئاً. أوماً موافقاً وطلب مارتيني مركز جداً. فتح الخادم ضلفتين من

خشب الأرز المشغول ليظهر التجويفُ المبطنُ بالمرايا، واجهةً بطاقات الماركات الملونة والسوائل الموضوعة في زجاجات: أوبال أخضر زمردى، أحمر، أبيض باللورى: شارتروز، بيپر مينت، أكوافيت، فيرموت، كورفوازيه، لونج چون، كالفادوس، آرمانياك، بيهيروفكا، بيرنوه وصفوف الكؤووس الكريستال، ثقيلة وقصيرة، رشيقة ومُخششة. تلقى مشروبه. أشار للخادم أن يمضى إلى القبو ليختار الماركات الثلاث لمشروبات العشاء. مدَّ ساقيه وفكر في التدقيق الذى كان قد راعاه عند بناء وتوفير وجوه الراحة لهذا المنزل، منزله الحقيقى. كان يمكن لكاتالينا أن تعيش في الدار الضخمة في حى لاس لوماس، العديمة الشخصية، المائلة لكل مقار إقامة أصحاب الملايين. أما هو فكان يفضل أن يجد هذه الجدران العتيقة، التى تحمل قرنين من الأحجار والصخر البركانى، والتى تقرِّبه بطريقة غامضة من فصول الماضى، من صورة للأرض لم يكن يريد أن يفقدُها تماماً. نعم، كان واعياً بأن ذلك كله كان ينطوى على إستبدال، على فعل سحرى. ورغم ذلك كانت الأخشاب، والأحجار، والقضبان الحديدية، والمنحوتات، والموائد الضخمة، وأشغال النجارة، وعتبات النوافذ والفُرجات بين الأعمدة، وخرابة الكراسى تتأمر لتعيد إليه حقاً، بعطر حنينٍ خفيف، مناظر، وأجواء، ومشاعر محسوسة من شبابه.

كانت ليليا تتذمَّر؛ لكن ليلياً لَن تفهم أبداً. ماذا يمكن أن يوحى لهذه الفتاة سقفٌ ذو عوارض عتيقة؟ وماذا، نافذة ذات قضبان بها مساحاتٌ داكنة من الصدأ؟ وماذا، الملمسُ الباذخ للعباءة فوق المدخنة، بفُشور ذهبية، وموشاة بخيوط الفضة؟ وماذا، رائحة الصنوبر المكسيكى للخزانات؟ وماذا، البريق المغسول للمطبخ ذى القيشانى الريفى؟ وماذا، الكراسى الأسقفية لحجرة الطعام؟ ثرياً، حسياً، باذخاً كان إمتلاك هذه الأشياء مثل إمتلاك النقود وعلامات الوفرة الأكثر

بدهاءةً. آه، نعم، ياله من ذوق مكتمل، يالحسنية الأشياء غير الحية، ياللذة، ياللمتعة الموضوععة على حدة... ومرةً واحدةً في العام يتقاسم هذا كله المدعوون إلى حفل إستقبال سان سيلبستري الشهير... إنه يوم مُتَع مضاعفة: لأن المدعوين عليهم أن يقبلوا هذا المنزل بإعتباره منزله الحقيقي ويفكروا في كاتالينا المستوحدة التي، مجتمعةً معهما، مع تيريسا وخيراردو، تتناول العشاء في تلك الساعات في مقر لاس لوماس... بينما يقدّم هو للمدعوين ليليا ويفتح أبواب قاعة طعام زرقاء، أواني طعام زرقاء، ومفارش زرقاء، وحيطان زرقاء... حيث تسيل الخمور وتجنّ الأطباق الضخمة ممتلئةً باللحوم النادرة، والأسماك الوردية والاستاكوزا الفوّاحة، والأعشاب السرية، وأنواع الحلوى المكوّمة...

هل كان من الضروري مقاطعة إسترخائه؟ الترنح اللامبالي ليليا فوق الأرضية. أظافرها دون ألوان فوق باب الصالون. وجهها ملطخٌ بالدهن. تريد أن تعرف إن كان الفستّان الوردى يناسبها لحفل الليلة. لا تريد أن تبدو نشاراً مثل العام الماضي، وتثير ذلك الضيق المزدري. آه، لقد بدأ يشرب! لماذا لا يدعوها إلى كأس؟ يرهقها إنعدام الثقة هذا، هذا البار المغلق بالقفل، هذا الخادم الوقح الذي ينكر عليها الحق في الدخول إلى القبو. هل يصيبها السأم؟ كأنه لم يكن يعرف. توذّ لو تكون عجوزاً، قبيحة، حتى يطردها مرة وإلى الأبد ويتركها تحيا كما يروق لها. لا أحد يوقفها؟ وماذا عن النقود، والرفاهية، والدار الكبيرة؟ نقود كثيرة، ورفاهية كثيرة، لكن دون بهجة، دون تسليات، دون الحق حتى في شرب كأس. طبعاً، تحبه جداً. قالت ذلك ألف مرة. النساء تتعوّدن على كل شيء؛ الأمر يتوقف على المحبة التي تلتنها. يمكنهن أن يتعودن على حب شاب مثلاً على حب أبوي. طبعاً تكنّ له إعزازاً أكيد... إنقضت ثمانى سنوات تقريباً وهما

يعيشان معاً ولم يتشاجر معها، لم يُؤَيِّخها... لم يفعل سوى أن أجبرها... لكن كم يسعدُها أن تتسلَّى قليلاً... ماذا؟ هل تخيلها بهذه الحماسة؟... خلاص، خلاص، إنه لم يعرف أبداً كيف يحتمل دعايةً. طبعاً، لكنه ينتبه للأمور... لا أحد يبقى للأبد... تجاعيد كقدم الديك حول العينين... الجسدان... إلا أنه هو أيضاً معتادٌ عليها، أليس كذلك؟ في سنه سيكون شاقاً عليه أن يبدأ من جديد. بكل هذه الملايين... يتكلَّفُ المرءُ عناءً ووقتاً طويلاً في البحث عن امرأة... الملعونات... يعرفنُ ألا عيب كثيرة، ويروق لهن التملص... إطالة اللحظات الأولية... الرفض، الشك، الانتظار، الإغواء، آي، كلُّ هذا... ويجعلنُ العجائز حمقى... طبعاً هي مريحة أكثر... وهي لا تشكو، لا، طبعاً لا. بل ويُرضى خيالها أن يأتوا لتحياتها كلَّ عام جديد... وهي تحبه، نعم، إنه يُقسم على ذلك، لقد أصبحت مفرطة في إعتيادها له... لكن كم يصيبها السأم... لنرى، ما العيب في أن تكون لها بضعة صديقات حميمات، في أن تخرج لتتسلَّى بين الحين والحين، في... في أن تتناول كأساً في مكان ما كل أسبوع...؟

ظلَّ ساكناً. لم يكن يُسلِّم لها بهذا الحق في مضايقته ورغم ذلك... فإن تهاوُّناً فاتراً ومتراخياً... غريباً تماماً على طبعه... أجبره على البقاء هناك... والمارتينى بين أصابعه المتصلبة... يستمع إلى سخافات هذه المرأة التي تزداد سوقية كل يوم و... و... لا، إنها مازالت مقبولة... رغم أنها لا تحتمل... كيف كان يمكنه أن يسيطر عليها؟... كل ما كان يسيطر عليه كان بطيعة، الآن، بمجرد إمتداد معين مُفترض، خامل... لقوة سنوات شبابه... يمكن لليليا أن تهجره... عصر ذلك قلبه... لا يقوى على تجنب ذلك... ذلك الخوف... ربما لن تكون ثمرة فرصة أخرى... أن يبقى وحيداً... حرك بصعوبة أصابعه، رُسغه، مرفقه وسقطت الطفاية على السجادة وبعثرت الأعقاب المبتلة

والصفراء في قوس، تراب ، غلاف أبيض، وقشرة رمادية، وقلب أسود.
إنحني، متففساً بصعوبة.

- لا تتحن. حالاً سأنادي على سيرافين
- نعم

ربما... سأم. لكن قرف، نضور... دائماً، يتخيّل بفعل الشك...
جعلته رقة لا إرادية يدير وجهه لينظر إليها...

راقبها، عند إطار الباب... حانقة، عذبة... الشعر مصبوغ بلون
كستنائي وذلك الجلد الأسمر... هي أيضاً لم يكن باستطاعتها
الرجوع... فلن تستعيده أبداً وهذا يجعلهما متعادلين... مهما فصل
بينهما السن أو الطبع... مشاجرات، لماذا؟... شعر بالإرهاق. لا أكثر...
الإرادة والقدر قرراً... لا أكثر... لا أشياء أكثر، لا ذكريات، ولا أسماء
أكثر من تلك المعروفة... عاود التريبت على الدمقس... الأعقاب،
والرماد المتناثر لم تكن رائحتها طيبة. وليليا، واقفة هناك ووجهها
ملطخ بالدهن.

هي عند المدخل. وهو جالس في مقعد الدمقس.
عندئذ تنهدت هي ومضت مترنحة إلى المخدع

وانتظر هو جالساً، دون أن يفكر في أي شيء، حتى فاجأته الظلمة
حين رأى نفسه منعكساً بدقة بالغة في الأبواب الزجاجية المؤدية إلى
الحديقة. دخل الخادم ومعه الجاكت، ومنديل، وزجاجة ماء كولونيا،
واقفاً، سمح العجوز بالباسه الجاكت ثم فرد المنديل لينثر عليه الخادم
بضع قطرات من اللوسيون. حين وضع المنديل في جيب الصدر، تبادل
نظرة مع الخادم. خفض الخادم عينيه. لا. لماذا سيفكر فيما يمكن أن
يشعر به هذا الرجل؟

- سيرافين، الأعقاب بسرعة...

نهض مستنداً بكلتا يديه على ذراعي المقعد. سار بضع خطوات

نحو المدفأة وربّت على حديد توليدو المشغول وأحسّ بلفح النار على وجهه ويديه. تقدّم عندما سمع همهمات الأصوات الأولى - المسرورة، المعجبة - في ردهة المنزل. إنتهى سيرافين من إلتقاط الأعقاب.

أمر بتقليب النار ودخل آل ريجولس بينما الخادم يُحرّك ملاقط الحديد ويتصاعد لهب ضخّم في المدخنة. من الباب المؤدى إلى قاعة الطعام تقدّم خادم آخر بين يديه صينية. أخذ روبرتو ريجولس كأساً بينما كان الزوجان الشابان - بتينا وزوجها، ثيبايّوس الشاب - مشتبكى الأيدي، يذرعان الصالون ويمتدحان اللوحات العتيقة، ومصبوبات الجص والذهب، والترصيعات الوافرة، والحليات العليا والأفاريز السفلى الباروكية، والدعامات المخروطة، والأقنعة المتعدّدة الألوان. كان يدير ظهره إلى الباب حين إرتطم الكأس بالأرضية بإيقاع جرس مكسور وصاح صوت ليليا بشئ في لهجة سخرية. رأى العجوز والمدعوون وجه تلك المرأة دون مساحيق وهي تظهر مستندة على مقبض الباب: - ترلاً، ترلاً، عام جديد سعيد... لا تقلق، أيها العجوز، فسوف أفيق خلال ساعة واحدة... وأهبط كأن شيئاً لم يكن... أردت فقط أن أقول لك أنتى قرّرت قضاء عام هادئ جداً... هادئ تمام الهدوء...

أتّجه نحوها بخطوه المرتعش الصعب وصاحت هي: - لقد ملّكتُ من مشاهدة برامج التلفزيون طوال النهار... أيها العجوز! مع كل خطوة من خطوات العجوز، كان صوت ليليا يسرّس أكثر. - صرت أعرف كلّ حكايات رعاة البقر... بومبوم... مارشال أريزونا... معسكر الهنود الحمر... بومبوم... صرت أحلم بتلك الأصوات... أيها العجوز... إشرب بيبيسى... لا أكثر... أيها العجوز... أمنّ مع راحة؛ بوليصات تأمين...

صفت اليد المصابة بالتهاب المفاصل الوجه المجرّد من المساحيق

وسقطت الخصلات المصبوغة على عيني ليلى. كفت عن التنفس. أدارت ظهرها ومضت، ببطء، وهى تلمس خدّها. عاد هو إلى جماعة آل ريجولس وخامى ثيبايّوس. حدّق بصره فيهم، في كل واحد منهم، خلال عدة ثوان، ورأسه مرتفع. رشف ريجولس الويسكى؛ وخبأ نظرتة خلف الكأس. إبتسمت بتينا واقتربت من المضيف بسيجارة بين يديها، كأنها تطلب لها.

- أين وجدت هذه الخزانة؟

إبتدع العجوز وأشعل الخادم سيرافين عود ثقاب قرب وجه الفتاة وكان عليها أن تبعد وجهها عن قامة العجوز وتدير له ظهرها. في عمق الردهة، خلف ليلى، دخل الموسيقيون متلفعين بكوفياتهم، تصطك أسنانهم من البرد. طرّق خامى ثيبايّوس بأصابعه ودار حول عقبيه مثل راقص فلامنكو.

فوق المائدة ذات أرجل الدولفين، تحت النجفات البرونزية، طيور حجل في صلصلة شحم خنزير ونبيد حامض، وأسمال قدّ ملفوفة بأوراق خردل من تازاجونا، وبطّات برية مكسوّة بقشور برتقال، وأسماك شُبُّوط تحيطها بطارخ محار، وحساء سمك قطالونى كثيف برائحة الزيتون، وديك بالنبيذ مطهو على اللهب يسبح في نبيد مأكون، وحمّام محشو بمسحوق الخرشوف، وأطباق سمك ضخمة فوق كتل الثلج، وأسياخ إستاكوزا وردية في حلقات من الليمون، وفطر مع شرائح طماطم، وجامبو من بايونا، وحساء لحم بقر مطهو بنبيذ أرمانيك، ورقاب إوز محشوة بمسحوق لحم الخنزير، وعجينة قسطل مع قشور تنح مقلية في الجوز، وصلصات بصل وبرتقال، وثوم وفستق، ولوز وقواقع: في عيني العجوز، حين فُتح الباب المشغول بنقوش قرون الوفرة والملائكة ذات الأفخاذ، المطلية بألوان متعددة في دير كيريتارو، لمت تلك النقطة العصية البلوغ: فُتح الأبواب على مصراعها وابتسم

إبتسامة جافة، خشنة، كلما قدّم أحد الخدم طبقاً من أطباق درسدن إلى أحد المدعوين المائة، مصحوباً بقطعة أدوات المائدة على الأطباق الزرقاء؛ إمتدت كؤوس الكريستال نحو الزجاجات التي يقدّمها الخدم وأمر هو بإزاحة الستائر التي تحجب الواجهة الزجاجية المفتوحة على الحديقة التي تظللها أشجار الكرز، والبرقوق العارية، الهشّة، والتمائيل النظيفة من أحجار الأديرة: أسود، وملائكة، ورهبان مهاجرون من قصور وأديرة عصر نائب الملك؛ إنطلقت صواريخ الألعاب النارية، القلاع الضخمة من الأضواء الواهنة المنطلقة صوب مركز قبة السماء الشتوية، الصافية والبعيدة؛ إشارة بيضاء ومُقطّعة يقطعها التحليق الأحمر لمروحة تتخللها الألوان الصفراء؛ نافورة لندوب الليل المفتوحة، ملوك محتفلون تبرق أوسمتهم الذهبية فوق قماش الليل الأسود، عربات من الضوء تسير صوب نجوم الليل المتلّعة بالحداد. خلف شفتيه المطبقتين، ضحك تلك الضحكة المغمّمة. تم إسبدال الأطباق الضخمة الفارغة بمزيد من الطيور، بمزيد من المحار، بمزيد من اللحم الدامي. دارت الأذرع العارية حول العجوز الجالس بنثاق في كوة من مقاعد الجوقة العتيقة، المطعّمة، المنقوشة ببذخ، بعليات عليا وأقاريز سفلى مفناجة. استنشق، ونظر إلى عطور النساء، إلى استدارات النحور، إلى السرّ المحلوق في الأباط، إلى شحومات الأذان المحمّلة بالجواهر، إلى الأعناق البيضاء والخصور الضامرة التي ينطلق منها تحليق التافاته، والحرير، وشباك الذهب؛ إستنشق تلك الرائحة لماء اللافاندر والسجائر المشتعلة، لطلاء الشفاه وظلال الجفون، للأحذية النسائية والكونياك المسكوب، لثقل الهضم وطلاء الأظافر. رفع كأسه ونهض هو نفسه على قدميه؛ وضع الخادم بين يديه أطواق الكلبين اللذين سيرافقانه خلال ساعات الليل المتبقية؛ إنطلقت صيحات العام الجديد: إرتطمت الكؤوس بالأرضية وربّت الأذرع،

وضغطت، وارتفعت للاحتفال بعيد الزمن هذا، بهذه الجنازة، بمحرقة
الذاكرة هذه، بهذا الإنبعاث المختمر لكل الأفعال، بينما تعزف
الأوركسترا لحن Las golondrinas ، لكل الأفعال، والكلمات،
والأشياء الميَّنة لتلك الدورة، للاحتفال بتأجيل هذه الحيات المائة التي
علقت أسلحتها، رجالاً ونساءً، لتقول لنفسها، بنظرة ندية أحياناً، أنه ما
من زمن سوى هذا، الذي يُعاش وتجرى إطلالته خلال هذه اللحظات
التي يمدّها إصطناعياً انفجار الصواريخ والأجراس المدوّية: رتبت ليليا
عنقه كأنها تطلب منه الصفح: كان هو يعرف، ربما، أن أشياء كثيرة،
رغبات ضئيلة كثيرة يجب كبتها حتى يمكن، في لحظة إمتلاء واحدة،
الاستمتاع تماماً، دون جهد مسبق، ولا بد أنها ممّنة له لذلك: قال لها
ذلك بغمغم. وحين عاودت الكمنجات، في الصالة، عزف لحن يؤسّاء
ياريس، تناولت هي، بدلال معروف، ذراعه لكنه رفض بإيماءة من رأسه
البيضاء وسار يسبقه الكلبان إلى المقعد الذي سيسفله بقية الليل، في
مواجهة أزواج الراقصين... سيتسلى برؤية الوجوه، المتكلفة، العذبة،
الماجنة، الشريرة، الغبيّة، الذكيّة، مفكراً في الحظ، في الحظ الذي
نالته الجميع، هم وهو... وجوه، أجساد، رقصات كائنات حرّة، مثله...
كانت تبعث فيه الثقة، تبعث فيه الأمان وهو ينتقل بغفّة فوق الأرضية
المدهونة بالشمع، تحت شبكة العنكبوت المضيئة... وهو يحرز ذكرياته،
بجعلها قائمة... كانت تجبره، بطريقة شاذة، على الإستمتاع أكثر بهذه
الهويّة... بهذه الحرية والسلطة... لم يكن وحيداً... فهؤلاء الراقصون
يرافقونه... هذا ما قالته له حرارة بطنة، رضا أحشائه... الرفقة
السوداء، الكرنفالية، للشيخوخة ذات السّلطة، للحضور المشوب
بالشيب، بالتهاب المفاصل، الثقيل... صدى الابتسامة المتصلة،
الخشنة، المنعكسة في حركة العينين الخضراوين... سلالات نبيلة
حديثّة العهد، مثله... وأحياناً أحدث عهداً... كانت تدور، تدور...

يعرفهم... صناعيون... تجار... ذئاب... أطفال مؤدَّبون... مرابون... وزراء... نوَّاب... صحفيون... زوجات... خطيبات... قوَّادات... عشاق... دارت الكلمات المبتورة لمن كانوا يمرُّون راقصين أمامه...

- نعم... - سنذهب بعد ذلك... - لكن أبى... - ... أحبك... - ... حر... ٥- هذا ما حكوه لى... - ... أماننا وقتٌ كافٍ... - إذن... - ... هكذا... - ... يسرنى هذا... - أين؟ - ... قل لى... - ... لن أعود أبداً... - ... هل أعجبك؟... - ... صعب... - ضاع ذلك... - حلوة... - ... شهى المذاق... - ... إنهار... - ... عن جدارة... - ... هممم...

هممم ! كان بمقدوره أن يخمّن من عيونهم، من حركات شفاههم، وأكتافهم... كان بمقدوره أن يقول لهم في صمت ما يفكر فيه... كان بمقدوره أن يقول لهم من هم... كان بمقدوره أن يذكرهم بأسمائهم الحقيقية... بالافلاسات المزيفة... بتخفيضات العملة المكشوفة مسبقاً... بالمضاريبات على الأسعار... بالرهونات المصرفية... بالإقطاعات الجديدة... بالتحقيقات الصحفية بسعر محدد لكل سطر... بعقود الأشغال العامة المتضخّمة القيمة... بالجولات الانتخابية لحساب الكبار... بتبديد ثروات الآباء... باستغلال النفوذ في وزارات الدولة... بالأسماء الزائفة: أرتورو كاپدييلا. خوان فيليبى كووتو، سباستيان إيبارجوين، بيتتى كاستانييدا، بدرو كاسو، خينارو آرّاجا، خايمى ثيباؤوس، بيبيتو إيبارجوين، روبرتو ريجولس... وعزفت الكمنجات وتطايرت الجونلات وذبول الفراك... لن يتحدثوا عن هذا كله... سيتحدثون عن رحلات وغراميات، عن منازل وسيارات، عن إجازات واحتفالات عن مجوهرات وخدم، عن أمراض وقساوسة... لكنهم موجودون هناك، هناك، في البلاط... أمام أوفرهم سلطة... يدمرهم أو يملقهم بخبر في الصحيفة... يفرض عليهم حضور ليليا... يحفزهم، بصوتٍ خفى، على الرقص، على الأكل، والشراب...

يحس بهم حين يقتربون...

- كان على أن أحضره، لمجرد أن يرى هذه اللوحة لرئيس الملائكة،
هذه، رائعة...

- قلت هذا دائماً؛ وحده ذوق دون أرتميو...

- كيف يمكن أن نعبر عن شكرنا لك؟

- كان كلُّ شئٍ رائعاً حتى أننى ظلت مبهورة، مبهورة، مبهورة، يا
دون أرتميو؛ يالها من أنبذة! وتلك البطّات بتلك الأشياء الرائعة!

... أن يُشيع بوجهه ويتجاهل... كانت تكفيه الشائعات... لم يُرد
أن يثبت إنتباهه في شئ... كانت الحواس تتمتع بمجرد همهمات ما
يحيطه... ملامس، روائح، طعوم، صور... فليسّموه، بين الضحكات
والوشوشات، مومياء كويواكان... فليسخروا من ليلىا بابتساماتٍ
سرّية... فهاهم هناك، يرقصون تحت بصره...

رفع ذراعاً؛ إشارة إلى قائد الأوركسترا: توقفت الموسيقى في
منتصف المعزوفة وكفّ الجميع عن الرقص: اللحن الشرقي الخليط
ينبعث من الأوتار، المر المفتوح وسط الناس، المرأه شبه العارية التي
تقدّمت من الباب، مؤرجحة ذراعيها ومؤخرتها حتى إحتلت مركز
الصالون: صرخة مرحلة: الراقصة المنحنية أمام إيقاع الطبول الذي
يسيطر على خصرها؛ جسدٌ ملطخٌ بالزيت، شفاه برتقالية، جفون
بيضاء وحواجب زرقاء؛ على قدميها، راقصةٌ حول الدائرة، محرّكة
بطنها في إرتجافات تتزايد سرعة؛ إختارت إيبارجوين العجوز وجرتّه
من ذراعه إلى مركز حلقة الرقص، أجلسته على الأرض، ووضعت
ذراعيه في وضع الإله فيشنو، تراقصت حوله وحاول هو تقليد
تماوجاتها؛ إبتسم الجميع؛ إقتريت من كإيدييلا، أجبرته على نزع
الجاكت، وعلى الرقص حول إيبارجوين: ضحك المضيف، غاطساً في
كرسيه الدمقسى، مُربّئاً على أطواق الكلبين؛ إمتطت الراقصة ظهر

كووتو وشجعت عدّة نساء على تقليدها: ضحكوا جميعاً: دمّرت الإمتطاءات، بين القهقهات، تسريعات الشعر ولطخت بالعرق وجوه الأمازونات المنتفخة: تكرمشت الجونلات، وقد رُفعت إلى ما فوق الركبة: فرد بعض الشبان، بين ضحكات حادة، سيقانهم لكعبة خيول السباق المرتجفة الذين كانوا يتقاتلون بين العجوزين الراقصين والمرأة ذات الفخذين المفتوحين.

رفع بصره، كأنه يطفو من غطس بفعل ثقل حجرى: فوق الرؤوس المشعّة والأذرع المتماوجة، والسماء الصافية ذات العوارض والحيطان البيضاء، واللوحات الزيتية للقرن السابع عشر والثياب السمكية الملائكية... وفي السمع المتقبه، العمل الخفى للجردان الهائلة - ظهورٌ سوداء، وأسنان حادة - التى تسكن سقوف وملاط هذا الدير القديم التابع للقديس خيرونيمو، والتى تنزل أحياناً دون حياء من أركان الصالة وفي الظلام، بالآلاف، وفوق وتحت المحتفلين المرحين، كانت تتنظر... ربما... فرصة مباغتتهم جميعاً... لتعديهم بالحمى والصداع... بالدوار والرجفة الباردة... بالانتفاخ الصلب والمؤلّم بين الساقين والإبطيين... إذا رفع ذراعه من جديد... حتى يغلق الخدم المداخل بعوارض حديدية... مخارج هذا المنزل ذى الأوانى والجرار... واللوحات الزيتية المتشقّقة... والأسيرة ذات المظلات والطنافس... والمفاتيح الحديدية... والمصاريع والكراسى... والأبواب المصنوعة من معادن مزدوجة... وتمائيل الرهبان والأسود... ووجدت جماعة الكوميبارس نفسها مضطرة للبقاء هنا... وعدم مغادرة السفينة... لفرك أجسادها بالخل... وإشعال حرائق بالخشب العطرى... وتعليق مسابح من الصعتر حول أعناقهم... وهش الذبابات الخضراء والطنانة بتراخ... بينما يأمرهم هو بالرقص، بالحياة، بالشراب... بحث عن ليلياً في بحر الناس المتصايحين: كانت تشرب وحيدة وصامتة في

ناصية، وعلى شفيتها إبتسامة بريئة، مديرةً ظهرها للرقصات والمعارك المفتعلة... كان بعض الرجال يخرجون للتبؤل... وأيديهم فوق سراويلهم... وبعض النساء يخرجن لوضع البودرة... وهن يفتحن حقيبة أدوات الزينة... إبتسم بقسوة... الشيء الوحيد الذى يثير إنطلاق البهجة والسخاء: كركر في صمت... تخيلهم... جميعاً، وكل واحد فيهم، واقفين صفّاً أمام مرحاضى الدور الأرضى... كلهن يتبولون ومثانتهم ممتلئة بسوائل رائعة... كلهم يتبرزون بقايا الطعام المعدّ خلال يومين بتدقيق، وذوق، وانتقاء... غريبين في كل شئ عن هذا المصير النهائى للبط والقواقع، للمعاجين والصلصات... آه نعم، أكبر مُتّع الليلة كلها.

تعبوا سريعاً. إنتهت الراقصة من الرقص وبقيت تحيطها اللامبالاه. عاود القوم الحديث، وطلب المزيد من الشمبانيا، والجلوس على الأرائك العميقة؛ وعاد البعض من جولتهم، يُزِرُّون البنطلون، وتحفظن علبة البودرة في حقيبة أدوات الزينة. إستفتدت. العريدة القصيرة المتوقّعة... التسامى الدقيق المبرمج... عادت الأصوات إلى نغمتها الهادئة المتماوجة... إلى تكتم الهضبة المكسيكية... وعادت تلك الهموم... كأنها تريد الإنتقام من اللحظة الماضية، من اللحظة العابرة...

- ... لا، لأن الكورتيزون يسبّب لى الفُواق...

- ... لا تعرفين التدريبات الروحية التى يُعلّمها الأب مارتينث...

- إنظرى إليها: من يمكن أن يقول ذلك؛ يقال أنهما...

- ... إضططرت لطردها...

- ... لويس يصل متعباً لدرجة أنه لا يريد سوى...

- ... لا، خايمى، لا يحب...

- ... أصبحت منطلقة جداً...

- ... لمشاهدة التليفزيون لبعض الوقت...
- ... خادمت اليوم لم يعد يمكن إحتمالهن...
- ... عاشقان منذ نحو عشرين عاماً...
- ... كيف سيمنحون حق الانتخاب لهذه الحفنة من الهنود؟
- ... والمرأة وحيدة في بيتها؛ أبداً...
- ... إنها مسائل سياسة عليا؛ نحن نتلقى...
- ... ليظل الحزب الثورى الدستورى يختار برفع الأصابع وبس...
- ... تعليمات السيد الرئيس في البرلمان...
- ... أنا أتجاسر حقاً...
- ... لاورا؛ أعتقدت إن إسمها لاورا...
- ... نحن نعمل بضعة أفراد...
- ... إذا عادوا للذكر الـ income tax ...
- ... من أجل ثلاثين مليوناً من الكسالى...
- ... أنا بصراحة سأحمل مدخراتى إلى سويسرا...
- ... الشيوعون لا يفهمون سوى...
- ... لا خايمى، لا يجب أن يضايقه أحد...
- ... ستكون صفقة رائعة...
- ... بالهراوات...
- ... تستثمر فيها مائة مليون...
- ... إنها لوحة رائعة لدالى...
- ... ونستعيدها خلال عامين...
- ... أرسلها إلى وسطاء قاعة عرضى...
- ... أو أقل...
- ... في نيويورك...
- ... عاشت سنوات طويلة في فرنسا؛ تغريرات...، يقال...

- ... سنجتمع نحن السيدات فقط...
- ... باريس هي مدينة النور بمجرد إسمها...
- ... حتى نتسلى وحدنا...
- ... إذا أردت، نخرج غداً إلى أكابولكو...
- ... مضحك! عجالات الصناعة السويسرية...
- ... استدعاني السفير الأمريكي ليحذرنى...
- ... تتحرك بفضل العشرة آلاف مليون دولار...
- ... لاورا! لاورا ريشير! عادت لتتزوج هناك...
- ... في الطائرة...
- ... التي هي ودائنا نحن الأمريكيين اللاتين...
- ... ما من بلد يمتجى من التخريب...
- ... كيف لا، لقد قرأت ذلك في الـ Excelsior ...
- ... أقول لك: ترقص رقصاً رائعاً...
- ... روما هي المدينة الأبدية بإمتياز...
- ... لكنه لا يملك فلساً واحداً...
- ... كوّنتُ ثروتى بصعوبة شديدة...
- ... آه منك، أنك تشعرين بأنك قديسة ملفوفة في بيضة...
- ... لماذا أدفع ضرائب لحكومة من اللصوص؟...
- ... يسمونه المومياء، مومياء كوبواكان...
- ... دارلنج، إنه مصمم أزياء رائع...
- ... قروض للزراعة؟...
- ... أقول لك أنه يشغل دائماً في الـ put ...
- ... مسكينة كاتالينا...
- ... ومن عندك سيحكم في نويات الجفاف والجليد؟...
- ... لا مفر من ذلك: فنون استثمارات أمريكية...

- ... يقولون أنها حبه الكبير، لكن...
- ... مدريد، جميلة؛ أشبيلية، رائعة...
- ... لن تخرج أبداً من الحفرة...
- ... لكن مثل المكسيك...
- ... تغلّيت المصالح، واخذه بالك؟...
- ... سيدة المنزل؛ لو لم تكن...
- ... أكسب أربعين سنتابو من كل بيسو...
- ... إنهم يعطونا أموالهم والـ know-how ...
- ... منذ قبل إقراضها ...
- ... ومازلنا نشكو...
- ... كان ذلك منذ بضع وعشرين عاماً...
- ... موافق: زعماء محليون، وقادة قابلون للشراء، وكل ما تريد...
- ... صنع لي ديكور كل شيء بالأبيض والذهبي، مهول!
- ... لكن السياسى الجيد لا يحاول إصلاح الواقع...
- ... السيد الرئيس يشرفنى بصداقته...
- ... بل بالاستفادة منها والعمل معها...
- ... عن طريق الصفقات التى يعقدها مع خوان فيليبى، من الواضح...
- ... إنه يقوم بالآف الأعمال الخيرية، لكنه لا يتحدث عنها أبداً...

- ... قلت له فقط: لا داعى لأن...
- ... ندين لبعضنا جميعاً بخدمات، أليس كذلك؟
- ... أعطى أى شيء للتخلص منه!
- ... قاطعنى بوضوح، مسكينة كاتالينا!...

- ... ساومهم لكن على أقل من عشرة آلاف دولار...
 - ... لاورا؛ أعتقد أنهم كانوا يدعونها لاورا؛ أظنها كانت جميلة جداً...

- ... لكن ماذا تريدان، الواحدة منا ضعيفة هكذا...
 كان يباعدنهم، ويُقربهم دُوار الرقص والمحادثات. والآن فقط،
 جلس هذا الشاب ذو الابتسامة الواسعة والشعر الأشقر متربعا بجوار
 العجوز، وازن كأس الشمبانيا بيده، وأمسك ذراع المقعد بالأخرى...
 سأله الشاب إن كان يضايقه فقال العجوز: - لم تفعل سوى هذا طوال
 الليلة، يا سنيور ثيبايتوس... ولم ينظر إلى الشاب... ظل مُتنبئا نظرتة
 في مركز الصخب... ثمة قاعدة غير مكتوبة... لا يجب أن يقترب منه
 المدعوون، إلا كي يمتدحوا المنزل والعشاء بتعجل... يجب أن يحترموا
 المسافة التي يفرضها... دون حساب... أن يشكروا ضيافته مع
 التسلية... المنظر والجلسة... إنه لا يعرف... واضح أن ثيبايتوس
 الشاب لا يعرف... أتعرف؟ أنا معجب بك... بحث هو في جيب
 الجاكت وأخرج عليه سجاثر مجمدة... أشعل سيجارة ببطء... دون أن
 ينظر إلى الشاب... الذي كان يقول أن ملكاً فقط هو الذي يمكن أن
 ينظر بالاحتقار الذي نظر هو به إليهم عندما... فسأله هو إن كانت
 المرة الأولى التي يحضر فيها... فأجاب الشاب أن نعم... وحموك
 ألم...؟ وكيف لا... إذن... هذه القواعد وُضعت دون
 استشارتي، دون آرتميو... لم يقاوم... بعينيه الناعستين... ودوائر
 الدخان... أدار وجهه إلى خايمي فنظر إليه الشاب دون أن يطرف له
 بصر... شقاوة في نظرتة... حركة الشفتين والفكين... للعجوز...
 للشباب... تعرف على نفسه، أم... أريكه، أم... بأي شيء، سنيور
 ثيبايتوس... بأي شيء ضحيت... لا أفهمك... لم يفهمه، قال أنه لم
 يفهمه... استنشق ضحكة من منخاره... الجرح الذي تسببه خيانتا

لأنفسنا، يا صديقي... مع من يظن أنه يتحدث؟ يظن أنني أخدع نفسي...؟ قرب منه خايمي الطفاية... آه، عبرا النهر على صهوة الجياد، ذلك الصباح... - ... هل هذا تبرير...؟ راقبت دون أن أكون مُراقباً... - مؤكِّدٌ أن حماك والأشخاص الآخرين الذين تتعامل معهم... عبروا النهر، ذلك الصباح... - ... ثروتنا مُبرِّرة، فقد عملنا لنصل إليها... - ... مكافأتنا، هيه؟... سأله إن كانا سيمضيان سوياً، حتى البحر... - هل تعرف لماذا أنا فوق كل هؤلاء الناس... وأسيطر عليهم؟... قُرب منه خايمي الطفاية؛ أوماً بالسيجارة المنتهية... خرج من المخاضة وصدره عار... - آه، أنت إقتريت، ولم أنادِكِ أنا... أغمض خايمي عينيه نصف إغماضة ورشف من الكأس... - هل تفقد أوهامك؟... كانت هي تردُّد، "يا إلهي، أنا لا أستحق هذا"، رافعة مرآتها، متسائلة هل هذا ما سيراه حين يعود... - كاتالينا المسكينة... - لأنني لا أخدع نفسي... سيتبيئون في الضفة الأخرى شيخ أرض، شبحاً، نعم... - ما رأيك في هذا الحفل؟... ترنج، ياله من ترنج رائع، تشا تشا تشا... كوكويا. كانت تقترح برائحة الموز... - لا يهمنى... ضغط هو على المهمازين؛ آدار وجهه وابتسم... - ... لوحاتي، وأنبذتي، وخزاناتي وأنا أسيطرُ عليها تماماً كما أسيطر عليكم... - أتظن...؟... تذكرت شبابك بسببه وبسبب هذه الأماكن... - السلطة تصلح في ذاتها، هذا ما أعرفه، ولنيلها يجب عمل كل شئ... لكنك لم تشأ أن تقول له كم كان يعنى بالنسبة لك لأنك قد تتزع بذلك تعاطفه... - كما فعلت أنا وحموك وكل هؤلاء الذين يرقصون أمامك... إنتظرتك ذاك الصباح بابتهاج... - كما سيتوجب عليك أن تفعل، إذا شئت... - أن أتعاون معك، دون أرتيميو، أن أرى إن كنت تستطيع، في واحدة من شركاتك... أشار ذراع الفتى المرفوع صوب الشرق، حيث تشرق الشمس، نحو البحيرة... - عموماً، يتم ترتيب هذا بطريقةٍ أخرى...

جرى الحصانان ببطء، وهما ينتزعان العشب بحوافرهما، ويهزان عرقبيهما، مثيرين رذاذاً متناثراً.... - ... يطلبني حموك ويلمح إلى أن زوج إيفته... نظرا في عيون بعضهما، وإبتسما... - لكك ترى، لدى مُثل مختلفة... إلى البحر الحر، إلى البحر المفتوح، إلى حيث جرى لورنثو، متوقداً، نحو الأمواج التي إرتطمت حول خصمه.... - قبل الأشياء كما هي؛ صار واقعياً.... - نعم، هذا هو الأمر. مثلك تماماً، دون أرتيميو.... - سأله إن كان لم يفكر أبداً فيما هو على الجانب الآخر من البحر؛ الأرض كلها تشبه بعضها، البحر وحده مختلف.... - مثلي تماماً.... - قال له أن ثمة جُزراً.... - ناضل في الثورة، خاطر بحياته، كان على وشك أن يُعَدَمَ رميةً بالرصاص؟.. كان البحر له طعم البيرة المرة، ورائحة الشمام، والسفرجل، والتوت.... - هه؟.... - لا... لا.... - سببحر سفينة خلال عشرة أيام. حُجزتُ تذكرة.... - لقد وصلت إلى نهاية المادية، يا صديقي. سارع بجمع الفئات.... - ألم تكن لتفعل نفس الشيء، يا بابا؟.... - ... إلى العُلا طوال أربعين عاماً لأننا عُمِدنا بمجد تلك.... - نعم.... - لكن، أنت؟ أتعقد أن هذا يُورث؟ كيف ستطيلون بقاءكم؟.... - الآن هناك تلك الجبهة. أعتقد أنها الوحيدة المتبقية.... - نعم.... - سلطتنا؟.... - سأذهب.... - أنتم علمتمونا كيف.... - أوف! وصلت متأخراً، أقول لك.... - إنتظرتك بيهجة، ذلك الصباح.... - فليحاول الآخرون خداعك؛ أنا لم أخدع نفسي قط؛ لهذا أنا هنا... عبرا النهر، على صهوة الجياد.... - تعجل... توقّف... لأنك تترك نفسك تتساق.... - سأله إن كانا سيذهبان سوياً، حتى البحر.... - وماذا يهمني أنا... البحر الذي يحرسه تحليق النوارس المنخفض.... - سأموت وسيُضحكني ذلك... البحر الذي أظهر فقط لسانه المتعب فوق الشاطئ.... - ... وسيُضحكني أن أفكر... صوب الأمواج التي إرتطمت حول خصمه.... - ... الإبقاء حياً على عالم لا يعرفون

حجمه... قَرَبَ العجوز رأسه من مسامع ثيبايوس... البحر الذى له
طعم بيرة مُرَّة... هل تريد أن أعترف لك بشئ؟ ... البحر الذى له
رائحة الشَّمَام والجِوَافَة... تقر بقوة بسبابته على كأس الشاب...
الصيدون الذين يسحبون شباكهم نحو الرمال... .. السلطة
الحقيقية تولد دائماً من التمرّد... الإيمان؟ لا أدري. أنت أحضرتى
إلى هنا، وعلمتّى كل هذه الأشياء... وأنت ... أنتم... بالأصابع
العشرة مفرودة، تحت السماء الغائمة، والوجه نحو البحر المفتوح...
... وأنتم... لم يعد لديكم ما هو ضرورى...

عاود النظر نحو الصالون.

- إذن - غمغم خايمي -، هل يمكنى أن أمر لأراك... يوماً من
الأيام القادمة؟

- تحدّث مع ياديا . ليلة سعيدة.

دقت ساعة الصالون ثلاث مرات. تنهد العجوز وهز مقودى
الكليين الناعسين، اللذين طرطقا آذانهما ونهضا بينما نهض هو
بصعوبة، مستنداً إلى ذراعى المقعد وتوقفت الموسيقى.

عبر الصالون بين مهممات الإمتان ورؤوس المدعوين المائلة.
شقت لياليا طريقاً،

- بعد إبتككم...

وتناولت الذراع المتصلّب. هو برأسه مرتفعة (لاورا، لاورا)؛ وهى
ينظرتها منخفضة وحذرة، قطعاً المسار المفتوح بين المدعوين، بين
المنحوتات الباذخة، والترصيعات الوافرة، والمصبوبات من الجص
والذهب، والصناديق المطعمة بالعظم والصّدْف، والأقفال والمزاليج،
والخزائن ذات المصارع وفتحات المفاتيح الحديدية، والمقاعد الفوّاحة
من الصنوبر المكسيكى، وكراسى الجوقة، والحليات العليا والأفاريز
السفلى الباروكية، ومساند المقاعد المنحنية، والدعامات المخروطة،

والأقنعة المتعددة الألوان، والمسامير البرونزية، والجلود المنقوشة،
وأقدام الموبيليا ذات المخالب والكُرات، وعباءات الكهنة ذات الخيوط
الفضيَّة، والمقاعد المكسوة بالدمقس، والأرائك المخملية، والأواني
والجرار، وأسطح الموائد المشطوفة الحافة، والأبسطة الصوفية،
واللوحات الزيتية المتشققة، تحت كريستال النجف، ودعامات السقف
الدافئة، حتى وصلا إلى أولى درجات السلم. عندها ريت هو على يد
ليليا وعاونته المرأة على الصعود، ممسكةً بمرفقه، مُتَشَبِّهةً به حتى
تسند به بشكل أفضل.

إبتسمتُ:

- ألم ترهق نفسك كثيراً؟

نقى برأسه وعاود تربيت يدها.

أنا قد استيقظتُ... مرةً أخرى... لكننى هذه المرة... نعم... في
هذه السيارة... في هذه العربة... لا... لا أدري... تجرى دون
ضجيج... هذا لا يمكن أن يكون هو الوعى الحقيقى بعدُ... مهما
فتحتُ عينيَّ لا أستطيع تمييزهم... الأشياء، الأشخاص... بيضتان
بيضاوان وملتمعتان تدوران أمام عينيَّ... حائط من الحليب يفصلنى
عن العالم... عن الأشياء التى يمكن لمسها وعن الأصوات الغريبة... أنا
منفصل... أموت... أنفصل... لا، إنها نوبة... نوبة يمكن أن تصيب
عجوزاً في سنّى... موتٌ لا، انفصالٌ لا... لا أريد قول هذا... أريد أن

أسأل عنه... لكننى أقوله... لو بذلت جهداً... نعم... ها أنا أسمع الضجيج الإضافى للصقارة... إنها عربة الإسعاف... من صفارة حنجرتى ذاتها... حنجرتى الضيقة والمسدودة... تتساقط قطرات اللعاب... نحو بئر بلا قرار... الانفصال... الوصية؟... آه، لا تشغلوا بالكم... توجد ورقة مكتوبة، ومختومة، ومسجلة أمام مؤتق... أنا لا أنسى أحداً... لماذا أنساكم، لماذا أكرهكم...؟ ألن يسعدكم التفكير فى أنتى حتى اللحظة الأخيرة فكّرت فيكم لأسخر من نفسى؟... آه، يالضحك، آه، ياللسخرية... لا... أنا أذكركم بلا مبالاة إجراء بارد... أوزّع عليكم هذه الثروة التى ستسبونها علناً إلى مجهودى... إلى دأبى... إلى إحساسى بالمسئولية... إلى مميزاتى الشخصية... يفعلوا ذلك... إجلسوا هادئين... إنسوا أنتى كسبت هذه الثروة، خاطرت بها، كسبتها... منح كل شئ مقابل لا شئ... أليس هذا حقاً؟... كيف سنسمّى منح كل شئ مقابل كل شئ؟... ضعوا له الاسم الذى تشاؤون... عادوا، لم يُسلموا بالهزيمة... نعم، أفكر فى هذا وأيتسم... أسخر من نفسى، أسخر منكم... أسخر من حياتى... أليس هذا إمتيازى؟... أليست هذه هى اللحظة الوحيدة لعمل ذلك؟... لم أكن أستطيع السخرية من نفسى بينما كنت أحياء... الآن نعم... إنه إمتيازى... سأترك لكم الوصية... سأورثكم تلك الأسماء الميتة... ريخينا... تويّاس... بايث... جونثالو... ثاجال... لاورا، لاورا... لورنثو... حتى لا تنسونى... منفصلاً... أستطيع أن أفكر فى هذا وأسائل نفسى... دون أن أدري... لأن هذه الأفكار الأخيرة... أعرف هذا... أفكر، أنظاھر... تطراً غريبة عن إرادتى، آه، نعم... كأن المخ، المخ... يسأل... تصل إلى الإجابة قبل السؤال... ربما... الإثنان هما نفس الشئ... العيش هو إنفصال آخر... مع ذلك الخلاسى، بجانب الكوخ والنهر... مع كاتالينا، لو كنا

قد تحدثنا... في ذلك السجن، ذاك الفجر... لا تعبر البحر، ما من
جُزُر، ليس حقيقياً، لقد خدعتك... مع المعلم... إستيبيان؟...
سيباستيان؟... لا أتذكر... علمنى الكثير من الأشياء... لا أتذكر...
تركته ومضيتُ إلى الشمال... آه، نعم... نعم... نعم... نعم، كان
يمكن أن تكون الحياة مختلفة... لكن هذا فقط... مختلفة... ليس
حياة هذا الرجل المحتضر... لا، محتضر لا... أقول لكم لا لا لا...
إنها نوبة... عجوز، نوبة... نقاهة، هي هذا... بل أخرى... تخص
شخصاً آخر... مختلفة... لكنها أيضاً منفصلة... أى من الخداع...
لا حياة ولا موت... أى من الخداع... في أرض الإنسان... حياة
مخبوءة... موتٌ مخبوء... مهلة قاتلة... بلا معنى... يا إلهى... آه،
هذه قد تكون آخر صفقة... من الذى يضع يديه على كتفى؟...
الإيمان بالرب... نعم، استثمارٌ جيّد، كيف لا... من الذى يجبرنى
على الإلتطراح، كأنما أردتُ أن أنهض من هنا؟... هل ثمة إمكانية
أخرى للإيمان تظل قائمة حتى بعد أن لا يعود المرء يؤمن بها؟...
الرب الرب الرب... يكفى ترديد كلمة ألف مرة حتى تفقد كل معنى
ولا تعود سوى تسبيحة... من المقاطع... الجوفاء... الرب الرب... ما
أشد جفاف شفتى... الرب الرب... أضئ بصيرة من ييقون...
إجعلهم يفكرون فى من حين... إلى حين... إجعل ذكراى... لا
تضيع... أفكر... لكنى لا أراهم جيداً... لا أراهم... رجال ونساء
يرتدون الحِداد... تنكسر تلك البيضة السوداء... لنظرتى وأرى...
أنهم يواصلون الحياة... يعودون إلى أعمالهم... إلى أوقات
فراغهم... ومؤامراتهم... دون أن يتذكروا... الميّت المسكين... الذى
يُنصتُ إلى رفوش التراب... الرطبة... فوق وجهه... إلى التقدم
المتماوج... المتماوج... المتماوج... نعم... الباذخ... لتلك الديدان...
حنجرتى... تتساقط منها القطرات مثل بحر... صوت ضائع....

يريد الإنبعاث... الإنبعاث... الإستمرار حياً... إكمال الحياة حيث قطعها الآخر... الموت... لا... العود إلى البدء من البداية... الإنبعاث... الميلاد من جديد... الإنبعاث... إتخاذ القرار من جديد... الإنبعاث... الاختيار من جديد... لا... يالللئج في صدرى... يالللأظافر... الزرقاء... ياللمعدة... المنتفخة... ياللفثيانات... الخرائثية... لا تمت دون سبب... لا... آه أيتها العجوزان... العجوزان العاجزتان... اللتان نالتا كل... أشياء الثروة... ورأس... التفاهة... لو كتما على الأقل... فهمتما فيم تفيد... كيف تستخدم... هذه الأشياء... ولا هذا... بينما نلت أنا كل شئ... أتسمعانى؟... كل شئ... ما يشتري و... كل ما لا يشتري... نلت ريخينا... أتسمعانى؟... أحببت ريخينا... كان اسمها ريخينا... وأحببتى... أحببتى دون نقود... تبعتنى... وهبتى حياتها... هناك إلى أسفل... ريخينا، ريخينا... كم أحبك... كم أحبك اليوم... دون ضرورة لأن تكونى قريبة منى... كم تقمعين صدرى بهذا الرضا... الدافئ... كم... تفرقينتى... بعطرك القديم... المنسى، ريخينا... تذكرتك... أرايت؟... أنظري جيداً... تذكرتك من قبل... استطعتُ تذكرك... كما كت... كما تحيئينتى... كما أحببتك في العالم... لا يستطيع أحد أن ينتزع منا... يا ريخينا، أنت وأنا... ما أجلبه وأحتفظ به... حامياً إياه بكلتا يدي... كما... لو كان لهياً... صغيراً وحيأ... أهديته أنت إلى... منحتنى إياه... منحتنى إياه... أنا كت سأنترع... لكنتى منحتك أنت... أى، أيتها العيون السوداء؛ أى، أيها الجسد الداكن والفواح، أى أيتها الشفاه السوداء، أى أيها الحب الداكن الذى لا أستطيع أن ألمسه، أو أسميه، أو أكرمه: آه يداك يا ريخينا... يداك فوق عنقى و... نسيان لقاءك... نسيان كل ما وُجد... خارجك وخارجى... أى ريخينا... دون تفكير... دون

حديث... لأنه في الفخذين الداكنين... للوفرة خارج الزمن... آى
لكبريائى الذى لا يتكرر... كبرياء أن أكون قد أحببتك... الطقس
دون جواب... ماذا يمكن للعالم أن يقول لنا... يا ريخينا... ماذا كان
يمكنه أن يُضيف إلى هذا... أى عقل كان يمكنه أن يتحدث... إلى
جنون... محبّتنا؟... ماذا؟... أيتها الحمامة، القرنفل، اللبلاب،
الرّيد، البرسيم، المفتاح، السفينة، النجمة، الشبح، الجسد: كيف
سأسميك... يا حبيبى... كيف سأقربك... من جديد... من أنفاسى...
كيف سأتضرع إليك... أن تسلمينى نفسك... كيف سأريّت...
خديك... كيف سأقبل... شحمتى أذنيك... كيف سأستشقى... ما
بين ساقيك... كيف سأقول... عينيك... كيف سألمس... طعمك...
كيف سأهجر... وحدتى... أنا نفسى... لأضيع فى... وحدة...
كلينا... كيف سأردّد... أننى أحبك... كيف سأنبش... ذكراك
إنتظاراً لرجوعك؟... ريخينا ريخينا... هذه الطعنة تعود، يا ريخينا،
أنا أستيقظ... من شبه النوم ذاك الذى دفعنى إليه المهدئ... أنا
أستيقظ... بالألم... فى مركز... أحشائى، ريخينا، أعطنى يدك، لا
تتركىنى، لا أودّ الاستيقاظ دون أن أجذك بجانبى، يا حبيبى، لاورا، يا
إمرأتى المعبودة، يا ذكراى المخلصة، يا تتورتى القطنية، ريخينا،
تؤلنى، رقتى التى لا تتكرر، أنفى الناتئة، تؤلنى، يا ريخينا، أنتبه إلى
أنها تؤلنى: ريخينا، تعالى حتى أنجو مرةً أخرى؛ ريخينا، بادلى مرةً
أخرى حياتك بحياتى؛ ريخينا، موتى من جديد حتى أحيا أنا؛
ريخينا، أيها الجندى. ريخينا. أحتضنوني. لورنشو. ليليا، لاورا.
كاتالينا. أحتضنوني. لا. يالثلج فى صدرى... أيها المخ، لا تمت...
أيها العقل... أودّ أن أعثر عليها... أودّ... أودّ... أيتها الأرض...
أيها البلد... أحببتك... أردت الرجوع... يا عقل اللاعقل... أردت أن
أتأمّل من موضعٍ شاهق الحياة المعاشة ولا أرى شيئاً... وإذا كنتُ لا

أرى شيئاً... فلماذا أموت... لماذا أموت مُتَعَذِّباً.. لماذا لا أواصل
الحياة... الحياة المَيِّتة... لماذا أُنْتَقِل... من العدم الحيّ إلى العدم
المَيِّت... يُسْتَفْدُ... يُسْتَفْدُ لاهتاً... نباحُ الصفارة... حفنةُ كلاب...
تتوقف سيارة الإسعاف... أنا مُتَعَبٌ... لا يمكن أن أكون أشدَّ تعباً...
أرض... يدخل ضوءٌ آخر إلى عيني... صوتٌ آخر...
- يُجرى الجراحة الدكتور ساينس.

عقل؟ عقل؟

تجرى النقالة على القضبان، خارج سيارة الإسعاف. عقل؟ من
يحيا؟ من يحيا؟

أنت لن يمكنك أن تكون أشدَّ تعباً؛ أشدَّ تعباً لا يمكن؛ لأنك
ستكون قد سرت كثيراً، على صهوة حصان، وعلى الأقدام، وفي
القطارات القديمة والبلد لا ينتهى أبداً. هل ستتذكرُ البلد؟ ستتذكره
وليس بلداً واحداً؛ إنه ألف بلد باسم واحد. ستعرف هذا. ستجلبُ
الصحراوات الحمراء، سهوبُ التين الشوكي والصبار، عالم التين
الشوكي، حزام الرواسب البركانية والأخاديد الثلجية، الجدران ذات
القمم المذهبة والكوى الحجرية، المدن المتينة البنيان، مدن الصخور
البركانية، قرى الطين النئى، ونجوع القصب، دروب الطين الأسود،
وطرُق الجفاف، شفاة البحر، الشواطئ الكثيفة والمنسيّة، وديان
القمح والذرة العذبة، المراعى الشمالية، بحيرات الأراضى

المنخفضة، الغابات النحيلة والسامقة، الأغصان المحملة بالقش،
 القمم البيضاء، سهول الأسفلت، موانئ الملايا وبيوت الدعارة،
 القشرة المتكلسة للصبار، الأنهار الضائعة، المنحدرة، حفائر الذهب
 والفضة، الهنود دون لغة مشتركة، لغة الكورا، لغة الياكى، لغة
 الهويتشول، لغة البيما، لغة السيري، لغة التشونتال، لغة التيبهوانا،
 لغة الهواستيكا، لغة التوتوناكا، لغة الناهوا، لغة المايا، موسيقى الناي
 والطبلة، الرقصات المتقاطعة، الجيتار والماندولين، الريش، العظام
 النحيلة لإقليم ميتشواكان، اللحم الممتلئ لإقليم تلاكسكالا، العيون
 الصافية لسينالوا، الأسنان البيضاء لتشياباس، صدريات النساء،
 أمشاط بيراكروث، صفائر هنود الميكستيكا، أحزمة هنود التوتيتل،
 دثارات سانتا ماريتا، صناعات الجلود القروية، زجاج خاليسكو؛ يُشب
 واكمساكا، أطلال الأفعى، أطلال الرأس السوداء، أطلال الأنف
 الكبيرة، الصوامع والمحاربي، الألوان والنقوش البارزة، العقيدة
 الوثنية لتوانتثيتلا وتلاكوتشاجوايا، الأسماء العتيقة لتيوتيهواكان
 ويابانتلا، وتولا وأوكسمال: تجلبها وتُثقل عليك، إنها أحجار مفرطة
 الثقل على رجل واحد: لا تتحرك أبداً وتحملها أنت مربوطة في
 عنقك: تُثقل عليك وألقت بثقلها في أحشائك... إنها بكتيرياك
 العَصَوِيَّة، وطفيلياتك، وأميباك...

أرضك

ستفكر في أن ثمة إكتشافاً ثانياً للأرض في هذه المسيرة
 الحربية، في أن قدماً تطل للمرة الأولى جبلاً وأخاديد هي بمثابة
 قيضة متحدية للتقدم اليائس والبطئ للطريق، للسدد، لشريط
 السكك الحديدية وعمود التفراف: هذه الطبيعة التي تستعصى على
 الاقتسام أو السيطرة، التي تريد أن تواصل الوجود في وحدة قاطعة
 ولم تمنح البثّر سوى بضعة وديان، وبضعة أنهار، حتى يتسلوا فيها

أو على ضفافها؛ تظل هي المالكة العدائية للقمم المساء والعصيَّة
البلوغ، للصحرَاء المنبسطة، للغابات وللشواطئ المهجورة؛ والبشر،
المبهورون بتلك القوة المتفطرسة، ستظل عيونهم مُحَدَقَة فيها؛ إذا
كانت الطبيعة النافرة تدير ظهرها للإنسان، فإن الإنسان يدير ظهره
للبحر الواسع المنسيّ، الذي يتعمَّن في وحشيته الدافئة، ويفور
بثروات ضائعة.

ستورث الأرض

لن تَرَى مرةً أخرى تلك الوجوه التي عرفتھا في سونورا وفي
تشيهواهوا، التي رأيتها يوماً نائمةً، تتحمل، وفي اليوم التالي حائقةً،
ملقيةً بنفسها في ذلك الصراع دون أسباب ودون شروط مُحَقَّفة، في
ذلك العناق من رجال لرجال فصلهم رجالٌ آخرون، في ذلك القول
بأننى هنا وموجودٌ معك أنت وأنت وأنت أيضاً، بكل الأيدي وكل الوجوه
المغمَّاء: في الحب، الحب المشترك الغريب الذي يستفد ذاته: ستقول
هذا لنفسك، لأنك عشتَه ولم تفهمه وأنت تعيشه: وعند موتك فقط
ستقبله وستقول دون موارد أنك دون حتى أن تفهمه خشيتَه خلال كلِّ
يوم من أيام سُلطنتك: ستخشى أن يتفجَّر من جديد ذلك الإلتقاء
العاشق؛ والآن ستموت ولن تعود تخشاه لأنك لن تراه؛ لكك ستقول
للآخرين أن يخشوه: أن يخشوا الهدوء الزائف الذي تورثهم إياه، أن
يخشوا التآلف الوهمي، الكلمات السحرية، الجشع المعترف به: أن
يخشوا هذا الجور الذي لا يدري حتى أنه كذلك:

سيقبلون وصيتك: الاحتشام الذي إنتزعته من أجلمهم، الاحتشام:
سيزجون الشكر للأزعر أرتيميو كروث لأنه جعل منهم قوماً محترمين؛
سيزجون له الشكر لأنه لم يقتع بأن يعيش ويموت في كوخ زنوج؛
سيزجون له الشكر لأنه خرج مخاطراً بحياته: سيبرزون مسلك لأنهم
لن تعود لديهم مبرراتك: لن يستطيعوا إستحضار المعارك والزعماء،

مثلك، والإحتماء خلفهم لتبرير السرقة باسم الثورة وتعظيم الذات باسم تعظيم الثورة: ستفكر وستدهش: أى تبرير سيجدونه هم؟ أى عائق سيواجهونه؟ لن يفكروا في ذلك، سيستمعون بما تتركه لهم طالما أَسْتَطَاعُوا؛ سيحيون سعداء، سيُظهرون أنهم متألون ومُمتنون - في العلن، لن تطلب أكثر من ذلك - بينما تنتظر أنت ومتر من التراب فوق جسدك؛ تنتظر، حتى تحس من جديد بحشد الأقدام فوق وجهك الميَّت وستقول حينئذ
- لقد عادوا. لم يُسلموا بالهزيمة

وستبتسم: ستسخر منهم، ستسخر من نفسك: إنه إمتيازك: سيفريك الحنين: سيكون هو وسيلة تجميل الماضي: ولن تفعل ذلك: ستورث الميتات اللامجدية، والأسماء الميتة، أسماء من سقطوا موتى حتى يعيش إسمك: أسماء الرجال الذين جُردوا من ممتلكاتهم حتى يمتلك إسمك: أسماء الرجال المنسيين حتى لا يُنسى إسمك أبداً:

ستورث هذا البلد: ستورث صحيفتك، اللمز والتملق، الضمير الذى نؤمته الخطب الزائفة لرجال تافهين؛ ستورث الرهونات، ستورث طبقة منبوذة، سلطة بلا عظمة، حماقة مُكرسة، طموحاً قزماً، تسوية هزلية، بلاغة متعقنة، جنباً دستورياً، أنانية مبتذلة:

ستورثهم زعماءهم اللصوص، ونقاباتهم الخاضعة، وأقطاعاتهم الجديدة، واستثماراتهم الأمريكية، وعمّالهم المسجونين، ومحتكرهم وصحافتهم الضخمة، وأجراءهم، وجنودهم، وعمّالهم السريين، وودائعهم في الخارج، ومُرابيهم المدهونى الشعر، ونوابهم الخانعين، ووزراءهم المتملقين، وقطع أراضيهم السكنية الأنيقة، وإحتفالاتهم السنوية والتذكارية، وبراعيئهم وقطع عجة الذرة المليئة بالديدان، وهنودهم الأميين، وعمّالهم العاطلين عن العمل، وجبالهم التى جُردت

من غاباتها، ورجالهم البدينين المسلّحين بأنابيب الأوكسجين
والسندات، ورجالهم التحيلين المسلّحين بالأظافر: خذوا مكسيككم:
خذوا ميراثكم:

ستورثُ الوجوه، العذبة، الغريبة، بلا غد لأنها تفعل كلَّ شئ اليوم،
وتقوله اليوم، هي الحاضر وهي في الحاضر: تقول "غداً" لأنها لا
يهمها الغد: ستكون أنت المستقبل دون أن تكونه، ستستنفد أنت نفسك
اليوم وأنت تفكر في الغد: وهم سيكونون الغد لأنهم لا يحيون إلا
اليوم:

شعبك

موتك: حيواناً تستشرف موتك، تُشدُّ موتك، تقوله، ترقصه،
ترسمه، تتذكره قبل أن تموت موتك:

أرضك

لن تموت دون أن تعود:

هذا النجع عند قدم الجبل: الذي يسكنه ثلاثمائة شخص
والذي يظهر بالكاد من خلال بضع بقع من القرميد بين الأغصان
التي، بقدر ما يفرس صخر الجبل جذوره، تبرز خشنة على السفح
الناعم الذي يرافق النهر في مساره حتى البحر القريب: مثل هلال
أخضر، سيلتهم قوساً تامياهاوا وكواتثاكواكوس الوجه الأبيض للبحر
في محاولة عبثية - تلتهمه فيها، بدوره، القمة الضبابية لسلسلة
الجبال، مستقرّ وحدّ الهضبة الهندية - للاتصال بالأرخبيل
الإستوائي ذى التماوجات الرشيقة والأجساد المحطمة: بكونه يداً
كسولة للمكسيك الجاف، غير القابل للتحوّل، الحزين، لعزلة الصخر
والتراب الحبيسة في هضبة الألتيلانو، سيكون لهلال بيراكروث
تاريخ آخر، مربوط بخيوط ذهبية بجزر الأنثيل، وبالمحيط، وإلى
مدى أبعد، بالبحر المتوسط الذي لن تهزمه حقاً سوى دعاءات

أكتاف سلسلة جبال سيرا مادري الشرقية: حيث تتألى البراكين وترتفع الشارات الصامته للصبار الأمريكى، سيموت عالم يُرسلُ في موجات متتابعة زبد الحسى من مضيق البوسفور ونهود بحر إيجة، ورذاذ من العناقيد والدرافيل من سرقسطه وتونس، وصيحات العرقان العميقة من الأندلس وأبواب جبل طارق، والتحيات المتملقة للزئوج رجال البلاط ذوى الباروكات من هايتى وجامايكا، وفرق الراقصين وضاربى الطبول وأشجار الثياب* ceibas والقراصنة والغزاة من كوبا: الأرض السوداء تمتص موجات المد: في شرفات الحديد المشغول وفي بوابات مزارع البن ستستقر الموجات البعيدة: في الأعمدة البيضاء للبوابات الريفية وفي النبرات الشبقية للأجساد والأصوات ستموت تضوُّعات الروائح: هنا ستكون ثمة حدود: بعدها ستتنصب القاعدة الجهمة للسنور والصوان: حدود لن يهزمها أحد: لا رجال إكستريمادورا وقشتالة الذين نضيت طاقتهم في التأسيس الأول ثم أخذوا ينهزمون دون أن يدروا خلال الصعود إلى الهضبة المحظورة التى تركتهم يدمرون ويشوهون مظاهرها الخارجية فقط: ضحايا، في النهاية، للجوع المركز لتماثيل التراب، للإمتصاص الأعمى للبحيرة التى ابتلعت ذهب، وأصول، ووجوه كل الغزاة اللذين إنتهكوها؛ ولا القراصنة الذين كدسوا سفنهم الشراعية بالدروع التى ألقيت من قمة جبل الهندو بضحكة مرة؛ ولا الرهبان الذين عبروا مسار لا مالىنتشى** ليمنحوا هيئات تكرية جديدة لآلهة لا يمكن إثارة مشاعرها، تتجسد في صخور قابلة للتدمير لكنها تسكن الهواء؛ ولا الزئوج المجلوبين إلى المزارع الإستوائية

* شجرة أمريكية إستوائية ضخمة -

** لا مالىنتشى: عشيق ومترجمة الفاتح هرئان كورتيس. رافقته أثناء فتح المكسيك

والذين أنهكتهم الهنديات اللاتي جنن للقائهم وقدمن فزوجهن
المرداء كمنفذٍ للإنتصار على الجنس الأبعد الشعر، ولا الأمراء
الذين هبطوا من سفنهم الشراعية الإمبراطورية وإستسلموا
للإنخداع بالمنظر اللطيف لأشجار النخيل الملكى والثمار المفردة
النواة وصعدوا بمتاعهم المُثقل بالمخرّمات واللافتدر إلى الهضبة ذات
جدران الإعدام المثقوبة بالرصاص؛ ولا حتى الزعماء المحليين ذوى
القُبُعات المثلثة الأركان والكتفيات الذين لقوا، في نهاية المطاف، في
الدكة الصامتة لهضبة الألتىپلاتو، الهزيمة الباعثة على اليأس
نتيجةً للتكم، والسخرية الصماء، واللامبالاه:

ستكونُ أنت ذلك الطفل الذى يخرج إلى الأرض، ليلاقى الأرض،
يخرج من أصله، ليلاقى مصيره، اليوم حيث يُساوى الموتُ بين الأصل
والمصير ويفرس بين الإثنين، رغم كلِّ شئٍ، نصلُ الحرية:

(١٩٠٣: ١٨ يناير)

هو من استيقظ عند سماعه غمغمة الخلاسى لونيرو- آه
سكران، آه سكرن - حين بدأت كلُّ الديكة (وهى طيورٌ في حالة حِدادٍ
كانت قد سقطت في عبودية الغاية، بعد التخلّى عن حظائر الدواجن
التي كانت في حقبةٍ أخرى فخرَ هذه الضيعة لأنها كانت تتنافس مع
ديكة القتال لدى سيدِ الأقليم الكبير، منذ أكثر من نصف قرن) في
إعلان الصباحِ الإستوائى العاجل، الذى يُعدُّ بمثابة نهاية الليلة

بالنسبة للسناتور يدريتو، المنغمس في عريضة منفردة أخرى، هناك في شرفة البلاطات الملونة لحدود المنزل القديمة الضائعة: بلغ الغناء الثمل للسيد سقف سعف التخيل الذي كان لونيرو تحته على قدميه، يرش الأرض الترابية بحففات من الماء من الطاسة، المجلوبة من مكان آخر، والتي كانت بطاقتها وزهراتها المرسومة تلتمع بطلاء براق، في زمن آخر. أشعل لونيرو الموقد على الفور لتسخين إدام السمك الصغير المفتت، بقية طعام اليوم السابق؛ وبحث في سلة الفاكهة، مُزَرَّراً عينيه، عن الثمرات ذات القشور الأكثر إسوداداً حتى تَوَكَّلَ على الفور، قبل أن تطرى وتمتلئ بالديدان بفعل التحلل التام، شقيق الخصوية. بعدها، بعد أن انتهى دخان اللوح الصفيح من طرد النعاس من عيون الطفل، توقف الغناء البلغمي لكن ظلت تسمع تعثرات السكر، وهي تتباعد شيئاً فشيئاً وبعدها إغلاق الباب الأخيرة. فاتحة صباح الأرق الطويل: على بطنه فوق الحشيرة العارية والملطخة لسرير الماهوجني الضخم، مشتبكاً في أحبولة الناموسية، في الفراش ذي القبة دون ملاءات، يائساً لأن إحتياطي الروم قد نفذ. من قبل - تذكر لونيرو، حين كان يُرِيْتُ الرأس الشعث للطفل الذي أقترب من النار بقميص النوم القصير، مُبدياً أولى ظلال البلوغ -، حين كانت الأرض ضخمة، كانت الأكواخ بعيدة عن المنزل ولم يكن يُعرف ما يدور فيه، حيث أن الطبّاخات البدينات والشابات الخلاسيات⁴ اللواتي كنّ يكسّن بالمقشّات وتُشَيّن القمصان لم يكنّ يحملن حكاياتهن إلى العالم الآخر للرجال الذين حمّصتهم الشمس في حقول التبغ. والآن، صار كل شيء قريباً في الضيعة التي خنقها المرابون والأعداء السياسيون للسيد القديم الميت، ولم يبق سوى

⁴ cambujas نتاج تهجين صيني وهندية حمراء أو العكس - م

المنزل الذى بلا زجاج وكُوخ لونيرو؛ وفي الأول لم يعد ثمة سوى ذكرى الخدم، التى تبقى عليها النحيلة باراكوا التى واصلت العناية بالجدّة المحبوسة في الغرفة الزرقاء في عمق المنزل؛ وفي الثانى لم يكن يحيا سوى لونيرو والطفل وكانا هما العاملين الوحيديين.

جلس الخلاسى فوق الأرض التى جرت تسويتها وقسم طبق السمك، مُفرغاً نصفه في القدر الفخارى و مبقياً النصف الآخر فوق لوح الصفيح. قدم ثمرة مانجو للطفل وقشّر هو موزةً وأكل الإثنين في صمت. وحين إنطفأت كومة الرماد الصغيرة، دخلت من الفتحة الوحيدة - التى هى بابٌ، وناقذة، وعتبة للكلاب المتشمّمة، وحَدٌ للنمل الأحمر الذى يمنعه من الدخول خطٌ مرسومٌ بالجير- السحابة الثقيلة للبلابة التى زرعها لونيرو منذ سنوات لإخفاء طوب اللبن الكالح في الجدران وإحاطة الكوخ بشبكة هذه النضارة الليلية لأزهار أنبوية. لم يتكلّمَا. لكن الخلاسى والطفل كان يشعران بنفس ذلك الإمتنان البهيج لوجودهما معاً بحيث أنهما ما كانا ليقولاه أبداً، ولا حتى يعبرا عنه، أبداً، بابتسامة مشتركة، لأنهما هناك لا ليقولا أو ليبتسما، بل لياكلا ويناوما معاً وليخرجا معاً كل فجر، ساكن بلا إستثناء، ومُحمّل بالرطوبة الاستوائية ولينجزا معاً الأعمال الضرورية لقضاء الأيام وليسلما للهنديّة باراكوا قطع النقود التى تشتري كلّ سبت طعام الجدّة ودمجانات السنيور بدريتو. كانت جميلة تلك الزجّاجات الضخمة العريضة الزرقاء التى تحجب عنها الحرارة السلة المنسوجة من القصب واليد الجلدية؛ وهى حلقة، ذات إستدارة قصيرة وضيقّة. كان السيور بدريتو يضعها على مدخل المنزل وكل شهر كان لونيرو يصل إلى النجع عند قدم سلسلة الجبال بالعصا الغليظة التى يستعملها في الضيعة لنقل دلاء الماء ويعود واضعاً إياها على كتفيه والدمجانات مربوطة فيها وتتأرجح، لأن البفلة التى كانت موجودة من قبل قد

ماتت. كان هذا النجع عند قدم الجبل هو الجوار الوحيد. يسكنه ثلاثمائة شخص ويظهر بالكاد من خلال بضع بُقع من القرميد بين الأغصان التي، بقدر ما يغرس صخرُ الجبل جذوره، تبرزُ خشنةً على السطح الناعم الذي يُرافقُ النهرَ في مساره حتى البحر القريب.

خرج الطفل من الكوخ وجرى عبر درب الأعشاب البرية التي تحيط بالجذوع الرمادية الناعمة لأشجار المانجو؛ وقاده المنحدر الطيني، تحت السماء التي تخفيها الزهور الحمراء والثمار الصفراء، إلى ضفة النهر حيث كان لونيرو يفتح، بضربات الساطور، فرجةً بجوار النهر - الذي يبدأ في الإتساع هنا، ومازال متلاطمًا - من أجل العمل اليومي. وصل الخلاسُ ذو الذراعين الطويلتين وهو يحزم بنطلونه الخفيف، المتسع الفتحات من طرفيه، مُذكرًا بموضه بحرية ضائعة ما. تناول الطفل السروال القصير الأزرق الذي قضى الليل، وهو يجفُّ على مهل، على حلقة الحديد المشغول الصدئة التي يقترب منها الآن لونيرو. كانت بعض قطع لحاء المنجروف ترقد، مفتوحة ومُصنفرة، وفتحاتها داخل الماء. توقف لونيرو برهة، وقدماه غائستان في السبخ. باتجاه البحر، كان النهر يوسعُ تنفسه ويهدد كتلاً متزايدة من الأعشاب البرية ونباتات الموز. كانت أعواد الغاب تبدو أعلى من السماء، لأن هذه كانت مستوية، نابضة، واطئة. كان الإثنان يعرفان ما يجب عمله. تناول لونيرو الصنفرة وواصل تلميع قطع اللحاء، بقوة جعلت أعصاب معصمه السمكة تتراقص. جذب الطفل كرسياً أعرجاً ومُسوّساً ووضعه داخل الحلقة الحديدية، المرتكزة على عمودٍ محوري من الخشب. من الفتحات العشر المثقوبة في الحلقة كانت تتدلى عشر فتائل من الخيط. أدار الطفل الحلقة ثم قرفص ليشعل النار تحت الإناء: تصاعدت الفقايع من كثافة شمع الآس الذائب؛ دارت الحلقة؛ وأخذ الطفل يسكب الشمع في الثقوب.

- قريباً سيحلّ عيد التطهّر - قال لونيرو وثلاثة مسامير بين أسنانه.

- متى؟

أضاعت النار الصغيرة تحت الشمس عيني الطفل الخضراوين.
- اليوم الثاني من الشهر، أيها الطفل كروث، اليوم الثاني، عندها سنبيع المزيد من الشموع، ليس فقط للقرييين منا، بل لكل الناحية. يعرفون أن أفضل الشموع تأتي من هنا.
- أتذكّر العام الماضي.

أحياناً، كان الشمع الساخن يلسعه كالسوط؛ وكان فخذ الصبي مَبْقَعين بندوب صغيرة مستديرة.

- إنه اليوم الذي يبحث فيه حيوان المارموتا⁴ عن ظلّه.

- وكيف تعرف هذا؟

- إنها حكاية حملها الناس من مكان آخر.

توقّف لونيرو وأمسك شاكوشاً. جعّد جبهته الداكنة.

- أيها الطفل كروث، هل تعتقد أنك أصبحت تعرف كيف تصنع

الزوارق الخفيفة؟

الآن كَسَتْ وجه الصبي إِتْسَامَةً واسعةً بيضاء. وأبرزت الإنعكاسات الخضراء للنهر ولأعواد الغاب الرطبة ذلك التشكيل الشاحب، العظمى للوجه. وتجعّد الشعر الذي صفّفه النهر، فوق الجبهة العريضة، والرقبة الداكنة. كانت الشمس قد كسّته بظلال نحاسية لكن جذوره ظلت سوداء. وسرى لون الفاكهة الخضراء في كلّ ذراعيه التحيلتين وصدره الصلب، الذي صنّعته السباحة ضد التيار، مع أسنان لامعة في فمّهقة الجسد الذي أنعشه النهر ذو القاع الملئ

⁴ la marmota : أحد القوارض ذات الأرجل القصيرة والذيل القصيرة يقوم بالبيات الشتوى في حُفَر أو أوجرة. يعنى اسمه اللاتينى فأر الجبل-م

بالأعشاب والصفاف الموحلة. - نعم أصبحت أعرف. فقد رأيت كيف تصنعها.

خفض الخلاسى عينيه الخفيضتين من تلقاء ذاتهما، الهادئتين لكنهما يقظتان. - إذا ذهب لونيرو، هل ستعرف كيف تصنع كل الأشياء؟

كفّ الطفل عن إدارة الحلقة الحديدية. - إذا ذهب لونيرو؟
- إذا اضطرّ للذهاب.

فكر الخلاسى أنه لا يجب أن يقول شيئاً؛ لن يقول شيئاً، سيمضى مثلاً مضى ذووه، دون قول أى شئ، لأنه يعرف ويقبل المقدور ويشعر بهوّة من الأسباب والذكريات بين تلك المعرفة وذلك القبول وبين معرفة ورفض الرجال الآخرين؛ لأنه يعرف الحنين والتجوال. ورغم معرفته بأنه لا يجب أن يقول شيئاً، فقد كان يعرف أن الطفل - رفيقه الدائم - رأى بفضل، ورأسه مائلة، الرجل ذا المعطف الفراك المحبوك والمتصبّب عرقاً الذي بحث بالأمس عن لونيرو.

- أنت تعرف، بيع الشمع في القرية وصنع المزيد حين يحين عيد التطهر؛ وحمل الزجاجات الفارغة كل شهر وترك الخمر للسينور يدريتو على بابه... صنع الزوارق الخفيفة والهبوط بها جميعاً مع النهر كل ثلاثة أشهر... وبالطبع، تسليم قطع النقود الذهبية إلى باراكوا، كما تعرف، مع الاحتفاظ لنفسك بقطعة منها وصيد السمك هنا في هذا المكان...

لم تعد الفرجة الضيقة بجوار النهر تتبض بخشخشة الحلقة الصدئة ولا بضربات المطارق الناعسة للخلاسى. فقد تصاعد وشيش المياه السريعة، التي تحتجزها الخضرة، والتي تحمل ثقل القصب والجذوع الساقطة في العواصف الليلية والأعشاب المتموجة من حقول أعالي النهر. وخفقت الفراشات السوداء والصفراء، يتجاه البحر

أيضاً. ترك الطفل ذراعيه تسقطان وساءل نظرة الخلاسى الخفيضة.
- هل ستذهب؟

- أنت لا تعرف كل حكايات هذا المكان. في زمن آخر كانت كل
الأراضى، حتى الجبل، مملوكة لقوم هذا المكان. ثم ضاعت. مات
السيد الجد. وجرح السيد أتاناسيو جرحاً بليغاً نتيجة خيانة وظلت
جميع الأراضى دون زرع. أو إنتقلت إلى آخرين. لم يبق سوى وتركونى
في سلام أربعة عشر عاماً. لكن كان لابد أن تحين ساعتي.
توقف لونيرو، لأنه لم يدر كيف يكمل. شئت الحواف المفضضة
للمياه إنتباهه وطالبته عضلاته بأن يواصل العمل. منذ ثلاثة عشر
عاماً حين سلموه الطفل، فكّر أن يرسله عبر النهر، ترعاه الفراشات،
مثل الملك القديم في حكايات البيض، وينتظر عودته، قوياً وعظيماً.
لكن موت السيد أتاناسيو أتاح له الإحتفاظ بالطفل، دون حتى أن
يتشاجر مع السنيور پدريتو، الذى لم يكن قادراً على تشتيت إنتباهه
ولا على الجدل، ودون أن يتشاجر مع الجدة التى كانت بالفعل تحيا
حبيسة تلك الغرفة الزرقاء ذات الستائر المخرمة والنجف الذى
يخشخش في الإعصار والتى لن تتبّه أبداً لنمو الصبى على بعد أمتار
قليلة من جنوبيها المطبق. نعم، مات السيد أتاناسيو في موعد مناسب
جداً؛ فقد كان سيأمر بقتل الطفل؛ وقد أنقذه لونيرو. إنتقلت آخر
حقول التبغ إلى أيدي الزعيم المحلى الجديد ولم يبق لهم سوى هذا
النطاق من الضفة وأعواد الغاب والحدود القديمة للمنزل مثل وعاء
قديم مشروخ. رأى كيف إنتقل كل العمال إلى أراضى السيد الجديد
وكيف بدأ في الوصول رجالاً جدد، مجلوبين من أعالي النهر للعمل في
المزروعات الجديدة وكيف تم إنتزاع الرجال من القرى والضياع
الأخرى وكان عليه هو، لونيرو، أن يخترع أعمال الشموع والزوارق
الخفيفة تلك ليكسب بواسطتها ما يُقيم أود الجميع ويعتقد أن أحداً

لن ينتزعه من قطعة الأرض المجذبة تلك، التي هي مجرد ظفر بين النهر والمنزل المتهدّم، لأن أحداً لن يُمعن النظر فيه، وهو ضائع بين الأطلال النباتية مع صبيّه الصغير. إستغرق الزعيم المحلّي أربعة عشر عاماً في الإنتباه إلى وجوده، لكنه كان لا بد أن ينتهى ذات يوم من تقتيشه العنيد للإقليم، حتى يعثر على آخر إبرة ضائعة في القش. ولهذا السبب كان قد قديم عصر الأمس، يخنقه المعطف الأسود ويتصبّب العرق من صدغيه، ناظر زراعة الزعيم المحلّي، ليقول للونيرو أن عليه أن يذهب في الغد بالذات - اليوم - إلى ضيعة السيّد في جنوب الولاية، لأن عمال التبخ الجيدين قليلون ولأن لونيرو قضى أربعة عشر عاماً يكدح لرعاية رجل سكّير وامرأة عجوز مجنونة. وهذا كله ما لم يعرف لونيرو كيف يقصّه على الطفل كروث، فقد بدا له أنه لن يفهم. الطفل الذي لم يعرف سوى العمل بجانب النهر وطزاجة الماء قبل الغداء؛ والرحلات إلى شاطئ البحر، حيث يُهدونه الكابوريا الحية من البحر والنهر وإلى القرية القريبة، قرية الهنود حيث لا يكلمه أحد. لكن الحقيقة أن الخلاسى كان يعرف أنه إذا بدأ في جذب خيط الحكاية، فإن النسيج كله سيتفكّ وسيكون عليه أن يصل إلى نقطة البداية ويفقد الطفل. وهو يحبه - هذا ما قاله لنفسه الآن الخلاسى ذو الذراعين الطويلتين، وهو منح بجانب اللحاء المصنفر - ؛ أحبه منذ أن طردوا أخته إيسايل كروث منها لين عليها ضرباً وسلموه الطفل وأطعمه لونيرو في الكوخ بحليب العنزة العجوز التي بقيت من ماشية ال منشاكا ورسم له في الطين تلك الحروف التي كان قد تعلمها في طفولته، حين كان خادماً لدى الفرنسيين في بيراكروث وعلمه السباحة، والتميز بين الثمار وتذوّقها، واستخدام الساطور، وصنع الشموع، وغناء أغنيات هي التي جلبها والد لونيرو من

سانتياجو دى كوبا، حين نشبت الحرب وانتقلت العائلات مع خدمها إلى بيراكروث. وهذا كل ما كان لونيرو يريد أن يعرفه عن الطفل. وربما لم يكن ضرورياً معرفة المزيد، إلا أن الطفل كان هو أيضاً يحب لونيرو ولا يريد العيش بدونه. كانت تلك الظلال الضائعة للعالم - السنيور پدريتو، والهندية باراكوا، والجدة - تتقدم الآن إلى الصدراة كأنها مُدية، لتفصله عن لونيرو. وكانوا هم من يمثلون الشئ الغريب، المنفصل عن الحياة المشتركة مع صديقه. وهذا كل ما كان الطفل يفكر فيه وكل ما يفهمه.

- إنتهبه لأن الشموع ستقصر وسيغضب القس - قال لونيرو.
هزّت نسمة غريبة أطراف الشموع المعلقة؛ وأطلق بيغاً أمريكى مذعور صيحة الظهيرة.

نهض لونيرو واقفاً وخاض في النهر؛ وفي وسط التيار كانت الشبكة. غاص الخلاسى وطفاً والشبكة الصغيرة معلقة من إحدى ذراعيه. نزع الطفل سرواله وقذف نفسه في الماء. أحس، كما لم يحسّ مطلقاً من قبل، بالانتعاش في كل ثنایا جسده؛ غطس وفتح عينيه: كانت التماوجات البلورية السطحية، السريعة، تتدفق فوق قاع طيني أخضر. وإلى أعلى النهر، إلى الوراء - فالآن ترك التيار يحمله، مثل سهم - كان ذلك المنزل الذى لم يدخله أبداً، خلال ثلاثة عشر عاماً، وفيه ذلك الرجل الذى لا يرى إلا من بعيد وتلك المرأة التى لا يعرفها إلا بالإسم. أخرج رأسه من الماء. كان لونيرو قد شرع فعلاً في شواء السمك وفي فتح ثمرة پاپايا* بساطوره.

وما أن إنقضت الظهيرة، حتى إنزلقت أشعة الشمس على سقف أوراق الشجر الإستوائية، وهى تضرب، بقوة، منذ أخذت في

* Papaya : ثمرة تشبه الشمامة الصغيرة ذات لحم أصفر ولذيذ-م

الهبوط نحو المغيب. إنها ساعة الأغصان الثابتة، حين لا يبدو حتى أن النهر يجري. تمددُ الطفل عارياً تحت النخلة الوحيدة وأحسَّ بحرارة الأشعة التي أخذت تباعد أكثر فأكثر ظلَّ الجذع والسعف. بدأت الشمس مسارها النهائي؛ ورغم ذلك، بدا أن الأشعة المائلة تصعد مضيئةً، مساماً جسده كله واحداً فواحداً. أضاءت قدميه أولاً، حين إتكأ على القاعدة العارية. ثم الساقين المفتوحتين وعضوه النائم، والبطن المستوية والصدر الذي إكتسب صلابته في الماء، والعنق الطويل والفك البارز، حيث بدأ الضوء يحفر وهدين عميقتين، ملتصقتين مثل سهمين مشدودين بالوجنتين الصليبتين اللتين تؤطران صفاء العينين الضائعتين، ذلك الأصيل، في القيلولة العميقة والهادئة. نام هو وكان لونيرو، على مقربة، قد استلقى على بطنه وأخذ ينقر بأصابعه على الإناء الأسود. أخذ يملكه إيقاع. لم يكن التراخي الظاهري للجسد المستلقى سوى التوتر التأملي لذراعه الراقصه، التي تنتزع نغمات مركزة من الآنية وبدأ يغمم، مثل كل أصيل، بالذاكرة المستعادة لإيقاع يتسارع رويداً رويداً، بأغنية الطفولة والحياة التي لم يعيشها، حين كان أجداده يُتوجون أنفسهم، بجوار شجرة ثيبا¹ ceiba، بقلنسوات مزينة بالأجراس ويفركون أذرعهم بالروم وكان ذلك الرجل جالساً على الكرسي ورأسه مغطاهً بقماش أبيض والجميع يشربون حتى ثمالة السكر الأسود مزيج الذرة والفارنج ويعلمون الأطفال أنهم لا يجب أن يصفروا بالليل:

توه...

¹ شجرة أمريكية استوائية ضخمة -

بنت يى بيه...
 تحب زوج... إمراة ثانية...
 توه، بنت يى بيه، تحب زوج، إمراة ثانية...
 توهنت يى بيه تحب.

أخذ الإيقاع يتملكه. فرد ذراعيه ولمس أطراف الأرض الرطبة وظل ينقر فوقها بأصابعه ويلطخ بطنه بطينها وافترّ ثغره عن ابتسامة واسعة شقت خديه المتصقين بالعظام العريضة: تحبزوجامراً ثانية... إنصبّت شمسُ الأصيل فوق رأسه المستديرة والجعداء ولم يستطع النهوض من وضعه، وهو يتصبّب عرقاً من جبهته، ومن إبطيه، ومن بين فخذه وأخذت الأغنية تزداد صمتاً وعمقاً. وكلما خفّت كلما أحسّ بها أكثر وكلما إلتصق بالأرض أكثر، كأنه يضاجعها. توهنتيبيبي: أخذت تفتّح ابتسامته، وأخذ يتفتّح فيه نسيان الرجل ذى المعطف الأسود، الذى سيأتى ذلك المساء، فهو، فعلاً ذلك المساء. وكان لونير و ضائعاً في غنائه وفي رقصه المنطرح الذى كان يذكرّه بالقبر، يذكرّه بالقبر القرنسى وبالنساء المنسيات في سجن هذا المنزل المحترق.

والى الوراء، كانت أوراق الشجر ومنزل الضيعة الذى يعلم به، بين أحلامه، الطفل الذى تغمره الشمس. تلك الجدران المسودة التى أحرقت حين مر من هنا الليبراليون خلال الحملة الأخيرة ضد الإمبراطورية، بعد موت مكسيميليانو، وعثروا على العائلة التى كانت قد أعارت مخادعها للماريشال رئيس القوات الفرنسية وأقبية خمرها للقوات المحافظة. وفي ضيعة كوكويا تزوّد جنود نابوليون الثالث ليخرجوا، بالبنغال الحملة بالأطعمة المحفوظة، والفاصوليا، والتبغ، لسحق مواقع رجال عصابات خواريث في الجبل، التى كانت

تطلق منها تلك العصايات من العصاة لتناوش المعسكرات الفرنسية في السهل وقلاع مدن بيراكروث. وبالقرب من الضيعة، وجد الزواويون* جماعات القيثار والهآرب الذين يُفنون بالأخو ذهب إلى الحرب ولم يشأ أن يأخذنى معه وأبهجتهم لياليهم بجوار الهنديّات والخلاسيات اللائى مضين في تلك الأرجاء تلدن مُهَجَّين شُقرأً، وخلصين نوى عيون صافية وجلد أسمر، حملوا ألقاب جاردونيو وألباريث بينما كان الواجب أن يُدعوا دويوا وجارنييه. نعم، في نفس الأصيل الذى بططته الحرارة، كانت العجوز لوديينيا، الحبيسة إلى الأبد في مخدعها ذى النجف العبثى - نجفتان معلقتان من السقف الواطئ المطلق بالجير، وأخرى في الركن بجانب الفراش ذى الأعمدة المحفورة - وستائر المخرّمات المصفرة، تمرّج لها الهندية باراكوا التى فقدت إسمها الأصلي لتتلقّى هذا الإسم من سكان الضيعة شبه الزنوج، والذى لا يناسبها** بمنظر وجهها الجانبى الشبيه بالنسر وضفائرها الكثة: كانت العجوز لوديينيا تدندن وعيناها مفتوحتان جيداً بتلك الأغنية اللعينة التى ما كانت لتتذكرها، لو إنتبهت، لكنها رغم ذلك تريد التلذذ بها، لأنها تسخر من الجنرال خوان نيوموثينو ألمونتى، الذى كان في البداية صديقاً للدار وزميلاً للمرحوم إرنينو منشاكّا، زوج لوديينيا، وعضواً في بلاط سانتا آنا ويدها، حين أراد مُخلّص المكسيك والحامى الكبير لال منشاكّا - حامى حياتهم وضياعهم - العودة من منفاه الألف وهبط من سفينته وعولج من نوبة دوسنتاريا، تنكّر لولاءاته القديمة، وجعل الفرنسيين يعتقلونه ويعيدونه إلى السفينة من جديد: San

* Zouaves = los zuavos : مشاء فرنسيون من أصل جزائرى ومغريبي يرتدون

ملابس شرقية زاهية -م

** Baracoa : يُطلق في كوبا على نوع من الغاب الطويل النحيل البالغ المرونة - م

Juan de nepomuceno, la monda . تتذكر لوديبينيا الوجه
الداكن لخوان نيوموثينو ألونتي، ابن النساء الألف المجنونات للقس
موريلوس وتزعم قمها المصنوع، الخالي من الأسنان، حين تتذكر
المقطع الفاحش لتلك الأغنية الملعونة لأنصار خواريث الذين قتلوا
الجنرال سانتا أنا إذلالاً: ... وماذا ستظن إذا جاء اللصوص،
وسرقوا أمك وأنزلوا سروالها... * قرقرت لوديبينيا ضاحكة وطلبت
من الهندية بإشارة أن تزيد سرعة مروحة السعف. كانت الغرفة
الكثبية، المدهونة بالجير، تقوح بجو إستوائي مكتوم، مُستبدل، متكرر
في هيئة برد.

كانت بقع الرطوبة الضخمة على الجدران تروق للعجوز، لأنها
تجعلها تفكر في مناخات أخرى، مناخات طفولتها قبل أن تتزوج من
الملازم إرنيفو منشاكا وتتضم إلى حياة ومصير الجنرال أنطونيو لويث
دى سانتا أنا وتحصل بإرادته على الأراضي الخصبة بجوار النهر،
وهي أراض سوداء وشاسعة ملاصقة للجبل والبحر. هناك في فرنسا،
جويرى جويرى جويرا، مات بنيتو خوارث، وانتهت الحرية. والآن
تحولت تقطيعتها إلى تكشيرة إستياء شققت إلى ألف قشرة مكسوة
بالبودرة وجهها الذي ظلت توحده شبكة دقيقة من الشعيرات الدموية
الزرقاء. أبعدت مخالب لوديبينيا المرتجفة باراكوا بإيماءة أخرى وهزت
كميها الحريريّين الأسودين وقبضتنيها المكسوتين بالدانتيل الممزقة.
دانتيل وكريستال، لكن ليس ذلك فقط: فتحة مناضد من البلوط
المشغول بأسطح من المرمر الثقيل تستقر فوقها الساعات التي تعلوها
الأجراس الزجاجية، بقوائم محنية ذات كرات؛ وكراسى هزازة من

* عبارة عن أغنية سخريّة من مكسيميليان، الذي تولى عرش المكسيك بمساعدة سان
خوان نيوموثينو المونتي، الابن غير الشرعي لموريلوس بطل الاستقلال -

الخيزران فوق الأرضية الطوب، تغطيها فساتين القطن الثقيلة التي لم تعد تستخدم أبداً، وألواح مشطوفة، ومسامير من البرونز، وخزانات ذات مصاريع وفتحات مفاتيح من الحديد، وصور شخصية بيشاوية لكريولين مجهولين، متصلبين، مدهونين بالورنيش، لهم سواف منقوشة وصدر عالية وأمشاط من العظم، وإطارات من الصفيح للقسيسين وللمسيح طفل أتوتشا، وهذا الأخير منسوخ على القماش السميك القديم، المتآكل، الذي لا يكاد يحتفظ بالطبقة الأولى من القشرة الذهبية، والسرير المكسو بطبقة من الصفيح المفضض وله قبة وأعمدة محضورة، مستقر الجسد المستنزف، عش الروائح الحبيسة والملاءات المبقعة، وانبعاجات وانتفاخات القش الذي يظهر من تمزقات الحشيرة.

لم يكن الحريق قد وصل إلى هذا المكان. ولا خير الأراضي الضائعة والإبن المقتول في كمين والطفل المولود في كوخ الزوج: لم تصل الأخبار، لكن وصلت التوقعات المسبقة.

- أيتها الهندية، أحضري إبريق ماء.

انتظرت أن تخرج باراكوا ثم إنتهكت كل القواعد، أزاحت الستائر وقطبت وجهها لتتجسس على ما يجري هناك في الخارج. كانت قد رأت ذلك الطفل المجهول ينمو؛ تجسست عليه من النافذة، من وراء الدانتيل. كانت قد رأت نفس العيون الخضراء وقرقرت من السرور لمعرفة أنها موجودة في جسد آخر فتى، هي التي تحمل ذاكرة قرن كامل منقوشة في ذهنها وفي تجاعيد وجهها طبقات من الهواء والأرض والشمس التي إختفت جميعها. لقد واصلت، لقد بقيت على قيد الحياة. أجهدها الوصول إلى النافذة؛ مشت على أربع تقريباً، وعيناها مثبتتان على ركبتيها ويدها تشبثان بفخذيها. كانت رأسها ذات الخصلات البيضاء مختمية بين كتفيها، اللذين يبدوان أحياناً

أعلى من مجتمها . لكنها بقيت على قيد الحياة . ظَلَّتْ هنا ، تحاول من فراشها المشعث القيام بمهام الشابة الجميلة البيضاء التي فتحت أبواب كوكوبا أمام الاستعراض الطويل للمطارنة الإسبان، والتجار الفرنسيين، والمهندسين الاسكتلنديين، والبريطانيين باعة السندات، والمرايين والقراصنة الذين مرُّوا من هنا في مسيرتهم نحو مدينة مكسيكو والفرص التي ينطوى عليها البلد الفتى، الفوضوى: بكاتدرائياته الباروكية، ومناجم ذهبه وقضته، وقصوره من الصخر البركاني والأحجار المنحوتة، وإكليروسه المساومين، وكرنفاله السياسى الأبدى وحكومته الواقعة في دين دائم، وامتيازاته الجمركية السهلة للأجنى ذى الحديث المبطن. كُانت تلك هى الأيام المجيدة في المكسيك، حين ترك آل منشاكا الضيعة في أيدي الأبن الأكبر، أتاناسيو، حتى يصبح رجلاً من خلال التعامل مع الأجراء، واللصوص، والهنود وصعدوا إلى الهضبة ليتألقوا في البلاط الوهمى لصاحب الجلالة الملكية. كيف كان يمكن أن يحيا الجنرال سانتا آنا بدون رفيقه القديم منشاكا - الذى أصبح مُقَدِّماً الآن - الذى كان خبيراً بالديكة وحلّبات القتال وكان يمكنه قضاء الليل في الشراب وفي تذكر خطة كاساماتا، وحملة باراداس، وإل آلامو، وسان خاثينتو، وحرب الحلوى، وحتى الهزائم أمام جيش اليانكى الغازى، التى كان القائد العام يشير إليها بضحك كلبى، وهو يضرب الأرض بساقه الخشبية ويرفع كأسه ويربّت الشعر الأسود لزهرة المكسيك، الزوجة - الطفلة التى حُمِلت إلى الفراش الذى مازال دافئاً من الاختلاجه الأخيرة لزوجته الأولى؟ وكانت أيام الأسى، حين تم طرد السيد من المكسيك من جانب الجماعة الليبرالية وعاد ال منشاكا إلى الضيعة ليدافعوا عما يملكون: آلاف الهكتارات التى منحها الطاغية الأعرج هاوى الديكة؛ والتى جرى تملكها دون استئذان الفلاحين الهنود الذى توجّب عليهم أن يبقوا

كأجراء أو ينسحبوا إلى سفح الجبل: والتي تمت زراعتها بواسطة العمالة الزنجية الجديدة، الرخيصة، من جزر الكاريبي، والتي جرى توسيعها بفضل تقاضى الرهونات المفروضة على كل الملاك الصغار في الإقليم. أكوام التبغ المفروشة لتجف. والعربات المملوءة عن آخرها بالموز والمانجو، وقطعان الماعز التي ترعى على أولى مرتفعات السيرا مادري. وفي المركز المنزل ذو الطابق الواحد، ببرجه الملون واسطبلاته التي تدوى بالصهيل، ونزهاتهم في الزورق والعربة المكشوفة. وأتانا سيو، الإبن ذو العينين الخضراوين، المتشح بالبياض فوق الحصان الأبيض، المهدي هو أيضا من سانتا آنا، وهو يخبُّ فوق الأراضي الخصبة والسوط في قبضته، مستعداً لفرض إرادته الحاسمة، لإشباع شهيتته النهمه بالفلاحات الشابابات، للدفاع بعصبة الزوجين عن سلامة الأراضي ضد الفارات المتزايدة باستمرار لأنصار خوارث. يحيا المكسيك أولاً، تحيا أمتنا، وليمتُ الأمير الأجنبي... والأيام الأخيرة للإمبراطورية، حين أخبروا العجوز إرينيو منشاك أن سانتا آنا قد عاد من المنفى ليعلن جمهورية جديدة: خرج العجوز في عربته المكشوفة السوداء إلى بيراكروث حيث كان ينتظره زورق في المرفأ وفوق السفينة هيرجينيا، بالليل، أرسل سانتا آنا وقراصنته الألمان إشارات أمام سان خوان دي أولوا دون أن يردَّ عليهم أحد. كانت حامية الميناء موالية للإمبراطورية وهزأت بالطاغية المعزول الذي كان يروح ويجئ فوق سطح السفينة، تحت الأعلام المثلثة، يائساً، وهو يبصق الهراء من شفتيه المكتنزتين. وانتفخت الأشرعة من جديد ولعب الصديقان القديمان الورق في قمرة القبطان اليانكي: أبحروا فوق بحر ملتهب، بطئ، لا يكاد يظهر منه خط الساحل، الضائع خلف ستار من الحرارة. من الإطار المزين للسفينة، رأت عينا الدكتاتور الحائقتين الخط الخارجى الأبيض لبلدة سيسال. وهبط الأعرج العجوز يتبعه رفيقه

القديم، وأصدر بياناً لسكان يوكاتان وعارود العيش في حلم عظمتته: كان مكسيميليانو قد حُكم عليه بالموت لتوّه في كيريتارو وكان للجمهورية الحق في الإعتماد، مرةً أخرى، على الإخلاص الوطني لزعيمها الطبيعي والأصيل، الملكها غير المتوج. حكوا هذا للوديينيا: كيف قبض عليهم قائد سيسال، وكيف أرسلوا إلى كامبيتشي، وهناك، كيف طافوا بهم الشوارع وأيديهم في الأغلال، بين لكزات فصيل الجنود، مثل لصوص عاديين، كيف ألقوا بهم في زنزانة السجن. وكيف مات المقدمُ العجوزُ منشاكا في ذلك الصيف دون مراحيض، المنتفخ بالمياه الملوثة، بينما أعلنت الصحف الأمريكية الشمالية أن أنصار خوارث قد أعدموا ساننا أنا، مثلما تم إعدام أمير ترينستا البرئ. لا: فجثة إرينيو منشاكا هي وحدها التي دُفنت في المقبرة المواجهة للخليج، واضعة نهاية حياةٍ من الصُدف والمراهنات، مثل حياة البلاد ذاتها وأما ساننا أنا فقد خرج من جديد إلى المنفى، وعلى وجهه التقطية الدائمة لجنون مُعد.

قال لها ذلك أتاناسيو، تذكرت العجوز لوديينيا في هذا الأصيل الحار، ومنذ ذلك الحين لم تعد تخرج من الغرفة وحملت إليها أفضل ملابسها، وشمعدان حجرة الطعام، والصناديق المطلية. وأفضل اللوحات ورنيشاً. إنتظاراً للموت الذي قدرت رأسها الرومانسية أنه وشيك، لكنه تأخر خمسةً وثلاثين عاماً ضائعة، لا تُعدُّ شيئاً بالنسبة لإمرأة في الثالثة والتسعين، ولدت عام الإنتفاضة الأولى، حين تعالت قِعمقة العصى والحجارة في أبرشييه دولورس ووضعتها أمها في منزل أوصدت أبوابه من الرعب. كانت تقاومها الزمنية قد ضاعت ولم يكن هذا العام ١٩٠٣ بالنسبة لها سوى زمن مسروق من الموت العاجل نتيجة الأسى والذي كان يجب أن يتلو موتُ المقدم. كذلك لم يحدث، عام ٦٨، حريق المنزل، الذي توقف عند أبواب المخدع المغلق بينما

إبناها - كان هناك آخر، لم يكن أتاناسيو وحده، لكنها لم تكن تحب
سواه - يصرخان فيها أن تتجو بجلدها وهى تكوّم الكراسى والمناضد
خلف الباب وتسعل ذلك الدخان الكثيف الذى كان يتسلل من كل
الشقوق، لم تعد تريد أن ترى أحداً، إلا الهندية لإحتياجها لمن يحضر
لها الطعام ويرفو لها الثياب السوداء. وبين الجدران الأربعة فقدت
وعيتها بكل شئ، إلا ما هو جوهرى: ترمّلها، والماضى، وبغته، ظهر ذلك
الطفل الذى يرغض دائماً على البعد، وهو يدوس أذيال خلاسى
مجهول.

- أيتها الهندية، أحضرى إبريق ماء.

لكن بدل باراكوا، ظهر على الباب ذلك الشبح الأصفر. صرخت
لوديبينيا في صمت وتراجعت إلى عمق الفراش: انفتحت العينان
الغائرتان بفزع وبدا أن جميع قشور الوجه قد تحوّلت إلى تراب. توقف
الرجل الذى ظهر عند العتبة ومدّ يداً مرتعشة.
- أنا يدرو...

لم تفهم لوديبينيا. منعها إرتجافها من الكلام لكن ذراعيها
استطاعتا الإهتزاز، لطرد الأرواح الشريرة، لإخفاء نفسها في دوامة
من الأقمشة السوداء. بينما تقدم الشبح الشاحب وضمه مفتوح:
- هه... يدرو... هه... قال وهو يحكّ ذقنه المملّخة والقليلة
الشعر... يدرو...

بتلك الحركة العصبية في جفنيه. لم تفهم العجوز المشلولة ما
قاله ذلك الرجل الناعس، الذى تفرج منه رائحة العرق والكحول
الرخيص: - هه... لم يبق شئ، أتعرفين؟... كل شئ... إلى الشيطان...
والآن... تمت، بعويل جاف - يأخذون الزنجى؛ لكنك لا تعرفين، يا
ماما...

- أتاناسيو...

- هه... پدرو - ألقى السكير بنفسه فوق الكرسي الهزاز وباعد ما بين ساقيه، كأنه قد وصل إلى مرفأ الرحيل - يأخذون الزنجى... الذى يطعمنا... أنت وأنا...

- لا؛ خلاسى؛ خلاسى وطفل...

كانت لوديينيا تستمع، لكنها لم تنظر إلى الشبح الذى كان قد جلس ليتحدث معها، فأى صوت يُسمع داخل الكهف المحظور لا يمكن أن يكون له جسد.

- خلاسى، إذن، وطفل... هه؟

- أحياناً يركض هناك عن بعد، لقد رأيته، وهو يجعلنى أشعر بالرضى. إنه طفل.

- جاء ناظر العمال ليبلغنى... لينتزع منى النوم في عز حرارة الشمس... يأخذون الزنجى... ماذا سنفعل؟

- يأخذون زنجياً؟ المزرعة مليئة بالزئوج، يقول المقدم أنهم أرخص ويعملون أكثر. لكن إذا كتبت تحبه إلى هذا الحد، إرفع ثمنه إلى ستة ريالاً.

وظلاً، تمثالين من الملح، يفكران فيما سيكونا قد أرادا قوله فيما بعد، حين سيكون قد فات الأوان، حين لن يعود الطفل بينهما. حاولت لوديينيا أن تقرب بصرها من الحضور الذى كانت تنكر وجوده: من سيكون، الرجل الذى قام عن قصد، اليوم فقط، بنفض التراب عن أفضل ثيابه ليخطو الخطوة المحرمة؟ نعم: الصديرى الدانتيل، الذى بقعه الطحلب بفعل التخزين في جو استوائى، والبنطلون الضيق، المحبوك بإفراط، المفرط الضيق على الكرش الصغير لذلك الجسد المنهك. لم تكن الثياب العتيقة تتحمل حقيقة العرق المعتاد - التبغ والعرق - وكانت العينان الشافقتان غريبتين على كل التوكيد والأناقة اللتين تفترضهما الثياب: إنهما عينا سكير دون

خبث، غريب عن كلِّ تعامل منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. آه -
تتهتد لوديبينيا، عالية فوق فراشها المشعث، مُسلَّمة في النهاية بأن
لذلك الصوت وجه ، هذا ليس أتاناسيو ، الذى كان كأنه إمتداد
ذكورى لأمه: هذا هو الأم نفسها، لكن بلحية وخصيتين - حلمت
العجوز - وليس الأم، كما كانت ستكون في الذكورة، مثلما كان
أتاناسيو؛ ولهذا السبب أحببت إبناً ولم تحب الآخر - تتهتد - أحببت
الإبن الذى عاش دوماً وجذوره ضاربة في المكان الذى كان من
نصيبهم في الأرض ولم تحب الذى أراد، حتى في هزيمة القضية،
أن يواصل الاستمتاع، هناك إلى أعلى، في القصور، بما لم يعد ملكاً
لهم: - تيقنت -: بينما كان كل شيء ملكهم، كان لهم الحق في فرض
وجودهم على البلد بأسره: - تشككت -: حين لم يعودا يملكون شيئاً
فإن مكانهم هو داخل هذه الجدران الأربعة.

تأملت الأم والإبن بعضهما، وبين الإثنين يقوم جدارٌ من الإنبعاث.
(- هل جئت لتقول لى أنت ما من أراض ولا عظمة لنا، أن آخرين
قد إستغلونا كما قمنا نحن باستغلال الأولين، الملاك الأصليين لكل
شيء؟ هل جئت لتحكى لى ما أعرفه، في قرارة نفسى، منذ الليلة
الأولى لحياتى كزوجة؟

(- جئت بذريعة. جئت لأننى لم أعد أريد أن أكون وحيداً.
(- وددت لو تذكرك وأنت طفل، أحببتك عندئذ، ففى الشباب
يجب على الأم أن تحب كل أبنائها. أما فى شيخوختنا فتعرف الأمور
أفضل. لا داعى لحب أى شخص دون سبب. والدم الطبيعى ليس
سبباً. السبب الوحيد هو الدم المحبب دون سبب.
(- أردت أن أكون قوياً، مثل أخى. لقد عاملت بيد من حديد ذلك
الخلاسى وذلك الطفل؛ حرمتُ عليهما أن يطا المنزل الكبير. كما كان
يفعل أتاناسيو، أتذكرين؟ لكن حينذاك كان هناك عمال كثيرون. واليوم

لم يبق سوى الخلاسى والطفل. والخلاسى سيذهب.
 (- لقد صرت وحيداً. تبحث عني كي لا تبقى وحيداً. تظننى
 وحيدة، أرى هذا في عينيك المتعاطفتين. أحق، دوماً، وضعيف: لست
 ابني، الذي لم يطلب تعاطفاً من أحد، بل نفس صورتى أنا وأنا زوجة
 شابة، الآن لا، الان لم أعد كذلك. الآن لدى حياتى برمتها لترافقنى
 لئلا أعود عجوزاً. العجوز هو أنت، يامن تظن أن كل شيء قد أنتهى
 بشييك وسُكرك وغياب إرادتك. آه، أنا أراك، أراك، أيها المنتهك! أنت
 نفس الشخص الذي صعد معنا إلى العاصمة؛ نفس الشخص الذي
 اعتقد أن سلطتنا هي ذريعة لتبيديدها على النساء والشراب وليست
 سبباً لتعميقها وجعلها أقوى واستخدامها كسوط؛ نفس الشخص
 الذي اعتقد أن سلطتنا قد إنتقلت إلينا دون أن يدفع لها ثمناً ولهذا
 ظن أن باستطاعته البقاء هناك إلى أعلى، دون دعمنا، حين إضطررنا
 نحن إلى الهبوط من جديد إلى هذه الأرض الساخنة، إلى هذا النبع
 لكل شيء، إلى هذا الجحيم الذي صعدنا منه والذي إضطررنا إلى
 الوقوع فيه مرةً أخرى... إنها تفوح! ثمة رائحة أقوى من عرق الخيل
 ومن الفاكهة والبارود... هل توقفت لتشمّ مضاجعة رجل وامرأة؟
 الأرض هنا تفوح بهذه الرائحة، برائحة ملءة حُب وأنت لم تعرف هذا
 أبداً... إسمع، آه، لقد ربّيتُ عليك حين وُلدت وأرُضعتك وقلت أنك لى
 أنا، إبنى أنا، وكنت أتذكرُ فقط اللحظة التي خلقت فيها أبوك بكل
 عمى حب لم يكن هدفه أن يخلقك، بل أن يمنحني المتعة؛ وقد بقى
 هذا وتلاشيتُ أنت... هيا أخرج، أسمع...
 (- لماذا لا تتكلمين؟ حسناً... حسناً... استمرى في صمتك، فخيرٌ
 لى أن أراك هناك، ناظرةً إلى هكذا؛ هذا خيرٌ من ذلك الفراش العارى
 وليالى الأرق تلك...
 (- هل تبحث عن أحد؟ وذلك الطفل هناك في الخارج، أليس

حياء؟ أظن أنتى أفهمك؛ لا بد أنك تظن أنتى لا أعرف أى شئ، لا أرى
أى شئ من هنا... كأننى لا أستطيع أن أشعر بأن جسداً آخر ينتمى
إلىّ يجوب هنا، إمتداداً آخر لإرينيو وأتاناسيو واحداً آخر من آل
منشاك، رجلاً آخر مثلهما، هناك في الخارج، إسمع... مؤكداً أنه ينتمى
إلىّ، وأنت لم تبحث عنه... الدم يفهم بعضه دون حاجةٍ إلى
الإقتراب...

- لونيرو - قال الطفل حين استيقظ من القيلولة ورأى أن
الخلاسى يتمدد، مُنهكاً، فوق الأرض الأشد رطوبة -.. أريد أن أدخل
المنزل الكبير.

بعدها، حين سيكون كلُّ شئ قد إنتهى، ستكسر العجوز لودييينيا
صمتها وستخرج، مثل غراب بلاً أجنحة، لتصرخ عبر طرقات أعواد
الغاب، وعيناها ضائعتان في الأعشاب ومرتفعتان، في النهاية، نحو
سلسلة الجبال، لتمدّ ذراعيها نحو الهيئة الأدمية التى تتوقع أن
تصادفها، وقد أعشاها الليل الذى لم تتعود عليه في كهفها ذى الشموع
المشتعلة دائماً، خلف كل غصن يسوط وجهها الذى تتخلله عروق ميتة.
وستشم إقتران الأرض ذاك وستُصبح بصوتها الأصم بالأسماء المنسية
وتلك التى تعلمتها حديثاً، وستعض بسُعار يديها الشاحبتين، لأن في
صدرها شئ - السنين، الذاكرة، الماضى الذى كان كلَّ حياتها - سيقول
لها أنه سيوجد ثمة هامش للحياة خارج قرن ذكرياتها: ثمة فرصة لأن
تحيا وتُحب كائنا آخر من دمها: شئ لم يمت بموت إرينيو وأتاناسيو.
لكن لودييينيا الآن، في مواجهة السنيور پدريتو، في المخدع الذى لم
تغادره طوال خمسة وثلاثين عاماً، ستعتقد أنها المركز الذى تلتقى فيه
الذكرى والموجودات المحيطة. ريتُ السنيور پدريتو لحيته القليلة الشعر
وعاود الكلام، بصوت عال هذه المرة:
- أماء، أنت لا تعرفين...

جمدت نظرة العجوز صوت الإين.

(- ماذا؟ أن شيئاً ما كان له أن يدوم؟ أن تلك القوة كانت تقوم على المظاهر الخالصة، على جور كان لا بد أن يلقى حقه على يد جور آخر؟ أن الأعداء الذين أمرنا بإعدامهم بالرصاص لنظل نحن السادة؟ أن الأعداء الذين أمر أبوك بقطع ألسنتهم أو أيديهم ليظل هو السيد؟ أن الأعداء الذين إنتزع منهم أبوك أراضيتهم كي يبدأ في أن يكون هو السيد قد تحولوا ذات يوم إلى منتصرين وأضرموا النار في منزلنا؛ مروا ذات يوم وانتزعوا منا ما لم يكن لنا، ما إمتلكناه بفضل قوتنا وليس بفضل حقنا؟ أن أخاك رغم كل شيء رفض قبول تقليص ممتلكاته والهزيمة وظل هو أتاناسيو منشاك، ليس هناك إلى أعلى، بعيداً عن مسرح الأحداث، مثلك، بل هنا إلى أسفل، بين عبيده، مواجهاً الخطر، مغتصباً الخلاسيات والهنديات وليس مثلك، مغوياً النساء المستعدات؟ أن من الألف مضاجعة وحشية، لاهية، متعجلة لأخيك لا بد أن يبقى برهاناً، واحد، واحد، على عبوره بأرضنا؟ أن من بين كل الأبناء الذين وضع بذرتهم أتاناسيو منشاك على طول ممتلكاتنا، لا بد أن واحداً قد وُلد على مقربة؟ أنه في نفس اليوم الذي وُلد فيه ابنه في كوخ زنوج - كما كان لا بد أن يولد، إلى أسفل، لإظهار قوة الأب مرةً أخرى - كان أتاناسيو قد ...)

في عيني لوديبينيا، لم يخمن السنيور بديتو الكلمات. فنظرة العجوز، المنبعثة من الوجه البالي، حلقت مثل موجة من المرمز فوق حرارة المخدع السائلة. لم يكن الرجل ذو الثياب المحبوكة بحاجة للإستماع إلى صوت لوديبينيا.

(- لا تلوميني على شيء، فأنا أيضاً أبوك... ودمي كان هو نفس دم أتاناسيو... لماذا، إذن، في تلك الليلة...؟ قالوا لي فقط: "الرقيب رويانا، من قوات سانتا أنا القديمة، عثر على ما كنتم قد بحثتم عنه

طويلاً، جثة المقدم منشاك، في مقبرة كامبيتشي. جندى آخر، رأى أين دفنوا أباك دون شاهد قبر، أخبر الرقيب حين أرسلوه إلى حامية الميناء. وقام الرقيب، هائلاً من قيادته، بسرقة عظام المقدم منشاك ليلاً والآن ينتهز فرصة نقله إلى خاليسكو للمرور من هنا وتسليمكم بقايا والدكم، وهو ينتظركما أنت وأخيك هذه الليلة، بعد الساعة الحادية عشرة، عند فرجة الغابة على مسافة كيلو مترين من مدخل القرية، هناك حيث كان من قبل قائم شفق الهنود المتمردين". ألم يكن هذا مأكراً جداً؟ صدق أتاناسيو الأمر مثلي تماماً؛ امتلأت عيناه بالدموع ولم يشك أبداً في الرسالة. آي، لماذا كنت قد أتيتُ إلى كوكويا في ذلك الموسم؟ نعم، لأن النقود بدأت تنضب مني في مكسيكو ولم يكن أتاناسيو يبخل علىّ بشئ؛ بل إنه كان يفضل حتى أن أمضى بعيداً عن هنا، لأنه أراد أن يكون الوحيد من آل منشاك في الإقليم، حارسك الوحيد. كان هناك ذلك القمر الأحمر لأشد الفترات حرارة حين وصلنا إلى الموضع على صهوة الجياد. وهناك كان الرقيب روبينا، الذي كنا نتذكره من طفولتنا، متكئاً على جواده النورماندى. إلتمعت أسنانه مثل الأرز، مثلها مثل شواربه البيضاء. كنا نتذكره من طفولتنا. كان قد رافق دائماً الجنرال سانتا آنا وكان قد ذاع صيته كمروض للمهور؛ كان دائماً ما يضحك هكذا، كأنه هو نفسه جزءاً من نكتة هائلة. وهناك، فوق ظهر الجواد النورماندى، كان الكيس القذر الذى إنتظرناه. إحتضنه أتاناسيو فضحك الرقيب كما لم يضحك قط؛ حتى إنفجر بالضحك، وعندها خرج من بين الأعشاب الرجال الأربعة، لامعين تماماً تحت القمر، لأنهم كانوا يتشحون جميعاً بالبياض. "الأرواح المباركة!" - صاح الرقيب بصوته الضاحك، "الأرواح المباركة من أجل من لم يرضوا بالخسارة

ويريدون إستعادة ما خسروه!" ثم تغيّر وجهه وتقدم هو أيضا نحو أتاناسيو. لم ينظر إلى أحد، أقسم لك؛ تقدموا ناظرين إلى أخی وحده، كأنتى غير موجود؛ ولا أدرى حتى كيف استطعت إمتطاء الحصان والعدو خارج تلك الدائرة المشئومة للرجال الأربعة الذين كانوا يتقدمون وسواطيرهم مُشهرة خارج أحزمتهم، بينما صاح في أتاناسيو بصوت يتراوح بين الحشجة والهدوء: "عُد، يا أخی، وتذكّر ما تحمله" وأحسستُ أنا بكعب البندقية يصطدم بركبتى، لكننى لم أستطع أن أرى كيف أخذ الرجال الأربعة يقتربون من أتاناسيو وضربوه أولاً بصفحات السواطير على ساقيه ثم مزقوه إرباً، هناك تحت القمر، حتى يتم كل شئ في سكون. أی عون كنتُ سأطلبه في الضيعة، وأنا أعرف أنه قد شبع موتاً والأدهى من ذلك أنه مات بأيدي فتیان الزعيم المحلّى الجديد الذى كان بحاجة إلى قتل أتاناسيو أجلاً أو عاجلاً حتى يصبح كذلك حقاً؟ ومنذ ذلك الحين، منذ الذى سيسطيع أن يعارضه؟ ولم أرد حتى أن أعرف شيئاً عن الحاجز الجديد الذى أقامه، في اليوم التالى، السيد الذى هزمنّا على أرضنا. لماذا؟ وانتقل العمال إليه دون أن ينطقوا بحرف؛ فلن يكون أسوأ من أتاناسيو. وكأننا ليقولوا لى أن أظل هادئاً، قضى الفصل الفيدرالى أسبوعاً كاملاً هناك، دون أن يتحرك، على الحدود الجديدة. كيف كان يمكنى أن أتحرك؟ وقد كان على أن أشكر لهم أنهم عفووا عنى. ولغرض ما، بعد مرور شهر، زار الجنرال بورفيريو ديثا المنزل الكبير الجديد للإقليم. ولم يتنازلوا حتى عن السخريّة. فمع الجسد المشوّه لأتاناسيو بعثوا إلى بعض عظام البقر، جمجمة ضخمة ذات قرون: ما كان الرقيب يحمله في حقيبته ظهره. ولم أفعل سوى أن علّقتُ تلك البندقية المحشوّة على مدخل المنزل، من يدري؟ بمثابة تكريم لأتاناسيو المسكين. حقاً في تلك الليلة... لم

يخطر ببالى أبداً أنتى كنت أحملها تحت سرجى، رغم أن كعبها كان يصطدم بركبتى، خلال ذلك العدو الطويل، يا أماء، الطويل، أقسم لك...

- لا يجب الدخول هناك أبداً - قال لونيرو ونهض من رقصة الرعب والأسى، من وداعه الصامت في آخر أصيل بجوار الطفل؛ لا بد أن الساعة هى الخامسة والنصف ولا يمكن أن يتأخر ناظر العمال.
- حاول أن تفوص في باطن الأرض - قال له بالأمس - حاول لأكثر. فلدينا ما هو أفضل من كلاب الصيد وأولئك هم كل الأشقياء الذين يفضلون أن يُسلموا أجيراً نافراً على معرفة أن أحداً قد نجا من مصيرهم.

لا: نحو الساحل كانت تنطلق أفكار لونيرو، الذى صار، في النهاية، سجين رعب وحنين. وكم رآه الطفل ضخماً حين نهض الخلاسى على قدميه وأخذ يراقب تيار النهر السريع صوب خليج المكسيك! وكم بدت شامخة أعوامه الثلاثة والثلاثون من اللحم بلون القرفة والكفين الورديين! كانت عينا لونيرو مصويتين إلى الشاطئ وبدا جفناه ملونين بالأبيض، ليس بسبب العمر الذى يزيد على هذا النحو من صفاء نظره الجنس، بل بسبب الحنين الذى هو عمر آخر، أكثر قدماً، نحو الورا. هنالك كان الحاجز الذى يقطع مخرج النهر ويصنع ببقعة رمادية أولى حدود البحر. لكن على مسافة أبعد، كان يبدأ عالم الجُزر وبعده يمكن الوصول إلى القارة حيث يمكن لواحدٍ مثله أن يضيع في الغابة ويقول أنه قد عاد. وإلى الورا كانت سلسلة الجبال، والهنود، والهضبة. لم يشأ النظر صوب الورا. استنشق بعمق ونظر صوب البحر كأنه ينظر صوب تعويذة للحرية والإمتلاء. نزع الطفل قيود الخجل وجرى صوب الخلاسى؛ ولم يصل عناقه إلا إلى ضلوع لونيرو.

- لا تذهب، يا لونيرو.

- أيها الطفل كروث، بحق الرب؛ ماذا يمكننا أن نفعل؟
ربت الخلاسُ المضطرب على شعر الصبى ولم يستطع تجنب
تلك السعادة، ذلك الإمتنان، تلك اللحظة التي خشى دائماً أن تكون
بالغة الإيلام. رفع الطفل رأسه:

- يجب على أن أحدثهم وأقول لهم أنك لا يمكنك الذهاب...

- هناك في الداخل؟

- نعم، في المنزل الكبير.

- إنهم لا يريدوننا هناك، أيها الطفل كروث، لا تدخل هناك أبداً.
تعال، هيا نواصل عملنا. لن أذهب طوال أيام كثيرة. ومن يدري فريما
لن أذهب أبداً.

إستقبل نهر الأصل الصاخب جسد لونيرو الذي غطس كى
يتجنب كلمات وملمس رفيقه الفتى، رفيق حياته كلها. عاد الصبى
إلى عمل الشموع وعاود الإبتسام حين تظاهر لونيرو، وهو يسبح
ضد التيار، بالترفيس مثل غريق، وانطلق مثل سهم وتشقلب في
الماء، وعاود الظهور وبين أسنانه عصا وبعدها، على الضفة، نفث
نفسه من الماء وأصدر أصواتاً هزلية، وفي النهاية، جلس وظهره
للصبى، أمام قطع اللحاء المصنفرة، وتناول الشاكوش والمسامير. كان
عليه أن يفكر في الأمر من جديد: لن يتأخر ملاحظ العمال الآن.
فقد غابت الشمس خلف قمم الأشجار. قاوم لونيرو التفكير فيما
يجب أن يفكر فيه؛ كان نصلُ المرارة يقطع سعادته، التي صارت
مفقودة.

- أحضر مزيداً من الصنفرة من الكوخ - قال للصبى، متيقناً من
أن تلك هى كلمات وداعه.

كان باستطاعته الذهاب هكذا، بقميصه وبنطلونه الدائمين. لماذا

يحمل أكثر؟ الآن وقد غابت الشمس، سيقف مراقباً عند مدخل الدرب، حتى لا يقترب الرجل ذو المعطف من الكوخ.
- نعم - قالت لوديبينيا -: باراكوا تُفهمنى كلُّ شئ. كيف نعيش على عمل الطفل والخلاسى. أتريد الإعراف بهذا؟ أنا ناكل بفضلهما. ولا تدري أنت ما تفعل؟

كان من الصعب فهم صوت العجوز الحقيقى؛ فمن طول إعتيادها على الغممة الوحيدة، كان ينبثق بصمت وثقل نبع كبريتى.
- ... ما كان سيفعله أبوك وأخوك: أن تُخرج للدفاع عن ذلك الخلاسى وعن الطفل، أن تمنعهم من أخذه... وإذا لزم الأمر، أن تضجى بحياتك حتى لا يدوسونا... هل ستخرج أنت أم أخرج أنا، أيها المنتهك؟... أحضر الطفل إلى!... أريد الحديث معه...

لكن الطفل لم يكن يميّز الأصوات، ولا حتى الوجوه؛ لم يتبين سوى الظلّين. خلف ستار الدانتيل، الآن بينما لوديبينيا، بإيماءة نفاذ صبر، تأمر السنيور بدريتو بأن يشعل الشموع. إبتعد الطفل عن النافذة ويبحث، سائراً على أطراف أصابعه، عن واجهة المنزل الكبير، بأعمدته المكسوة بالسناج والشرفة المنسيّة حيث تتدلى شبكة النوم التى تستخدم خلال الإحتفالات المستوحدة. وثمة شئ آخر: فوق عارضة الباب العليا، معلقة من حلقتين صدئتين، كانت البندقية التى حملها السنيور بدريتو تحت سرجه تلك الليلة من عام ١٨٨٩ والتى أبقاها منذ ذلك الحين مُزيّنةً وجاهزة، بمثابة ملاذٍ أخير لجُبْنه، عارفاً أنه لن يستخدمها أبداً.

كانت الماسورة المزوجة تلمع أكثر من العتبة البيضاء. اجتازها الصبى: ما كانت من قبل صالة المنزل كانت قد فقدت الأرضية والسقف؛ كان الضوء الأخضر لساعات الليل الأولى يدخل مُنهمراً، مضيقاً أرضاً من العشب والرماد، حيث تتق بعض الضفادع، وفي

الأركان، تجمّعت مياه المطر. بعدها إنفتح الفناء الملى بالحشائش وفي العمق أظهر بابٌ خطاً الضوء للغرفة المسكونة. تصاعدت الأصوات الصادرة من هناك. ومن الطرف المقابل - ما تبقى من المطبخ القديم - ظهرت الهندية باراكوا، بعينين غير مُصدّقتين: أخفى الطفل وجهه في عتمة الصالة. خرج إلى الشرفة واستغل الطوب المكسور ليبلغ عارضة الباب العليا والبنديقية. تصاعد ضجيج الأصوات. كانت تصل إليه في مزيج من الغضب الحادّ والاعتذارات المغنمة. وأخيراً، خرج من المخدع شبحٌ طويل: كانت أذيالُ معطف الفراك ترتطم بقوة والحذاء الجلدى يُدوّى فوق بلاط الدهليز. لم ينتظر الصبى فقد كان يعرف الطريق الذى ستسلكه هاتان القدمان؛ جرى والبنديقية بين ذراعيه عبر الدرب المؤدّى إلى الكوخ.

وكان لونيرو منتظراً، بعيداً عن المنزل الكبير وعن الكوخ، في الموضع الذى تلتقى فيه طُرُق الأرض الحمراء. لابد أنها السابعة مساءً. الآن لا يمكن أن يتأخر. تفحص إتجاهى الطريق الواسعة. لابد أن حصان ناظر العمال ذاك سيثير سحابة ضخمة من الغبار. لكن ليس ذلك الدوى البعيد، ذلك الانفجار المزدوج الذى سمعه لونيرو خلفه والذى منعه للحظة من الحركة أو التفكير.

لأن الصبى كان قد رىض بين أوراق الشجر وبين يديه البنديقية، خائفاً أن تبلغه الخطوات ورأى مرور الحذاء الضيق، والبنطلون الرصاصى وأطراف المعطف: نفس معطف الأمس؛ لم يعد لديه شك، خصوصاً حين دخل ذلك الرجل الذى لا وجه له الكوخ وصاح: - لونيرو! وتبين الصبى في صوته النافذ الصبر الإنزعاج والتهديد اللذين كان قد لاحظهما بالأمس في حركات الرجل ذى المعطف الذى بحث عن الخلاسى. من كان سيبحث عن الخلاسى، إن لم يكن لأخذه بالقوة؟ وكانت البنديقية ثقيلة، بقوة أطالت الحنق الصامت للطفل:

حقاً لأنه عرف الآن أن للحياة أعداء ولم تعد ذلك الانسياب الذى لا ينقطع للنهر وللعمل؛ حقاً لأنه الآن إكتشف الانفصال. خرجت من الكوخ الساقان المكسوتان بالبنتلون، والمعطف الرصاصى اللون وصوب هو الماسورة المزدوجة إلى أعلى وضغط الزناد.

- كروث! يا بنى العزيز! - صرخ لونيرو حين إقترب من السحنة المحطمة للسنيور بدريتو، من الصديرى الملطخ بالأحمر، من الإبتسامة المفتعلة للموت المباحث - كروث!

والصبى، حين خرج مرتجفاً من بين الأوراق، لم يكن لديه سببٌ لتمييز ذلك الوجه المغمور بالدم والبارود، وجه رجل كان يراه دائماً عن بعد، شبه عار من الثياب، بدمجانة الخمر المرفوعة والفائلة المثقوبة فوق صدر أجردٍ وشاحب. لم يكن هذا هو ذاك، كما لم يكن هو السيد النبل الذى هبط من مدينة مكسيكو، أنيقاً ومهندماً؛ من كان لونيرو يتذكره؛ كما لم يكن هو الطفل الذى هدهده، منذ سبعين سنة، يدا لوديبينيا منشاكا؛ كان مجرد سحنة دون ملامح، وصديرى ملطخ بالدم، وتقطيبيبة حمقاء. وليس ثمة سوى زيز الحصاد. لم يتحرك لونيرو والطفل، لكن الخلاسى فهم. مات السيد على يديه. وفتحت لوديبينيا عينيها، بلّت سبّابتها بشفتيها وأطفأت شمعة رأس الفراش؛ سارت نحو النافذة، وهى تحبو تقريباً. شئٌ ما قد حدث. كانت النجفة قد عاودت الطقطقة. حدث إلى الأبد. وقد أرجفتها الطلقة المزدوجة. أنصتت إلى الأصوات الضائعة، حتى خبت وعاودت الحشرات الطنين. ليس ثمة سوى زيز الحصاد. تكوّرت باراكوا في المطبخ؛ تركت النار تنطفئ وارتجفت وهى تفكر في أن أزمنة البارود قد عادت. كذلك لم تتحرك لوديبينيا، حتى غلبها في الصمت ذلك الغضب الحاد الذى لم يتسع له سجن المخدع فخرجت تتعثر، ضئيلة تحت السماء الليلية التى تطلُّ من كل فجوات المنزل

المحترق، دودة صغيرة بيضاء ومُجعدة تمدُّ ذراعيها على أمل أن تلمس هيئة أدمية عرفت طوال ثلاثة عشر عاماً أنها قريبة، لكنها الآن فقط تودُّ أن تلمسها وتتادىها بإسمها، بدل أن تتركها تنمو في حدسها: كروث، كروث* دون اسم ولا لقب حقيقيين، عمدة الخلاسيون، بمقاطع إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، الأم التي طردها أتاناسيو منهاًلاً عليها ضرباً: أول امرأة في المكان تمنحه طفلاً. تجاهلت العجوز الليل؛ إرتجفت ساقاها، لكنها أصرت على السير، على جرجرة نفسها وذراعاها مفتوحتان، مستعدةً للملاقاة آخر عناق في حياتها. لكن لم يقترب سوى ضجيج الحوافر ذاك وتلك السحابة من الغبار. سوى ذلك الجواد المتصبّب عرقاً والذي توقف صاهلاً حين عبرت الطريق تلك الهيئة المحدودة للودييينيا وصرخ ملاحظ العمال من فوق السرج:

- أين ذهب الطفل والزنجى، أيتها العجوز الماكرة؟ أين ذهبا، قبل أن أطلق عليهما الكلاب والجنود؟
ولم تعرف لودييينيا كيف تجيب إلا بقبضة عصبية، تهزّها في الليل وبلغتها الطبيعية:

- - أيها المنتهك - قالت للوجه الذي لم تستطع رؤيته، الجالس عالياً فوق سرجه - . أيها المنتهك: كرّرت وزفرات الحصان قريبة من قبضتها المرفوعة.

إلتف السوط على ظهرها وسقطت لودييينيا على الأرض، بينما دار الحصان حول نفسه، وغمرها بالتراب وانطلق بعيداً عن الضيقة.

* كروث Cruz : تعنى الصليب. وقد جرت العادة في التقاليد الكاثوليكية على إطلاق لقب الصليب (كروث) على من لا يُعرف له أبٌ محدّدٌم

أنا أعرف أنهم يخترقون جلدَ مرفقى بتلك الإبرة؛ أصرخ قبل أن أحسَّ بأى ألم؛ إنذار ذلك الألم يسافر إلى مخي قبل أن يحسَّ به جلدي... آه... كي يحذرنى من الألم الذى سأحسُّه... كي أتأهب حتى أنتبه... حتى أحس بالألم بقوة أكبر... لأن الإنتباه... يُضعف... يُحوّلنى إلى ضحية... حين أنتبه... للقوى التى لن تستشيرنى... لن تضعنى في الاعتبار... بعد: أجهزة الألم... الأبطأ... تهزم أجهزة رد فعلى الإنعكاسى... ألم لم يُعد... ألم الحقنة... بل هو ذاته... أعرف... أنهم يلمسون بطنى... بحرص... البطن المنتفخة... الطرية... الزرقاء... يلمسونها... لا أحتمل... يلمسونها... بتلك اليد المفسولة بالصابون... ذلك الإحتكاك الذى يخلق بطنى، وعانتى... لا أحتمله... أصرخ... لا بد أن أصرخ... يمسون... ذراعى... كتفى... أصرخ أن يتركونى... أن يتركونى أموت في سلام... لا تلمسونى... لا أحتمل أن تلمسوا... تلك المعدة الملتهبة... الحساسية... مثل عين مجروحة... لا أحتمل... لا أدرى... يوقفوننى... يسندوننى... لا تتحرك أمعائى... لا تتحرك، الآن أحسُّ بذلك، الآن أعرف ذلك... الغازات تتنفخ، لا تخرج، تشل... لا تنساب... تلك السوائل التى كان يجب أن تنساب، لم تعد تنساب... تؤزمنى... أعرف... ليست لدى حرارة... أعرف... لا أعرف إلى أين أتحرك، فمن أطلبُ العون، التوجيه، حتى أنهض وأمشى... أدفع... أدفع... لا يصل الدم... أعرف أنه لا يصل إلى حيث كان يجب أن يصل... كان يجب أن يخرج من فمى... من إستى... لا يخرج... لا يعرفون... يُخمنون...

يتحسسونى... يتحسسون قلبى المتسارع... يلمسون معصمى الذى لا
نبض فيه... أنثنى... أنثنى إلى أثنين... يمسوننى من إبطى...
أنفس... يمددونى... أنثنى... أنفس... أقول لهم... لا بد أن أقول لهم
قبل أن أنفس... أقول لهم... لا أدري من هم... "لنعب النهر... على
صهوة الجياد"... أشم نفسى ذاته... العطن... يمددونى... ينفتح
الباب... تنفتح النوافذ... أجرى... يدفعونى... أرى السماء... أرى
الأضواء الزائفة التى تمر أمام بصرى... المس... أشم... أرى...
أذوق... أسمع... يحملونى... أمر بجانب... بجانب... فى دهليز...
مزين... يحملونى... أمر بجانب وأنا المس، وأشم، وأذوق، وأرى،
وأشم المنحوتات الباذخة - الترصيعات الوافرة - المصبوبات من الجص
والذهب - الصناديق المطعمة بالعظم والصدف - الأقفال والمزاليج -
الخزائن ذات المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية - المقاعد الفواحة
من الصنوبر المكسيكى - كراسى الجوقة - الحليات العليا والأفاريز
السفلى الباروكية - مساند المقاعد المحنية - الدعامات المخروطة -
الأقنعة المتعددة الألوان - المسامير البرونزية - الجلود المنقوشة - أقدام
الموبيليا ذات المخالب والكرات - المقاعد المكسوة بالدمقس - عباءات
الكهنة ذات الخيوط الفضية - الأرائك المخملية - موائد قاعات الطعام
- الأوانى والجرار - أسطح الموائد المشطوفة الحافة - الأسرة ذات
المظلات والطنافس - الأعمدة المحززة - شعارات النبالة والحواف
المنقوشة - الأبسطة الصوفية - المفاتيح الحديدية - اللوحات الزيتية
المتشققة - أقمشة الحرير والكشمير - الأصواف والتافتاه - أنية
الكريستال والقناديل - الأطباق المرسومة يدوياً - دعامات السقف
الدافئة - هذا لن يمسه... هذا لن يكون ملكهم... الأجفان... يجب أن
أفتح أجفانى... إفتحوا النوافذ... أتحرج... يداى ضخمتان...
قدمائى هائلتان... أنام... الأضواء التى تمر أمام جفونى المفتوحة...

أضواء السماء... إفتحو النجوم... لا أدري...

أنت ستكون هناك، فوق أولى قمم الجبل الذي سيزداد وراءك
 إرتفاعاً وتمدداً... وعند قدميك، سينحدر السفح الذي مازال مُلتفّاً
 بالأغصان الوارفة والصرير الليلي، حتى يذوب في السهل الإستوائى،
 بساط الليل الأزرق الذى سيرتفع كروياً وشاملاً كلَّ شئ... ستتوقف
 عند أول منبسط من الصخور، ضائعاً في عدم الفهم المضطرب لما قد
 حدث، لنهاية حياةٍ إعتقدت سراً أنها أبدية... حياة الكوخ الملتفّ في
 شبكة أزهار الريف، حياة الإستحمام والصيد في النهر، حياة العمل
 في شمع الآس، حياة صحبة الخلاسى لونيرو... لكن في مواجهة
 إختلاجك الداخلى... دبوس في الذاكرة، وآخر في حدس المستقبل...
 سينفتح هذا العالم الجديد ليل والجبل وسيبدأ ضوءه الداكن في شق
 طريقه في العينين، الجديدتين أيضاً والمصطيفتين بما كفّ عن كونه
 حياة ليتحول إلى ذكرى، يطفل سينتمى الآن إلى ما لا يمكن ترويضه،
 إلى ما هو غريب عن قواه الذاتيّة، عن إتساع الأرض... متحرراً من
 حتمية موضع وميلاد... مُستعبداً لمصير آخر، هو الجديد، المجهول،
 الذى يتبرعم خلف سلسلة الجبال التى تضيؤها النجوم. جالسا،
 مستعيداً أنفاسك، ستفتتح على البانوراما الشاسعة المباشرة: سيصل
 إليك ضوء السماء المحتشدة بالنجوم مُتصلاً ودائماً... ستدور الأرض

في مسارها المنتظم حول محور خاص بها حول شمس مُتسَيِّدة... ستدور الأرض والقمر حول نفسيهما وأحدهما حول الآخر وسيدوران كلاهما حول المجال المشترك لجاذبيتهما... ستتحرك كلُّ توابع الشمس داخل حزامها الأبيض وسيتحرك سيلُ البارود السائل في مواجهة المجموعات الخارجية، حول هذه القبة الصافية لليل الاستوائي، في الرقصة الأبدية للأصابع المتشابكة، في الحوار الكوني دون إتجاه ودون حدود... وسيواصل الضوءُ الخافق غمرك، أنت، والسهل، والجبل بإصرار غريب عن حركة النجمة وعن دوران الأرض، والكوكب، والنجم، والمجرة، والسديم؛ غريب عن الإحتكاكات، والتلاحمات، والحركات المرنة التي توحد وتضغطُ قوة العالم، والصخر، ويديك المشتبكتين تلك الليلة في أول تعجُّب منذهل... ستودُّ تثبيت بصرك في نجمة واحدة فقط والتقاط كلِّ ضوئها، ذلك الضوء البارد، اللامرئي مثل اللون الأرحب لضوء الشمس... لكن ذلك الضوء لا يجعل الجلد يحسَّ به... ستزُرُّ عينيك وفي الليل مثلما في النهار لن تستطيع رؤية اللون الحقيقي للعالم، المحظور على عيون البشر... ستتوه، شارداً، في تأمل الضوء الأبيض الذي سيخترق حَدَقَتَيْكَ بإيقاعه الموزون والمتقطع... من كلِّ متابعه، سيبدأ كلُّ ضوء الكون سيره السريع والمنحني، منطوياً حول الحضور العابر للأجرام النائمة للكون ذاته... عبر التركيز المتحرك لما هو ملموس، ستشتبك أفواس الضوء، وتتفصل وستخلق في دوامها السريع الإطار الكليّ، هيكل الكون... ستحسُّ بوصول الأضواء وفي نفس الوقت... بقرب النكهات الضئيلة للجبل والسهل: الآس والپاپايا، عبق الليل والتابا تشين*، صنوبر الخشب وزنبق - الغار، الفانيليا والتيكوتيهوي**، البنفسج البرّي، الميموزا، زهرة

* tabachín · اسم شعبي لشجيرة تكثر في المكسيك-م

** tecotehue : نبات عطري.

النمر... سترها تتراجع بوضوح، وتفوص باستمرار إلى الخلفية، في إنحسار مثير للدوار لمدّ الجُزُر الثلجية... أبعد باستمرار عن الإنفتاح الأول والتفجّر الأول... سيندفع الضوء نحو عينيك؛ وسيندفع في نفس الوقت نحو الحافة الأبعد للفضاء... ستتشبّ يديك في المستقرّ الصخري وستغمض عينيك... ستعاود سماع الطنين القريب لزيز الحصاد، وثغاء قطع شاردي... سيبدو أن كلّ شيء يسير، في لحظة العيون المغمضة تلك، وفي وقت واحد، إلى الأمام، وإلى الورا، وإلى الأرض التي تسند... ذلك الصقر الذي يطير مُقيّداً بالإنجذاب إلى أعماق إنعطافات نهر إقليم بيراكروث والذي سيخطّ بعدها على ثبات صخرة بارزة، وسرعان ما يشرع في الطيران الذي سيقطع، في موجات داكنة، الإصرار المتصل للنجوم... وأنت لن تحسّ بشيء... لن يبدو أن شيئاً يتحرك في الليل: ولا حتى الصقر سيقطع السكون... ولن تحسّ بالسير، والدوران، والحراك الإنهائي للكون في عينيك، وقدميك، وعنقك الهادئة جميعاً... ستأمل الأرض النائمة... الأرض كلها: الصخور والعروق المعدنية، وكُتل الجبل، وكثافة الريف المحروث، وتيار النهر، والبشر والبيوت، والحيوانات والطيور، والطبقات المجهولة للنار تحت - الأرضية، ستعارض الحركة غير القابلة للإنعكاس والتي لا يمكن وقفها لكن هذه الأشياء لن تقاومها... ستلعب بحصاة، إنتظاراً لوصل لونيرو والبغلة: ستلقيها في المنحدر كي تحقق دقيقة من الحياة الخاصة بها، السريعة، الحيوية: شمساً ضئيلة تائهة، كاليدو سكوباً سريعاً من الأضواء المزدوجة... تكاد تعادل في سرعتها سرعة الضوء الذي يتضاد معها؛ وعلى الفور، تتحول إلى حبة ضائعة عند قدم الجبل، بينما يتابع وميض النجوم سريانه من منبعه، بالسرعة الكلية وغير المحسوسة... سيتوه بصرك في تلك الهاوية الجانبية التي تدرجت فيها الحصاة... ستسند ذقنك على كفك وسيبرز منظر

وجهك الجانبى فوق خط الأفق الليلى... ستكون أنت ذلك العنصر الجديد في المشهد والذي سرعان ما سيختفى ليبحث، على الجانب الآخر من الجبل، عن المستقبل غير الأكيد لحياته... لكن الآن، هنا، ستبدأ الحياة في أن تصبح ماسياتى وستكف عن أن تكون مامضى... وستموت البراءة، ليس بفعل الذنب، بل بفعل الدهشة العاشقة... على كل هذا الإرتفاع، على كل هذا الإرتفاع، لم تكن أبداً... لم تكن قد رأيت أبداً تقاطعات اليراح... لن يعود القربُ المألوف للعالم المتصق بالنهر سوى بعد واحد لهذا الإتساع الهائل الذى لا يخطر على البال... ولن تشعر بالضالة وأنت تتأمل وتتأمل، في ذلك الإسترخاء الهادئ لعدم اليقين، حشود السحب النائية، والإنبساط المتموج للأرض، والصعود الرأسى للسماء... ستشعر إنك أفضل... منظمٌ وبعيد... لن تعرف أنك فوق أرض جديدة، بزغت من البحر خلال الساعات الأخيرة، بالكاد، لتلطم سلسلة جبال بأخرى وتتكرمش مثل رق أطبقت عليه اليدُ القوية للحقبة الثالثة... ستشعرُ أنك عال فوق الجبل، متعامد على الريف، مواز لخط الأفق... وستشعرُ أنك في الليل، في الزاوية الضائعة للشمس: في الزمن... هناك في البعيد، هل تكون تلك المجرات، مثلما تبدو للعين المجردة، واحدةً بجوار الأخرى، أم يفصل بينها زمنٌ لا يُحصى؟ سيدور كوكب آخر فوق رأسك وسيكون زمن الكوكب مطابقاً لذاته: ربما يُستفدُ الدوران الداكن والنائى في هذه اللحظة، التى هى اليومُ الوحيد للعام الوحيد، المقياسُ الزئيقى، المنفصل إلى الأبد عن أيام أعوامك... ذلك الزمن لن يكون الآن زمنك، مثلما لن يكون حاضِر النجوم التى ستعاودُ أنت تأملها، مُستشرقاً الضوء المنصرم لزمن غريب، ربما كان ميتاً... فالضوء الذى ستراه عيناك لن يكون سوى شبح الضوء الذى بدأ رحلته منذ سنواتٍ عديدةٍ، منذ قرونٍ عديدةٍ بحساب أيامك: هل ستكون تلك النجمة

ما زالت حية؟ ... ستكون حية بينما تراها عيناك ... ولن تعرف أنت إلا أنها كانت ميتة بينما تنظر إليها، إنها الليلة المستقبلية التي ينتهي فيها من الوصول إلى عينيك ذاتها - إن كان لا يزال موجوداً - الضوء الذي أنبثق فعلاً، في حاضِر النجمة، حين كانت عيناك تتأملان الضوء العتيق وتحسبان أنهما تُعمدانه بنظرتهما ... ميتٌ في منبعه ما سيكون حياً في حواسك ... ضائع، مُتكلِّس، نبُع الضوء الذي سيواصل رحلته، ولم يعد له منبعٌ، نحو عيني صبي ذات ليلة في زمن آخر ... في زمن آخر ... زمن سيمتلئ بالحياة، بالأفعال، بالأفكار، لكنه لن يكون أبداً فيضاً لا يلين بين أولى علامات الماضي وآخر علامات المستقبل ... زمن لن يوجد إلا في إعادة تركيب الذاكرة المعزولة، في تحليل الرغبة المعزولة، ويضيع فور أن تتضب فرصة الحياة، ويتجسّد في هذا الكائن الفريد الذي هو أنت، في طفل، قد أصبح عجوزاً محتضراً، يغازل في احتفال غامض، هذه الليلة، الجُشرات الصغيرة التي تتسلق صخور المنحدر والكواكب الضخمة التي تدور في صمت فوق العمق اللانهائي للفضاء ... لن يحدث شئٌ في الدقيقة الصامتة للأرض، ولقبة السماء، ولك ... ستوجد كلُّ الأشياء، ستتحرك، وستفصل، في نهر من التحولات التي، في تلك اللحظة، ستحلّها، وتجعلها تشيخ وتفسدها جميعاً، دون أن يرتفع صوتٌ تحذير ... الشمس تحترق حية، والحديد يتهاوى إلى تراب، والطاقة التي بلا هدف تترسّب في الفضاء، والكتل تستنفد نفسها في الإشعاع، والأرض تُبرّد موتاً ... وأنت ستنتظر خلاصاً وبهيمة حتى تعبر الجبل وتبدأ في الحياة، في ملء الوقت، في القيام بخطوات وحركات لعبةٍ جئازية ستقدم فيها الحياة في نفس الوقت الذي تموت فيه الحياة؛ في القيام بخطوات وحركات رقصة جنونية سيلتهم الزمن فيها الزمن ولن يستطيع أحدٌ أن يوقف، حياً، المسار الذي لا ينعكس للتلاشي ... الطفل، والأرض، والكون: ذات يوم،

لن يكون في الثلاثة لا ضوء، ولا حرارة، ولا حياة... لن يكون ثمة سوى الوحدة الكلية، المنسيّة، بلا إسم وبلا إنسان يُسمّيها: زمان ومكان ذائبين، مادةٍ وطاقة... وسيكون لكل الأشياء نفسُ الأسم... لا إسم... لكن ذلك لم يحنّ بعد... فما زال البشرُ يولدون... وما زالت ستسمع الـ... "أووو" المبطوطة للونيرو وصوت السناكب فوق الصخر... وما زال قلبك سيدق بإيقاع متسارع، واعياً في النهاية بأن المغامرة المجهولة تبدأ من اليوم، بأن العالم يفتح ويُقدّم لك زمنه... أنت موجود... أنت واقف على قدميك في الجبل... أنت تجيبُ بصفير على ترديد لونيرو... سوف تحيا... سوف تكون نقطة إلتقاء وسبب النظام الكوني... فجسّدك له سبب... وحياتك لها سبب... أنت الآن، وستكون، وكنت الكون متجسداً... من أجلك ستوقد المجرات وستشتعل الشمس... حتى تحبّ وتحيا وتكون... حتى تعثرُ على السرّ وتموت دون أن تستطيع مشاركة أحد فيه، لأنك لن تملكه إلا حين تُغمضُ عيناك إلى الأبد... أنت، على قدميك، كروث، ثلاثة عشر عاماً، على حافة الحياة... أنت، العيان خضروان، الذراعان نحيلتان، الشعر كسته الشمس بلون النحاس... أنت، صديق خلاسى منسى... أنت ستكونُ إسم الخلاسى... أنت ستسمع الـ "أووو" المبطوطة للونيرو... أنت تستلزمُ وجود كل لوحة الكون اللانهائية، التي لا قاع لها... أنت ستسمع السناكب فوق الصخر... فيك تتلامسُ النجمةُ والأرض... أنت ستسمع طلقة البندقية خلف صرخة لونيرو... وستسقط فوق رأسك، كأنها عادت من رحلة دون بداية ودون نهاية في الزمن، وعودُ الحب والوحدة، وعودُ الكراهية والجهد، وعودُ العنف والرقعة، وعودُ الصداقة وخيبة الأمل، وعودُ الزمن والنسيان، وعودُ البراءة والدهشة... أنت ستسمع صمت الليل، دون صرخة لونيرو، ودون صدى السناكب... في قلبك، المفتوح على الحياة، هذه الليلة! في قلبك المفتوح...

(١٨٨٩ : ٩ أبريل)

هو منطو على نفسه، في مركز تلك التقلصات، هو، برأسه الداكنة من الدم، مُتدلياً، معلقاً بأشدّ الخيوط رقّة: مفتوحاً على الحياة، أخيراً. أمسك لونيرو بذراعى إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، شقيقته؛ أغمض عينيه حتى لا يرى ما يجري بين ساقى شقيقته المفتوحتين. سألها، مُخفياً وجهه:

"- هل أحصيت الأيام؟" ولم تستطع هي الإجابة لأنها كانت تصرخ، تصرخ إلى الداخل، وشفتاها مضمومتين، وأسنانها مُطبقة وأحسّت أن الرأس قد ظهرت فعلاً، أنه قد جاء فعلاً بينما كان لونيرو يمسكها من كتفها، وحده لونيرو، بإناء الماء الذي يغلى فوق النار، والمطواة واللفافات الجاهزة وكان هو يخرج من بين ساقها، يخرج تدفعه تقلصات البطن، التي تزداد تتابعاً باستمرار وكان على لونيرو أن يُقلّص كتفي كروث إيسابيل، إيسابيل كروث، ويركع بين الساقين المفتوحتين، ويتلقى تلك الرأس الرطبة، السوداء، والجسد الصغير اللزج، المربوط بكروث إيسابيل، إيسابيل كروث، الجسد الصغير المنفصل أخيراً، الذي تلقّته يدا لونيرو، الآن وقد كَفَّت المرأة عن الأنين، وتنفست، أطلقت لهاثاً ثقيلاً، وجفّفت براحتيها البيضاوين عرق وجهها، وبحثت، بحثت عنه، مدّت ذراعها: قطع لونيرو الحبل السُّرى، وربط طرفه، وغسل جسده، ووجهه، وهدده، وقبّله، وأراد أن يعطيه لشقيقته لكن

إيسابيل كروث، كروث إيسابيل كانت تُنْ بتقلُّص جديد وكان الحذاء يقترب من الكوخ الذي تتمدد فيه المرأة فوق التربة اللينة، تحت سقف سعف النخيل، كان الحذاء يقترب ولونيرو يمسك بذلك الجسد ورأسه إلى أسفل، ويضربه براحته المفتوحة حتى ييكي، حتى ييكي بينما كان الحذاء يقترب: بكى: بكى هو وبدأ يحيا...

أنا لا أعرف... لا أعرف... هل هو أنا... هل كنت أنت هو... هل أنا ثلاثتنا... أنت... أنا أحملك داخلي وسوف تموت معي... يا إلهي... هو... حملته في داخلي وسوف يموت معي... ثلاثتنا... الذين تكلموا... أنا... سأحمله في داخلي وسيموت معي... وحيداً...

أنت لن تعودَ تعرف: لن تتعرَّف على قلبك المفتوح، هذه الليلة، قلبك المفتوح... يقولون "مشرط، مشرط"... أنا أسمع ذلك فعلاً، أنا من أظال أعرف حين لا تعودُ أنت تعرف، وقبل أن تعرف... أنا من كنت هو، سأكون أنت... أنا أسمع، في عمق الزجاج، خلف المرأة، في العمق،

إلى أسفل، فوقك أنت وهو... "مشرط"... يفتحونك... يكوونك...
 يفتحون جدران بطنك... تقطعها السكين الرفيعة، الباردة الدقيقة...
 يعثرون على ذلك السائل في بطنك... يقطعون تجويف حرقفتك...
 يعثرون على تلك الحزمة من الطيَّات المعوية المتهيجة، المنتفخة، المتصلة
 بالمساريقا الصلبة والمحتقنة بالدم... يعثرون على تلك الشريحة من
 الغرغرينا الدائرية... المغموسة في سائل له رائحة عفنة... يقولون،
 يكرّرون... "إحتشاء"... "إحتشاء في المساريقا"... ينظرون إلى
 أمعائك المتمددة، بلون أحمر قان، شبه أسود... يقولون...
 يكرّرون... "نبض"... "درجة حرارة"... "ثقب بالإبرة"... الأكل،
 القضم... السائل النزيفي يطفر من بطنك المفتوحة... يقولون،
 يرّدون... "لا فائدة"... "لا فائدة"... الثلاثة... ذلك التجلط ينفصل،
 سينفصل عن الدم الأسود... سيسيل، سيتوقف... توقف... صمتك...
 عيناك المفتوحتان... بلا رؤية... أصابعك المثلجة... بلا ملمس...
 أظافرك السوداء، الزرقاء... فكاك المرتعشان... أرتيميو كروث...
 إسم... "لا فائدة"... "قلب"... "تدليك"... "لا فائدة"... لن تعود
 تعرف... حملتك بداخلي وسأموثُ معك... ثلاثتا... سنموت...
 أنت... تموت... أنت مت... سأموث.

هافانا، مايو ١٩٦٠

مكسيكو، ديسمبر ١٩٦١

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت احمد درويش
الوثنية والاسلام	ل مانهو ناينكار	ت احمد فؤاد بلع
التراث المشرق	جورج حسس	ت شوقي حلال
كيف يتم كتابة السيناريو	احا كارينيكروفا	ت احمد الحضرى
ترما حى عيويه	إسماعيل هصيح	ت سجد علاء الدين منصور
انتخابات البحت اللسانى	ميلكا اميتس	ت سعد مصلوح / وهاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غرلانس	ت يوسف الانطكى
شعطر الحرائق	ماكس هريش	ت مصطفى ماهر
التغيرات النفسية	اندرو س جودس	ت محمود محمد عاشور
حطاب الحكاية	جيرار حنيت	ت محمد سقتموعد الطيل الذى وعبر حلى
مختارات	هيسواما شيمورييسكا	ت هاء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براويستون وايرس هرايد	ت احمد محمود
نبأه الساميين	روبرتس سميت	ت عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والادب	جان بيلسان بويل	ت حسن المولى
الحركات الفنية	إيوارد لويس سميت	ت أنثرف ريفيق عفيفى
انتية السوداء	مارتن بربال	ت لطفي عبد الوهاب / طارق القاصى / حسين الشيح / سيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيلب لاركين	ت محمد مصطفى بنوى
التعز السلى فى امريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعب شاهين
الاعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت نعيم عطية
قصة العلم	ج كراوتر	ت مسمى طريف الحولى / بنوى عبد الفتاح
حوجه والى حوجة	صند نهريهى	ت ماجدة العنابى
مذكرات رحاله عن المصريين	جون اميتس	ت سند احمد على الناصرى
نحلى الحميل	هانر جيورج جاداسر	ت سعيد توفيق
طلال المستقل	ناتريك ناريدر	ت بكر عباس
مشوى	سولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم النسوتى شتا
دس مصر العام	محمد حسنى فيكل	ت احمد محمد حسين فيكل
التنوع البشرى الحلق	مقالات	ت بحة
رساله فى التسامح	جون لوك	ت مسمى انوسه
الموت والوجود	جيمس ب كارس	ت مدر الدين
الوثنية والاسلام (ط)	ل مانهو ناينكار	ت احمد فؤاد بلع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاحيه - كلود كاين	ت عد البستار الطوحى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا العربية	ا ح هوبكر	ت احمد فؤاد بلع
الرواية العربية	روجر ان	ت د حصة إبراهيم المشيف

الاسطورة والحداثة	بول ب. نيكسون	ت خليل كلفت
بطربات السرد الحديثة	والاس ماريس	ت حياة حاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	مروحيث شعهر	ت جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	الآن تورين	ت انور معيث
الإعريق والحسد	ميتر والكوت	ت منيرة كروان
قصائد حب	ان سكستون	ت محمد عبد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيير حراس	ب عطف أحمد / إبراهيم يحيى / محمود ملحد
عالم ماك	سجامين نارير	ت أحمد محمود
اللاه المربوح	اوكتافيو بات	ت المهدي احريف
بعد عدة أصياف	الدوس هكسلى	ت مارلى تادرس
التراث المندور	روبرت ح نيبا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	مانلو سوردوا	ت محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	ريبيه ويليك	ت محاهد عبد المنعم محاهد
حصارة مصر الفرعونية	هراسوا دوما	ت ماهر حويحاتى
الإسلام فى اللقائ	ه ت دوريس	ت عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة او القول الاسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعفتى لليليد يوسف الشكلى
مسار الرواية الانسابو أمريكية	داريو بيانويونا روج م متياليستى	ت محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	ميتر ن موفاليس وستشمس ح	ت لطفي عطيم وعادل نمرdash
الدراما والتعليم	روخسيغيتز وروجر ميل	
المفهوم الاعريقى للمسرح	أ ف ، الختور	ت مرسى سعد الدين
ما وراء العلم	ج مايكل والتون	ت محسن مصيلحي
الاعمال الشعرية الكاملة (١)	چور بولكنجهوم	ت على يوسف على
الاعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو عرسية لوركا	ت محمود على مكى
مسرحتنا	فديريكو عرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر الطوطى
المحرة	فديريكو عرسية لوركا	ت محمد ابو العطا
التصميم والشكل	كارلوس موبيت	ت السيد السيد سهيم
موسوعة علم الانسان	خوفانر ايبيس	ت صبرى محمد عبد العلى
لذة النص	شارلوت سيمور - سميث	ت مراعاة وإشراف محمد الجوهري
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رولان بارت	ت محمد خير النقاى
برتراند راسل (سيرة حياة)	ريبيه ويليك	ت محاهد عبد المنعم محاهد
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	الان وود	ت رمسيس عوض
حمس مسرحيات أندلسية	متراند راسل	ت رمسيس عوض
مختارات	أنطونيو حالا	ت عبد الطيف عبد الطيم
نتاشا العجور وقصص اخرى	هرناندو بيسوا	ت المهدي احريف
العلم الإسلامى فى أول القرن العشرين	فالنتين راسموتين	ت اشرف الصباغ
ثقافة وحصارة أمريكا اللاتينية	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد هؤاد متولى وهويدا محمد هيمى
	لوجينيو تشافز رودريحت	ت عبد الحميد غلاب واحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا الرمي	داريو هو	ت حسي محمود
السياسي العجوز	ت س إليوت	ت عواد مطي
مقد استحاتة القارئ	جيم ب تومينكر	ت حس ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والممالك في مصر	ل ا سيميندوفا	ت حسي بيومي
من التراحم والسير الذاتية	اندريه موروا	ت احمد درويش
جال لاكل وإعواء التطيل الفسي	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبي الحديث ٢	ريبنه ويليك	ت سجاد عبد المدح محاهد
العولة النظرية الاجتماعية والثقافة الكمية	روبالد روبرتسون	ت احمد محمود وبورا أمي
شعرية التأليف	بوريس اوسنسكي	ت سعيد العاصي وباصر جلاوي
بوشكين عبد مافورة الدموع	ألكسندر بوشكين	ت مكريم العمري
الجماعات التحلية	سندكت اندرس	ت محمد طارق الشرقاوي
مسرح محيل	مichel دي اوباموبو	ت محمود السيد على
مختارات	عوفريد بن	ت خالد المالحى
موسوعة الالب والقند	مجموعة من الكتاب	ت عبد الصمد شيحة
مصور الخلاج (مسرحة)	صلاح ركي اقطاي	ت عبد الرارق بركات
طول الليل	جمال مير صادق	ت احمد فتحي يوسف شتا
بور والقلم	خلال ال احمد	ت ماحدة العاصي
الانلاء بالعرب	خلال ال احمد	ت إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	اسنوي حنبر	ت احمد رايد وسحمد محيي الدين
وهم السيف	محل دي ترناس	ت سحمد إبراهيم منبول
المسرح والتخريب بين النظرية والتطبيق	ناربر الاسوستكا	ت محمد هياء عبد الفتاح
اساليب ومصالح المسرح	كارلوس محل	ت نادية جمال الدين
الاسانوا أمريكي المعاصر	مايل فيدرسون وسكوب لاث	ت عبد الوهاب علوب
محدثات العولة	صمويل بيكيب	ت هورية العشماوي
الحب الاول والصحة	أنطونيو بويرو نايجو	ت سري محمد محمد عبد اللطيف
مخاربات من المسرح الاساسي	قصص محاربة	ت إيوار الحراط
تلات رنقات ووردة	فران برودل	ت بشير الساعى
هوية هربسا	بمادح مقالات	ت أسرف الصناع
الهم الانسانى والاندوار الصهيونى	زيغند رويسون	ت إبراهيم فنديل
تاريخ السيعا العالمية	بول هيرسب وحرامام بوميسون	ت إبراهيم فحي
مساهله العولة	بيرنار فاليط	ت رشيد سحنو
البص الروائى (تقنيات ومناهج)	عبد الكريم الخطيبى	ت عر الدين الكتاسى الإنديسى
السياسة والتسامح	عبد الوهاب الموب	ت محمد عيس
قنر ابن عربى بليه اياه	برتوالب بريش	ت عبد الغفار مكاوى
اوربا ماهوحنى	چيرارچيسب	ت عبد العزيز شميل
مدخل إلى البص العام	د ماريا جيسوس رويسرامتى	ت د أشرف على دكتور
الأنب الانبلىسى		

صورة الفنان في الشعر العربي المعاصر	حصة	ب محمد عبد الله الحبيدي
ثلاث دراسات عن الشعر النبطي	مجموعة من النقاد	ت محمود علي مكي
حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت هاشم احمد محمد
النساء في العالم النامي	حسنة بيحوم	ت منى قطان
المرأة والحريمة	فرانسيس هندسون	ت ريهام حسن إبراهيم
الاحتجاج الهادي	ارلي علوي ماكنتود	ت إكرام يوسف
رأية التمرد	سادى پلايت	ت احمد حسام
سرحينا حمار كويحي وسكان المستنق	وول شوينكا	ت بسيم محلي
عرفة تحصى المرء وحده	فرجينيا وولف	ت سميرة رصاص
امراة مختلفة (ندية شفيق)	سينتيا دلسون	ت بهاد احمد سالم
المرأة والحريمة في الاسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وفالة كمال
البهجة السانية في مصر	دث نارون	ت لميس النقاش
النساء والاسرة وقوانين الطلاق	اميرة الارزهرى سنيل	ت باسراف/ روفو عباس
الحركة السانية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أنو لعد	ب حصة من المترجمين
الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الصدي ، وإيراني كمال
نظام العبودية القديم وبمودة الإنسان	جوريج فوخت	ت ميرة كراوس
الامبراطورية العثمانية وعلاقتها بالولاية	بيل الكسندر وميادوليا	ت انور محمد إبراهيم
الفرح الكاتب	جون حراي	ت احمد فواد ملحم
التحليل الموسيقي	سيدريك ثورب ديقي	ت سمحة الحولي
عمل القراءة	قولقامج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحي	ت بشير السباعي
الانث المقارب	سوران باسيت	ت أميرة حسن بويرة
الرواية الانسانية المعاصرة	ماريا دولوريس اسيس حاروت	ت محمد ابو العطا واخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوند فراند	ت شوقي حلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بنظر
ثقافة العولمة	مايك هيرستون	ت عبد الوهاب علوب
الخوف من الرايا	طارق علي	ت طلعت الشايب
تشريح حصار	باري ج كيم	ت احمد محمود
للخار من بدت من اليب (ثلاثة نساء)	ت س إليوت	ت ماهر شفيق فريد
فلاحو الناشا	كيبث كويو	ت سحر توفيق
مذكرات صابط في الحملة العربية	جوريج ماري مواريه	ت كاميليا صهي
عالم التليفزيون بين الخيال والصف	إيقليا تارويي	ت وحيه سعاد عبد المسيح
الطرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	عاطف فصول	ت اسامة إيسر
حيث تلقى الانهار	هربرت ميس	ت امل الحوري
انتنا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
الاسكندرية - تاريخ وبلبل	ا م هورسدر	ت حسن بيومي



LA MUERTE DE ARTEMIO CRUZ

تحتلُّ هذه الرواية مكانةً بارزةً إنتاج فوينتس الغزير والمتنوع. فقد كانت حجر الزاوية في صرح الشهرة العالمية التي نالها عن جدارة كواحد من أهم أقطاب كوكبة تجديد الكتابة الأمريكية اللاتينية في الستينيات. وقد توجت هذه الشهرة بحصوله على جائزة ثريانتس - نوبل الآداب المكتوبة بالإسبانية - عام ١٩٨٧.

والرواية هي حوار مرابا، يديره فوينتس ببراعة تثير الإعجاب، بين جوانب شخصية تحتضر يتجسّد فيها كل تاريخ المكسيك الحديث. نحن هنا أمام بنية سردية محكمة وغير مسبوقة تطرح طموحاً بعيد المدى وتجريبيةً جسورة وإعادة إبتكار عميقة للغة وبذلك تكشف عن أبرز سمات مؤلفها؛ ولعه الذي يقارب الهوس بتاريخ المكسيك، الحاضر حضوراً طاغياً في كل كتاباته؛ وبراعته التقنية الهائلة التي تمنح هذه الرواية مذاقاً شديداً التفرد بين كل إبداع معاصريه.

Bibliotheca Alexandrina



0204334